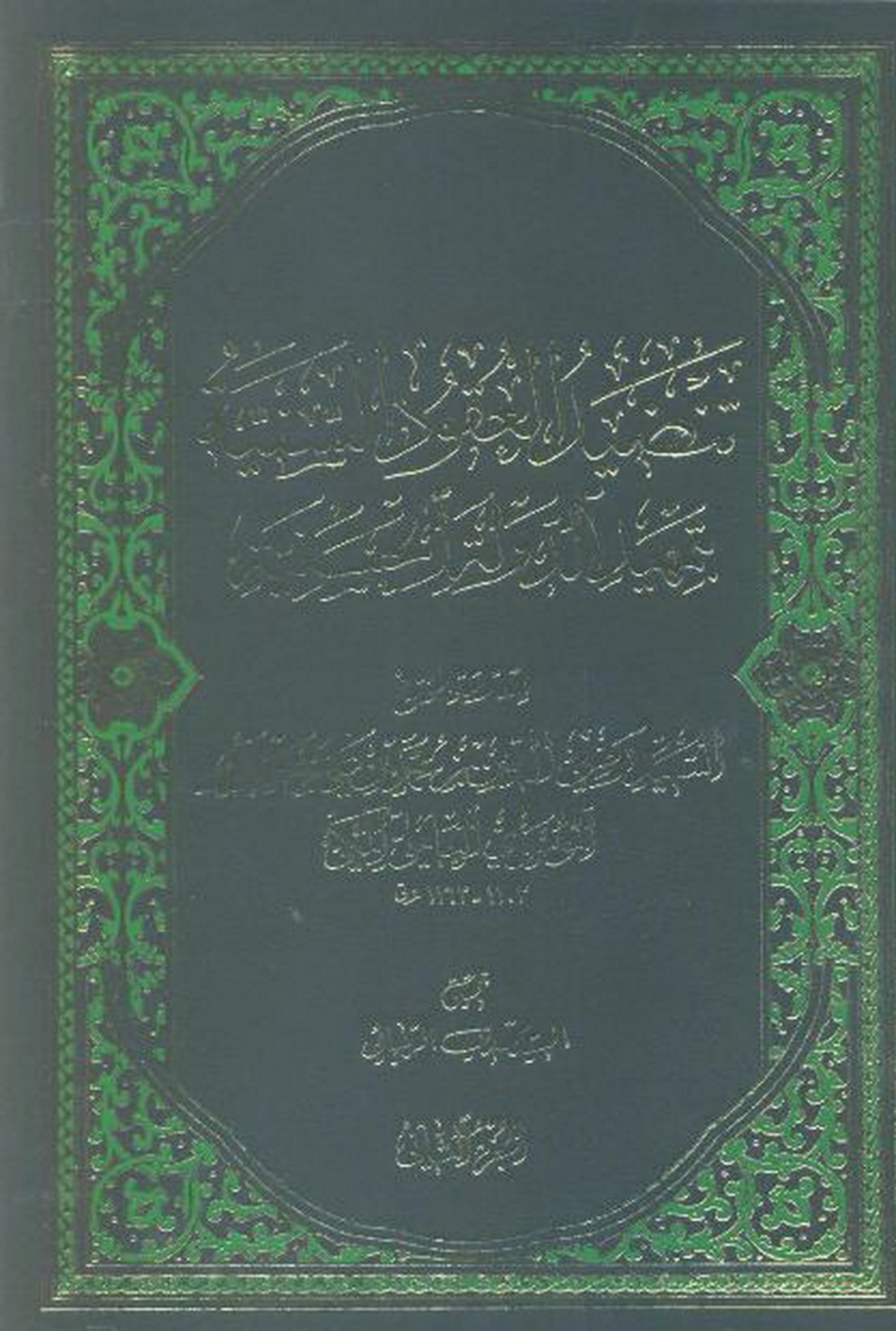




تنضيد العقود السنية
بتمهيد الدولة الحسنية

للعلامة المؤرخ

السيد رضي الدين بن محمد بن علي بن حيدر

الموسوي العاملي المكي

١١٠٣ - ١١٦٣ هـ ق

تحقيق

السيد مهدي الرجائي

الجزء الثاني

موسوي عاملي ، رضي‌الدين بن محمّد ، ۱۱۰۳ ـ ۱۱٦۳ ق.
تنضيد العقود السنية بتمهيد الدولة الحسنية / للسيّد رضي الدين بن محمد بن علي بن حيدر الموسوي العاملي المكي ؛ تحقيق السيّد مهدي الرجائي . — قم: معهد الدراسات لتحقيق انساب الاشراف ، نشر الانساب ، ۱٤۳۱ق. = ۱۳۸۸ش.
۲ ج. : نمونه
ISBN: 978 – 600 – 90140 – 8 – 8
ISBN: 978 – 600 – 90140 – 6 - 4
ISBN: 978 – 600 – 90140 – 7 - 1
فهرست نويسى بر اساس اطلاعات فيپا.
كتابنامه به صورت زيرنويس.
۱.مكه — تاريخ . ۲. مكه — سرگذشتنامه. ۳. سادات — مكه — سرگذشتنامه. الف. رجايي ، سيّدمهدي، ۱۳۳٦ش.— ...، محقق. ب. معهد الدراسات لتحقيق انساب الاشراف. ج. عنوان.
۸م ۷م/ DS ۲۴۸ ۹۳۹/۴۹



الكتاب : تنضيد العقود السنية ج ۲
المؤلف : السيّد رضي‌الدين الموسوي العاملي
المحقق : العلامة السيّد مهدي الرجائي
الناشر : نشر الأنساب التابعة لمعهد الدراسات لتحقيق أنساب الأشرف
الطبعة : الاولى سنة ۱٤۳۱هـ . ق — ۱۳۸۸ش
ليتوغرافي : تيزهوش — قم
المطبعة : ستاره — قم
عدد : ۱۰۰۰ نسخة
شابك الدورة : (۸-۸-۰٤۱۰۹-٦۰۰-۹۷۸)
شابك المجلد ۲ : (۱-۷-۰٤۱۰۹-٦۰۰-۹۷۸)
مركز النشر : ايران — قم — شارع صفائية — زقاق رقم ۲۵ — كوچه قائمي پلاك ۳٦
معهد الدراسات لتحقيق أنساب الأشراف
رقم التليفون : ۷۷۳۲۰٦۷

بسم الله الرحمٰن الرحيم

ترجمة السيّد الشريف محسن بن حسين بن زيد بن محسن بن حسين بن حسن بن أبي‌نمي صاحب مكّة المشرّفة

كان جلوسه في منصب ولاية مكّة المشرّفة ليلة الثلاثاء لثمانٍ بقين من شهر رجب من سنة إحدىٰ ومائة وألف بعد الشريف أحمد بن غالب.

وسبب ذلك: نفور بعض الساة الأشراف عن الشريف أحمد، وانحرافهم عنه إلىٰ هذا السيّد الأمجد، وانقلاب محمّد باشا صاحب جدّة عن تلك المحبّة السابقة والمودّة، فشرعت دواعي الفساد والاختلاف، من بعد خروج الشرذمة من السادة الأشراف، وعظمت الشدّة، وزاد البلاء بوقوع القحط والغلاء.

ثمّ انفصل هؤلاء السادة، بحضرة صاحب السعادة، فوضع يده معهم في القضيّة، وأعمل فيها مواضي آرائه الوضيئة، وخرج معهم للقتال بجميع من معه من الخيل والرجال، وقصدوا مكّة، ونزلو بالزاهر، وبذلوا الهمّة بالاجتهاد[1]، إلىٰ أن عزل الشريف أحمد بحكم الملك القاهر، فدخلوا البلاد، وسكّنوا نيران الفتنة والفساد.

ثمّ استمرّ الشريف محسن ناهضاً بأعباء الشرافة، عاقداً ألوية الخلافة، إلىٰ أوائل شهر محرّم الحرام افتتاح سنة ثلاث ومائة وألف، فكانت مدّة دولته هذه سنة

(١) في «ن»: والاجتهاد.

وخمسة أشهر إلاّ ثمانية أيّام، أخرجه منها الشريف سعيد بن الشريف سعد، كما سيأتي في ترجمته الشريفة .

فصل
في الحوادث الواقعة في دولة هذا الشريف

ففي هذه السنة: بعد استقلال الشريف محسن بالشرافة، نقلت سدانة البيت الشريف، وانتزاع المفتاح السامي المنيف، من الشيخ الجليل الشيخ عبدالواحد بن محمّد الشيبي إلىٰ أخيه الشيخ عبدالله بن محمّد الشيبي، لأمر كان في نفس الشريف على الشيخ عبدالواحد، فأقدم علىٰ ذلك غير منكر ولا جاحد؛ لأنّ هذا خلاف عادتهم وعادة أسلافهم الكرام، القاطنين ببلد الله الحرام، من عهد الجاهليّة وبعد الإسلام، فهي في الأكبر منهم فالأكبر، وعلىٰ هذا استمرّ منصبهم الأشرف الأفخر .

وكان هذا الشيخ عبدالواحد المنتزع منه المفتاح قسراً أكبر من أخيه الشيخ عبدالله سنّاً وقدراً، فكان هذا أوّل خرق صار في عاداتهم المعروفة، وقوانينهم المألوفة .

ثمّ بعد مدّة من ذلك طلب الشيخ عبدالواحد المذكور أن يكون المنصب لابنه الشيخ عبدالمعطي، فأُجيب واستمرّ بها إلىٰ أن دعي، فكان أسرع مجيب، وذلك في سنة عشر، فطلب الشيخ عبدالواحد ثانياً أن يكون المنصب في ابن ابنه الشيخ محمّد بن الشيخ عبدالمعطي، فسمع كلامه، وارتفع صيت محمّد هذا، وعظم بمكّة المشرّفة مقامه، حتّىٰ صار أوحد زمانه، وفريد أقرانه، واستمرّت سدانته، وشكرت بين أهالي مكّة ووزّادها أمانته وديانته .

وكان ذا رئاسة باهرة، وأخلاق كالرياض الزاهرة، وكرم عامّ، شمل به الخاصّ

والعامّ، ولم يزل بمنصبه ورئاسته قرير عين، إلىٰ أن توفّي فصار خبراً بعد عين، وسيأتي ذكر وفاته علىٰ محلّها، وسنذكر عند وفاة الشيخ محمّد هذا بيان أمر السدانة، وما ورد فيها في فصل لطيف إن شاء الله تعالىٰ[١].

وفاة الشيخ محمّد الشرنبلالي :

وفي سنة ثنتين ومائة: توفّي الشيخ الجليل العلاّمة النبيل الفهّامة، الشيخ محمّد ابن أحمد الشهير بالشرنبلالي الشافعي بمكّة المشرّفة، بعد مجاورة له بها، ودفن بتربة السادة لآل باعلوي، وكان معاصراً للشيخ المعظّم الشيخ أحمد الشبشيبي .

تولية السلطان مصطفىٰ خان :

وفي هذه السنة: أجمع العساكر بإسلامبول[٢] علىٰ خلع السلطان سليمان، وتولية السلطان مصطفى بن محمّد خان، وذلك عقيب[٣] سفر وزيره المعظّم مصطفىٰ باشا الكبرلي إلىٰ بعض بلدان الكفّار، فلمّا بلغه الخبر عاد ببعض أجناده، وأباد أهل الفتنة، ورؤوس المعاندين، وأعاد السلطان سليمان إلى التخت[٤].

حصول طاعون عظيم ببغداد :

وفي هذه السنة: صار ببغداد طاعون عظيم، أهلك أُمّة من المسلمين، ثمّ انتقل إلى البصرة وعمل مثل ذلك، إلىٰ أذن الله بانصرافه، وهذا الطاعون لم يعهد مثله من زمن الطاعون الجارف؛ لأنّه أخلى البصرة، وأخربها خراباً لم يعمر إلىٰ زمننا هذا .

---

(١) راجع: إتحاف فضلاء الزمن بتاريخ ولاية بني الحسن للطبري ٢: ١٥٩ .

(٢) في «ن»: بإصطنبول .

(٣) في «ن»: عقب .

(٤) راجع: إتحاف فضلاء الزمن بتاريخ ولاية بني الحسن للطبري ٢: ١٦٠ .

وصول الشريف يحيى بن بركات إلىٰ مكّة :

وفي هذه السنة: وصل إلىٰ مكّة المشرّفة الشريف يحيى بن بركات بن محمّد أميراً على الحاجّ الشامي، ورد إلىٰ مكّة بالمحمل السلطاني، وهو في غاية الانتظام، وهو أوّل حسني تولّىٰ إمارة الحاجّ الشامي من هذه السلسلة الشريفة، ولم يصر بعده أيضاً لأحد منهم إلىٰ وقتنا هذا.

وفاة السلطان سليمان خان :

وفي آخر هذه السنة: توفّي السلطان الأعظم، والخاقان المكرّم، السلطان سليمان خان ابن السلطان إبراهيم خان، وصل خبره إلىٰ مكّة المشرّفة في يوم النحر من آخر السنة المذكورة، وجلس بعده في منصب السلطنة السلطان مصطفىٰ خان ابن السلطان محمّد خان(١).

تغلّب الشريف سعيد على الشريف محسن :

وفي أوائل شهر محرّم الحرام من سنة ثلاث ومائة وألف: تغلّب السيّد الشريف سعيد بن الشريف سعد على الشريف محسن بن حسين صاحب مكّة المشرّفة وأخرجه منها، كما سيأتي، ونودي باسمه.

وأمّا المدينة المنوّرة، فبقي فيها اسم الشريف محسن المذكور يدعىٰ له بها، ولم ينفذ بها أمر للشريف سعيد، ولم يرتفع اسمه فيها إلاّ بعد أن وصل خبر شرافة الشريف سعد بن زيد(٢).

وهذا آخر ترجمة الشريف محسن بن حسين المذكور، توفّي بالمدينة المنوّرة

---

(١) راجع: إتحاف فضلاء الزمن للطبري ٢: ١٦١.

(٢) راجع: إتحاف فضلاء الزمن للطبري ٢: ١٦١ ـ ١٦٢.

سنة ...[١].

ترجمة السيّد الشريف عبدالله بن هاشم بن عبدالمطّلب ابن حسن بن أبي نمي صاحب مكّة المشرّفة

قد تقدّم في ترجمة الشريف سعد في كيفيّة عزله عن ولايته الثانية بوصول إسماعيل باشا أمير الحاجّ الشامي، ومحمّد باشا صاحب بندر جدّة، صحبته أميراً علىٰ جيش جهّزته الدولة العثمانيّة لعزل الشريف سعد، وتولية الشريف عبدالله بن هاشم صاحب الترجمة.

وكيفيّة شرافته: وهو أنّ محمّدباشا المذكور كان قبل ذلك متولّياً بندر جدّة المعمورة، فصارت بينه وبين الشريف سعد بن زيد أُمور متعدّدة من نوع المكر والكيد، فأسرّها يوسف في نفسه، ومجازاته قبل مواساته برمسه[٢].

تجازى الرجال بأفعالها فخيراً بخيرٍ وشرّاً بشرّ

فاتّفق أن عزل عن منصبه وسار، وتوجّه تلقاء الأبواب السلطانيّة وتلك الأقطار، فلمّا تشرّف بلثم أعتابها، وخالط أعاظم وزرائها وكتّابها، شرع يبرم حبال المفاسد، وأعانه علىٰ ذلك كلّ عدوّ وحاسد.

لا كانت العدا إذا وجد وا خرقاً أحبّوا اتّساعه

وناهيك بعداوة الجار، فهو أدرىٰ بجميع المضارّ، فأوغل في شعاب السعاية، وقطع أصحاب الصحبة السابقة والرعاية، وجعل قذف سعدٍ ضرائب مواضيه،

---

(١) بياض في النسختين، وبعد لم أعثر علىٰ تاريخ وفاته، وراجع: خلاصة الكلام في بيان أُمراء البلد الحرام للسيد أحمد بن زيني دحلان ص ١١٤.

(٢) في «ن»: في رمسه.

وسوّد الصحف بمساويه، وقبائح مواضيه، ولم يزل يكدّر عليه الخواطر، ويشنّ الغوائر، حتّىٰ استمال السلطنة إلىٰ مرامه، ففوّضت الأُمور إلىٰ رأيه في تدبير هذا الحال وإحكامه.

فاقتضىٰ رأيه الأسدّ الحازم، بروز المراسيم السلطانيّة بشرافة السيّد عبدالله بن هاشم، وأمّر هو أيضاً بالعود ثانياً إلىٰ أقطار الحجاز، وجهّزوا معه من العساكر السلطانيّة ما يفي بالمرام، وينحي الشريف سعد عن إمارة بلد الله الحرام، مع معاونة إسماعيل باشا أمير الحاجّ الشامي له، ليبلغ بمعاضدته مقصده وأمله.

إذا الحمل الثقيل توازعته ... أكفّ القوم هان على الرجال

فورد مكّة المشرّفة معاً، وطنّبا خيامهما بالزاهر، وأراد أن يبرزا ما في أنفسهما إلى الظاهر، فمنعهما عن ذلك الخوف على الحجوج، فسلّما الخلعة إلىٰ سعد، وبقي أمرهما مرجوج(١). ثمّ لمّا كان اليوم الثاني رفضا أسباب التأخير والتواني، وعزما علىٰ إظهار الأمر، وإذاعته بين زيد وعمرو.

إذا لم يكن إلاّ الأسنّة مركب ... فما للفتى المضطرّ إلاّ ركوبها

وذلك بعد أن ولجا مكّة، ونزلا بأعاليها، وأنعما بالخيل والعسكر(٢) واديها، بعثا إلى الشريف عبدالله بن هاشم، وأفاضا عليه خلعة الشرافة علىٰ سنن الشرفاء الأعاظم، ثمّ توجّها معه بالعساكر المنصورة، والرايات المنشورة.

فلمّا بلغ الشريف سعداً ما صار، تأهّب للمقاتلة والحصار، وفرّق البادية والعساكر في الدور الشاهقة والمنائر، وسدّد سهم رأيه الثاقب النافذ، في تحصين

---

(١) في «ن»: مرجوح.

(٢) في «ن»: والعساكر.

جميع الطرقات والمنافذ. فنشأت بينهم الحرب، وكثر الطعن والضرب، وهلك من الفريقين جمّ غفير، وجمع كبير .

ولم يبق إلاّ من حماها من الظبا لمن شفتيها والثدي النواهد

ثمّ في أثناء ذلك ذهب جانب من الحاجّ بأيدي الأعراب، خصوصاً ما كان منه مفرّقاً في ملاوي الشعاب، فقد غدا كقرع السحاب، واستمرّ هذا البلاء والويل، إلىٰ ذهاب جانب من الليل، ثمّ ترك سعد البلاد وظعن، وتوجّه تلقاء اليمن، وجلت دوره التي كانت منتجع الوفود ومنبع الكرم، وخوت علىٰ عروشها بعد أن كادت تغصّ بالاُمم .

قصورٌ خلت عن ساكنيها فما بها سوى البوم تمسي حول واقعة الرما

كأن لم يكن فيها أنيسٌ ولا التقىٰ بها الوفد جمعاً والخميس عرمرما

ولمّا أسفر من ليلة ثمان العاطش، وضاءت كوكب ليلها الدامس، عن انجلاء تلك الهزاهز السود، بتجرّع كؤوس الصبر المحمود .

إنّ الأمور إذا انسدّت مسالكها فالصبر يفتح منها كلّما ارتبجا

لا تيأسنّ وإن طالت مطالبه إذا استعنت بصبرٍ أن ترىٰ فرجا

أخلق بذي الصبر أن يحظي بحاجته ومدمن القرع للأبواب أن يلجا

فأصبح حضرة الشريف عبدالله بن هاشم مفتر المباسم، والدهر ضاحك لامرته وباسم، لا يعلق به كدر، ولا تتشوّش له فكر، قد ثني الوسادة، وافتقد مفرق الشرافة والسيادة، فأمر ونهىٰ، وخدمه العارفون من ذوي النهىٰ، وأضحى الملك واقفاً علىٰ بابه، لائذاً بشريف جنابه، فأطّد مبانيه، وشيّد معانيه، وشمل جيران بيت الله الحرام بجميل الرأفة وجزيل الإنعام، وسلك أحسن مسلك مع رفاقته، مع قصر مدّة شرافته، عاملهم بالصدق والإجلال، والوفاء في جميع الأحوال .

واستمرّ علىٰ هذه الحالة، وهو في غاية العزّة والجلالة، إلىٰ سبعٍ مضين من شهر ربيع الثاني من سنة ستّ ومائة وألف، فكانت مدّة دولته أربعة أشهر من غير زيادة ولا نقصان.

ثمّ بعد عزله توجّه إلىٰ مصر وأقام بها، ثمّ رحل إلى الديار الروميّة، واتّصل بأعتاب الدولة العليّة، وتوفّي بالروم في سنة ثلاث عشرة ومائة وألف[1].

وأعقب من الأولاد: السيّد الشريف الأصلح الأتقى النجيب، الفاضل الأديب، السيّد أحمد بن الشريف عبدالله المذكور، اشتغل بطلب الفضائل، وبرع في فقه الزيديّة، وسلك مسلك العلماء الصالحين، وفّقه الله تعالىٰ لخيري الدارين، إنّه قريب مجيب.

ترجمة السيّد الشريف سعيد بن سعد بن زيد بن محسن بن حسين بن حسن بن أبي نمي صاحب مكّة المشرّفة

كان هذا السيّد الشريف، والأيّد في اقتناء المجد المنيف، ذا عزمة علويّة، وهمّة تزاحم الأفلاك العلويّة، وبأس وشجاعة، أناف بهما حصون ملكه وقلاعه، مع صبر علىٰ توالي الخطوب، وإقدام به أسنىٰ مطلوب.

ولي مكّة مراراً عديدة، ولم يقم فيها مدّة مديدة، بل كانت ولاياته متفرّقة كقرع السحاب، تارة بأوامر السلطنة العثمانيّة، وتارة بمعاونة البادية والأعراب، يهجم علىٰ مكّة في كلّ سنة مرّة، ويتجرّع من كؤوس الحرب حلوه ومرّه، فسنة يخطىء وسنة يصيب، حتّىٰ نال بذلك في آخر عمره من ملك مكّة أوفر نصيب، فاختطفته يد الهلكة من سرير الملك، فكم من ملك دقّت له الطبول، ونشرت له العلامات،

---

(١) راجع: خلاصة الكلام ص ١٢١ ـ ١٢٢.

فلمّا علىٰ مات .

وأمّا دولته الأخيرة، فقد ورد فيها من منهل العزّ صافيه ونميره، وطالت مدد ملكه، وعظم مدده، وكثر عدد جنده، وتوفّرت عدده، فجنّد الجنود، وحشد العساكر، وغدا كلّ حامد لنواله وشاكره، إلاّ أنّه غضّ بصره عن السادة الأشراف، لم يمدّهم من فضله بإسعاف، فكان ذلك سبباً لاضطراب دولته، إذ لم يزل معتمداً علىٰ عظيم صولته، فتفرّقت[1] السادة الأشراف في أطراف البلاد، لقطع سبل قصّاده ووفّاده، نكاية له يبلغ كلّ منهم بها أمله .

وكان أيضاً ممّن لا يعتمد إلاّ علىٰ جنوده، إذا خفقت في الحرب رايات بنوده، ويعوّل عليهم دون غيرهم الاعتماد، وبهم يحصل السداد، ولم يزل مشتغلاً بترقّي عبيده في المناصب، رافعاً لهم علىٰ أعلى المراتب، فاستقلّوا بها، وترقّوا بسببها.

وأمّا ما عداهم من الأحرار الذين عليهم في غير دولته المدار، فهم لديه في غاية البوار، مع أنّهم من أعاظم ذوي الأقدار، وكنت دائماً إذا سمعت هذا المقال، أنشدت بيتين معناهما طابق مقتضى الحال :

أرى الناس محسوداً بهم غير أنّهم ... على الأرض لم يثبت عليهم صعيدها
وما الحتف أن تلقي أسافل قريةٍ ... أعاليها بل أن تعود عبيدها

فلله درّ ناظمهما كأنّما شاهد هذه القضيّة، فأبرزها في هذا القالب مخترع أفكاره الوضيئة، ثمّ لم يكن قصده من جميع ذلك إلاّ الحزم السالك به في أضلّ المسالك، وهو أنّ كثرة العطاء والامداد، لرفاقته السادة الأمجاد، ممّا يقوي شوكتهم، ويعظم

---

(١) من أوّل قوله «فتفرّقت» إلىٰ أوّل ترجمة السيّد الشريف عبدالمحسن بن أحمد بن زيد ... ساقطة من نسخة «ن» وما أوردناها هنا فهي من نسخة «د» فقط .

صولتهم، ويسعفهم علىٰ مقاومته، ويعينهم علىٰ مصادمته، فلم يزل يقلّل نوالهم، ويفلّ أقوالهم، ويحطّ أقدارهم، ويحقّر كبارهم، ظنّاً منه بأن سيرموا بالقلّة، وتستولي عليهم الذلّة.

وأخبرني بعض من أعتمد عليه، وأستند في نقل الأخبار إليه، أنّه خطر يوماً من الأيّام بباله، إضافة إلىٰ ما صنعه من سيّيء أفعاله، أن تردّد أرباب المناصب وغيرهم من الرعايا عليهم، ممّا يجلب بعض النفع إليهم.

فاتّفق أن كان يوماً عند وزيره، لضبط أحواله وأموره، وحضر بذلك النادي جميع خدّامه الكرام، ومن يعتمد عليه من العلماء الأعلام، في الحلّ والإبرام، وأفراد من أهل الثروة الدنيويّة، المعروفين لدىٰ حضرته العليّة.

فالتفت إليهم، وهو مظهر لشديد التعب عليهم، وقال: إنّ من تردّد من وزرائنا وحكّامنا وعلمائنا وخدّامنا وجميع رعايانا إلاّ من لا يعتمد عليه، ويرجع في بعض الأمور إليه على الأشراف، فلا يلومنّ إلاّ نفسه، إن حصل له من طرفنا خلاف.

كلّ ذلك كان في أواخر دولته، التي انتقل فيها إلىٰ فسيح جنّته، إلاّ أنّه كان ذا حظّ وافر، وسعد لم يزل به علىٰ أعدائه ظافر، وبُلهنية[1] من الأموال، وكثرة من الخدم والرجال، فساعده القضاء علىٰ مراده، وبلّغه من الإقبال ما تسنّم به قحم أضداده، مع شجاعة وإقدام، نال بهما أسنىٰ مرام.

وإذ قد ذكرنا جملاً من صفاته الفاخرة، وتلونا عليك من أنبائه آيات باهرة، فسنذكر لك مفرقات ولاياته على الترتيب الواقع، فلكلّ شيء محال ومواقع:

---

(١) يقال: هو في بلهنية من العيش: أي: سعةٍ ورفاهيةٍ ـ الصحاح.

الولاية الأولىٰ

بعد وفاة عمّه الشريف أحمد بن زيد المتقدّم ذكره، وكان ذلك يوم الخميس الثاني والعشرين من جمادي الأُولىٰ سنة ألف وتسعة وتسعين، واستمرّ فيها إلىٰ ليلة الجمعة ثاني شوّال من السنة المذكورة، وكانت مدّة دولته هذه أربعة أشهر وعشرة أيّام، يجمعها قولك «كلّ له مدىٰ» قاله العصامي [١].

ويعترض بأنّ مدىٰ كفتىٰ الذي بمعنى الغاية يائي، فلا يكتب بالألف، كما هو مصرّح به في كتب اللغة، فليعلم ذلك. وقد نقل لهذه الولاية تفصيلاً طويلاً، فراجعه ثمّة [٢]، وأخرجه منها الشريف أحمد بن غالب المتقدّم ذكره.

الولاية الثانية

هي التي أخرج فيها الشريف محسن بن حسين المتقدّم ذكره، وذلك ليلة السبت لستّ خلون من شهر محرّم الحرام سنة ألف ومائة وثلاث، واستمرّ فيها إلىٰ يوم الاثنين لستّ بقين من جمادي الثانية من السنة المذكورة، ووليها بعده أبوه الشريف سعد المتقدّم ذكره.

الولاية الثالثة

وهي التي نزل عنها أبوه الشريف سعد وولاّه إيّاها عن اختياره، وكان ذلك في نهار الجمعة تاسع عشر ذي القعدة الحرام من سنة ألف ومائة وأربع عشرة، واستمرّ فيها الشريف سعيد إلىٰ ليلة الاثنين الحادية والعشرين من ربيع الأوّل من سنة ألف ومائة وستّ عشرة.

---

(١) سمط النجوم العوالي ٤: ٥٨١.

(٢) سمط النجوم العوالي ٤: ٥٧٥ ـ ٥٨١.

وفي هذه الولاية حصل لأهالي مكّة من الاضطراب بسبب كثرة الحروب، وتوالي الحوادث المزعجة والكروب، والغلاء المديد، والقحط الشديد، ما أذهب أموالهم، وشتّت أحوالهم، وقرّب آجالهم، وخرّب دورهم، وهدم قصورهم، حتّىٰ أصبح ذو الثروة كالبائس الفقير، واللائذ المستجير.

وسبب هذا الأمر الفضيع، الذي شيّب طفل أهالي مكّة والرضيع، من وجوه جمّة، أنتجت هذه الخطوب المدلهمّة :

أوّلها: قلّة الأمطار، في تلك النواحي والأقطار.

وثانيها: قطع السبل والمسالك عن الوافدين بالخيرات إلىٰ تلك الممالك، وتغلّب البادية والأعراب، لعدم معاملتهم بالارهاب والارعاب.

ولهذين الأمرين الأخيرين أسباب وشواهد، تولّدت منها تلك المفاسد، ونشأت عنها تلك الشدائد، وهو أنّه لمّا أراد والده الشريف سعيد النزول عن شرافة مكّة المعظّمة، وتحلية ولده بعقود ولايتها المنظّمة، نفر لذلك جمّ غفير من السادة الأشراف، إذ لم يزالوا مع والده في نهاية العزّة، مع تواصل الامداد والاسعاف، وناهيك بسعد ونائله، وحسن سيرته، وكرم شمائله.

وقد أملينا عليك من صفاته الرضيّة، ومزاياه المرضيّة، ما تطيب بذكره النفوس، وتعبق بنشره الطروس، فلم يرضوا بذلك، وتفرّقوا في جميع المسالك.

ثمّ أجمعت آراؤهم السديدة، وأفكارهم الرشيدة، بأن يستخدم كلّ منهم جدّه، ويستعمل جدّه، وينزلون جميعاً في طريق جدّة، حتّىٰ يصير البندر وراء ظهورهم، لقضاء مصالحهم، وتمهيد أمورهم.

وكان صاحب جدّة في ذلك الزمان، معتمد الدولة العليّة الباشا سليمان، فشرعت بينهم وبينه المكاتبة والمراسلة، وظهرت آثار المحاربة والمقاتلة، فاشتدّ

عزمهم، وقوي حزمهم .

وكان مقصد سليمان باشا إزالة سعيد وأبيه، وفصيلته التي تؤويه، عن شرافة بلد الله الحرام ونواحيه، وتولية تلك الجهات والأطراف، من تجمّع عليه السادة الأشراف، من غير تلك السلسلة، وعلىٰ ذلك بني أمره وأمثله، إلاّ أنّه كان مستجهماً لهذا الأمر العظيم، والخطب الجسيم .

ويرىٰ أنّه لا يترتّب هذا الحال إلاّ بعد ذهاب الأرواح والأموال، فلم يزل يقدّم رجلاً ويؤخّر أُخرىٰ، وفي أثناء ذلك يتفرّس في السادة ليستظهر من هو منهم بهذه المكانة أحرىٰ .

فاقتضىٰ نظره الأعلىٰ، تولية الشريف عبدالكريم بن محمّد بن يعلىٰ، فأجمع رأي السادة علىٰ ما استحسنه صاحب السعادة، إلاّ أنّهم لم يزالوا متفكّرين في جميع الأوقات، في كيفيّة اقتلاع هذا الملك من أيدي آل زيد، ووضعه في أيدي آل بركات، وهو في الحقيقة أمر عسير، يحتاج إلىٰ قوّة عزم وشدّة تدبير .

فوجّه حضرة الباشا همّته العليّة، وإرادته الجليّة، في حلّ أخلاط هذه القضيّة، مع مساعدة رؤساء السادة له، حتّىٰ يبلغوه أمله، فجلّ ما نتج من تلك الأراء ونشأ عنها، أنّ ما يقطع هذه الشجرة إلاّ عريق منها، ولم يكن معهم في تلك الجملة من هذا الفخذ السني إلاّ السيّد عبدالمحسن بن أحمد بن زيد الحسني، فأزمع رأي حضرة سليمان باشا أن يلبسه خلعة الولاية، وينمحه من السعادة ما شاء .

فإذا سمع هذا الخبر حضرة الشريف سعيد، علم أنّ هذا الأمر ليس بذاهب عنه بعيد، بل هو لم ينقل عن أربابه، حتّىٰ يحزن علىٰ ذهابه، ولم يدر أنّه أمر بيته أهله بليل، ويعقبه البلاء والويل، وكان ذلك من حضرة الباشا علىٰ ما بينه وبين السيّد عبدالمحسن من الشروط، والعقد المربوط، وهو أنّه إذا استولىٰ علىٰ شرافة بلد الله

الحرام، وأخذ فيها مدّةً من الأيّام، يفرغ بهذا الملك العظيم، للشريف عبدالكريم .

وسبب ذلك: أنّه لم يكن له هوىً في تولية تلك الممالك، وإنّما ارتكب هذا الأمر، حتّىٰ يشيع بين زيد وعمرو، بأنّ عبدالمحسن هو ملك مكّة، فتصبح أحوال سعيد بسبب ذلك منفكّة، فكان ذلك عين الواقع، وأصبحت بقاع مكّة منه بلاقع، فدخلها عبدالمحسن، ولم يزل يؤطّد أحكامها ويحسن .

ثمّ استمرّ فيها وبسط بساط العدل في نواحيها، من يوم الاثنين لتسع بقين من ربيع الأوّل سنة ألف ومائة وستّ عشر إلىٰ يوم الأربعاء سلخ ربيع الأوّل من السنة المذكورة، وفي هذا اليوم نزل عنها للشريف عبدالكريم، وهي أوّل ولاية، كما ستقف عليه في ترجمته(١) .

وهذا آخر ما أردنا إثباته من هذه القضية بنهاية التلخيص والاختصار، وإلاّ لولا ذكرنا جميع جزئياتها وكلّياتها لبلغت مجلّدات كبار، وإنّما اقتصرنا علىٰ هذا المقدار؛ إذ هو قطب رحىٰ تلك الفتنة الذي عليها المدار .

وممّن أرّخ هذه الولاية التي نزل عنها والده له، وألبسه من ملبوس الشرافة أفخره وأجمله، سيّدي واستنادي، وملجأي واعتمادي، سيّدي الوالد السيّد محمّد ابن علي بن حيدر، أدام الله تعالىٰ سعده الأكبر، وفضله الأشهر، وكان لسعد رحمه الله فيه حسن اعتناء واعتقاد، اقتضىٰ ذلك أمره بتعيين الوقت حسب الانتقاد، فعمل بعد تعيين الوقت تاريخين، هما في غاية البلاغة وحسن الصياغة، فأوّل منهما :

لآل سعيدٍ حسن | إلاّ سناه اللسن
ملك سعيد شبل سعد | نجل زيد محسن

---

(١) راجع: إتحاف فضلاء الزمن ٢: ١٦٣ ـ ١٧١، وخلاصة الكلام ص ١٢٥ـ ١٣٦ .

اخـــــتاره الله وو لأه أبـــوه الأيـــمن
قـــرّبنه عـــيناً وقـــد قـرّت بـذاك الأعـين
ومـــــهّد الله له الأ سباب حـتّىٰ يـوقنوا
بأنّـــــه أهـــلٌ لمـــا خـــوّله المـــهيمن
كـــمعجز الإرهـاص حتّى افترّ عنه الزمـن
فأسـعد الدهـر بـملك يـــمنه مـــبرهن
دليـــــله تـــاريخه حـــظّ سـعيد بـيّن

والتاريخ الثاني هو هذا :

ضحك الدهر عن مباسم سعده ووفىٰ لطف ذي الجلال بوعده
سرّ قلب الزمـان مـلك سـعيد كسرور المـولىٰ أبـيه بـمجده
فتبدّت بشائر الخير والأرزاق والعـدل قـبل مـبدء قـصده
وكـــذاك الآثـار تـعرب عـمّا شـاءه الله مـن سـعادة عـبده
واسـتمع نـطق قـاله ثـمّ أرّخ مـــلكه ســعيد راسـخ بـحدّه

الولاية الرابعة

وهذه الولية كانت بأمر سلطاني، وتجريدة من عساكر مصر، وصلت صحبة الحاجّ المصري، وعليهم الأمير المكرم أيوازبيك، وذلك يوم ستّ من ذيالحجّة الحرام من تلك السنة يعني ختامها، وحطّوا جميعاً في الزاهر، ونـودي له بـمكّة المشرّفة في ذلك اليوم وهو في خارج البلاد، وقائم مقامه في ذلك اليوم وليـلته السيّد ناصر بن أحمد الحارث، ودخلها يوم سبع صحبته المحمل السلطاني مـن سفلي مكّة المشرّفة .

واستمرّ فيها إلىٰ ليلة خمس خلون من شعبان سنة ألف ومائة وسـبع عشـرة،

أخرجه منها الشريف عبدالكريم الآتي ذكره[١].

الولاية الخامسة

وهذه الولاية كانت آخر ولاياته، التى تصرّمت فيها مدّة حياته، وكانت بسعي واجتهاد من أمير الحاجّ الشامي نصوح باشا.

وسبب ذلك: أنّه كان يرد في كلّ سنة إلىٰ مكّة المعظّمة، ولم يجد فيها من يكرمه ويعظّمه، بل وقع بينه وبين ملكها الشريف عبدالكيم، منافرات لم يسعه فيها إلاّ التسليم، فأسرّها يوسف في نفسه، وشرع يفرغ سواد مداده في بياض طرسه، ويعرض إلى الدولة العليّة، بأنّ فلاناً لم يكن أهلاً للملك الولاية المنيفة، ولم يزل يشنّع أفعاله، حيث كان بمكّة أفعاله، ويزعزع بالزور أقواله، وينوه في عروضه، بأنّ تولية غيره للملك الأقطار أنفع له وأقوىٰ له، ويصرّح بأنّه لا يصلح ذلك القطر البعيدة إلاّ الشريف سعيد، فأنالته الدولة من مطلوبه مراده، حسبما اختاره وأراده، فوصل إليه ذلك المرسوم، والأمر النافذ المحتوم، بأنّ سعيداً ملك تلك الأقطار، وإليه الأمر، وعليه المدار، فأرسل إليه التقرير وهو بأقصى اليمن، وطوّقه بذلك أطواقاً من المنن.

فلمّا سمع بأنّ الأمر السلطاني، والخطاب الخاقاني، قد وصل إلىٰ مدينة جدّة، حثّ على استقباله، ركائب همّته وجدّه، وتلقّاه بالإعزاز والإكرام، ومزيد العظمة والاحترام، وسار به علىٰ جميع العربان، النازلين بأخطاف ركبة ومران، ولم تزل علامات سعده ظاهرة، وآيات حظّه باهرة.

إلىٰ أن وصل إلىٰ أقطار بجيلة وناصرة، فانحاز إلىٰ جنابه في ذلك المسير من

---

(١) راجع: خلاصة الكلام ص ١٤٨.

البادية جمع كثير، ووفد عليه من كبار السادة الأعيان، من يعضده ويقويه في قرية يقال لها: بقران، فعظمت بهم صولته، ونهضت دولته، ولم يزل محتوفاً بـاللطائف، إلىٰ أن وصل إلىٰ أرض الطائف، فأخذ بها يوماً أو مثله، يمهّد فيها خيله ورجله، وسار علىٰ عقبة يعرج، وأكفّه الكريمة تهبّ الأموال وتـخرج، والأقـوام خـلفه وأمامه، وكلّ منهم يعدّ جنابه العالي قبلته وإمامه، وهو يقطع بهم الفيافي والقفار، إلىٰ أن حطّت ركائبه في موضع يقال له: انكسار.

ولمّا سمع عبدالكريم بإقباله، خرج إلىٰ حربه وقتاله، فالتقى الجمعان بأعالي عرفة، ولم يزل يقاتله حتّىٰ كسره وصرفه، فرجع إلىٰ موضع يـقال له: الشـريفة، حيث لم يجد في قومه إلاّ من عزم على الهزيمة الشنيعة، فنكس وهوكاسف البال، أسير همّ وبلبال، وعلمك بحال المكسور، الذي ورد عليه الحـزن بـعد السـرور، فتوسّط بينهم كبار السادة، ذوو الرئاسة والسعادة.

فبني الأمر على المهادنة، وأن يلزم كلّ من الفريقين مواضعه وأماكنه، إلىٰ أن يصل الحاجّ، فيرتفع ذلك العلاج، غير أنّ من مع سعيد من السـادة والخـدّام، لا يمنعون من الورود إلىٰ بلد الله الحرام، لقضاء مصالحهم وأوطارهم، لاحـتياجهم إلىٰ ذلك وافتقارهم، فدخل صبيحة ذلك اليوم جمّ غفير من هؤلائك القوم، وهو يوم الأحد لثلاث بقين من ذي القعدة الحرام سنة ألف ومائة وثلاث وعشرين.

وكان من جملة من دخل مكّة المشرّفة السيّد الشريف محمّد بن عبدالكريم، الذي كان يكنّىٰ بأبي الخناصر، وملك مكّة الشريف عبدالكـريم، مـقيم بأعـاليها ليدخل إليها في وقت مختار في ذلك النهار، فأصبح وهو ينتظر خروج العساكر لتلقّيه، كما هو عادة ملوك مكّة إذا رجعوا من سفر أو حرب.

فما شعر أهل مكّة إلاّ وقد نزل السيّد محمّد بن عبدالكريم إلىٰ محكمة الشرع

الشريف، وأبرز من يده الأمر السلطاني الذي كان صحبة الشريف سعيد، فأثبته عند القاضي بحضور أكابر عسكر مصر، ثمّ حصن البلاد بهم، وأطلق المنادي بأنّ البلاد للشريف سعيد، وذاك مطمئنّ الخاطر، ينتظر خروج العساكر، ولم يدر أنّ الأمر قديم، وأنّ الحادث قد ألمّ، وأنّ تلك العهود على المهادنة، قد أبدلت بالمقاومة والمباينة، وأنّ مدّته قد وفت، وأنّ سحابة سعده بعد ما أن ركضت وقفت، فركب هو ومن معه من الأجناد لمقاتلة من بالبلاد، فمنعه بعض السادة الأشراف، وأخبره بأنّ البلاد قد حصنت من جميع الأطراف، فسلّم للقضاء والقدر، وعلم بأنّ الصولة على البلاد في تلك الساعة لا تنتج إلاّ الضرر، حسبما بان عنده وظهر، فعمد عقبة الحجون، وهو مغموم محزون، وقصد وادي مر، وترك البلاد ومر.

ومن العجب العجاب، والعبر الظاهرة لذوي الألباب، أنّ العساكر والأجناد، الذين تهيّأوا لإدخاله البلاد، وهو منتظر لوصولهم، حسب قواعدهم وأصولهم، أبدلهم السميع العليم، بسعيد عن عبدالكريم، فورد مكّة بهم عصر النهار، وهو يرفل في حلل العظمة والافتخار، فسبحان المتصرّف في عباده، والباعث للأشياء طبق مقصده ومراده، فلعمري إنّها عبرة لمن اعتبر، وحكمة دقّت فقصرت عن كنهها ثواقب العقول والفكر.

وكان دخوله إلىٰ مكّة عصر اليوم السابع والعشرين من ذي القعدة سنة ألف ومائة وثلاث وعشرين.

وقد ذكرت في أوّل الترجمة جانباً من أحواله، وجملة من أقواله وأفعاله، الصادرة عنه في هذه الدولة، التي أيّد الله فيها قوّته وحوله، ثمّ بعث إليه

أبا يحيىٰ[١]، فانتقله فكأنّه لم يمت ولم يحييٰ.

وممّن أرّخ هذه الولاية، ونشر له من الثناء فخر رايه، مخلصه الأكبر، والدي السيّد محمّد بن علي بن حيدر، وأوصل التأريخ إليه في منىٰ، يوم لبسه لخلعة الاستمرار التي نال بها القصد والمنىٰ، فوقع عنده أحسن موقع وأسناه، فوعده بأن يبلغه من السعادة فوق ما يتمنّاه، والتاريخ المشار إليه هو هذا:

بشائر السعد قالت — والدهر وافٍ ومحسن
بيتاً نآني عنه كيد — فجاء تاريخ متقن
بشّر سعيد بن سعد — بملك زيد بن محسن[٢]

وكان أيضاً ممّا يتعاطي خدمة القلميّة، ويعمّر أسواق مجالسه ببضائعه الأدبيّة، وينضد بجواهر الكلم عقود طروسه السنيّة، حيث عرف منذ نشأ بمكّة بمنشيء الدولة الحسنيّة، غير أنّه لم يقف له علىٰ طائل، ولم يحظ منه بنائل.

وممّا جازاه به علىٰ خدمه السابقة، وقابله علىٰ ما نظمه فيه من درر ألفاظه المتناسقة، أنّه قبض علىٰ أحد أولاده، وثمرة فؤاده، فأخفي خبره، وعفي أثره، واتّسم بمن أحيا وأمات، وهو ربّ السماوات، إنّه لم يكن عليه بآمر، ولم يعلم بمن كان له علىٰ السوء ظاهر، مع أنّ المشاهد بالعيان، أنّ القابض له بعض من يعتمده من الغلمان، وهو الآمر بقبضه واعتقاله، وانتهاب نفيس عمره قبل نموّ هلاله.

---

(١) كنية ملك الموت.

(٢) قال في هامش نسخة «د»: أشار بقوله «نآني عنه كيد» أي: أخرجه من أصل البيت بيت التاريخ الذي هو بشّر سعيد البيت الأخير لمّا أخرج منه عدد كيد وهو يتمّ التاريخ مع تمكين التورية.

وكان وقوع ذلك القضاء المحتوم، والسرّ المكتوم، علىٰ ذلك الفاطمي المظلوم، بنو أُمّي الحجون، وأخطاف طوي، بين تلك الأعلام والصوي، لكن ليس على التعيين، حيث لم يكن معه ترب ولا خدين، فجرعه ذلك الغلام ومن معه، كأساً من الحمام مترعة، بتهمة باطلة، أصبحت ربوع التقوىٰ بسببها باطلة .

وكان ذلك لثلاث خلون من محرّم الحرام، وهو الشهر الذي قتل فيه جدّه الحسين عليه السلام، إلاّ أنّ المتجرّيء علىٰ ذاك فاسق شقي، والآمر علىٰ هذا فاطمي علوي، فرحمه الله تعالىٰ رحمة الأبرار، وحشره مع أجداده الأئمّة الأطهار عليهم السلام .

ومن أعجب الأسرار النبوية، والثارات العلوية: ما يروىٰ عن هذا الآمر بختله، والقادم علىٰ قتله، أنّه رأىٰ ليلة عاشر الشهر المذكور في منامه، وهو راقد بين عياله وخدّامه، كأنّه قد دخل الحمّام لأجل التنظيف، بعد قتله لذلك الشريف، فلاقاه علي ابن أبي طالب عليه السلام، وأقبل عليه كالقاصد والطالب، بصولة قاهرة، وحربة يقلبها بيمينه الطاهرة، وقال له: أنت القاتل لذلك السيّد المظلوم، بغير حقّ معلوم .

فشرع يخلط في كلامه، كالمذعور من سطوته وكلامه، فما استتمّ خراعه، إلاّ وشكت الحربة أضلاعه، فصاح صيحة أيقظته من هجعته، وهو مضطرب من روعته، يجسّس علىٰ طعنته، فظلّ بليلة الملسوع، والخائف المروع، فاذا للطعنة أثر، بقي وما دثر، ولم يزل بسببها مرعوب، حتّىٰ علقت به شعوب (١)، وتوفّي ليلة الحادي والعشرين من شهر محرّم الحرام المذكور سنة ألف ومائة وتسع وعشرين رحمه الله تعالىٰ .

وأعقب سعيد المذكور جملة من الذكور، وهم: عبيدالله، ومحمّد، وعلي، ومضر،

---

(١) من أسماء المنية .

ومسعود، ومساعد، ومبارك، وحسن، وراجح، وسعد، وناصر، وأحمد، وعبدالله، وجعفر، وغير هؤلاء من الاناث جملة أيضاً .

وأخبرني بعض الأصحاب أنّه كان ببندر جدّة المعمورة، سائراً في بعض سبلها المشهورة، ومعه خدين له وترب آخر، فما شعروا جميعاً إلاّ وقائل يقول: إنّ فلاناً قد انتقل إلىٰ رحمة الله تعالىٰ، فقال أحدهم وهو مضطرب: بذا يعرف الله فحسب، فإذا هو تاريخ وفاته، وهو عام تسعة وعشرين ومائة وألف .

وهو من أغرب الاتّفاقيات، والآيات الباهرات، لأنّه كان مع قوّته، وغلبته ورهبته، لم يخطر في فكر أحد زواله .

فصل

في وفيات بعض الأعيان الدارجين في مدّة دولته

هذه التي ابتداؤها شهر ذي القعدة إنتهاء سنة ثلاث وعشرين ومائة وألف، والتي قبلها من الولايات .

وفاة الشريف أحمد بن حازم الحسني :

ففي أوائل سنة (١١١٧) سبع عشر ومائة وألف: توفّي السيّد الشريف، والسند العالي المنيف، رئيس السادة الأشراف، وزعيم القادة من آل عبدمناف، مولانا وسيّدنا السيّد أحمد بن حازم بن عبدالله بن الحسن بن أبي نمي .

وسبب وفاته: انّه أُصيب برصاصة في ساقه الشريف في الوقعة التي صارت بين صاحب الترجمة وبين الشريف عبدالكريم بن محمّد في الولاية الرابعة للشريف سعيد التي كانت بأمر سلطاني، وتجريدة من العساكر المصريّة عليها أيوازبيك ولم يكسر فيها، بل استمرّ إلىٰ خامس شعبان من السنة المذكورة .

وكان هذا السيّد الماجد، ملاذ السادة الأماجد، ومرجعهم في الأُمور المهمّة،

والخطوب المدلهمّة .

له آثار عظيمة، تدلّ علىٰ همّته الجسيمة، بنىٰ بمكّة داراً سامية البناء، صرف فيها مزيد الاعتناء في الموضع المسمّىٰ بسوق الليل، ومثلها بالطائف، وثالثة بقرية لقيم من قرى الطائف .

وأعقب من الذكور: السيّد مسعود، والسيّد يحيىٰ، والسيّد زين العابدين، وفّقهم الله تعالىٰ، وأولاهم ألطافاً تتوالىٰ، ثمّ درج السيّد يحيىٰ غير معقب، وبقي الولدان الآخران، أبقاؤهما الله تعالىٰ، ووقاهما شرّ حوادث الزمان .

وفي هذه الوقعة قتل السيّد الأجلّ السيّد علي بن السيّد أحمد بن أبي القاسم، وكان شابّاً شجاعاً لوذعياً، رحمه الله تعالىٰ رحمة الأبرار، وحشره مع أجداده الأئمّة الأطهار .

وفاة الشيخ محمّد الشيبي :

وفي سنة (١١٢٥) ألف ومائة وخمس وعشرين من دولته الأخيرة: توفّي المقام الجليل، والمرام النبيل، عين الأعيان، وغرّة وجه الزمان، الشيخ محمّد بن المرحوم الشيخ عبدالمعطي الشيبي، فاتح بيت الله الحرام، ثمّ انتقل المفتاح الشريف بعد وفاته إلىٰ أخيه الشيخ عبدالقادر بن الشيخ عبدالمعطي الشيبي، درج الشيخ محمّد المذكور ولم يعقب .

ترجمة السيّد الشريف عبدالمحسن بن أحمد بن زيد ابن محسن بن حسين بن حسن بن أبي نمي

طود شرف منيف، وجود خصب وريف، ومنهل ندىً ترده الملوك الأعاظم،

ومسحل[١] روىٰ نجم دونه الأسود الضراغم، طالما قلّد أعناق ملوك زمنه، بعقود صنائعه، وقلائد مننه، فعزل منهم وولّىٰ، ونبت فيهم وما ولّىٰ، وما زال يستخلص قلوب أعاديه، بقيض قواضيه، وفيض أياديه، فدانت رقاب الأُمم لجنابه، وتعفّرت جباه الملوك علىٰ أعتابه.

وأمّا أبناء عمّه آل قتادة، فلم يزل يمنحهم برّه وإسعاده، ولعمري لقد رقىٰ بخلعة الحسن، قمم السراة من آل الحسن، مع حظّ يغلق الحصا، ورأي يفرق العصا، وكرم يهزأ بالغيث الهاطل، ويعمر ربوع المجد وهي عواطل.

تولّىٰ شرافة مكّة المعظّمة، وتحلّىٰ جيده بعقود الولاية المنظّمة، يوم الاثنين لتسع بقين من ربيع الأوّل سنة ألف ومائة وستّ عشرة، واستمرّ فيها إلىٰ يوم الأربعاء سلخ ربيع المذكور، نزل بها عن طيب نفس للشريف عبدالكريم الآتي ذكره، فكانت مدّة ولايته ثمانية أيّام.

وهذه الولاية قد تقدّم لها ذكر في ترجمة ابن عمّه الشريف سعيد بن سعد، إلاّ أنّه بعد ذلك النزول علا، وتسنّم ذروة غارب العلا، ورفل في حلل المجد والفخار، ومتاع صيته الشريف في جميع الأقطار، وإن أردت تحقيق المرام، وتأييد ما ادّعيناه في هذا المقام، فسرّح طرف الطرف في تراجم الملوك اللاحقة، واقتطف من ثمار حدائقها الباسقة، تعلم علوّ محلّ هذا الشريف ومكانه، وجلالة مقداره، وارتفاع شأنه، فلقد حجّ العلماء إلىٰ مشعر بابه، وطافوا بكعبة جنابه، وخدمه الأُدباء في زمانه، ونظموا فيه من القريض قلائد عقيانه، فأحرزوا من حضرته العليّة، غنائم صلاته السنيّة.

---

(١) في «ن»: ومسجل.

فمن جملة من نشر عليه حلل الثناء والمدح، وبنىٰ له علىٰ هام السماكين أعظم صرح، محبّه ومخلصه الأكبر، والدنا السيّد محمّد بن حيدر، فقال يهنّئه بقدوم أخيه الأمجد، السيّد مبارك بن أحمد من إمام اليمن المهدي بمقابل هديته، فقال:

قالوا نرى الإنسان عبد المحسن ... فجميعهم رقٌّ لعبد المحسن
ملكٌ غدا إحسانه ملكاً علىٰ ... كلّ القلوب وذلك الملك السني
كلّ القلوب جنوده وسلاحها ... من حمدها ودعائها في الألسن
فسهامها تسري إلى السبع العلا ... وسيوفها تفري رقاب الأزمن
ملكٌ سطاه في غداه[1] قوّمت ... أود الزمان إلى الفعال الأحسن
أسيافه من نقمةٍ في الله بل ... من رحمةٍ لله غوث المؤمن
لمّا حمىٰ أمّ القرىٰ وأغاثها ... عرفت بنوها مطعم العيش الهني
قد أودع الرحمٰن فيه حكمةً ... فكأنّ فيه السعد أبلغ معلن
ما زال قلب الملك مضطلعاً به ... أو عاضداً للمستحقّ الأيمن
هي نيّةٌ وسريرةٌ ما همّها ... إلاّ الصلاح وكلّ رأي متقن
وإذا أقام إلٰهنا في أمره ... عبداً فليس بغير ذلك يعتني
وتراه غصناً ناضراً متثنّياً ... بهوائه وإلى الهوىٰ لا ينثني
فيكون خادم ربّه وقلوب خلق ... الله تخدمه بودٍّ بيّن
أو ما ترىٰ الأشراف من شامٍ إلىٰ ... يمنٍ وكلّ ذوي الفخار الأزين
طوع المودّة للشريف ابن الشريف ... ابن الشريف ابن الشريف المحسن
هو شبل أحمدهم شهاب ملوكهم ... يسمو بزيد سنائه للأعين

---

(١) في «ن»: عداه.

هــذا إمـام العـترة المـهدي قـد أولاه صــــفو وداده المــتمكّن
وحــباه جـزل صـلاته لمّـا رأىٰ لهـباته فـعل السحاب الأركـن
والفضل يعرفه لأهل الفضل أهـل الفضل من ثمر المـعارف تـجتني
فــليهن مــولانا قــدوم مباركٍ فــي صــحّةٍ وهـناً وقـرّة أعـين
في مـثله قـد قـال شـاعرهم أخٌ لي ماجد فـي مشـهدٍ لم يـخزني
أبــقاكــما ربّ العـباد لخــلقه كــالنيّرين ســناً ونــفعاً لا يـني
وأحــقّ مـنتفعٍ بسـعدك مـخلصٍ داعٍ بـخدمة ذي الكـفاءة يـعتني
جمعت به الأنساب في أهل الكسا متخصّصاً بك في الحسيني السني
أقصىٰ مـداه أن يـروم وجـودكم أمّــا بـدون الواو فـهو بـه غـني

وله فيه القصائد الطنّانة، التي شيّد بها من مجده أركانه، ولولا خوف التطويل، لأوردتها لك بالتفصيل، ولقد كان في مدّة حياته، من بعد نزوله عن الشرافة إلىٰ حين وفاته، لا يتولّي ملك ولا يعزل آخر إلاّ برأيه، ولا يستمرّ[1] إلاّ إذا كان تحت أمره ونهيه، وناهيك بهذه السيادة، التي لم تصر لأحد من أشراف مكّة من عـهد قتادة.

توفّي ـ رحمه الله تعالىٰ، وأفاض عليه هواطل رحمات تتوالىٰ[2] ـ في شهر محرّم الحرام من سنة إحدىٰ وثلاثين ومائة وألف.

وقد أرّخ غير واحد من الأدباء وفاته، إذ كان أغلبهم طلاّب جوده وعفاته، قلّد أعناقهم بعقود برّه، وقيّد ألسنتهم بحمده وشكره.

---

(١) في «ن»: يستقرّ.

(٢) في «ن»: توالىٰ.

فمن جملة من أرّخ وفاته، وأظهر ذكر جميله وما أخفاه، جامع هذا الكتاب ومنشيه، والمغمور في بحر أياديه، والمتشرّف بلثم أعتابه، والمعدود من جملة خواصّ جنابه، بقصيدة فائية، وهي :

الله أكبر كيف ذكرك قد عفىٰ　　أم كيف بدرك في السرار قد اختفا
أم كيف شمس علاك وهي منيرةٌ　　للكون ترضىٰ أن تغيب وتكسفا
أم كيف أرسلت المنيّة باعها　　وسطت فغيّبت المليك الأشرفا
عهدي به بالأمس طود مهابةٍ　　لا يستطيع لديه شخصٌ موقفا
هل كان في عزٍّ وجاءت فجأةً　　الله حسبك يا منيّة قد كفىٰ
فمن المقيم اليوم فخر عصابةٍ　　قرشيّةٍ من نسل سبط المصطفىٰ
ومن المعدّ لكلّ خطبٍ معضلٍ　　وإذا دهىٰ أمرٌ أباد وصرّفا
أين الذي قد كان يمنح رفده　　من كأس هاتيك المسرّة مرشفا
جيران بيت الله من لضعيفكم　　ومن المؤمّل أن تغضب أو عفا
نوحوا علىٰ قبر الشريف وأرّخوا　　طود الشرافة والرئاسة قد هفا

ولم يعقب من الذكور إلاّ إبنه السيّد الأمجد الأنجد السيّد أحمد، فاستولىٰ علىٰ طريف المجد وتالده، ولا غرو[١] أن يحذو الفتىٰ حذو والده. رأيته وهلاله قد أبدر، وأورد في المهمّات وأصدر، فأنشدت قول الشاعر راجياً وآملاً :

إنّ الهلال إذا رأيت نموّه　　أيقنت أن سيصير بدراً كاملا

وفّقه الله تعالىٰ لبلوغ غايات المعالي، وكفاه شرّ كلّ عدوّ وقالي .

إنتهت ترجمة مولانا المشار إليه، لا زالت شآبيب الغفران فائضة عليه، إنّه هو

---

(١) في «ن»: حذو .

الموفّق للصواب، وإليه المرجع والمآب .

ترجمة السيّد الشريف عبدالكريم بن محمّد بن يعلى بن موسى بن بركات بن أبي نمي صاحب مكّة المشرّفة

ملك لا يسفر عن وصفه العلوي، في سماء النسب الفاطمي العلوي، إلاّ قول الفتح بن خاقان في قلائد العقيان[١]: ملك قمع العدا، وجمع بين البأس والندا، وطلع على الدنيا بدر هدىً، لو جاوره كليب بن ربيعة ما طرق حماه، أو استجار به أحد من الدهر لحماه، أو كان بجفر الهباة ما انتمىٰ قيس سيفه، ولا قضىٰ وطراً من حمل وحذيفة، أو استنجده امرىء القيس ما كساه قيصر الملأ، أو كان حاضر بسطام ما خرّ على الالأ .

ولو دعي الأسد الورد لأجاب، أو أومأ إلى الليل البهيم لانجاب، ولو قعدت بين يديه الأطواد لتحرّك سكونها، أو عصته الطير لما أوته وكونها[٢]، مع فقار عفّ حتّىٰ عن الطيف، وحكى المحرمين بالخيف، وندىً خرق العوائد، وأورق عوده في يد الرائد، وسحاباً تنجلي عنها الظلماء، كأنّ مزاجها عسل وماء، قلت: كيف لا وهو :

ملكٌ أبوه وأُمّه من دوحةٍ منها سراج الأُمّة الوهّاج

---

(١) هو كتاب قلائد العقيان في محاسن الأعيان، تأليف أبي النصر الفتح بن عيسى ابن خاقان القيسي المتوفّىٰ قتيلاً سنة (٥٣٥) جمع فيه من شعراء المغرب طائفة، وذكر أشعارهم، وجعله علىٰ أربعة أقسام: الأوّل في الملوك، الثاني في الوزراء، الثالث في القضاة والعلماء، الرابع في الأدباء والشعراء .

(٢) كذا، ولعلّ الصحيح: وكرها .

شربوا بمكّة في ذرا بطحائها ماء النبوّة ليس فيه مزاج

تولّىٰ هذا الملك الهمام، والغضنفر القمقام، شرافة بلد الله الحرام، وأقطاره وحماته ووفّاده وحضّاره ثلاث مرار، فالتفت إليه الرئاسة مقاليدها، وساس المملكة فأحسن تمهيدها، وأشرقت شمس سيادتها، وأورقته(١) أغصان سعادته، فطبّق صيته الأقطار، واكتحل بإثمد صفاته العليّة طوق الافتخار، فأبصر بعد عماه، وتداني بعد مرماه.

وأمّا عزائمه الثواقب، فهي كالنجوم، التي أضحت لشياطين الإنس رجوم، فمهّد وأصاب، بعد أن تجرّع العلقم والمصاب، فغدا لجبهة الزمان غرّة، ولعين آل قتادة قرّة.

الولاية الأولىٰ

هي التي قد تقدّم ذكرها في ترجمة الشريف سعيد بن سعد، وشرح مباديها مفصّلاً، وفي ترجمة الشريف عبدالمحسن بن أحمد أيضاً؛ لأنّها كانت بنزول منه، كما تقدّم بيانه في ترجمة الشريف سعيد، من التواطىء الذي كان بين سليمان باشا والشريف عبدالمحسن وصاحب الترجمة، فراجعه تجده ثمّة.

وكانت هذه الولاية يوم الأربعاء سلخ ربيع أوّل من سنة ألف ومائة وستّ عشرة، واستمرّ فيها إلىٰ يوم الاثنين سلخ شهر رمضان من السنة المذكورة، فكانت مدّته فيها ستّة أشهر، وذلك لأنّه توجّه وظعن لإصلاح بعض طرق اليمن، وأقام مقامه في كلّ أمر السيّد محمّد بن عمرو.

فوصل إلىٰ مكّة المشرّفة الشريف سعد بن زيد من طريق الطائف بجمع من

---

(١) في «ن»: أورقت.

العربان، ودخلها سلخ شهر رمضان من السنة المذكورة، كما تقدّم ذلك، وأخرج السيّد محمّد بن عمرو، فترك له البلاد، ومرّ بعد قتال يسير، لأنّه جاء متغلّباً بالعربان، ولم يكن بمكّة من يقاومه.

الولاية الثانية

بعد أن دخل سعد البلاد، وتصرّف فيها حسب ما أراد، بلغ ذلك صاحب الترجمة، ومعه الشريف عبدالمحسن بن أحمد وجمع من السادة الأشراف، فرجع القهقرىٰ لتدارك هذا الأمر العظيم، والخطب الجسيم، وشرعوا في إحكام الرأي والتدبير، لإزالة هذا الحادث الخطير.

ثمّ في أثناء ذلك توجّه من عندهم السيّد الشريف عبدالمطّلب بن أحمد بن زيد أخو مولانا الشريف عبدالمحسن إلىٰ مكّة لأمر اقتضاه الحال، فاتّفق أن رمي برصاصة، اختلفت الأقوال فيها، قريباً من داره، غير أنّ من حيث الجملة كان صدورها من جماعة الشريف سعد، ومات بسببها في شهر شوّال من السنة المذكورة.

فاشتدّ كربهم لمّا بلغهم ذلك، وحصل لمولانا الشريف عبدالمحسن أعظم تعب، وقويت عزائمهم على القتال، واجتمع بأسباب ذلك جميع السادة الأشراف، إلاّ بعض أشخاص منهم كانوا مع الشريف سعد، وتوجّهوا إلىٰ مكّة المشرّفة، ودخلوها ليلة الجمعة تاسع عشر شهر شوّال من السنة المذكورة، ووقع تلك الليلة التحام بين السادة الأشراف؛ لأنّهم حملوا حملة[1] واحدة وكانت بالمنحنىٰ، وانجلت عن دخول صاحب الترجمة إلىٰ بلاده برفاقته وأجناده، وتوجّه الشريف سعد إلى

---

(١) في «ن»: جملة.

العابديّة مصاباً بجرح .

وهذه الليلة تسمّيها السادة الأشراف ليلة الظليماء إلىٰ زماننا هذا، وذلك لشدّة انحلاك ظلامها، إلاّ أنّه صار في يوم الجمعة صبيحة دخولهم إلىٰ مكّة مقتلة عظمىٰ، رؤوس تجزّ[1]، وجثث ترمىٰ، وهو أنّه لمّا دخل الشريف سعد البلاد بقومه بادية اليمن، فجرعوا أهل مكّة كؤوس المصائب والمحن، من كسر أبوابهم، ونهب أثاثهم وأثوابهم[2] .

وبالجملة فقد أقاموا عليهم القيامة، إلاّ من أذن الله له بالسلامة، وشرعوا بعد النهب بأيّام، يظهرون تلك الغنائم علىٰ رؤوس الأعلام، ويبيعونها في الأسواق بأنجس الأثمان، وهم في غاية الاطمئنان، فيشتري الرجل ما يجده من حوائجه مرّة أُخرىٰ، ويسلم أمره لصاحب العاجلة والأُخرىٰ، وقد افتقرت أُمم بسبب هذا الخطب الذي ألمّ، إلاّ أنّه بعد صار ما صار، لم يمهلهم الملك الجبّار، فأباد تلك القوم، بعد مضي ثمانية عشر يوم .

وذلك أنّ الشريف سعد لمّا بلغه وصول السادة الأشراف لقتاله، برز لهم إلىٰ أعالي مكّة المشرّفة، ووزّع البادية، فأخذ شطراً منهم في ركابه، والشطر الآخر أبقاه في بيته دار السعادة .

فلمّا وقع عليه ما وقع، وتوجّه إلى العابديّة وارتفع، دخل صاحب الترجمة إلىٰ بلاده، فوجد الدار المذكورة وما حولها مفعمة من العربان، والحال أنّهم لم يعلموا أنّ سيّدهم قد خرج وبان، فسدّت عليهم المسالك، وظهرت لهم آثار المهالك،

---

(١) في «د»: تحزّ .

(٢) في «ن»: وثيابهم .

فحاصروا ليلتهم تلك إلى الصباح، بعد ما أيقنوا بذهاب الأرواح، فكسروا الباب وهجموا عليهم، ووجّهوا عزائمهم العليّة إليهم، فظفروا بهم، وقتلوهم عن أمـرهم، وهم نحو من خمسمائة رجل، وجزّوا(١) رؤوسهم بعد قتلهم، ورموها علىٰ بعضها عند بركة الشامي علىٰ بناء قديم ثمّة.

وأمّا جثثهم، فمنها ما دفن تحت دار السعادة في خندق حفر لهم، ومنها ما نقل على الألواح بالبقر إلىٰ أسافل مكّة، ونهب في ذلك اليوم بيت الشريف سعد بـيد عساكر سليمان باشا المتقدّم ذكره في ترجمة الشريف سعيد، وهكذا يكون الانتقام من هؤلاء الأعراب الطغام، في تجرّيهم علىٰ بلد الله(٢) الحرام.

واستمرّ صاحب الترجمة في الولاية إلىٰ ضحىٰ يـوم الثلاثاء سـادس شـهر ذي‌الحجّة الحرام ختام سنة ستّ عشرة المذكورة.

الولاية الثالثة

كانت بأمر سلطاني وصل إلىٰ مكّة المشرّفة يوم رابع شهر شعبان من سنة ألف ومائة وسبع عشرة، وسجل في‌المحكمة، وخرج الشريف سعيد ليلة خامس الشهر المذكور، ودخل صاحب الترجمة صبح يوم ستّ من الشهر المذكور.

واستمرّ فيها إلىٰ يوم الخميس عشرين من شهر ذي‌القعدة الحرام سنة ثـلاث وعشرين ومائة وألف، وأخرجه منها الشريف سعيد بالأمر السلطاني الذي أرسله نصوح باشا، كما تقدّم في ترجمة الشريف سعيد، وبعدها لم يعد صاحب الترجمة إلىٰ شرافة مكّة المعظّمة، فكانت مدّة ولايته هذه ستّ سنوات وشهرين ونصف إلاّ

---

(١) في «ن»: وجزّوا.

(٢) في «ن»: علىٰ جيران بيت الله.

كسور، وجملة الولايات الثلاث ستّ سنوات وعشرة أشهر، إلاّ أنّه في هذه الولاية الأخيرة انسجمت أحواله، وكثرت أمواله، وتوفّرت أجناده، وتعدّدت أعضاده، وصفت مشاربه، ونجحت مطالبه، وانبسط عدله وأمانه، وحسن دهره وزمانه.

وإنّما كان يرد عليه الشريف سعيد في كلّ سنة مرّة، ويجرّعه من كؤوس الحرب علقمة ومرّة، فيتلقّىٰ ذلك بعزم شديد، ورأي سديد، فيفلّ حسامه، ويبيد أقوامه.

وبالجملة فله الواقعات المشهورة، التي لم يزل يرويها لسان الدهر منظومة ومنثورة، فرحمه الله رحمة واسعة مبرورة.

فصل

في الحوادث الواقعة في أيّام إمرة هذا الملك المعظّم

من وفيات لبعض الأعيان، أو حادثة واقعة بمكّة المشرّفة وغيرها من البلدان.

وفاة الشيخ عبدالله القرشي الشيبي:

ففي سنة ستّ عشرة ومائة وألف: توفّي الشيخ الأجلّ، والكهف الأطلّ[١]، الشيخ عبدالله بن محمّد القرشي الشيبي.

قتل الشيخ فيض الله الأفندي:

وفي هذه السنة: وقع في الدولة العثمانيّة خلف بين العساكر، استقرّ عن قتل شيخ الإسلام، ومرجع الخاصّ والعامّ، فيض الله أفندي، وعن خلع السلطان مصطفىٰ خان عن السلطنة، وتولية أخيه السلطان أحمد بن محمّد خان[٢]، قاله صاحب لسان الزمان نقلاً بالمعنىٰ، وهو سهو منه؛ لأنّ هذه الواقعة كان وقوعها في

---

(١) في «ن»: الأظلّ.

(٢) راجع: إتحاف فضلاء الزمن ٢: ٢٣٨.

سنة خمس عشرة، وفيها جلس السلطان أحمد، وكان جلوسه ...[١] على الصحيح.

وسبب ذلك المقتضي لورود هذا الأفندي حياض المهالك: هو أنّه كان في مبدأ حاله، معلّماً لهذا السلطان، ومهذّباً له في أقواله وأفعاله، ثمّ لمّا جلس السلطان علىٰ تخت الملك وسريره، تقرّب إليه بحسن سياسته وتدبيره، ولم يزل قائماً في خدمته أحسن قيام، إلىٰ أن ولاّه مشيخة الإسلام، فشيّد منصبه المعظّم وشاده، وذلك مصداق قول الشاعر:

إذا كان عون الله للمرء شاملاً تهيّأ له من كلّ أمرٍ مراده

فلمّا ارتفع[٢] وعلا مقامه، ونفذت علىٰ سائر أرباب الدولة العثمانيّة أحكامه، وصار منهيّ للأمور العظام، التي كانت تختصّ بالوزير الأعظم وغيره من ذوي الأحكام، وجمع بأسباب ذلك من الأموال ما لا يحصىٰ، ولا يضبطه بنهاية الاستقصاء، فحسده علىٰ ذلك أركان الدولة وأعيانها، ورجمه بشهب الألسنة صالحها وشيطانها، وانتقدوه في عدّة أمور من مفترياتهم، ومحكمات هفواتهم، وسعوا به في أثناء ذلك عند حضرة السلطان مراراً، فلم يفدهم إلاّ خسارا.

فلمّا لم تجدهم تلك السعاية، ورأوا ما له عند السلطان من مزيد الكرامة والرعاية، عدلوا عن تلك الكيفيّة إلىٰ كيفيّة آخرة، وأجمعوا علىٰ نقله من دار الدنيا إلىٰ دار الآخرة، فنسبوا إليه أنّه أخذ مالاً عظيماً من الكفّار الطغام، علىٰ أن لا تسير إلىٰ نواحيهم جيوش الإسلام، فتضعّف الملّة المحمّديّة، والعساكر السلطانيّة

---

(١) بياض في «د».

(٢) في «ن»: ثمّ ارتفع.

المصطفويّة.

واستندوا إلى هذا المسوّغ الدالّ علىٰ ضعف دينه وخباثته، ووثبوا عليه وثوب الأسد في غابته، وقتلوه هو وجميع طوائفه وأعضاده، ومن كان عليهم جلّ اعتماده، ونهبوا الأموال، وشتّتوا العيال، ولم تزل نار الفتنة تتقدّ، والآراء تبرم وتنعقد، ولا سكن ذلك الاشتعال وانطفىٰ، إلاّ بعد رفع السلطان مصطفىٰ، وتولية أخيه السلطان أحمد، فسكن تلك الفتنة برأيه الأحمد وأخمد، واستمرّ الحال إلىٰ هذا الزمان، والأقطار الروميّة في غاية العدل والأمان.

وفاة الشيخ عبدالوهّاب الهندي:

وفي سنة سبع عشرة ومائة وألف: توفّي الولي الكبير، العارف الشهير، الشيخ عبدالوهّاب الهندي المشهور، ودفن في زاوية له بالمعلاّة.

قتل السيّد علي مير ماه:

وفي هذه السنة: توفّي في ليلة حادي عشري شهر رمضان منها، السيّد الجليل، والسند المثيل، ذو النسب الشامخ، والحسب الباذخ، السيّد علي بن عبدالله الشهير بمير ماه مقتولاً رحمه الله تعالىٰ.

وكان هذا السيّد ذا كرم بارع، وفضل نوره ساطع، وجرأة وإقدام، ونفع للخاصّ والعامّ، وركناً لمن يلوذ، ويتعلّق بسببه، لأنّه كان من أعظم ذوي الشهامات العلويّة، والهمم العلويّة، وتظاهر في آخر عمره بالغلوّ في آل زيد، ملوك مكّة المشرّفة المحروسين من كلّ كيد، فكان ذلك سبباً لزواله، وطيران طاووس إقباله، وله خلف صالح وفّقهم الله تعالىٰ[1].

---

(١) راجع: إتحاف فضلاء الزمن ٢: ٣٠٤.

إرسال الشاه حسين الصفوي هديّة إلى المدينة :

وفي سنة ثمان عشرة ومائة وألف: صار بالمدينة المنوّرة قضيّة عظيمة، ومحنة جسيمة، وهو أنّ سلطان العجم الشاه حسين، كان قد أرسل علىٰ طريق النذر إلى الحجرة الشريفة كرة من الذهب، محشوّة بالعنبر، مفصّصة بالجواهر المتنوّعة، قد صنعت بغاية التكليف .

فلمّا وصلت إلى المدينة المنوّرة،استلمها أُمناء المسجد النبوي، ووضعوها في حرز مثلها إلىٰ أن يعرضوا إلى الدولة، ويستأذنوهم في تعليقها بحضور الباشوات والأُمراء وأعيان الدولة .

فلمّا طلبت من موضعها لم توجد، فحصل اضطراب عظيم لأغوات المسجد النبوي وشيخ الحرم وأهالي المدينة المنوّرة، وكانت عليهم من أعظم المحن، وشرعوا في التفتيش، حتّىٰ وقعوا علىٰ من فعل ذلك، فقرّروا بأنواع العذاب، فأقرّوا بأنّهم أخذوها وباعوا معادنها وذهبها وعنبرها مفرّقاً، فأُخبرت الدولة بذلك، فأرسلت رجلاً معتمداً للسؤال عنها، وقبض هؤلاء الفاعلين، فوصل وأفرغ همّته في تحصيلها، فأدركها جميعاً إلاّ النزر، وتوجّه بها إلى الدولة لتصاغ ثمّ تعاد، وعزل بأسبابها شيخ حرم المدينة المنوّرة، ووصل آخر بدله .

وفاة السلطان أُورنك زيب ملك الهند :

وفي سنة تسع عشرة ومائة وألف: توفّي السلطان الأجلّ، والملك المبجّل، ذو الآراء الوريّة، والهمم الاسكندريّة، وفخر الدولة التيموريّة، السلطان أورنك زيب ابن شاه جهان، وكانت مدّة ملكه على الأقطار الهنديّة نيّفاً وخمسين عاماً، وقد جمع جميع ممالك الهند التي كانت مفرّقة بأيدي ملوك آخرين، واستمرّت دولته، وعمرت مملكته .

وكان ذا عقل متين، ورأي سمين، وفطنة وقّادة، ومعرفة نقّادة، وصلاح وعبادة، ثمّ قام بالسلطنة بعده ولده وولي عهده شاه عالم، ثمّ انتقلت منه إلىٰ آخرين من سلسلته، واضطرب قطر الهند غاية الاضطراب، واستمرّ ذلك إلىٰ زماننا هذا.

وفاة السيد علي العاملي المكّي:

وفي ثامن عشر شهر محرّم الحرام من السنة المذكورة: توفّي السيّد الأمجد، والسند الأنجد، الفاضل الأديب، والحائز من العلوم أوفر نصيب، السيّد علي (١)

---

(١) هو العلاّمة السيّد علي بن علي نورالدين بن علي بن الحسين بن أبي‌الحسن علي بن محمّد بن أبي‌الحسن بن محمّد بن عبدالله بن أحمد بن حمزة الأصغر بن سعدالله بن حمزة الأكبر القصير بن محمّد بن عبدالله بن محمّد بن علي الديلمي بن عبدالله بن محمّد المحدّث بن طاهر بن الحسين القطعي بن موسى الثاني بن إبراهيم المرتضى بن موسى الكاظم الحسيني الموسوي العاملي الجبعي.

قال السيد عبّاس المكّي في كتابه نزهة الجليس: جهبذ نحرير فاضل، فما الصاحب لديه وما الفاضل، تفرّد بعلم البديع والمعاني، ففاق البديع الهمداني، وتوحّد بالنحو والصرف، فلو عاصره سيبويه والتفتازاني ما نطقا في حضرته بحرف، وتعزّز في اللغة وعلوم الأوائل، فبارز في حلبة الفصاحة والبلاغة قسّ بن ساعدة وسحبان ابن وائل.

وتبحّر في سائر العلوم، وتفنّن في المنطوق والمفهوم، إلىٰ كرم يخجل قطر المطر، وأخلاق ألطف وأرقّ من نسمة السحر، أفضل من نثر الدرّ من البلغاء، ونظم وفضل علي أشهر من نار علىٰ علم.

كان بمكّة المشرّفة كالحجر الأسعد الأسود يستلمه تيمّناً وتبرّكاً به الأبيض ⇩

ابن العالم العلاّمة المرحوم المقدّس السيّد نورالدين بن أبي‌الحسن، المترجم في سلافة العصر⁽¹⁾، الشامي بلداً، والمكّي مولداً وموطناً، رحمه الله رحمة الأبرار،

← والأسود، وما برح مشهوراً بكلّ فضل لدى البادي والحاضر، وموقراً ومكرماً عند السادة آل الحسن، وجميع الرؤساء والوزراء والأكابر، إلىٰ أن دعاه إلىٰ جواره الكريم، فنقله من دار الدنيا الفانية إلىٰ جنّة النعيم، صبح ثامن عشر من ذي‌الحجّة الحرام عام ألف ومائة وتسع عشرة من هجرة خير الأنام، وأرّخ وفاته أخي السيّد مصطفىٰ نثراً بقوله «دخل الجنّات» رحمه الرحيم الرحمٰن، وأسكنه بحبوحة الجنان.

وله كلّ قصيدة تهزأ باللؤلؤ المنثور، وتخجل بحسنها الورد والياسمين والمنثور، فمن شعره السهل الممتّع الرقيق، ونظمه المنسجم المنسبك الأنيق، ثمّ ذكر ما أورده المؤلّف هنا.

أقول: قال المؤلّف في وفاته: إنّه توفّي ثامن عشر شهر محرّم الحرام من السنة المذكورة، وقال السيّد عبّاس في النزهة: إنّه توفّي صبح ثامن عشر من ذي‌الحجّة الحرام عام ألف ومائة وتسع عشرة من هجرة خير الأنام.

(١) قال الحرّالعاملي: كان عالماً فاضلاً أديباً شاعراً منشئاً، جليل القدر، عظيم الشأن، قرأ علىٰ أبيه وأخويه السيّد محمّد صاحب المدارك وهو أخوه لأبيه، والشيخ حسن ابن الشهيد الثاني وهو أخوه لأمّه. له كتاب شرح المختصر النافع أطال فيه المقال والاستدلال لم يتمّ، وكتاب الفوائد المكّية، وشرح الاثني‌عشرية في الصلاة للشيخ البهائي، وغير ذلك من الرسائل، ثمّ ذكر جملة من كلام المدني في السلافة.

ثمّ قال: وقد رأيته في بلادنا وحضرت درسه بالشام أيّاماً يسيرة وكنت صغير السنّ، ورأيته بمكّة أيضاً أيّاماً، وكان ساكناً بها أكثر من عشرين سنة، ولمّا مات رثيته بقصيدة طويلة ستّة وسبعين بيتاً نظمتها في يوم واحد، وأوّلها:

⇩

على مثلها شقّت حشاً وقلوب إذا شقّقت عند المصاب جيوب
لحا الله قلباً لا يذوب لفادح تكاد له صمّ الصخور تذوب
جرىٰ كلّ دمعٍ يوم ذاك مرخّماً وضاق فضاء الأرض وهو رحيب
على السيّد المولى الجليل المعظّم النبيل بعيد قد بكىٰ وقريب
خبا نور دين الله فارتدّ ظلمةً إذا اغتاله بعد الطلوع مغيب
فكلّ جليلٍ بعد ذاك محقّر وكلّ جميلٍ بعد ذاك معيب
فمن ذا يمير السائلين وقد مضىٰ ومن لسؤال السائلين يجيب
ومن ذا يحلّ المشكلات بفكره تبين خفي العلم وهو غيوب
ومن ذا يقوم الليل لله داعياً إذا عزّ داعٍ في الظلام منيب
ومن ذا الذي يستغفر الله في الدجىٰ ويبكي دماً أن قارفته ذنوب
ومن يجمع الدنيا مع الدين والتقىٰ مع الجاه إنّ المكرمات ضروب
لتبك عليه للهداية أعينٌ ومدمعها منها عليه صبيب
وتبك عليه للتصانيف مقلةٌ تقاطر منها مهجةٌ وقلوب
وتبك عليه قدس الله روحه معالم دينٍ في حشاه لهيب
فضائل تزري بالفضائل رفعةً فأعلى المعالي من سواه عيوب

وقال السيّد عبّاس المكّي: جهبذ تأمّلت أوصافه فلم أر أحسن مِن مَن وصفه أديب العصر في السلافة.

قال المدني في السلافة: طود العلم المنيف، وعضد الدين الحنيف، ومالك أزمّة التأليف والتصنيف، الباهر بالرواية والدراية، والرافع لخميس المكارم أعظم راية، فضل يعثر في مداه مقتفيه، ومحلّ يتمنّى البدر لو أشرق فيه، وكرم يخجل المزن

⇩

ـه الهاطل، وشيم يتحلّىٰ بها جيد الزمن العاطل، وصيت من حسن السمعة بين السحر والنحر.

فسار مسير الشمس في كلّ بلدةٍ وهبّ هبوب الريح في البرّ والبحر

حتّىٰ كأنّ رائد المجد لم ينتجع سوىٰ جنابه، وبريد الفضل لم يقعقع سوىٰ حلقة بابه، وكان له في مبدأ أمره بالشام، مجال لا يكذبه بارق العزّ إذا شام، بين إعزاز وتمكين، ومكان في جانب صاحبها مكين.

ثمّ انثنىٰ عاطفاً عنانه وثانيه، فقطن بمكّة شرّفها الله تعالىٰ وهو كعبتها الثانية، تستلم أركانه كما تستلم أركان البيت العتيق، وتستنسم أخلافه كما يستنسم المسك العبيق، يعتقد الحجيج قصده من غفران الذنوب والخطايا، وينشد بحضرته تمام الحجّ أن تقف المطايا.

وقد رأيته بها وقد أناف على التسعين، والناس تستعين به ولا يستعين، والنور يسطع من أسارير جبهته، والعزّ يرتع في ميادين جدهته، ولم يزل بها إلىٰ أن دعي فأجاب، وكأنّه الغمام أمرع البلاد فانجاب، وكانت وفاته لثلاث عشرة بقين من ذي الحجّة الحرام سنة ثمان وستّين وألف رحمه الله تعالىٰ.

وله شعر يدلّ علىٰ علوّ محلّه، وإبلاغه هدى القول إلىٰ محلّه، فمنه قوله متغزّلاً:

يا من مضوا بفؤادي عند ما رحلوا من بعد ما في سويد القلب قد نزلوا
جاروا علىٰ مهجتي ظلماً بلا سببٍ فليت شعري إلىٰ من في الهوىٰ عدلوا
وأطلقوا عبرتي من بعد بعدهم والعين أجفانها بالسهد قد كحلوا
يا من تعذّب من تسويفهم كبدي ما آن يوماً لقطع الحبل أن تصلوا
جادوا علىٰ غيرنا بالوصل متّصلاً وفي الزمان علينا مرّةً بخلوا

⇩

كيف السبيل إلىٰ من في هواه مضىٰ عمري وما صدّني عن ذكره شغل
وا حيرتىٰ ضاع ما أوليت من زمنٍ إذ خاب في وصل من أهواهم الأمل
في أيّ شرعٍ دماء العاشقين غدت هدرىٰ وليس لهم ثارٌ إذا قتلوا
يا للرجال من البيض الرشاق أما كفاهم ما الذي بالناس قد فعلوا
من منصفي من غزالٍ ما له شغلٌ عنّي ولا عاقني عن حبّه عمل
نصبت إشراك صيدي في مراتعه والصيد فنّي ولي في طرقه حيل
فصاح بي صائحٌ خفّض عليك فقد صادوا الغزال الذي تبغيه يا رجل
فصرت كالواله الساهي وفارقني عقلي وضاقت على الأرض والسبل
وقلت بالله قل لي أين سار به من صاده علّهم في السير ما عجلوا
فقال لي كيف تلقاهم وقد رحلوا من وقتهم واستجدّت سيرها الإبل

وقوله مادحاً بعض الأُمراء وهو من غرر كلامه ودرر نظامه:

لك الفخر بالعليا لك السعد راتب لك العزّ والاقبال والنصر غالب
لك المجد والإجلال والجود والعطا لك الفضل والنعما لك الشكر واجب
سموت علىٰ هام المجرّة رفعةً ودارت علىٰ قطبي علاك الكواكب
فيا رتبةٌ لو شئت أن تبلغ السهىٰ بها أقبلت طوعاً إليك المطالب
بلغت العلا والمجد طفلاً ويافعاً ولا عجب فالشبل في المهد كاسب
سموت علىٰ قبّ السراحين صائلاً فكلّت بكفّيك القنا والقواضب
وحزت رهان السبق في حلبة العلا فأنت لها دون البريّة صاحب
وجلّت بحومات الوغىٰ جول باسلٍ فردّت علىٰ أعقابهنّ الكتائب
فلا الذارعات المعتمات تكنّها ملابسها لما تحنّ المضارب

⇩

▲ولا كثرة الأعداء تغني جموعها ... إذا لمعت منك النجوم الثواقب
خض الحتف لا تخش الردىٰ واقهر العدىٰ ... فليس سوى الاقدام في الرأي صائب
وشمّر ذيول الحزم عن ساق عزمها ... فما ازدحمت إلاّ عليك المراتب
إذا صدقت للناظرين دلائل ... فدع عنك ما تبدي الظنون الكواذب
ببيض المواضي يدرك المرء شأوه ... وبالسمران ضاقت تهون المصاعب
لأسلافك الغرّ الكرام قواعدٌ ... علىٰ مثلها تبنى العلىٰ والمناصب
زكوت وحزت المجد فرعاً ومحتداً ... فآباؤك الصيد الكرام الأطائب
ومن يزك أصلاً فالمعالي سمت به ... ذرى المجد وانقادت إليه الرغائب
بنو عمّكم لمّا أضاءت مشارق ... بكم أشرقت منهم علينا مغارب
وفيكم لنا بدرٌ من الغرب طالع ... فلا غرو أن كانت لديه العجائب
هو الفخر مدّ الله في الأرض ظلّه ... ولا زال تجلي من سناه الغياهب
إلىٰ حلب الشهباء منّي بشارة ... تعطّرها حتّىٰ تفوح الجوانب
إذا ما مضىٰ من بعد عشرٍ ثلاثةٌ ... من الدور فيها تستتمّ المآرب
لقد حدّثت عنها أُولوا العلم مثلما ... جرىٰ وانقضت تلك السنون الجواذب
بدا سعدها لمّا علي بدا بها ... ويا طالما قد أنحست وهو غارب
وفوز علي بالعلىٰ فوزها به ... فكلٌّ إلىٰ كلٍّ مضافٌ مناسب
كأنّي بسيف الدولة الآن وارداً ... إليها يلاقي ما جنته الثعالب
لقد جادها صوب الحيا بعد محلّها ... وشرّفها من أحكمته التجارب
كريمٌ إذا ما أمحل الغيث أمطرت ... أياديه جوداً منه تصفو المشارب
أديبٌ أريبٌ لو تجسّم لفظه ... أصابته عقداً محورٌ للكواعب

⇩

وحشرهم مع أجدادهم الأئمّة الأطهار عليهم السلام.

وكان هذا السيّد من أكابر السادة، وممّن ثنيت له بين أرباب العلوم الأدبيّة الوسادة، مع أخلاق حسنة، وصفات مستحسنة، وشعر أرقّ من النسيم، وأعذب من عصر الشباب الرميم، فمن شعره متغزّلاً:

أيا قلب بح مستشهراً بهوى دعد ... وغص جاسراً لجّ الصبابة والودّ
ولا تعدلنّ عن حبّها ولو أنّها ... صلتك بنيران الصدود وبالبعد
عليك بها عذراء معمولة اللمىٰ ... معقربة الصدغين فاحمة الجعد
مدملجة الساقين مهضومة الحشا ... موردة الخدّين ممشوقة القدّ
إذا ما بدت تختال في حلل البها ... فيا خجلة السمر المثقفة الملد
عجبت لجسمٍ كالحرير منعّم ... يضمّ فؤاداً قدّ من حجرٍ صلد
لها الله من رعبوبةٍ سفكت دمي ... بمرهف ماضي اللحظ قتلاً علىٰ عمد
تعشّقتها أخت المهاة خريدةً ... ثوىٰ حبّها في القلب مذ كنت في المهد
فعنّي إليك اليوم يا عاذلي اتّئد ... أتحسب أنّ النصح في حبّها يجدي

هـ فيا أيّها المنصور بشراك رتبةٌ ... بها السعد حقّاً والسرور مواظب
مدحتكم والمدح فيكم تجارةٌ ... بها تثمر النعما وتغلو المكاسب
إلىٰ باب علياكم شددت رواحلي ... ويا طالما شدّت إليها الركائب
بها الفضل منشورٌ بها الجود وافر ... بها فتح من سدّت عليه المذاهب
وماذا عسىٰ أن يبلغ الوصف فيكم ... إلىٰ غايةٍ هل ينقص البحر شارب
فلا زلتم في أكمل السعد والهنا ... مدى الدهر ما مالت وماست ذوائب

سلافة العصر ص ٣٠٢ ـ ٣٠٤.

أتعذلني في حبّ دعد ضلالةً وتزعم يا مغرور أنّك ذو رشد
أيقبل فيها اللوم سمعي وقد سرت محبّتها في الجسم بالعكس والطرد
وأقسم بالمسوّد من مسك خالها وبالشفق المحمّر من صفحة الخدّ
وبالمقلة البخلاء والمبسم الذي تستّر بالياقوت والمرشف الشهد
لو أنّك تشكو ما بقلبي عذرتني وما لمت لكن ليس عندك ما عندي

ومن شعره أيضاً مصدّراً ومعجزاً قصيدة لذي الوزارتين عيسى بن اللبون، أوردها الفتح بن خاقان في قلائد العقيان[1] في ترجمة المذكور، فقال:

خليلي عوجا بي علىٰ مسقط اللوىٰ لدى البان عن يمني الكثيب لتوجرا
قفا بي قليلاً لا عدمت وفاكما لعلّ رسوم الدار لم تتغيّرا
فأسأل عن ليلٍ تولّىٰ بأنسنا وعصرٍ مضىٰ كالحمّ في سنة الكرىٰ
وألثم آثار الأُلىٰ سكنوا الحشا وأندب أيّاماً تقضّت وأعصرا
ليالي إذا كان الزمان مسالماً وأمري عليه نافذ الحكم في الورىٰ
إذ الخرد البيض الدما تحت قبضتي وإذ كان غصن العيش فينان أخضرا
وإذ كنت أسقي الراح من يد أغيد أغنّ عفيف النفس بالروح يشترىٰ
معتّقةً في الدنّ من عهد جرهمٍ يناولنيها رايحاً ومبكّرا
أُعانق منه الغصن يهتزّ ناعماً وأرشف منه الثغر شهداً وكوثرا

---

(١) هو كتاب قلائد العقيان في محاسن الأعيان، تأليف أبي‌النصر الفتح بن عيسى ابن خاقان القيسي المتوفّىٰ قتيلاً سنة (٥٣٥) جمع فيه من شعراء المغرب طائفة، وذكر أشعارهم، وجعله علىٰ أربعة أقسام: الأوّل في الملوك، الثاني في الوزراء، الثالث في القضاة والعلماء، الرابع في الأُدباء والشعراء.

وأقـطف مـن وجـنانه الورد يـانعاً وألثـم مـنه البـدر يـطلع مـقمرا
وقد ضـربت أيـدي الأمـاني قـبابها بسـاحتنا والهـمّ ولّـىٰ وأدبـرا
ومـدّت لويـلات التـهاني رواقـها عـلينا وكـفّ الدهـر عـنّا وأقـصرا
وما شئت من لهوٍ وما شئت من ودٍ(١) وما شئت من قد حكي الغصن مثمرا
وما شئت من وجـهٍ يـروقك حسـنه ومـن مـبسمٍ يـجنيك عـذباً مـؤثّرا
وما شئت مـن عـودٍ يـغنيك مـفصحاً ومن غـادةٍ تشـجيك صـوتاً ومـنظرا
تحرّك منك الوجـد إن هـي أنشـدت سما لك شـوقٌ بـعد مـا كـان أقـصرا
ولكـنّها الدنـيا تـخادع أهـلها فـتضحكهم يـوماً ويـبكون أعـصرا
وذو العـقل لم يـركن إليـها فـإنّها تـغرّ بـصفوٍ وهـي تـطوي تكـدّرا
لقـد أوردتـني بـعد ذلك كـلّه مـواردكـم أردت انـاساً ومـعشرا
على الرغم منّي كان قسـراً ورودهـا مـوارد مـا الثـيت عنهنّ مـصدرا
وكـم كـابدت نـفسي لهـا مـن مـلمّةٍ ومن كلّ خـطبٍ كـان حـتماً مـقدّرا
وكـم مـحنةٍ قـضّيتها مـتصبّراً وكم بات طرفي مـن أسـاها مسـهّرا
خليلي ما بالي علىٰ صدق عـزمتي إذا رمت مـن دنـياي أمـراً تـعسّرا
إلىٰ مَ ولي نـفسٌ تـروم اقـتنا العـلا أرىٰ مـن زمـاني ونـية وتـعذّرا
ووالله مـا أدري لأيّ جـريمةٍ أصـرّ عـلىٰ كـيدي وللـغدر أضـمرا
ومـا عـلمت نـفسي بأيّ جـنايةٍ تـجنّىٰ ولا عـن أيّ ذنبٍ تـغيّرا
ولم أك عـن كسب المكـارم عـاجزاً إذا الغـير أبـدىٰ عـجزه وتأخّـرا
ولا كـنت ممّن تألف القـبض كـفّه ولا كـنت عـن نـيلٍ أنيل مـقصّرا

---

(١) في «ن»: ددٍ.

لئــن شـاء تـمزيق الزمـان لدولتـي ... فــما كـــان إلاّ واعــظاً لي ومـنذرا
جزى الله هـذا الدهـر خـير جـزائـه ... لقــد ردّ عـــن جــهلٍ كـثيرٍ وبـصّرا
وأيــقظ مـــن نـــوم الغـــرارة نـائماً ... وأهـــلك قـــدماً مـن طـغىٰ وتـجبّرا
ولله مــــن سكـــر الجـــهالة غــافلاً ... وأكسب علماً بـالزمان وبـالورىٰ(١)

وفاة الشيخ عبدالله طرفة المكّي :

وفي سنة عشرين ومائة وألف توفّي الشيخ الجليل الفقيه عبدالله طرفة المكّي، ولد بمكّة المشرّفة، واجتهد في طلب العلم، وأخذ عن عدّة من المشـايخ، حـتّىٰ تفنّن في العلوم، وتصدّر للتدريس بالمسجد الحرام(٢) .

وفاة الشيخ حسين الخطيب :

وفي سنة إحدىٰ وعشرين ومائة وألف، توفّي الشيخ الأجلّ الأفضل الأعـلم الأعمل، الشيخ حسين بن عبدالرحيم الخطيب والإمام بالمسجد الحرام، صحب الفضلاء والأعيان، كالعلاّمة الشيخ محمّد بن سليمان، وغيره من المشايخ الجلّة، فلبس من العلوم أفخر حلّة، وحلّ إلى الديار الروميّة صـحبة السـيّد سـعيد بـن بركات، وحصل له قبول تامّ عند أعيان تلك الجهات، ثمّ عـاد إلىٰ مكّـة صـحبة مخدومه، ونشر بها نتائج منطوقه ومفهومه، وتظاهر برئاسة سنيّة، مع علوّ مكانته عند السادة الحسنيّة، كلّ ذلك كان بحلول نظر أُستاذه وشيخه، الشيخ محمّد بـن سليمان، تغمّده الله بالرحمة والرضوان .

ثمّ بعد انتقال الشريف سعد بن بركات لزم داره، واشتغل بالعبادة ليله ونهاره،

---

(١) راجع: نزهة الجليس ١: ٥٠ ـ ٥٢ .

(٢) راجع: إتحاف فضلاء الزمن ٢: ٣٠٨ .

وأخذ الطريقة، عن أئمّة الحقيقة، كالسيّد سعدالله، والشيخ محمّد البخشي، وغيرهما، فلازم الأذكار الفاخرة، إلىٰ أن نقل إلىٰ دار الآخرة، وذلك في ليلة الثامن والعشرين من شهر رمضان من السنة المذكورة.

وفاة السيّد علي بن أحمد المدني:

وفي هذه السنة: توفّي إمام العلوم الأدبيّة على الإطلاق، والسائر صيته العالي في جميع الآفاق، صاحب التآليف العديدة، والتصانيف المفيدة، العالم العلّامة، والفاضل الفهّامة، السيّد علي (١) ابن السيّد الجليل، والسند الأصيل، والمتفيّىء من

---

(١) هو العلّامة السيّد علي خان صدرالدين المدني الشيرازي بن الأمير أحمد بن محمّدمعصوم بن أحمد بن إبراهيم بن سلام الله بن مسعود عمادالدين بن محمّد صدرالدين بن الأمير منصور غياث الدين بن محمّد صدرالدين بن إبراهيم شرف الدين بن محمّد صدرالدين بن إسحاق عزّالدين بن علي ضياءالدين بن عربشاه فخرالدين بن أنبه عزّالدين بن أميري بن الحسن بن الحسين العزيزي بن أبي‌سعيد علي بن زيد الأعشم بن أبي‌شجاع علي بن محمّد بن علي بن جعفر بن أحمد السكين بن جعفر الشاعر بن محمّد بن زيد الشهيد.

قال ابن شدقم: أحد أعلام الأدب، يعرف بابن معصوم، من تصانيفه سلافة العصر في محاسن الشعراء بكلّ مصر، ثمّ ذكر نماذج من أدبه استخرجها من كتابه السلافة.

وقال الحرّ العاملي: من علماء العصر، عالم فاضل ماهر أديب شاعر، له كتاب سلافة العصر في محاسن أعيان العصر حسن جيّد، جمع فيه أهل العصر ومن قاربهم ممّن تقدّم زمانه قليلاً، وذكر أحوالهم ومؤلّفاتهم وبعض أشعارهم، نقلنا منه كثيراً في هذا الكتاب.

⇩

ﻫ وقال الصنعاني: أحد الأعيان، فاضل استحقّ التقديم بنصّ الأدب الجلي، ورمىٰ ابن حجّة رمي الجمار بتقديم علي، وأدار من أدبه على العقول سلافة العصر، وفجّر ما اندمل من جراح حاسدة فظلّ الحاسد بالفجر، فصاحب الغيث من الغرقا ببحره الزاخر، وابن الأثير محترق بناره، وذكر فضله الذي هوالمثل السائر.

ولد في المدينة المشرّفة، وأخبرني السيّد مصطفى بن علي نورالدين الشامي المكّي الحسيني: أنّ السيّد علي بن أحمد في هذا الوقت سنة أربع عشرة ومائة وألف بعسكر ملك الهند، وهو ممّن اشتهر فضله وعرف بتصانيفه نبله، وكتابه سلافة العصر لم يصل إلى اليمن.

ثمّ إنّي رأيت بخطّ القاضي شمس الدين أحمد بن ناصر بن عبدالحقّ أنّه وقف عليه ببندر المخا، فقال: أطلعني علىٰ نسخة منه بعض الاخوان، ذكر أنّها عارية عنده من الشيخ سليمان بن محمّد الوزير، وذكر مؤلّف الكتاب المذكور في خطبته: أنّه شرع في تأليفه في بلاد الهند في أواخر سنة احدىٰ وثمانين وألف، وفرغ منه يوم الخميس لسبع خلون من ربيع الثاني سنة اثنتين وثمانين وألف.

وذكر أنّه قصّر كتابه علىٰ ذكر محاسن أهل المائة الحادية عشرة، ورتّبه علىٰ خمسة أقسام:

الأوّل: في محاسن أهل الحرمين الشريفين والمحلّين المنيفين.

القسم الثاني: في محاسن أهل الشام ومصر ونواحيهما ومن تصدّر من الفضلاء في صدور نواديها.

القسم الثالث: في محاسن أهل اليمن المقلّدين بعقود آدابهم جيد الزمن.

القسم الرابع: في محاسن أهل العجم والعراق، وإيراد ما رقّ من لطائفهم وراق.

⇩

ـ القسم الخامس: في محاسن أهل المغرب، وإثبات شيء من نظمهم المطرب، والعذر في تأخير قسمتهم عن سائر الأقسام رعاية النكتة في المغرب للختام، وإلاّ فلهم السبق والبداية، ولا غرو أن انتهت إليهم الغاية. وإذا أشرق إن شاء الله تعالىٰ بدره المنير من أُفق التمام، وتفتّق زهره النظير من حجب الكلام، وسمّيته بسلافة العصر في محاسن أعيان العصر.

ثمّ قال بعد ذلك: فإنّي أنشأته عن فكر قد صلد زنده، في بلد عربه عجمه وهنده، لم يقم للأدب فيه سوق، ولا عرف به غير الكفر والفسوق.

وحججت أنا سنة أربع عشرة ومائة وألف، واتّفق ورود السيّد جمال الدين إلىٰ مكّة، فلقيته وسمعته يحكي أنّه أقام بالهند ثماني وأربعين سنة، وكتبت إليه قصيدة طائيّة عارضت بها قصيدة ابن بليطة الأندلسي في قصيدته المشهورة التي مدح بها المعتصم بن صمادح، وهي طويلة جيّدة مذكورة في ديوان شعري.

ثمّ قال: ومن مؤلّفاته أيضاً: شرح صحيفة الإمام زين العابدين عليه السلام، وله اعتراضات علىٰ صاحب القاموس، وله كتاب أنوار الربيع في أنواع البديع، أجاد فيه غاية الإجادة، ورأيته ونقلت منه ممّا أورده لنفسه في التورية، وذكر أنّه لم يسبق إليه:

ليس احمرار لحاظه من علّة ... لكن دم القتلىٰ على الأسياف
قالوا تشابه طرفه وبنانه ... ومن البديع تشابه الأطراف

ومنه له أيضاً:

إلى الله ممّا يلاقي المحبّ ... بليلىٰ وما نال في الحبّ نيلا
قضى العمر بين بكا واشتياق ... فيبكي نهاراً ويشتاق ليلا

⇩

وأورد فيه لنفسه أيضاً من أبيات :

بـدا بـدراً ولاح لنـا هـلالاً ... وأشرق كوكباً واهتزّ غـصنا
وثنّىٰ قدّة الحسن ارتـياحا ... فهام القلب بالحسن المثنّىٰ

وله أيضا :

عـجباً لمـن مـنّ الحـبيب عـليه ... وحـباه بـالتقبيل وهـو لديـه
كيف اشتكى ضعف الفؤاد من الجوىٰ ... ومـفرّح اليـاقوت فـي شـفتيه

وأجاد ما شاء بقوله في مسمعة اسمها فنون :

ذهبت فـنون مسـرّتي فـتنوّعت ... في القلب من وجد فنون شجوني
يـا مـن بكـاه لفـقد فـنٍّ واحـد ... إنّـي امـرؤ أبكـي لفـقد فـنون

وله من أبيات رقيقة :

يا جيرة حفروا من بعد مـا خـفروا ... لم يرع مجدكم عـمّا أتـىٰ خـفروا
بالله هل كان ذنـباً أن وثـقت بكـم ... أم كـان وزر رجـائي إنّكـم وزر
لم أدر أنّ النّـوىٰ يـعفو مـودّتنا ... فـيصبح الودّ لا عـين ولا أثـر
وعاد غرس ودادي فـي جـنابكم ... كـبقلة الرمـل لا ظـلّ ولا ثـمر
كاتبتكم عن هوىٰ ما كنت أحسبه ... يـعدّ ذنـباً لديكـم ليس يـغتفر
أما اقتضت سنّة المـعروف عـندكم ... ردّ الجواب وإن لم يقض لي وطـر

ومحاسن شعره وفضله وأدبه كثير، والاختصار علىٰ ما دلّ مقصود .

وقال السيّد عبّاس المكّي: رئيس بعد صيته، ولان له عطف العزّ وليته، حتّىٰ صار نادرة الزمان، وواسطة عقد البلاغة والبيان، وإمام الفضل والأدب، والعلم الموروث والمكتسب، فاضل لا تسجع الحمائم بدون نسيبه، ولا يترنّم المحبّ الهائم بسوىٰ

⇩

⇐غزله في حبيبه، لو هزّ خطّي بلاغته وسطا، لأنشأ في السطور أُمّة وسطا، شعره كثير الفنون، ونثره سلوة المحزون، له المعاني العجيبة الأنيقة، والألفاظ البليغة الرقيقة، إن نظم لم يبق للطلا طلاوة، أو نثر لم يترك للزهر حلاوة.

ولد بمكّة المشرّفة، ورفل في حللها المفوّفة، ثمّ سافر إلى الهند وأقام بها في كنف والده، وبها تخرّج علىٰ عدّة من الجهابذة، حتّىٰ أقرّت له بالفضل جميع الأساتذة.

وأمّا والده المنتجب، فكان فريد عصره في فنون الأدب، خصوصاً في معرفة كلام العرب، حفظ القرآن المجيد وجوّده بالسبع، وأخذ الفقه عن الشيخ شرف الدين بافقي، والحديث عن جدّي السيّد نور الدين، والعربيّة عن الملاّ علي المكّي، والمعقولات عن الشمس الجيلاني، وكان في الحفظ غاية لا تدرك، وأمّا في شهامة النفس وسخاوة الكفّ، فبه يضرب المثل.

دخل إلى الديار الهنديّة سنة أبع وخمسين وألف، واجتمع بقطب شاه حيدرآباد، فأكرمه غاية الاكرام، وزوّجه بابنته، واستوزره وحكّمه في جميع مملكته، فلم يزل في رتبة عليّة، وعيشة هنيئة، إلىٰ أن أفلت شموس السلطنة الدكنيّة، واستولىٰ على السلطنة سلطان الهند محمّد أُورنقزيب، وذلك في مفتتح سنة ثلاث وثمانين وألف.

ولهذا السيّد المجيد نظم فريد ورسائل، يتحلّىٰ بها جيد الدهر العاطل، وأحسن ما سمعت من نظمه قوله في غلام له غضب عليه فضربه:

تـرآىٰ كـظبي نـافرٍ مـن حـبائل ... يصول بـطرفٍ فـاترٍ مـنه فـاتر

وقد ملئت عيناه من سحب جفنه ... كنرجس روضٍ جاده وبل ماطر

وتوفّي السيّد المذكور بحيدرآباد سنة خمس وثمانين وألف رحمه الله تعالىٰ، وأرّخ وفاته ولده صاحب هذه الترجمة بقوله:

⇩

حزنت لموتك طيبة ومنىٰ وزمزم والحطيم
فلذا أتىٰ ببديهة تاريخه حزن عظيم

ثمّ عاد صاحب الترجمة من الهند إلىٰ بلد الله الحرام عام أربعة عشر ومائة وألف من هجرة الشفيع في الخاصّ والعامّ، فحجّ ثمّ سافر إلىٰ بلاد فارس، وبها دنت وفاته، فمات بشيراز عام تسعة عشر أو عشرين ومائة، ودفن بحرم الشاه چراغ رحمه الله تعالىٰ.

وله التصانيف الكثيرة المفيدة الشهير، منها شرح الفوائد الصمديّة في النحو، وهو كتاب جليل، وشرح الصحيفة الكاملة للإمام زين العابدين علي بن الحسين عليهماالسلام، وهو كتاب جليل لا له مثيل، وأنوار الربيع في أنواع البديع شرح بديعيته، وسلافة العصر في محاسن أعيان العصر تاريخ عجيب، والطراز في علم اللغة، وهو كتاب فريد الوجود نحا به نحو القاموس، وأورد علىٰ صاحب القاموس إيرادات، وزاد علىٰ قاموسه لغزارة فضله زيادات، وله ديوان شعر فريد جمع فيه كلّ درّ نضيد، فمن بليغ شعره قوله وهو من رقيق خمرياته:

أمّا الصبوح فإنّه فرضٌ فألام يكحل جفنك الغمض
هذا الصبوح بدت بشائره ولخيله في ليله ركض
والليل قد شابت ذوائبه وعذاره بالفجر مبيض
فانهض إلىٰ حمراء صافيةٍ قد كاد يشرب بعضها بعض
يسقيكها من كفّه رشأٌ لدن القوام مهفهفٌ بضّ
سيّان خمرته وريقته كلتاهما عنبيةٌ محض
تدمى اللواحظ خدّه نظراً فاللحظ في وجناته عضّ

⇩

ـه من ضمّه فتح السرور له ... باباً وكان لعيشه الخفض
باهت وقد أبدىٰ محاسنه ... قمر السماء بحسنه الأرض
يسعىٰ بها كالشمس مشرقةً ... للعين عن إشراقها غضّ
والكأس إذا تهوي بها يده ... نجمٌ بجنح الليل منقضّ
بات الندامىٰ لا حراك بهم ... إلاّ كما يتحرّك النبض
في روضةٍ يهدىٰ لنا شقّها ... أرج الحبائب زهرها الغضّ
ختم الحيا أزهارها فغدا ... بيد النسيم لختمها فضّ
فاشرب علىٰ حافاتها طرباً ... وانهض لها ما أمكن النهض
لا تنكرن لهوي علىٰ كبرٍ ... فعلي من عهد الصبا فرض
أغرى العذول بلومه شغفي ... فكأنّما إبرامه نقض
خالفته والرأي مختلفٌ ... شأني الوداد وشأنه البغض
مهلاً فليس علىٰ الفتىٰ دنسٌ ... في الحبّ ما لم يدنس العرض

وقوله وهو أيضاً من شهي خمرياته أيضاً:

قم هاتها وحسام الصبح منذلق ... صهباء منها ضياء الصبح ينفلق
لم ندر حين توافينا أصبغتها ... تلوح أم وجنة الساقي أم الشفق
كأنّها في الدجىٰ شمسٌ تضيء لنا ... فينجلي عن سنا أنوارها الغسق
ألقت على الصبح لوناً من أشعّتها ... فاحمرّ من خجل من نورها الأُفق
عذراء تغضي حياءً من ملامسها ... فيستحيل حباباً فوقها العرق

ومن قصيدته:

ألبستها الكاس طوقاً ذهباً ... وحباها باللآلي الحبب

⇩

كهف الشرف الأثيل، ظلّه الظليل، السيّد أحمد نظام الدين بن معصوم رحمه الله .

وكان هذا السيّد نادرة الدهر، وواسطة عقد الفخر، غاص في بحار العلوم

← عجبوا من نورها إذ أشرقت ... وشذاها من سناها أعجب

بنت كرمٍ كرمت أوصافها ... أيّ بنتٍ قام عنها العنب

وقوله هذه القصيدة الغرّاء :

يا دارمية باللوىٰ فالأجرع ... حياك منهل الحيا من أدمعي

وسرىٰ نسيم الروض يسحب ذيله ... بمصيف أنسٍ في حماك ومربع

لولم تبيتي من أنيسك بلقعاً ... ما بتّ أندب كلّ دارٍ بلقع

لم أنس عهدي والأحبّة جيرةٌ ... والعيش صفوٌ في ثراك الممرع

أيّام لا أصغي للومة لائم ... سمعاً وإذ تغري الصبابة مسمعي

حيث الربىٰ تسري بريّاها الصبا ... والروض زاهي النور عذب المشرع

تحنو عليّ عواطفاً أفنانه ... عند المبيت به حنو المرضع

والورق في أعلى الغصون سواجع ... تشدو بمرأىٰ من سعادٍ ومسمع

كم بتّ فيه صريع كاسٍ مدامةً ... حلف البطالة لا أفيق ولا أعي

أصبو بقلبٍ لا يزال موزّعاً ... في الحبّ بين معمّمٍ ومقنّع

ما ساءني إن كنت أوّل مغرمٍ ... بجمال ربٍّ رداً وربّة برقع

يعتادني زهو الشباب وعفّتي ... فيه عفاف الناسك المتورّع

لله أيّامي بمنعرج اللوىٰ ... حيث الهوىٰ طوعي ومن أهوىٰ معي

لم أنسه والبين ينعق بيننا ... متصاعد الزفرات وهو مودعي

إن شبّ في قلبي الغضا بفراقه ... فلقد ثوىٰ بالمنحني من أضلعي

أتجشّم السلوان عنه تكلّفاً ... والطبع يغلب شيمة المتطبّع

وشعره المطبوع كثير، اقتصرت منه علىٰ هذا القدر اليسير .

العربيّة، فظفر منها بجواهر القواعد الأدبيّة، فصنّف وألّف، وتقدّم وما تخلّف، صنّف في علم اللغة كتابه الذي سمّاه الطراز[١]، فصار إمام كتب اللغة على الحقيقة لا المجاز، نحىٰ به نحو نسق القاموس، وزاد عليه زيادات مع إيرادات لا تصدر إلاّ عن مثله، في غزارة معرفته وفضله.

وله سلافة العصر في محاسن أعيان العصر[٢]، عارض به قلائد العقيان، لمحك الأدب الفتح بن خاقان، ترجم فيه أعيان عصره، بنثر بارع، ليس له مقارب ولا مضارع.

وله كتاب أنوار الربيع في أنواع البديع[٣]، صنّفه علىٰ نسق شرح ابن حجّة، إلاّ أنّ دليل التقديم قويّ الحجّة، واضح المحجّة.

وله شرح الصحيفة الكاملة[٤] للإمام علي بن الحسين عليه السلام، وهو ممّا تطيب به النفس، وتقرّ به العين، رأيت منه أجزاءً عديدة، ووقعت منها علىٰ مسائل مفيدة.

وله شرح الفوائد الصمديّة في النحو، وهو كتاب جليل جامع لما في هذا العلم من مختلفات الأقاويل. وله غير ذلك من المصنّفات النافعة، والمؤلّفات الرائعة.

وله أيضاً ديوان شعر مشهور، هو في الحقيقة روض ممطور، ودرّ منثور، وحديقة من زهور، فمن لطيف شعره قوله:

ولمّا التقينا بالعذيب عشيةً ... وفاز بمن يهوي مشوقٌ وشائق

---

(١) طبع أخيراً في قم علىٰ أحسن حال.

(٢) طبع بمصر قديماً غير مصحّح.

(٣) طبع في النجف الأشرف مصحّحاً.

(٤) يقال له: رياض السالكين، طبع بقم في سبع مجلّدات مصحّحاً.

تبسّم من أهوىٰ فقلت لصاحبي ... بلغت المنىٰ هذا العذيب وبارق
ولاح فقال الصبح هذا تبلّجي ... أيكذب هذا الصبح والصبح صادق
وفاح فقال الروض نافح عبقتي ... وهل نفحت بالمسك قطّ الحدائق
وماس فقال الرمح تلك معاطفي ... متىٰ أزهرت فوق الرماح الشقائق
وأبدىٰ لحاظاً أقسم الريم أنّها ... لواحظه لولا السهام الرواشق
وأرخىٰ أثيثاً أدهم الليل لونه ... ومن أين لليل البهيم مغارق
وفاهٌ بنطق خاله الدرّ نظمه ... وهل نظّم الدرّ المنظّم ناطق
وكلّهم قد كاد يحكيه مشبهاً ... ولكنّ من أهوىٰ على الكلّ فائق

ومن غزلياته قوله:

من أودع الراح والأقاح فمك ... ومن أعاد الصباح مبتسمك
أصبح من قدراك ملتثماً ... يقيه سكراً فكيف من لثمك
لو انصفتك الحان قاطبةً ... أصبحت موليً وأصبحوا خدمك
قالوا حكىٰ فرعك الدجىٰ كذبوا ... فالشمس يا فرع ما جلت ظلمك
قالوا حكىٰ فرقك الصباح ولو ... حكمت فيه أوطأته قدمك
يا مقسماً أن يذيبني كلفاً ... حسبك أبررت بالجفا قسمك
سلبتني صبري الجميل وما ... كفاك حتّىٰ كسوتني سقمك

ومن خمرياته قوله:

لمعت ليلاً فقالوا لهب ... وصفت لوناً فقالوا ذهب
وإذا ما اندفقت من دنّها ... في الدجا قالوا طراز مذهب
خمرةٌ رقّت فلولا كأسها ... لم يشاهد جرمها من يشرب
ألبستها الكأس طوقاً ذهباً ... وحباها باللآلي الحبب

عجبوا من نورها إذ أشرقت وشذاها من سناها أعجب
نبت كرمٍ كرمت أوصافها أيّ نبتٍ قام عنها العنب

وهذا المقدار كافٍ في إثبات الدعوىٰ، ومن ذاق هذا الشعر وذاق غيره علم الفرق بين المرّ والحلوىٰ.

وأمّا نثره، فمن الغايات، بل من معجزات الآيات، في حسن السبك، وعذوبة الألفاظ، والبلاغة التي يقصر عنها بلغاء سوق عكاظ.

وكانت ولادته ـ رحمه الله تعالىٰ ـ بمكّة المشرّفة، ثمّ سافر إلى الهند، وأقام بها في كنف والده، وجمع بين طريف المجد وتالده، وبها تخرّج في فنون الآداب، علىٰ عدّة من جهابذة الشعراء ومصاقع الكتّاب، فتسنّم غارب البلاغة، وصار قدامة زمانه وابن المراغة، وكان يتأوّه إذا ذكر وطنه وبلاده، ويقرع سنّ الندم ويستنجد أجداده، فقدّر الملك العلاّم عوده إلى بلد الله الحرام.

وفي سنة أربع عشرة ومائة وألف أتىٰ فحجّ، ثمّ سافر إلىٰ بلاد فارس، الطيبة المغارس، وبها تصرّمت أيّام حياته، ووفىٰ أجل وفاته، فمات في السنة المذكورة أو التي قبلها في بلدة شيراز، ودفن بها، وقبره معلوم رحمه الله تعالىٰ.

سلامٌ على القبر الذي ضمّ أعظماً تحوم المعالي دونه وتسلّم
سلامٌ عليه كلّما ذرّ شارق وما امتدّ دجنٌ من دجى الليل مظلم
فيا قبره قد جاء أرضاً تعطّفت عليك ملثٌّ دائم القطر مرزم

وفاة الشيخ عبدالرحمٰن مفتي الهند:

وفي سنة ثنتين وعشرين ومائة وألف: توفّي الفاضل العلاّمة، رئيس الفقهاء والمحدّثين، شيخ الإسلام بالديار الهنديّة، الشيخ عبدالرحمٰن مفتي الهند وعلاّمها، والناشر رايات العلوم وأعلامها، ورد إلىٰ مكّة المشرّفة مرّتين، وفي الأخيرة دعاه

داعي الفراق والبين، وكان ذا عفّة وديانة، وأمانة وصيانة، وفضل واسع، وفهم بارع، درس بمكّة وانتفع الناس، ونشر فوائد علومه المحكمة الأساس، إلىٰ أن دعاه خالقه للقائه، فانقضت مدّة بقائه.

وفاة الوزير عثمان حميدان :

وفي سنة ثنتين وعشرين في ثامن عشر شهر ربيع الأوّل: توفّي عين الأعيان، وفخر الأقران، الوزير المكرّم، عثمان بن زين العابدين حميدان، المتقدّم ذكره عند ذكر إسماعيل باشا، في حوادث ترجمة الشريف سعد، وقد توزّر هذا الرجل لعدّة من ملوك مكّة المشرّفة، وارتفع صيته، وعلا ذكره، واجتمع عنده من الأموال ما لا يحصىٰ، ولمّا مات مشىٰ في جنازته مخدومه صاحب الترجمة، ودفن بالمعلاّة بمقبرة السيّدة خديجة رضي الله عنها[١].

وفاة السيد سالم السقّاف :

وفي سنة ثلاث وعشرين ومائة وألف: توفّي السيد الأجلّ، والكهف الأظلّ، التقي الورع الزاهد، السيّد سالم السقّاف، أفاض الله علىٰ قبره شآبيب الرحمة والألطاف.

عزل الشريف عبدالكريم بن محمّد :

وفي هذه السنة في السابع والعشرين من ذي القعدة الحرام منها: عزل الشريف عبدالكريم بن محمّد صاحب الترجمة عن الشرافة، وتوجّه إلىٰ جهة قبيلة حرب، ومكث عندهم مدّة طويلة، ثمّ سافر إلىٰ مصر، واستمرّ بها، إلىٰ أن توفّي إلىٰ رحمة الله تعالىٰ بالطاعون في سنة إحدىٰ وثلاثين ومائة وألف.

---

(١) خلاصة الكلام في بيان أُمراء البلد الحرام ص ١٦٦.

وأعقب من الذكور ابنه النجيب السيّد محمّد بن الشريف عبدالكريم، والسيّد أحمد بن الشريف المذكور، وفّقهما الله تعالىٰ إلى المسالك الحميدة، والأفعال السديدة، إنّه علىٰ ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير.

ترجمة السيّد الشريف عبدالله بن الشريف سعيد بن سعد ابن زيد بن محسن بن حسين بن حسن بن أبي‌نمي

أقول: قد تقدّم في ترجمة أبيه في آخر الولاية الخامسة، ما عرض لوالده من التوعّك في مزاجه، وذهاب رونقه وابتهاجه، وامتداد ذلك المرض والسقام، إلى الليلة الحادية والعشرين من محرّم الحرام.

ففي هذه المدّة كان هذا السيّد الشريف، ذو الحسب الباذخ المنيف، قد خرج من مكّة المشرّفة المحفوفة بالبركات، إلىٰ نواحي الخبت وتلك الجهات، وأقام هناك أيّاماً قلائل، ولم يدر أنّ والده قد لبس من السقام قلائل.

فلمّا اشتدّ بوالده ذلك الألم، أرسل إليه بالطلب فألمّ، ولم يزل يتلطّف به ويتقرّب إليه، إلىٰ أن قضى الله عليه، فجمع الأجناد والعساكر، وفرّق جانباً منهم في البيوت وجانباً في المنائر، حفظاً للبلاد، ودرأً للفساد.

وكان رئيس السادة في ذلك الأوان وزعيمهم، ودرّة تاجهم وعظيمهم، ومن إذا دهم خطب مهيل، فإليه المهرب وعليه التعويل، السيّد الشريف الأمجد، عبدالمحسن بن أحمد المتقدّم ذكره الشريف، فألقى السادة إليه الأمر، من غير أن يعترضه زيد وعمرو، فاقتضىٰ نظره السديد، إقامة الشريف عبدالله بن سعيد، مع أنّه أحقّ منه بالخلافة، وأصلح للشرافة، غير أنّه لم يكن فيها إرادة، وإلاّ فلا مانع لما أراده.

فنزل بنفسه الشريفة إلى المسجد الحرام، لملاطفة الباشا والعساكر الأروام،

وقبض الخلعة من أيديهم، بعد أن يرشدهم إلى الصواب ويهديهم، فامتنعوا جميعاً إلاّ من حضرته العليّة، وربما وضعوا الخلعة علىٰ مناكبه الشريفة، فطرحها من أكنافه، وشرع يأخذ بخواطرهم، ويلتزم لهم ما يقع في البلاد من الخلاف، ويتعهّد لهم بإرضاء السادة الأشراف.

فلمّا علموا أن لابدّ من ذلك، وإلاّ تسدّدت عليهم المسالك، ونزل بهم البلاء المهيل، وذهبوا تحت السيف حتّىٰ لم يبق منهم إلاّ القليل، أطاعوا جميعاً أمره العالي، وسلّموا إليه الخلعة برغم البواتر والعوالي، وزفّها إليه السيّد عبدالمحسن، وألبسه إيّاها في داره، فغدا الدهر مطيعاً له ومحسن، فنودي له في البلاد، وارتفعت مقتضيات العناد، وقرّت قلوب العباد.

وأحكم أحكام الشرافة، ورفل في حلل الخلافة، فوطأ أكباد أعاديه، بعد أن صرّخ[1] مناديه، وسار علىٰ قوانين والده، وأجرىٰ صلات برّه، علىٰ قديم عوائده، ونظر إلىٰ جيران بيت الله الحرام، بعين العدل والرأفة والإكرام، إلاّ أنّه بعد ذلك عدل عن تلك المسالك، فنسأله الهداية في البدء والنهاية.

وأمّا أبناء عمّه وسائر السادة، فصرف عنهم برّه وإسعاده، جرياً علىٰ سنن أبيه وقواعده، ولا غرو أن يحذو الفتىٰ حذو والده[2].

وكان أوّل يوم جلس فيه، هو الحادي والعشرين من شهر محرّم الحرام سنة ألف ومائة وتسع وعشرين من الهجرة النبويّة، وهو الآن غرّة جبهة الشرافة، وشامة وجه الخلافة.

---

(١) في «ن»: صرح.

(٢) خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام ص ١٦٨.

جمعت هذا التأليف في أيّام دولة جنابه الشريف، ولم أقف له حال التسطير علىٰ ما يودع بطون الطروس، ممّا تطيب به النفوس، وإن عثرت بعد علىٰ شيء من ذلك، فسأثبته في أثناء فصل حوادثه الواقعة في تلك الأقطار والممالك، ولم أظفر أيضاً بشعر مدح به، أو شاعر تعلّق بسببه، أو عالم لازم جنابه، أو فاضل حلّ رحابه، وما ذاك إلاّ أنّ جنابه الكريم، لم يكن محتاجاً إلى الاستفادة والتعليم، بل هو ممّن رزق ذلك المراد من غير كدّ واجتهاد.

وأمّا عقبه الشريف، فلم أقف له علىٰ حقيقه، حتّىٰ أبيّن نهجه وطريقه.

إنتهينا إلىٰ هذا الموضع في الترجمة حال الكتابة، وسدّدنا في إظهار أوصافه الحميدة سهم الإصابة، جرت أحكام القضاء بعزله عن الشرافة، بعد أن تسنّم غارمها فأنافه، وهذا حال الدنيا أم الاعتبار، فما هي إلاّ إقبال وإدبار، وكان عزله في غرّة شهر جمادي الأُولىٰ سنة ثلاثين ومائة وألف، فكانت مدّة ولايته سنة وثلاثة أشهر وعشرة أيّام، ولعزله نقل طويل، لا بأس بشرحه على التفصيل؛ لأنّه من أغرب النقول، وأعجب ما أُرّخ.

فنقول: قد تقدّم في أثناء ترجمته، ما حدث له في آخر دولته من العدول عن مسالك العدل والاستقامة، إلىٰ سبل[1] المظالم حتّىٰ أذاق رعاياه حمامه، ولم يزل يتزائد الحال، وهو لم يكن دأبه إلاّ جمع الأموال، ليقيم بها أود ملكه، ويسير بريحها قلاع فلكه. فحصل للسادة الأشراف، ولسائر الرعايا في جميع الأطراف، تعب وبلاء وشدّة فلسٍ وغلاء، وهو حفظه الله لم يكن ناظراً إليهم، ولا معوّلاً في المهمّات عليهم.

---

(١) في «ن»: سبيل.

بل آل أمره بعد ذلك إلىٰ عدم الالتفات إليهم في جميع المسالك، فتولّد من هذه القضايا، قبضٌ لقلوب الرعايا، فصار في أثناء ما ذكرناه نبل لإخوانه، فأخرجهم عن بلاده وأوطانه، علىٰ عادة آبائهم الكرام، وأسلافهم العظام، وانضمّ إليهم جمع من الأشراف؛ لعدم تفقّده لهم بالعطاء والاستعطاف، فسلكوا جميعاً سبل اليمن، فلم يبق منهم أحد إلاّ وقد ظعن، إلىٰ أن حلّت ركـائبهم بـالقنفذة، فـخرج وراءهـم، لإبعادهم وحلّ عراهم.

فقبل وصوله إليهم للمقاومة، توسّط بينهم للصلح والمسالمة، السـيّد الشـريف الأمجد، السيّد عبدالمحسن بن أحمد، علىٰ أن يسلّم إليهم جميع حـقوقهم، وأن يمحو آيات عقوقهم، فأخذ منهم مهلة أيّام يسيرة، إلىٰ أن يوجّه إلىٰ تحصيلها همّته وتدبيره، ورحل من موضعه الذي كان فيه، إلىٰ بندر جدّة ونواحيه.

واستمرّ هناك أيّاماً عديدة، وحبال جذبه للدراهم من جدّه طوال مديدة، فجمع بذلك السبب من العيون فوق ما طلب، فأرسل ما استقرّ عليه الحال، إلىٰ عمّه السيّد عبدالمحسن بن أحمد، واسطة ذلك المجال[1]، فدفع الدراهم إلىٰ إخوانه، واعتذر إليهم بأنّه لم يجد أكثر من ذلك علىٰ خوانه، ودعاهم إلى الوصول، وحفظ الأُصول، فامتثلوا أمره العالي، إذ هو قرين النجوم العوالي، فبعد أن تمّت أُمورهم، عمرت بأشخاصهم الشريفة دورهم.

وأمّا حضرة سيّدنا صاحب الترجمة، فحين رأىٰ أنّ أحوال ملكه أصبحت[2] لذوي الأبصار منسجمة، رحل في حلل العجب والعظمة، وشرعت دواعي الفساد

---

(١) في «ن»: الحال.

(٢) في «ن»: أضحت.

والفتن، بينه وبين عمّه الذي طوّقه أطواق المنن، إذ يسمعه من الكلام ما يعدّ من أعظم أنواع الكلام، فلم يزل يتلقّىٰ ذلك بأذن صمّا، ويكابد همّاً وغمّا، وينشد لسان حاله، في حلّه وترحاله :

أُعلّمه الرماية كلّ يومٍ ... فلمّا اشتدّ ساعده رماني
وكم علّمته نظم القوافي ... فلمّا قال قافية هجاني

إلاّ أنّه قد عزم وصمّم، وأضمر وما تكلّم، علىٰ رفعه من منصبه ومكانه، وإزالة ملكه وسلطانه، إلاّ أنّه يحاول انتهاز الفرصة عليه، ليسوق أنواع البلاء إليه، وذاك مستقرّ الفكرة، مستمرّ السكرة، قد أتقن سحره، وهو مقيم بأعالي نجدة[١].

فصار في أثناء ذلك، حادث لم يصر لأحد من ملوك تلك الممالك، وهو أنّه قطع علىٰ عساكره مقرّراتهم المألوفة، ومشاهراتهم المعروفة، وأتبع ذلك بالإهانة، حتّىٰ كره كلٌّ منهم وقته وزمانه، فأجمعت آراؤهم السديدة، وأفكارهم الرشيدة، علىٰ فراقه وهجره، والصبر علىٰ حلوّ البلاء ومرّه، والعزم على الارتحال، وترك الخدمة علىٰ كلّ حال، وتعاهدوا بينهم علىٰ أنّ من رجع عن هذه النيّة، فهو طعام للمنيّة .

فشبت بينهم النار، وتفرّقوا في تلك الهامة والقفار، وقصدوا السيّد عبدالمحسن، ليتصدّق عليهم بما يقيم أودهم ويحسن، فوفدوا جميعاً عليه، وطرحوا نفائس أرواحهم لديه، فأكرمهم وأمر لهم بالهباء السنيّة، وهو في منزله المعروف بالحسينيّة، ثمّ حزمهم حزماً ثاني، غير عاقد لعنان العزيمة ولا ثاني، والذي يظهره للخاصّ والعامّ، أنّ هذا الاجتهاد في حال العساكر إنّما هو خدمة لذلك المقام، فهيّأ لهم المنازل، وأجرىٰ عليهم برّه المتواصل، وهم لا يزالون إلىٰ زيادة، إذ قد شملتهم

---

(١) في «ن»: نحره .

بقربه السعادة.

فلم يبق أحد منهم في تلك الآفاق، إلاّ وقد وفدت عليهم منهم الأوراق، بالحضور مع الجماعة، والمسير إليهم في الساعة، وهو في أثناء ذلك يشيع بالمساطير، إلىٰ ذلك الجناب الخطير، ويخبره بوفود العساكر عليه، ووصولهم إليه، ويراجعه في حالهم، ويفيده بمنتهىٰ آمالهم.

ولم تزل الكتب تتوالىٰ بينهما، إلاّ أنّ العاقل قد عرف وتحقّق بينهما، وعلم أنّ ظلّ صاحب الترجمة قد زال، وآن وقت الزوال، فلم يزل السيّد عبدالمحسن بن أحمد يسدّد الأمور برأيه الأحمد، إذ كان وفود العساكر عليه، والتجاؤهم إليه، لثلاث بقين من شهر ربيع الثاني، وخرج الشريف عبدالله غرّة جمادي الأولىٰ.

ففي هذه المدّة من الأيّام قد سدّد أموره مع السادة والعساكر والأروام، وكلّ قد ألقى الأمر إليه، وصوّب رأيه فيما بناه وصمّم عليه، وذاك علىٰ حاله، معتمداً علىٰ أقواله وأفعاله.

ولم يدر أنّ العامريّة قد نبت وأنّ ربوع الحيّ أمست خواليا

إلاّ أنّه بعد ذلك انتبه، بعد أن خفي [1] عليه الأمر واشتبه، فركب من موضعه، بعد أن أنبأه بعض خدّامه وعرّفه، وقصد مكّة المشرّفة، ليتدارك الحال، ولو بإعمال القاضب والعسال، فوصل البلاد ليلة تسع وعشرين من ربيع الثاني، واستمرّ يومه ذاك، ليستبين ما هناك.

فحين تبسّم كواكب الإشراق، وعمّ بضوئه الآفاق، وإذا بكتب السادة تترادف عليه بالفراق، فعلم أنّ هذا أمر بيته أهلّه بليل، ويعقبه البلاء والويل، فبعد استبان

---

(١) في «ن»: حين خفي.

حال القوم، ركب عصر ذلك اليوم، ووجّه همّته العليّة، تلقاء الحسينيّة، ووفد علىٰ عمّه، إذ قد جعله لهذه القضية غرض سهمه، ثمّ سأله عن مطلوب العساكر، والسادة الأكابر، فأجابه بجواب شام منه بوارق الأثر بعد العين، وشمّ من أرجائه عرف الهجر والبين، فعبس وتولّىٰ، ونكب عن المراجعة وولّىٰ، وأيقن بطيران طاووس إقباله، وذهاب رونقه وجماله.

ورجع إلىٰ مكّة كرّة أُخرىٰ، إذ لم يجد لكلامه هناك مسرىٰ، وأزمع على الترك والارتحال، من غير حرب وقتال، فلم يسفر عليه فجر الغرّة، إلاّ وقد خفيت تلك الغرّة، وخليت منه البلاد، وتفطّرت لفقده الأكباد، فنسأله تعالىٰ أن يصحبه السلامة، وأن يجعل التوفيق خلفه وأمامه.

فحفظ البلاد السادة الأشراف والعساكر والأروام، وعرّفوا السيّد عبدالمحسن بأنّه قد عرج ذلك المقام، فأمر السيّد الجليل الأكبر، السيّد زيد بن أحمد بن سعيد بن شبّر[1]، بأن يكون وكيلاً عنه في حفظ الديرة، حتّىٰ يصل فتصبح العيون بوصوله قريرة، فنادىٰ بالبلاد في وجهه، وسلك فيها بمقتضىٰ نصره.

ولهذه القضيّة بقيّة، قد سطرناها في ترجمة أخيه الشريف علي بن سعيد، فراجع ذلك هناك، تظفر بمناك.

ومن جملة حوادثه: أنّه بعد خروجه من مكّة ظعن، وتوجّه تلقاء اليمن، علىٰ ترتيب معيّن، ومسلك مبيّن، بأن يكون من الليث إلىٰ أقاصي اليمن له علىٰ سبيل السكنىٰ، وأن لا تقطع بينهما الحسنىٰ، وذلك بعد صدور حركات منه أوجبت إبعاده، وضعفت إبراقه وإرعاده، فاستمرّ هناك مدّة شهور، وأخبار عفّته عن قطع

---

(١) في «ن»: شنبر.

السبل لم يصبها دثور، تمرّ به المحملات إلىٰ مكّة والقوافل، وهي بالغنائم السنيّة كوافل، فلم يكن أهمّ بها قطّ، ولا قطع لها حبلاً ولا قطّ، فجزاه الله عن شهامته وعفّته أفضل الجزاء، جعل نصيبه من سعادة الدارين أوفر الإجزاء .

ثم إنّه في شعبان المعظّم من سنة عزله، رأىٰ أنّ من جملة فروضه ونفله، التصميم بخلوص النيّة من غير شبهة ولا الباس، علىٰ زيارة حبر الأُمّة سيّدنا عبدالله بن العبّاس، فاستصحب معه ما خفّ ثقله، وهان نقله، وسار علىٰ طريق النفر المشهور، فحصل بقدومه المبارك لمجيئه غاية السرور، ودخل الطائف، المحفوف باللطائف، صبح اليوم الثامن والعشرين من شعبان .

ووكيل الطائف في ذلك الأوان، السيّد الشريف مسعود بن مساعد بن سعد بن زيد، حفظه الله من كلّ كيد، فعزم علىٰ منعه[1] من دخول البلاد، ولو بإعمال المرهفات الحداد، فحصل اللطف دون ذلك المرام، بتوسّط السادة الكرام، فأخذوا منه العهود والمواثيق، أن لا يصنع مع الرعايا ما لا يليق، وأن لا يعترض السبل والمسالك، وأقطار تلك الممالك .

فاستمرّ علىٰ ذلك الشرط إلىٰ غرّة رمضان، وتلك الأقطار الحجازيّة في غاية الأمان، غير أنّ أخاه صاحب مكّة المشرّفة، والرافل في حلل ولايتها المفوّفة، لمّا بلغه مسير أخيه إلىٰ أقطار الحجاز، استعدّ للمقاومة والبراز، والتوجّه إليه بنفسه، مع جماعة من أبناء جنسه، وصحبته العساكر والأجناد، والصافنات الجياد، والتقيا بالطائف غرّة رمضان المعظّم .

وكلّ منهما قد عزم وصمّم، علىٰ مقاومة أخيه، ودفعه عن البلاد وتنحّيه، فظفر

---

(١) في «ن»: دفعه .

علي بضدّه، وبنىٰ علىٰ إبعاده بجهده، إلاّ أنّه لمّا وصل إليه، أدركته الشفقة عليه، إذ بعد خروجه من البلاد، تركه يسير علىٰ مهله، ولم يصبه ضرر لا من خيله ولا من رجله، وأقام علي بالطائف إلىٰ تاسع رمضان، ثمّ انصرف إلىٰ مكّة المشرّفة.

وأمّا صاحب الترجمة، لا زالت أُموره بالتوفيق منسجمة، فرجع القهقرىٰ إلىٰ موضعه الأوّل ومحلّه، ومقرّ عوله وأهله، إلاّ أنّه في رجوعه المقرون باليمن والسعد، مرّ بقبيلة بني سعد، سكّان أعالي الحجاز، وحماته على الحقيقة لا المجاز، فأخذ منهم بعض شويهات[١] غير معلومة الثمن، لكن بعد ذلك تفضّل بما يزيد على الثمن ومنّ.

غير أنّه في أثناء ذلك حصل من بعض هؤلئك العرب، ما أساؤوا به الأدب، من صياح في أطرافه وهو يسير، وقتال أذهب أرواحاً وإن كا هو يسير، فلا حول ولا قوّة إلاّ بالله العلي العظيم، إنّه نعم المولىٰ ونعم النصير.

فصل

في الحوادث الواقعة بعد رجوع الشريف من الحجاز

ومن أغرب ما صاره، وأعجب ما اتّفق في هذه الأقطار، ما وقع من هذا السيّد الشريف بعد رجوعه من الحجاز، ممّا استوجب به المقاومة والبراز.

وسبب ذلك: عدم النظر إلى العواقب، وإحكام الأُمور بالرأي الثاقب، وهو أنّه لمّا وصل إلى البيت في إيابه، واجتمع بجملة من ذويه وأترابه، تصدّىٰ بعد ما عزم، وجمع قومه وحزم، وبنىٰ علىٰ محاربة أخيه، ومعاقبة من كان يواليه، فتهيّأت له الأسباب، لتوفّر دواعي الفساد والخراب، علىٰ أخيه صاحب مكّة لخروج السادة

---

(١) شويهات جمع شويهة، والشويهة تصغير الشاة.

الأشراف بأسرهم عن طاعته، فغدت أُموره منفكّة، بل وربما بعد خروجهم إلىٰ وادي مرّ كتبوا إليه بالوصول، فأجاب بالامتثال صحبة المرسول، وشرع يهيّأ أحواله، وشمّر أذياله .

وكان من جملة من نازله، وطلب الإلمام به والمواصلة، السادة آل أحمد بن أبي‌نمي بن بركات، وهم الآن فخذان مشهوران، وبطنان معروفان، وهما آل حراز، وآل منديل، ولعمري أنّهم كباش الكتيبة، وإن كانوا قليل، فعاملهم على المسير إلىٰ مكّة والقتال، وأوفىٰ لهم المكيال، فاجتهدوا فيما يصلح له، وبلغوه من مطلوبه أمله، وهو لم يزل يجمع الأقوام، ويسدّد أحواله بنهاية الإحكام .

فمن جملة من دخل تحت لوائه، وتمسّك بحبل رجائه، قبيلة من العرب يقال لهم: بنو الأسد، وهم في الحال جنيّة[1] للسادة آل أحمد، وإنّما صار التواطىء بين الشريف عبدالله المذكور والسادة آل أحمد في أثناء تلك الأُمور، إنّنا نقضي بهم الآن غرض، وإذا دخلنا إلىٰ مكّة المشرّفة نجلعهم لسهامنا غرض، وتوثّقوا منه علىٰ ذلك، وطلب منهم الكفّ عنهم في جميع السبل والمسالك، وشرعوا يصرفون الأوقات، في شدّ الأقوات، فاحتاجوا إلىٰ ما يحملون عليه، فرجع بعض السادة إليه، ليأذن لهم في السخرة، ثمّ التجميل بحسب القدرة، فأذن لهم في ذلك بحيث لا يكدّرون خواطر عربان تلك الممالك .

فاتّفق أنّ واحداً من السادة آل أحمد، وجد رجلاً ومعه بعير من قبيلة بني الأسود، فطلب منه البعير، علىٰ أن يحمله حملاً يسير، فأبىٰ عن ذلك ومدّ عليه بندقاً قاصداً، أن يجرحه كؤوس المهالك، فأخطأت الشريف رصاصته، فعالجه

---

(١) تجنّىٰ عليه: رماه بإثم لم يفعله، الجنيّة: الذنب .

الشريف بسيفه، فطاحت قبل أن يستقيم طاسته، فلا شلّت يمينه[١] من شريف ما استقرّ حتّىٰ أورده حياض سقر، وأخذ البعير وسار إلىٰ جماعته وذويه في تلك البرار.

فلمّا سمع الشريف عبدالله بذلك حنق عليهم، وسار في جيشه إليهم، فوصل ليلاً عند دورهم، وعاجلهم بالقتال قبل ظهورهم، فوقعوا في محنة عظيمة، وشدّة جسيمة؛ لأنّهم إن عزموا على الفرار وقع البلاء علىٰ حريمهم، صانهم الله تعالىٰ ممّن مع الشريف عبدالله من هؤلئك الفجّار، وإن قاتلوا فهو أكثر منهم عدداً، وأقدر مدداً، فلم يروا إلاّ القتال، وإعمال القاضب والعسال، وعملوا عمل جدّهم ليلة الهرير[٢]، وأكثروا فيهم المجندل والكسير.

ثمّ ارتفعت تلك الغبرة عن قتل واحد من السادة، وإصابة آخر، وقود أسير، إلاّ أنّهم قد أثخنوهم ضرباً بالمهرفات، ووخزاً بالرماح، وأشبعوهم حرباً تغصّ الشخّ[٣] بالماء القراح.

فلمّا وصل الخبر إلى السيّد الشريف الأمجد، السيّد عبدالمحسن بن أحمد، إجتهد في جمع الساة الأشراف لهذا الأمر المهمّ، والخطب الملمّ، وسدّد الأمر وحزمه، علىٰ رقم وثيقة تتضمّن تجنية صاحب الترجمة، وحقيقتها تطريده عن البلد، وإهدار دمه لكلّ أحد.

---

(١) في «د»: يمينك.

(٢) وهي الليلة التي اشتدّ الحرب فيها في حرب الصفّين، حيث انّ الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام قتل الألوف من الطغاة في تلك الليلة.

(٣) في «ن»: الشيخ.

واستمرّ الحال علىٰ ذلك الأمر، وصار متزيّناً باليمن ومخالفيه، وظهرت عليه سرايا عديدة من ملوك مكّة المشرّفة، إلىٰ أن منّ الله بعود الشرافة إلىٰ ذويه، وفصيلته التي تؤويه، فكانت سبباً لرجوعه إلىٰ مكّة المعظّمة، ثمّ التقلّد بعقود ولايتها المعظّمة، كما سيأتي تفصيل ذلك وبيانه، إذا جاء وقته وأوانه .

فصل

في الحوادث الواقعة في سنتي شرافته

وهي سنة تسع وعشرين ومائة وألف، وسنة ثلاثين، من وفيات لبعض الأعيان، أو وقوع حادثة في بعض البلدان .

وفاة محمّد المهدي بن أحمد إمام اليمن :

ففي سنة تسع وعشرين ومائة وألف: توفّي الإمام الأعظم، والهمام الأجلّ الأكرم، ناشر العلوم والأعلام، وشاهر السيوف والأقلام، وممهّد بساط العدل والأمان، ومشيّد قواعد الشرع والإيمان، بأساً تجمّ دونه الأُسود في الآجام، وحلماً يوازن ذات القلل والأهضام، وعلماً يستمدّ منه العليم القمقام، وجوداً شمل الخاصّ والعامّ، واستوىٰ فيه وفود الرواحل والأرقام، والمنشد فيه قاصده وآمله .

هو البحر من أيّ النواحي أتيته ... فلجّته المعروف والبرّ ساحله
ولو لم يكن في كفّه غير نفسه ... لجاد بها فليتّق الله سائله

إمام المسلمين، ونتيجة الآل المكرّمين، جمال الدين محمّد بن أحمد بن الحسن بن القاسم الملقّب بـ«المهدي» رحمه الله تعالىٰ .

وقد تقدّم أنّ ولايته كانت في سنة سبع وتسعين بعد الألف، واستمرّ إلىٰ سنة سبع وعشرين ومائة وألف، وفيها قام بالدعوة الحسين بن القاسم بمعاضدة ابن عمّه القاسم بن الحسين، ولم يزالا متعاضدين إلىٰ أواخر سنة ثمان وعشرين، ثمّ استقلّ

بالأمر القاسم بن الحسين استقلالاً تامّاً.

واستقرّ بصنعاء والمهدي المشار إليه باقٍ على حاله، بين أولاده وعياله، في غاية العزّة والإكرام، ونهاية الإجلال والاحترام، إلىٰ أن قضى الله عليه في السنة المذكورة ﷺ. وكانت مدّة إمامته ثلاثين سنة وكسورا.

وكان هذا الإمام منبع الجود، ومنتجع الوفود، ومعهد الفضائل، ومقصد أرباب المسائل، صلّت الشعراء إلىٰ قبله كرمه، وفازوا بسوابغ نعمه.

فمن جملة من أصدر إليه شعره، واتقن في مديحه الشريف سحره، سيّدنا الوالد دام فضله وعلاه، بقصيدة داليّة غرّاء، أشبه بمدائح الكميت[1] في بني الزاهراء،

---

(١) هو الشاعر الشهير، والأديب الأريب، أبوالمستهلّ الكميت بن زيد، ولد سنة (٦٠) وتوفّي سنة (١٢٦) وله ديوان شعر، ومن شعره الرائع قوله:

نفىٰ عن عينك الأرق الهجوعا ... وهمٌّ يمتري منها الدموعا
دخيلٌ في الفؤاد يهيج سقماً ... وحزناً كان من جذلٍ منوعا
وتوكاف الدموع على اكتئابٍ ... أحلّ الدهر موجعه الضلوعا
ترقرق أسحماً درراً وسكباً ... يشبّه سحّها غرباً هموعا
لفقدان الخضارم من قريشٍ ... وخير الشافعين معاً شفيعا
لدى الرحمٰن يصدع بالمثاني ... وكان له أبوحسنٍ قريعا
حطوطاً في مسرّته ومولىً ... إلىٰ مرضاة خالقه سريعا
وأصفاه النبي على اختيارٍ ... بما أعيى الرفوض له المذيعا
ويوم الدوح دوح غدير خمّ ... أبان له الولاية لو أُطيعا
ولكنّ الرجال تبايعوها ... فلم أر مثلها خطراً مبيعا

⇩

وكان قد أرسلها من مكّة إليه صحبة من ناب منابه في قراءتها عليه، فحصل لها أحسن قبول، وهي هذه:

شرىٰ يمني البرق يهدي سنا هند ... فيا حبّذا المهدي للروح والمهدي
أضاء ثنايا الشام من يمنٍ كما ... أضاءت ثناياها ابتساماً لذي وجدي
وهبّت جنوبٌ والجنوب مرامه ... فدع يا صبا نجد متىٰ هجت من نجد
ومن يهو في الأرواح ريحاً فإنّما ... هواه مهبّ الريح مستوطن القصد
يمانية أهدت لأهل تهامةٍ ... شذا دونه أعطار تبّت والهند
وما عرف العرف الشذي(١) سوىٰ شيحٍ ... تلقّاه عن أردان ساكنة الرند

ـ فلم أبلغ بها لعناً ولكن ... أساء بذاك أوّلهم صنيعا
فصار بذاك أقربهم لعدلٍ ... إلى جورٍ وأحفظهم مضيعا
أضاعوا أمر قائدهم فضلّوا ... وأقومهم لدى الحدثان ريعا
تناسوا حقّه وبغوا عليه ... بلا ترةٍ وكان لهم قريعا
فقل لبني أُميّة حيث حلّوا ... وإن خفت المهنّد والقطيعا
ألا أُفٍّ لدهرٍ كنت فيه ... هدانا طائعاً لكم مطيعا
أجاع الله من أشبعتموه ... وأشبع من بجوركم أُجيعا
ويلعن فذّ أُمّته جهاراً ... إذا ساس البريّة والخليعا
بمرضيّ السياسة هاشمي ... يكون حياً لأُمّته ربيعا
وليثاً في المشاهد غير نكسٍ ... لتقويم البريّة مستطيعا
يقيم أُمورها ويذبّ عنها ... ويترك جدبها أبداً مريعا

راجع: كتاب الغدير للعلاّمة الأميني ٢: ١٨٠ ـ ٢١٢.

(١) في «ن»: الذكي.

مـــــمنّعةً لم تســـــتظلّ بـــــخدرها ... إذا لم يكـن فـي ظـلّ أيك القـنا المـلد
عـزيزة حـيٍّ تـحسد الشـمس مشـرقاً ... تـلوح بــه إن لم يـفارق سـنا السـعد
وانّ الدراري مـــن أســـنّة قـــومها ... تـحيط بـها مـن مـنظر القـرب والبـعد
وانّ لهـــا حســـن الغـزالة فـي الضـحىٰ ... وللشمس في الغرب اصفرار ذوي السهد
ومـــن يـــهوأعـــرابيةً حـول خـدرها ... أقـــاطيع أو مـــمشى اليـــعافير والربـد
فـــــودّي لقـــحطانيةٍ قـــد تكـــنّفت ... مـــرابـعها إرســـال عـاديةٍ[١] الجـرد
ولا تسألا فـــرسانها الحـمر عـن دمـي ... ولكـــن ســـلا ذات الخـــلاخل والعـقد
فـــما شـــهرت أجـــفانهم عـــن مهنّدٍ ... كـــما شـــهرت أجـــفانها بـــاتر الحـدّ
ولا اهـــتزّ فـــي راحـــاتهم مـن مثقّفٍ ... كما اهـتزّ إذ مـرّت تـميس مـن العـقد
ولا لمـــعت تـــحت الديـــاجي أسـنّةٌ ... كألحـــاظها فـــي ليـــل فـاحها الجـعد
ولو نـــــظرت للـــــقوم آرام أرضـــها ... بـمثل الرنـــا الفـتّان من مـقلتي هـند
أو التـــفتت عـــن مـــثل أتـلع جـيدها ... إليـــهم مـــعاذ الله مـــن لفـــتة الصـدّ
ولو أطـــلعت تـــلك الريـــاض أقـاحياً ... كـــمبسمها المـــعلول بـــالراح والشـهد
وأبـــدت كـــنعمان الخـــدود شـــقائقاً ... ومـــن عـــنمٍ شبه البـنان التـي تـبدي
إذ لحـــــمت فـــــرسانها ظـــــبياتها ... وروضـــاتها عـن طـالبي الصـيد والورد
ولكـــــن تشـــــابيه البـــيان تـــخيّل ... وهند سمت في منتهى الحسـن عـن بـدّ
ألست تـــرىٰ ســـلطانها كـــلّ مـــملكٍ ... مـــجازاً وســـلطان الحـــقيقة للـمهدي
إمـامٌ له المـــلك العـــظيم الذي حـــبا ... بـــه آل إبـــراهـــيم خـــالقنا المـــبدي
وهـــم بـــعد خـــير الرســـل أحـمد آله ... ســـفينة نـــوحٍ والنـــجوم لمســـتهدي

---

(١) في «ن»: عادته.

وهم قرناء الذكر علماً مع التقىٰ ... إلىٰ أن يوافوا الحوض في جنّة الخلد
حباك أميرالمؤمنين محمّداً ... بها الله مهدياً إليها من المهد
خلافة عدلٍ يشهد الخلق أنّها ... إليك بأغلى[1] المهر زفّت وبالعقد
لعمري لقد أمهرتنا كلّ مهرةٍ ... ومهرٍ يباري الريح في الكرّ والطرد
بقايا الجياد الصافنات التي ارتضىٰ ... سليمان يوم العرض والأمر بالردّ
عليها ليوثٌ من نزار ويعربٍ ... فرائسها أعداء دينك والرشد
تحوط ثغور المؤمنين وتغتدي ... حصون الحصون الشمّ في الحزن والوهد
وزعف[2] دلاصٍ من صنائع تبّعٍ ... وصنعة من بالوحي قدّر في السرد
تقي مهج الأبطال كلاً وإنّما ... عزائمه في الله واقية الحشد
وكلّ رديني يرىٰ متقصّداً ... من الطعن في لبّات عادٍ من القصد
تخال شعاع الشمس لمع سنانه ... وبعد الوغى المريخ من علقٍ وردي
وكلّ حسامٍ مشرفي لجدّه ... مضاء القضاء الحتم والقدر المردي
بوارق تسري في دجى عثير الوغىٰ ... سحائبها أرضية عصب الجند
ترىٰ أثر المغلوب سيف ابن ظالمٍ ... وما هزّها من ظالمٍ قطّ في شدّ
أرى الجدّ يحبوه القضاء وخير ما ... حبا قدر ما يستحقّ من الجدّ
وما يستحقّ الجدّ بالجدّ في العلا ... كمثل مجدٍّ في رضا الصمد الفرد
سما الجدّ بالمهدي إذ كان مخلصاً ... لتأييد دين المصطفىٰ أعظم الجدّ
بحلمٍ يخفّ الطود عدلاً بوزنه ... إلىٰ لطف ذاتٍ دونه سلسل الورد

---

(١) في «ن»: أعلى.

(٢) في «ن»: وزغف.

وعـــلمٌ لدنّـــيٌ تـــفيض بـجوده ويــقصر عـن أدنـاه كسب ذوي الكـدّ
فكـــلّ إمـــامٍ فـــي عـلومٍ تـخاله لديـه كـليم الطـور بـالخضر يسـتهدي
وحـــزمٌ له مــن دون يأجـوج مـاكـرٍ ومأجوجهم سبك الحجىٰ محكم السدّ
وجودٌ محت آيـاته صيت مـن مـضىٰ كذاك جـرى الوادي فـطمّ عـلى الثـمد
فـدع يـمناً واسأل بـه أهـل فـارسٍ مـع الروم ثـمّ التـرك والزنـج والهـند
لتسـمع مــن أبـناء حـامٍ ويـافثٍ وفاق بـني سـامٍ عـلى المـدح والحـمد
وعـزمٍ وإقـدامٍ تـرى الأسـد عـنده علىٰ رغـمها كـالشاء فـي أجمّ الأسـد
له خـرق عـادات الطـبائع سـطوةً ثـباتاً بـتاتاً للـمعاند والضـدّ
صـفات جـلالٍ مـع جـمالٍ تـمازجا كما يـدغم المـثلان بـاللفظ فـي الشـدّ
أجـزها أمـيرالمـؤمنين تـفضّلاً قـبولاً بـإصغاءٍ يـليق لذي الودّ
صـراط سـويٍ فـي الولاء يـمدّه فـتىً مـوسوي فـضل آبـائه يـهدي
درىٰ أنّك الظـلّ الظـليل عـلىٰ بني الوصـي وشـبليه فـخصّك بـالقصد
بآداب مـدحٍ ليس يـلفىٰ له بـها نظيرٌ كـما المـمدوح فـرد ذوي المـجد
لو اسـطاع سـيراً نـحو بـابك لم يـنب رقيماً لبعض البعض مـن خـدمٍ يسـدي
بـلىٰ سـار عـنّي نـحو أعـتابك العـلا أخـي وابـن أُمّـي مسـتناباً عـن العـبد
فكـان لديكـم كـاسمه فـي اخـتياره وكـاسم أبـيه فـي عـلا القـدر والمـجد
ومـا هـو إلاّ فـرع دوحٍ خـصائصي عـلوماً وآدابـاً بـتوفيق مـن يـهدي
عـنيت بـه مـذ كـان طـفلاً فـلم يـزل كـغرسٍ أنـمّيه بـماء النـهىٰ جـهدي
كـما لأبـيه فـوق مـا لي عـليه مـن حـقوقٍ فـبعد الله شكـري له وكـدّي
وظـنّي بـه شكـري وذكـري لديكـم وإلاّ يكـن أنسـبه للسـهو لا العـمد
وقـد سـبقت مـنّي لديكـم مـدائـح ستروىٰ وتبقىٰ فـي فـم الدهـر كـالورد

وكـلّ كـتابٍ مـن شـريفٍ بـمكّة أتـاكـم فـمن حـوك البلاغة كـالبرد
وكـلّ دعـاءٍ أو ثـناءٍ مسـطّرٍ لكـم بـبنائي قـد أتـىٰ واري الزنـد
ولي حقّ ذي القربىٰ وذي العلم والتقا لكـم مـع نـصر الآل بـالحجج اللدّ
فـإن كـان لي حـقٌّ فـعدلك أمّـر وإلاّ يكـن فـالفضل هـل أملي يكـدي

ترجمة السيّد الشريف علي بن سعيد بن سعد بن زيد ابن محسن بن حسين بن حسن بن أبي‌نمي

تقمّص هذا السيّد الشريف، والغضنفر الغطريف، شرافة مكّة المعظّمة، وتحلّىٰ جيده بعقود الخلافة المنظّمة، وضربت بين يديه نوبات التهاني، وحقّقت لديه رايات الظفر والأماني، وخدمه السعد والاقبال، وخضعت له أعناق الرجال، وتبسّم له الدهر عن ثنايا البشر والمسرّة، فوسم قلوب رعاياه بمبسم الرحمة والمبرّة، فطالما جمح الملك بأربابه، فحين تسنّم صهوته وقف علىٰ بابه، فكأنّه القوس بيد باريها، ومياه الحدائق في جداول مجاريها .

ولا غرو فلقد أحيا مآثر سعد، وهو جدّه الذي انتهىٰ إليه الحلّ والعقد، بكرم يستمدّ منه الصحب الغوادي، وعدل يشكر صنيعه الرائح والغادي، وعزمات إسكندريّة، وسطوات حيدريّة، كلّ ذلك مع أنّ أكفّ عمره لم تقبض العشرين، وسامي قدره لم يرض بالسهىٰ له قرين .

ولي مكّة المشرّفة، ورفل في حللها المفوّفة، لثلاث بقين من جمادي الأولىٰ سنة ألف ومائة وثلاثين .

ولهذه الولاية رواية سأقصّها لك عن دراية، تقدّم في ترجمة أخيه في كيفيّة عزله عن الشرافة وتنحّيه: إنّه كان خروجه من مكّة المشرفة من الشهر المذكور، كما هو محرّر في ترجمته ومسطور، وانّ السيّد الشريف الأمجد، السيّد

عبدالمحسن بن أحمد، صرخ مناديه في البلاد، بأنّها في أمانه عن الخراب والفساد .

واستمرّ هو والأشراف غرّة الشهر وثانيه، لتعيين من يضعه في هذا المنصب ويوليه، فاستقرّ الأمر علىٰ رجلين من السادة، وهما هما ممّن ثنيت لآبائهما في شرافة مكّة الوسادة: أحدهما السيّد الشريف، ذو الظلّ الوريف، والمجد المنيف، الأمجد الأنجد، صنوه السيّد مبارك بن أحمد. والآخر: السيّد الأشرف الأرأف، خدين الصلات، السيّد يحيى بن الشريف بركات .

فالأوّل منهما مع كونه في الشرافة عريق، غير أنّ أخاه لم يزل ينصب له حبائل التعويق، لئلاّ ينسب إلىٰ ما لا يليق، من الاجتهاد والسعي في عزل ابن عمّه، لأجل وضع أخيه وابن أبيه وأمّه، وهو لم يكن مراده إلاّ إزاحة الظلم والفساد، واطمئنان البلاد والعباد، نيّة خالصة لم يشبها غرض، ولم يعلق بها مرض .

وأمّا الثاني في العدد، مع كونه وافر المدد والعُدد، فقد حال بينه وبينها دواعي الأهوية والحسد، وإلاّ فقد استقرّ الرأي عليه، وتوجّهت أحكام البلاد إليه، وطلع بدره المنير، من أُفق الشرافة، وأورق غصنه النضير في رياض الخلافة، غير أنّه إلى الآن لم تتحلّىٰ بالخلعة مناكبه، ولم تسر في سماء الملك كواكبه، بل قد ترتّبت أحواله، وضارع الأبدار هلاله .

وإنّما أخّر اللبس إلىٰ ثالث الشهر المذكور، لبقاء بعض تعلّقات من تلك الأحوال والأُمور، وسكّان مكّة المشرّفة ومن بها من القصّاد، لم يزالوا يتضرّعون إلىٰ ربّ العباد، أن يولّي عليهم من يختاره لجيران بيته الحرام، وهذا دعاؤهم في تلك الثلاثة الأيّام .

ثمّ ومن العجب العجاب، والعبر الواضحة لذوي الألباب، أنّه قد ترتّبت هذه

الأُمور المهمّة والأحوال، وعيّن لملك مكّة المشرّفة من يحفظ زمامه، ويوطّد أحكامه، وارتفع كلّ قيل وقال، وعلىٰ هذا لم يخطر لأحد ببال، بل وربما عزم ليلة ثالث الشهر، بعد ظهر له أنّ الدولة قد استحالت بركائبه ممّا يكابده من الأنفة والقهر، وأزمع رأيه بأن يتسنّم ركائبه، ويضرب في المهامّة مضاربه، ويعتاض في درر مكّة المشرّفة حصباء القفار، ويقنع بفيء السلم والضالّ عن ظلال تلك الديار.

فلمّا بنىٰ علىٰ ذلك، ووجّه نجائب همّته على اقتحام تلك الفجوج والمسالك، بلغه أنّ بعض كبار السادة لم يرض بيحييٰ، وودّ أنّه يموت قبل ولايته ولا يحييٰ، فنشق من ذلك روح الفرج، مع ما ورد عليه منهم من التأخير في الحركة، فتهلّل وجهه الشريف وانبلج، وقال لخدّامه: قد هجم علينا الكرىٰ، وعند الصباح يحمد القوم السرىٰ، فعلّقوا الركاب، وكونوا أحذر من غراب.

فلمّا اتّضح فجر اليوم الثالث، وإذا مكّة المشرّفة قد حفّت بالخطوب الكوارث، فاجتمع عامّة السادة الأشراف اجتماعاً مسدّد، عند شيخهم السيّد عبدالمحسن بن أحمد، إذ قد دنا حسم المادّة، وإيضاح الجادّة، بولاية الشريف يحيى بن بركات، من الإعلان بالدعاء له علىٰ رؤوس المنابر وعقب الصلوات، فعظم الأمر علىٰ عمرو، وعلت الأصوات، وكثرت المجادلات، واستولى الأرجاف، علىٰ مكّة المشرّفة وما حولها من الأطراف.

ووقع السيّد عبدالمحسن بين أمرين مشكلين، وخطبين معظلين؛ لأنّه إن وقف عند ما رآه، وشيّد مبناه، وتحقّق عنده أنّه الصواب، بعد النظر السديد في عواقبه من جميع الأبواب، وهو تولية السيّد يحيى بن بركات، احتاج إلى المخاصمات للسادة والمقاومات. وإن أخّر الأمر في ذلك، ليستظر غيره ممّن يصلح لحفظ تلك الممالك، خربت البلاد، وذهبت العباد.

فلمّا علم أنّ الأمر لم يحتمل التأخير، ليتمكّن من إعادة الرأي والتدبير، صمّم حسبما اقتضاه نظره السديد، علىٰ تقليدها لحضرة السيّد الشريف علي بن سعيد، وهو صاحب الترجمة، لا زالت دولته العادلة، رافضة لكلّ مظلمة، فأرسل إليه، وأفاض الخلعة عليه، بعد كلام طويل، لم يحرّ من الفائدة غير التطويل، ومجادلات كثيرة، فربما أنّنا لو شرحناها لكانت للمملّل مثير، وإنّما تسطيرها وتحريرها قد لخّصهما الحسين بن مطير في قوله :

وكم طامعٍ في حاجةٍ لا ينالها ومن نافسٍ منها أتاه بشيرها

وهذا محطّ الفائدة، وطيب هذه المادّة. وممّن أرّخ له هذه الولاية، ونشر عليه من الثناء أفخر راية، مؤلّف هذه الكلمات ومنشيها، وحائك بردها وموشيها، تقرّباً إلىٰ ذاته، ومتعرّضاً لجزيل برّه وصلاته، وهو :

يا سيّداً قد حاز فخر الأولىٰ سبحان من بالملك قد كمّلك
ويا فريد العقد مجداً وما درّة تاج الملك ما أعدلك
بسطت عدلاً شائعاً في الورىٰ بمنهجٍ يحمده من سلك
لذا أتىٰ تاريخ عام الهنا بملكك الصاعد أوج الفلك
من بعد إظهار لجنٍ علوا وأسعد الرحمٰن مستقبلك
فهاك تاريخاً غدا مفرداً ما تمّ للعالم ما تمّ لك

فصل

الشطر الأخير وهو التأريخ للبهاء زهير رحمه الله تعالىٰ، وإنّما ضمّنته لمطابقته مقتضى الحال، مع كونه صالحاً لأن يكون تاريخاً، وإنّما زاد ثلاثة وثمانين، فاستثنيتها بقولي «من بعد إظهار لجنٍ علوا» وهو لفظ لجن بمفرده، وهو ثلاثة وثمانون، ولا يخفىٰ ما في ذلك من التورية اللطيفة، وهذا النوع من التاريخ كثير

جدّاً لطيف، ويسمّىٰ التاريخ المستثنىٰ.

قال الفاضل العلاّمة السيّد محمّد كبريت في كتابه نصر من الله وفتح قريب[١]: ومنه ـ أي: من التاريخ المستثنىٰ ـ ومثاله للشيخ جمال الدين العصامي تاريخ وصول قاضي مكّة المشرّفة حسن أفندي «قاضينا حسن بلا كلام» أي: بإسقاط عدد حروف لام، وهو في غاية الحسن مع التورية اللطيفة، ونحوه لمولانا إبراهيم ابن أبي الحزم المدني تاريخ مقعد له:

عند ما تـمّ مـقعد الصـدق هـذا ... قيل أرّخه قلت يا صاح حاضر

هــاك تأريـخه ولا شـين فـيه ... مـقعد للـجليل عـال وعـامر

أي: بإسقاط عدد جمل حروف «شين» من الشطر الأخير. إنتهىٰ كلامه رفع مقامه.

ومن هذا النوع تأريخ سيّدنا الوالد ـ دام علاه ـ المتقدّم في هذا الكتاب عند ترجمة الشريف سعيد بن سعد، وهو تاريخ الولاية الخامسة، وهو:

بشـائر السـعد قـالت ... والدهر وافٍ ومحسن

بـيتاً نأىٰ عـنه كـيد ... فـجاء تـاريخ مـتقن

بشّر سـعيد بـن سـعد ... بملك زيد بن مـحسن

أي: بإسقاط عدد حروف «كيد» وإخراجها من البيت الأخير، وهو التاريخ، ولا يخفىٰ ما فيه من تمكين التورية بيّن في قوله «بيتاً نأىٰ عـنه كـيد» فلله درّه. والحاصل أنّه كثير، فتتبّعه تجده كثيراً.

---

(١) ذكره إسماعيل باشا في كتابه إيضاح المكنون ٥: ٥٤٢، قال: كتاب نصر من الله وفتح قريب في الأدب، للسيّد محمّد كبريت المدني، رحلة الشتاء والصيف.

نعود إلىٰ تتميم الترجمة :

قد تقدّم في أثناء هذه الترجمة، أنّ هذا السيّد الشريف، والأيّد في اكتساب المجد المنيف، توالىٰ أمر الشرافة، وعقد ألوية الخلافة، يوم ثاني جمادي الأُولىٰ من سنة ثلاثين، ثمّ إنّه من حين تسنّم غاربها، وجلا بطلعته البهيّة مشارقها ومغاربها، وشمل برأفته مكّة المشرّفة ومن فيها، وأشاع العدل والأمان بنواحيها، عرض جيران بيت الله الحرام، من السادة الأشراف والعلماء الأعلام، إلىٰ حضرة السلطنة العليّة العثمانيّة، لا زالت أوامرها مطابقة للأقدار[1] الربّانية .

ومضمون العرض السؤال، بعد التوسّل بالنبي وآله الأطهار، أن يكون صاحب الترجمة شريف مكّة المشرّفة وتلك الأقطار، فأجابت السلطنة سؤالهم، وأنجحت بإرسال المراسيم والخلعة آمالهم، فوصلت إليه سادس عشر شوّال، وهو حفظه الله نازل بالركاني، محاصر لبعض السادة بمن معه من الرجال، لكونهم خرجوا عن طاعته، وتعرّضوا لما هو في حمايته .

وفي يوم الجمعة لعشر بقين من شوّال: سار في شرذمة من الخيل والعساكر، وصحبته بعض السادة والأكابر، وقصد مكّة المشرّفة، ليستفيض بها تلك الخلعة المفوّفة، وتقرأ تلك المراسيم، بحضور الأمّة في الحطيم، فلمّا صار ذلك، عمّ السرور سكّان تلك الممالك .

ثمّ إنّه بعد أن لبس الخلعة في المسجد الحرام، عزم على الإقامة بمكّة خمسة أيّام، ففي أثنائها حصل ذلك الأمر المشكل، والخطب المعضل، وهو قتل الشريف عبدالله لذلك الشريف بغياً ونكايةً، حتّى استوجب بهذا السبب تلك الجناية، وهباه

---

(١) في «ن»: للاقتدار .

الله له الأسباب بإزالة ذلك الاختلاف، بينه وبين بني عمّه السادة الأشراف، فأجمع رأيهم السديد علىٰ محاربة الشريف عبدالله، كما قد مرّ نظرك علىٰ تقريره، فلا حاجة إلىٰ تكريره.

ولنرجع إلىٰ ما نحن بصدده، وضبط مدده، وهو أنّه بعد أن صار ما صار، إطمأنّت تلك الأقطار، وإنّما وقع الغلاء في الأسعار، مع قلّة الأمطار، وفي أواخر دولته اضطربت البلاد، وكثر الفساد، وصار النهب في أطراف مكّة المشرّفة وبالليل فيها، وعظمت صولة العربان في نواحيها، واستمرّ ذلك إلىٰ شهر ذي القعدة من سنة ثلاثين.

وفي هذا الشهر: خرج السادة الأشراف برمّتهم إلى الوادي ونواحيه، لقطعه لعوائدهم المقرّرة لهم من زمن جدّه وأبيه، ولم يبق بمكّة أحد منهم، غير أنّا نسمع الأخبار عنهم، واستمرّوا بالوادي إلىٰ وصول الحاجّ الشامي، متمسّكين بلطف الله السامي، وفيض كرمه الهامي، لم يقع منهم خلاف، في تلك الأطراف.

فلمّا وصل الحاجّ الشامي، رفعوا أمرهم إلى الوزير الأعظم، والمشير الأفخم، رجب باشا، منحه الله من السعادة ما شاء، فقابلهم بالإعزاز والإكرام، ورفع علي عن حماية بلد الله الحرام، وأقاموا عليهم من أجمعت عليه كلمتهم، واقتضاه نظرهم السديد لحفظ تلك الجهات، وهو الشريف يحيى بن الشريف بركات، ألبسه يوم ستّ من ذي الحجّة الحرام بوادي مرّ، ودخل مكّة المشرّفة ليلة سبع مع السادة وجمع من عساكره المنصورة، فترك علي البلاد ومرّ، وأقام بالحسينيّة أيّاماً ثمّ ظعن، وتوجّه تلقاء اليمن، فنسأل الله تعالىٰ أن يشمله بفضله الذي لم يزل يتوالىٰ، وأن يصحبه السلامة، في السفر والإقامة.

وكانت مدّة دولته سبعة أشهر وأربعة أيّام، وله من العقب ذكور صغار، إلى الآن

لم يبلغوا حدّ الإشهار[١].

ترجمة السيّد الشريف يحيى بن بركات بن محمّد بن إبراهيم ابن بركات بن أبي‌نمي صاحب مكّة المشرّفة

السيّد الشريف الماجد، والأيّد في اقتناء المآثر والمحامد، المشرق نور غرّته سناء الفخار، والمزهر نور طلعته بحياء الوقار، منبع الكرم والجود، ومنجع القصّاد والوفود، مع حلم وصيانة، لا توازنهما الأطواد رزانة، وأخلاق ألطف من نسمات الصباء، وأرقّ من أحاديث الصبا، وأمّا صلاحه وتقواه، فيشهد له لذلك ملازمته بالمسجد الحرام لكلّ صلاة.

ولد بمكّة، ونشأ بها، وارتضع درّ الخلافة فالتحق بنسبها، ففاز بالقدح المعلّىٰ، من طريف المجد وتالده، ولا غرو أن يحذو الفتىٰ حذو والده، طالما خدم والده الخدم السنيّة، مدّة دولته إلىٰ أن اختطفته يد المنيّة، ثمّ والىٰ خدمة أخيه الأمجد السديد، المرحوم الشريف سعيد، إلىٰ أن عزل عنها بالشريف أحمد بن زيد.

فرحل معه إلى الأبواب المحروسة من كلّ كيد، وذلك في سنة ألف وستّ وتسعين، إلاّ أنّ سعيداً توجّه إلىٰ مصر وهذا إلى الشام، فلاحت له بوارق السعادة، فاستمطر غيثها بعد ما شام، فتزوّج بوالدة نجله السيّد بركات، وحسنت سيرته في تلك الجهات، وأنعمت عليه الدولة العثمانيّة في ذلك العام، بحكومة بعض قرى الشام، ثمّ نقلوه إلىٰ إمارة حاجّ بيت الله الحرام، فورد مكّة المشرّفة وأميرها السيّد محسن بن حسين، وذلك في سنة ألف ومائة وثنتين.

فلمّا قضىٰ من المشاعر مآربه، وأخذ في العود مناهجه الأُولىٰ ومذاهبه،

---

(١) راجع: خلاصة الكلام في بيان أُمراء البلد الحرام ص ١٦٩ ـ ١٧٠.

تعرّضت له بادية عنزة، ومن حولها من الأعراب، وطلبوا منه زيادة علىٰ قواعدهم المقرّرة لهم في الإياب، فامتنع عن ذلك، وأوردهم حياض المهالك، فوقع بينهما حرب وقتال، وذهب فيه جملة من الخيل والرجال، ووقف في ذلك اليوم موقفاً يشهد بنجابته وأصالته، وكرّ كرّات تعلن بشجاعته وبسالته.

فتفرّق بسبب ذلك غالب الحاجّ، وظلّ في تلك المهامد والفجاج، ثمّ أسفر طول مكثه عن ذهاب ثلثه، فقيل: إنّ ما أساء هؤلاء الأعراب معه الأدب، حتّىٰ صاروا ينسلون إليه من كلّ حدب، إلاّ بإغراء شريف مكّة عليه، حين حقّقت له الفراسة، أن ستؤول الشرافة إليه.

فلمّا خشي من تلك القضيّة، أراد أن يقبح سيرته عند الدولة العليّة، ليحول بينه وبين ذلك الأمل، فأحرز مقصده بذلك العمل، لأنّه لمّا ورد شامه، وسمعت السلطنة أخباره وأعلامه، ساءت سيرته لديهم، وأهمّوا بإحضاره بين يديهم، وإنّما لمّا لحظته عين العناية من جدّه، وأحاطت به سرادق سعادته وجدّه، ألقى الله الشفقة في قلوبهم، وأحالت القدرة الإلٰهية بينهم وبين مطلوبهم، فعزموا علىٰ رفعه من منصبه الأسمىٰ[1]، وتوجيهه إلىٰ ديار مصر العظمىٰ، إكراماً لنسبه الشريف، وإجلالاً لمقامه المنيف، وقرّروا له ما يوازي مخارجه.

ثمّ حبسوا بها عليه سبله ومناهجه، فألقى العصا بمصر مع أخيه، وهجر مكّة ومن بها من ذويه، فخالط أعيانها بلطف شمائله، وشمل ضعفاءها بجزيل برّه ونائله، فسرىٰ فيهم مسرى الروح في الجسد، وتمكّن منهم تمكّن البرين من الأسد، حتّىٰ صار لديهم بيت القصيد، وواسطة العقد الفريد.

---

(١) في «ن»: الأعلىٰ.

ثمّ استمرّ بها عدّة سنين، لم تطأ آساد الثرىٰ له عرين، ولم يزل طائر يمنه يصدح بإقباله، في مدّة حياة أخيه وبعد انتقاله، بل زاد من برّ السلطنة مدده، وتوفّرت بأسباب موت أخيه عدده.

وفي سنة ألف ومائة وثمان عشرة: إستأذن من الدولة أن يسير إلىٰ مكّة المعظّمة، ويكون عضداً للمتحلّي بعقود ولايتها المنظّمة، لاختباط مكّة وما حولها من الأطراف، واختلاف كلمة السادة الأشراف، علىٰ مليكها الأمجد الأنجد، ابن عمّه الشريف عبدالكريم بن محمّد، فورد بالإجلال والإكرام، ومزيد العناية والاحترام، وعضده صاحبها بخيله ورجاله، وخدمه بأفعاله وأقواله.

ولم يزل معه برأيه الرشيد، واجتهاده السديد، إلىٰ أن عزلته السلطنة بالشريف سعيد، فلزم داره، واشتغل بالعمارة، وعكف علىٰ عبادته وتقواه، وألزم نفسه الحضور في المسجد لكلّ صلاة، ولم يزل هذا دأبه وشعاره، وقطبه الذي عليه مداره، إلاّ أنّك إذا نظرت إليه بعين الفراسة، ظهرت لك من وجهه الشريف مخائل الرئاسة، ولمّا استقامت في دائرة الفلك كواكبه، وصفت من الأكدار مناهله ومشاربه، زفّت شرافة مكّة إليه، بعد انقضاء دولة سعيد ونجله.

فصل

كيفيّة شرافة الشريف يحيى بن بركات علىٰ مكّة

تولّىٰ هذا السيّد الشريف الأمجد، والسند المنيف الأنجد، شرافة بلد الله الحرام الأمين، وحماية قطّانه والآمّين، لستّ خلون من ذي‌الحجّة الحرام سنة ألف ومائة وإحدىٰ وثلاثين.

وسنملي عليك في هذا الفصل اللطيف، بعد تمهيد ما تقدّم من ذلك الأنموذج الطريف، حديث كيفيّة سوق الشرافة إليه، وإفاضة الخلع السلطانيّة عليه.

وهو أنّه قد تقدّم في ترجمة الشريف علي ما صار من الزيغ والاختلاف، الصادر من السادة الأشراف، في أوائل شهر ذي‌القعدة الحرام من السنة المذكورة، وذلك بسبب تخلّف مقرّراتهم، وقطع صلاتهم ومبرّاتهم.

وأجمعت كلمتهم على الخروج، والترحّل إلىٰ شام العرب وملاقاة أمراء الحجوج، وظهروا إلىٰ وادي مرّ الظهران، ولاقوا أمير الحاجّ الشامي قبل وصولهم إلىٰ عسفان، وهو الوزير الأعظم، والمشير الأقرم، ذي الأخلاق الرضيّة، والآراء الوضيئة، المعروفة في كلّ قضيّة، رجب‌باشا، بلغه الله من السعادة ما شاء، فتلقّاهم بصدر رحب، ورأي مصيب.

فرفعوا إليه شكواهم، بعد أن قدّموا بين يدي نجواهم، وشرحوا له ما صار من الفساد، وطلبوا منه رفع علي من البلاد، فامتثل أمرهم العالي، وعزم علىٰ إعمال القواضب والعوالي، إلاّ أنّه سألهم عن شيخهم العظيم الأمجد، السيّد الشريف عبدالمحسن بن أحمد، فأجابوه بأنّه لا يخلو من توعّك في مزاجه، فتأخّر لمداواة مرضه وعلاجه، ثمّ سألهم ثانياً، وقال: أين من أجمعتم الآن عليه، وأزمعتم علىٰ تفويض أمر الشرافة إليه، فأشاروا إلى السيّد الشريف، والغضنفر الغطريف، الأمجد الأنجد، السيّد مبارك بن أحمد، فقال: لا بأس بجنابه، إذ هو من ولاة هذا الأمر وأربابه، إلاّ أن لابدّ من استشارة أخيه، وما يأمرنا به نسير فيه.

هذا كلّه وصاحب الترجمة، مقيم بمكّة المكرّمة، ليس له يد في هذه الأحوال، بل ناهض بما يجب للملك من شروط العمّال، فكتب حضرة الوزير المسدّد، كتاباً أرسله مع كبار السادة إلى السيّد عبدالمحسن بن أحمد، ومعهم أخوه المشار إليه، والأمر لم يكن محزوماً إلاّ عليه، فحين حلّوا رحابه، أسلموه كتابه، وصارت بينهم مراجعات طويلة، لم تفد الحديث إلاّ تطويلة.

ملخّصها: أنّه نكب على تولية أخيه، وأظهر توانيه عن هذا الأمر وتراخيه، واعتذر بأُمور عظام، لا يسع شرحها المقام، منها: أنّه ما سيؤول تعب هذا الأمر إليه، وذهاب جملة من الأموال عليه .

ثمّ خاطبه مشافهة بلسانه، طاعناً لما تجسّمه عقله بسنانه، وقال له ناقضاً لما أبرمه من ذلك الغزل، هل بعد الولاية إلاّ انتظار العزل، وإذا صار ذلك غدوت مطروداً في جميع الطرق والمسالك، وأجمع السادة على إبعادك، عن عشيرتك وبلادك، فهل أحرزت من شرافتك، غير عداوتك لرفاقتك، وأخيبت فيما كنت آمله فيك وأرجوه، وأحكمته من جميع الوجوه، من أنّك ستكون الجامع لأهلي وعيالي، إذا كسفت شمعي وغاب هلالي، وهل بعد اجتهادي في حلب الدرّ بفيك، تضيّع أملي فيك، فمل عن ذلك، واقتدي بي، وسر على تهذيبي .

ثمّ شرع يجول مع السادة في من يصلح لهم، ويبلغهم من السعادة أملهم، فعزم هو والسادة الأشراف، على من يحصل به السداد من جميع الأطراف، لسعة صدره، وعلوّ قدره، وهو صاحب الترجمة، لا زالت عقود دولته منظّمة .

فكتب إلى حضرة الوزير بذلك، وأفهمه بأنّه الغاية لحفظ هذه الممالك، والحالة أن يجيء بمكّة المشرّفة، وإنّما أرسل إليه السيّد عبدالمحسن بذلك وعرّفه، وأمره بالمسير إلى حضرة الوزير، فجاءه المرسول بعد صلاة الصبح وهو في المطاف، ومهبط البرّ والألطاف، فامتثل الأمر وسار، ووصل الوادي قبل حلول الشمس في رابعة النهار، فوجد به صاحب السعادة، وجميع السادة، في استشراق شمس غرّته، واستبدار هلال طرّته .

فلمّا وصل إليه، أفاض خلعة الشرافة عليه[١]، وحفّه السادة من جميع جوانبه، كأنّه البدر بين كواكبه، وذلك في يوم ستّ من ذي الحجّة الحرام من السنة المذكورة، ودخل مكّة بعد العشاء ليلة سبع من الشهر المذكور، وهو في غاية النشأة والسرور، وخرج علي من البلاد وسار، من غير حرب ولا حصار.

وهذا بيان كيفيّة سوق الشرافة إلىٰ جنابه العالي، لا زال مشمولاً بفيض كرمه المتوالي، واستمرّ فيها إلىٰ يوم الأربعاء لسبع خلون من شهر رجب المعظّم من سنة ألف ومائة وثنتين وثلاثين، فكانت مدّة ولايته سنة وسبعة أشهر ويوماً واحداً، عزل عنها بالشريف مبارك بن أحمد الآتي ذكره الشريف[٢].

فصل

في مناقب الشريف يحيىٰ بن بركات

كانت دولة هذا الملك الهمام، والغضنفر القمقام، حسنة من حسنات الزمان، ومنّة من منن الرحمٰن، أمّا أيّامه فأعياد ومواسم، وثغور الأفراح بدولته المزهرة بواسم، طالما هزّ الدهر بها إعطافه، ونثر الربيع عليها من ذخائر نواره أصنافه، مهّد الأُمور وعدل، وأصاب الحقّ وما عدل.

ولي مكّة وهي مفعمة من حوادث الرسوم والمظالم، فهبّ عليها نسيم عدله فعفىٰ رسوم تلك المعالم، وأقام الشريعة فظهر شعار الدين، وسلك مسلك الخلفاء الراشدين، ولعمري لقد صدق من أنشد فيه، في بعض الرسائل التي كانت توافيه، قول بعض الشعراء السابقين، والبلغاء الناظمين:

---

(١) في «ن»: إليه.

(٢) راجع: خلاصة الكلام ص ١٧٠.

إذا أردت شريف الناس كلّهم فانظر إلىٰ ملكٍ في زيّ مسكين
ذاك الذي حسنت في الناس سيرته وذاك يصلح للدنيا وللدين

أقام للسادة الأشراف عمود أقدامهم، وأنار بدولته النمويّة ضوء نبراسهم، وسلك مع رفاقته وذويه، مسلك الوالد مع بنيه، وكانت له خصال جمّة، لم تلف في أحد من ملوك هذه الأمّة.

من جملتها: التواضع وحسن الأخلاق، اللذان استمال بهما قطّان بلاده ووفّاده من جميع الآفاق، وكثيراً ما يقف في مسيره لسماع الشكوىٰ، لضغائن النساء ذوات البلوىٰ، فيأخذ لها الحقّ، ويهين من عقّ، وهو واقف علىٰ قدمه، بين عساكره وخدمه.

ومنها: سعة صدره التي هي من أعظم الدلائل علىٰ نموّ قدره، يتلقّى الخطب بصدر رحيب، ورأي مصيب، فيحلّ عراه، وينظر ما وراه.

عليمٌ بأعقاب الأمور كأنّما تخاطبه من كلّ أمرٍ عواقبه

ومنها: الرأفة بأهل البلاد، والرحمة الشاملة للعباد، بالنظر العالي في جميع أحوالهم، والتعفّف عن أغصابهم في أخذ أموالهم، ثمّ التنزّل إلى الموالاة بذاته العليّة لأسعار الأقوات، وعدم الغفلة عنها في جميع الأوقات، طالما يمرّ على السوق وهو في غاية الانتظام، من العساكر والخدّام، ويتناول بيده الشريفة أنواع الحبوب، ويسأل عن أثمانها حتّىٰ يقف على المطلوب، فيضع منها ما ارتفع ثمنه، وهذا دأبه وديدنه، فجزاه الله عن أهل مكّة خير الجزاء، وجعل نصيبه من السعادة أوفر الإجزاء.

فصل

في الحوادث الواقعة في شهور دولته الزاهرة وإمارته الباهرة

من وفاة لبعض الأعيان، أو حادثة وقعت في بعض البلدان .

فقد تقدّم أنّ ولايته كانت في افتتاح سنة إحدىٰ وثلاثين، وعزله كان في سنة ثنتين وثلاثين .

وفاة السيّد زين العابدين الصحرا :

ففي سنة إحدىٰ وثلاثين: توفّي السيّد الجليل الأصيل ذو النسب الفاخر، والحسب الجامع لأشتات المفاخر، السيّد زين العابدين بن جعفر بن الفاضل العلاّمة السيّد زين العابدين الشهير بالصحرا، وكانت وفاته رابع شهر جمادي الأُولىٰ من السنة المذكورة .

وكان هذا السيّد من أجلّ السادة، وأعظم من تسنّم عند ملوك مكّة غارب السعادة، فأحلّوه روضة غنًا، وأنالوه كلّ ما تمنّىٰ، فصار منهم بمنزلة الروح من الجسد، والبرشن من الأسد .

وأمّا جدّه العلاّمة السيّد زين العابدين، فكان واسطة عقد علماء الدين، فرحمه الله تعالىٰ، وأولاه ألطافاً توالىٰ .

وفاة الرئيس عبداللطيف الموقّت :

وفي سابع عشر رجب: توفّي الرئيس عبداللطيف موقّت الحرم الشريف .

ترجمة الشريف مبارك بن أحمد بن زيد بن محسن ابن حسين بن الحسن بن أبي نمي

ملك نشأ من دوحتي النبوّة والرسالة، وترعرع في رياض الفتوّة والبسالة،

ورشف من كؤوس الهيبة والوقار، واعتسف جموح المجد والفخار، ونشق[1] ريا الخلافة من قبل صباه، وشفّ بها شغف أبي زيد السروجي لفتاه، فلم يزل يفتل في الذروة منها والغارب، حتىٰ تسنّم صهوتها، فشاع صيته الشريف في جميع المشارق والمغارب، فغدت دولته الزاهرة غرّة لجبهة زمانه، وصولته القاهرة قرّة لعين أعيانه .

ولي أحكام الشرافة، ولوي ألوية الخلافة، لسبع خلون من شهر رجب المعظّم، عام ألف ومائة واثنين وثلاثين، وسأملي عليك لهذه الولاية أعجب حكاية، وأغرب رواية :

كان هذا السيّد الشريف، والأيّد في اقتناء العزّ المنيف، من جملة المندرجين في جميع الحركات والسكنات، تحت أوامر الشريف يحيى بن بركات، ولم يل كذلك سالكاً في خدمته أشرف المسالك، إلىٰ أن رمى الله بينهما بسهم التفريق، وصار كلّ واحد منهما عن صاحبه فريق، ولذلك أسباب وأُمور، لم تقتض في الحقيقة ذلك النفور، وإنّما لمّا قدّر بينهما، رمى العدواة والبغضا بينهما .

فخرج من مكّة المشرّفة غاضباً إلىٰ منزله الشريف، وسوحه المنيف، وهو إذ ذاك نازل في الحسينيّة، غير عازم على الفراق المعلومة قواعده عند السادة الحسنيّة .

فتوسّط بينهما لتقريب الأحوال، والسعي في إزالة ما ثقب في ذهن كلّ واحد منهما من الأقوال، رجل من كبار السادة الأشراف، فحصل في رجوعه من ذلك المسير، ومراجعاته للشريف يحيىٰ بعض تكدير، بسبب خطاب صدر من الرجل

---

(١) نشق نشقاً الريح: شمّها .

المذكور، تلوّح منه ما ينصبح على الصلح، وإلاّ فهو واقع في محذور، من تعظيم ذلك الجانب، وارهابه حسبما اقتضاه نظره الثاقب.

فطلب من الرجل المتوسّط الكفّ عن السعي في ذلك، وعزم على المقاومة لأُولئك، وأرسل إلى السيّد مبارك ينحّيه عن بلاده، جرياً علىٰ قواعد آبائه وأجداده، فأخذ منه مهلة سبعة أيّام، إلىٰ أن يسير حيث شاء هو ومن معه من الأقوام.

ثمّ سار إلى الطائف ونواحي الحجاز، وهو ملك في الحقيقة لا المجاز، وذلك في ...[1] من شهر جمادي الأُولىٰ من السنة المذكورة.

ولحقه بعد أيّام يسيرة، عضده ومن به أحقّ إذا حصحص الحقّ، ابن أخيه الأمجد الأنجد المحسن، السيّد أحمد بن عبدالمحسن، في بلهنية من الأموال، وكثرة من الخيل والرجال، ومعه جماعة من أعاظم السادة الأشراف، بعد المعاهدة بينهم من الزيغ والخلاف، وصاحب الترجمة حينئذ بنواحي سوق الضراب، لجمع البادية والأعراب، والسيّد أحمد ومن معه قصدوه، ثمّ قصّروا عنه بوادي ليد، وهم مجمعون علىٰ ما تقدّم منهم من تلك الألبد، وأمّا الطائف وما حواه من الأطراف، فهو في أحكام الشريف يحيىٰ، وله فيه رتبة من العساكر والأشراف.

وأمّا السيّد أحمد ومن معه من الأقوام، وما اجتمع عليه في غيبة عمّه من الأعراب الطغام، لمّا رأىٰ أنّ جمعه سديد، وبأسه شديد، عزم عىٰ مقاومة من بالطائف من الأشراف والأجناد، والاستيلاء على البلاد، فسار عليها، ووجّه نجائب همّته العالية إليها، فدخلها يوم ثلاثة عشر من شهر جمادي الثانية من السنة

---

(١) بياض في النسختين.

المذكورة، بعد حرب وحصار طويل، استمرّ يوماً إلاّ قليل، واستأجروا جمعاً من الخيل والعساكر، ودخلوا البلاد وكلّ حامد وشاكر، ثمّ سيّروا أحكامهم فيها، وأشاعوا الذكر بنواحيها.

فشرع هذا السيّد الشريف، يتساوي قبائل عتيبة وثقيف، ويكسي كبارهم، وينفع صغارهم، وحوله من أعاظم السادة، من يسدّد الأُمور بآرائه المستجادة، ويقوي صولة العربان بلطائف الأوضاع، والحرب كما علمت خداع، فاجتمع لديه جملة من البوادي، وصلاة برّه عليهم تخجل السحب الغوادي، إلىٰ أن ورد عليه عمّه من سوق الضراب، ومعه أيضاً شرذمة من الأعراب.

ومن أكبر حظوظ هؤلاء السادة، الدالّة علىٰ سموّ لهم بـرواق السعادة، بأن اجتمع شيوخ ثقيف وعتيبة، ومن انضمّ إليهم من بواقي العرب خيفة وهيبة، وعقدوا بينهم عقداً علىٰ قواعدهم المعروفة، وقوانينهم المألوفة، بأنّ من يومهم هذا إلىٰ أن يردوا مكّة المعظّمة، ويتحلّىٰ جيد سيّدهم بعقود الشرافة المنظّمة، يسير القاتل عبىٰ عزيمه، ويطوي كلّ منهم سجل حديثه وقديمه، ويشرعوا في المقصود، بعون الملك المعبود.

وناهيك بما بين عتيبة وثقيف في ذلك الزمن، من كثرة الحروب وتوالي الفتن، غير أنّ الله عزّوجلّ لمّا أراد ما أراد، سخّرهم لهم وهيّأهم حسب المراد، كلّ ذلك وشريف مكّة مطنب خيامه بأعاليها، قانع بأوامرها ونواهيها، ولم يدر أنّ الحادث قد ألمّ، حيث انّ القضاء قد نزل به فأعمىٰ وأصمّ، وإلاّ فالجيوش التي لا تحصىٰ لديه، وغالب أعاظم السادة الأشراف بين يديه.

فسار صاحب الترجمة ومن معه من الأشراف والأجناد، وتفرّقوا من طرق ثلاث بنهاية الإحكام والسداد، ولموعد عرفة، ثمّ منها إلىٰ مكّة المشرّفة، فالتقى

الجيشان يوم الأربعاء لسبع خلون من رجب، ووقع بينهما قتال لم ينازله إلاّ من زكيٰ أصله الشريف ونجب، لأنّه كان محك الفرسان من السادة الأشراف، والموقف الذي لم يسع الضدّ فيه إلاّ الاعتراف، فلقد أعلوا فيه القاضب والعسال، وفتكوا في عدّة من الخيل والرجال.

ثمّ ارتفع ذلك القتام[١]، عن توجّه يحيىٰ ودخول مبارك إلى البلد الحرام، وصار ذلك كلّه من أوّل الليل إلىٰ مضي خمس ساعات من النهار، ولعمري أنّها عبرة لذوي الاعتبار، وحكمة قادر عليم، ومدبّر للأمور حكيم، فدخل مكّة المشرّفة، ورفل في حلل ولايتها المفوّفة، وصرخ مناديه باسمه العالي، ولسان حاله ينشد كلّ عدوّ وقالي.

ومن يعص أطراف الزجاج فإنّه يطيع العوالي ركّبت كلّ لهزم

ثمّ بسط بساط العدل والأمان، وعمّ رعاياه بالرأفة وشملهم بالجود والاحسان، واستألف من كان مناصيه من رؤساء السادة، ومنحهم برّه وإسعاده، استقرّت البلاد، واطمأنّت العباد.

ومدحه شعراء مكّة بما هو أرقّ من الصبا، وأدقّ من أحاديث الصبا.

فمن جملة من مدحه، وأفعم من برّه قدحه، جامع هذا التأليف ومنشيه، وحائك بروده وموشيه، بقصيدة رائيّة، سمت بمديحه على القصائد الطائيّة، وهي:

لعلوىٰ ربوعٌ باللوىٰ وخدور فهل لك يا حادي الضعون تزور

تجدّد عهداً باللوىٰ جاده الحيا فلي في رباه روضةٌ وغدير

(١) القتام والقتمة: الغبار الأسود، غبار الحرب، الظلام، السواد.

ونــذكر أيّـاماً تـقضّت بسـفحه ... وعصراً به غـصن الشباب نـضير[١]
سـقىٰ مـربعاً للـعامريّة بـاللوىٰ ... مـلثٌّ يـعمّ الأرض مـنه بـحور
فـلم أنس سرّاً قـد أذاعـته عـندما ... تــدانىٰ فـراقٌ بـيننا ومسـير
عشية قـالت بـالحمىٰ سـوف نـلتقي ... وقـال لهـا الواشـي أبـوك غـيور
فدتها الغواني كـيف تـفشي حـديثها ... أمـا عـلمت أنّ الوشـاة حـضور
أطـعت الهـوىٰ فـي حبّها ولو أنّـه ... يـؤجّج نـاراً فـي الحشـا ويـثير
طرقت حماها حين طال بـي النـوىٰ ... وفـي كـبدي مـنه لظـىً وسـعير
وقلن محبٌّ قـد أتـىٰ يـطلب الثـوىٰ ... فـقالت يـقيم اليـوم ثـمّ يسـير
فقلت لها يا عـلو فـي غـير أرضكـم ... أسـير وأمّـا عـندكم فأسـير
أمـا مـلكتي[٢] لا فـرّق الله بـيننا ... إلىٰ كـم صـدودٍ فـي الهـوىٰ ونـفور
أفـي كـلّ يـومٍ لي إليكـم وسيلة ... أقـدّمها إنّـي إذاً لصـبور
علىٰ أنّـني لم أفش سـرّاً ولم أخـن ... عـهوداً ولم تسـند إليّ أمـور
فـقالت حـماك الله مـن كـلّ شيمةٍ ... تشـين ولكـنّ الوشـاة كـثير
إذا ظـفروا يـوماً بـحرٍّ تـبادروا ... إلىٰ ذمّـةٍ إنّ اللسـان عـثور
فـقلت دعـيهم لا أبـاً لأبـيهم ... فـإنّي مـليكٌ فـي الهوىٰ وأمير
فـقلت نـعم قـد أيّدتك شـواهـد ... لديـنا وأخـبارٌ بـذاك تسـير
ولكـن إذا فـاض الحـديث بـمحفلٍ ... وأرّجـنا مـنه شـذاً وعـبير
رأيـتك للآداب تـصغي وللـعُلا ... تـميل وذا ودٌّ لديك تـمير

---

(١) في «ن»: نظير.

(٢) في «د»: أهاجرتي.

وتنظم من حرّ الكلام قلائداً ... تحلّىٰ بها للغانيات نحور
ألست الذي تطوي القفار لماجدٍ ... له بين سادات الأنام ظهور
فقلت بلىٰ لله درّك هذه ... مطامح مثلي لا طلاً وبخور
فقالت إذن فاقصد أخا المجد والعلىٰ ... ومن بالخصال الصالحات شهير
مبارك نجل الشهم أحمد من له ... بغاة المعالي بالأكفّ تشير
فقلت هو المولى الذي قطّ ما له ... كما صحّ بين الخافقين نظير
مليكٌ عظيمٌ ماجدٌ متواضع ... عليمٌ بأعقاب بالأمور خبير
مليكٌ رقىٰ هام السماكين واغتدىٰ ... لبان العلا والمجد وهو صغير
وساد بني السبط الذين هم هم ... ملوك الورىٰ بالسيف وهو كبير
مليكٌ له يومان يومٌ لبؤسه ... فكلّ الفيافي للعصاة قبور
ويومٌ ندىٰ عمّ الخلائق برّه ... فلم يلف بين العالمين فقير
مليكٌ عريقٌ فاطميٌ مهذّب ... علاً أورثاه شبّر وشبير
مليكٌ خطيبٌ مصقعٌ ذو بلاغةٍ ... يقصّر عنها دعبلٌ وجرير
مليكٌ زهت أمّ القرىٰ بقدومه ... وحفّ جميع الخلق منه سرور
فيا ملكاً تروي أحاديث فخره ... ثقاة عدولٍ في الورىٰ وصدور
عن السبط عن مولى الأنام بأسرهم ... عليٌ كما قد أوضحته سطور
ويا ماجداً حاز القلوب بلطفه ... وكلّ ودادٍ قد حواه ضمير
ألم تدر أنّي لم أزل منذ أشرقت ... عليّ شموسٌ من علاك تنير
وأصفيتني محض الوداد تفضّلاً ... وظنّاً بأنّي عالمٌ وبصير
رجوت بأنّي أرتقي كلّ رتبةٍ ... ذراها يردّ الطرف وهو حسير
فكان جزائي ضدّ ما قد رجوته ... علىٰ أنّني بالفضل منك جدير

علىٰ حظّي المنحوس عتبي لأنّني ... أرىٰ أنّ حظّي قد عراه[١] قصور
فإن تولني منك الجميل فأهله ... وإلاّ فإنّي عاذرٌ وشكور
وهاك لآلٍ في سموطٍ نضمتها ... عقوداً وفي أثناء تلك شذور
هدية رقٍّ مخلصٍ قد طغىٰ[٢] به ... زمانٌ لأرباب الكمال كفور
فجد بقبولٍ لا برحت معظّماً ... مهاباً عزيزاً والعدوّ حقير
ودم مالكاً للمجد ثمّ متمّماً ... له بفخارٍ لم يصبه دثور

ولولا طلب الإيجاز في المقالة، والحذر من الملل بالإطالة، لسوّدت الصحف بمدائحه، الدالّة علىٰ مكارمه ومنايحه.

ومما اتّفق لهذا الملك الهمام، والغضنفر القمقام، ممّا لم يصر قبل ذلك، لأحدٍ من ولاة هذه الممالك، بأن دخل تحت طاعته، وتفيّأ رواق سعادته، ملكان شريفا[٣] المقدار، منيفا المجد والفخار، قد تحلّيا سابقاً بعقود الشرافة، ورفلا في حلل الخلافة، وكان هو من جملة أتباعهما، والمرتشف[٤] من كؤوس إنعامهما، وهما الشريف عبدالله، والشريف علي ابنا الشريف سعيد، فسبحان المبدىء المعيد، فشملهما إظلال[٥] لوائه، وصارا من جملة أنصاره وأوليائه، وأسقطا له قواعد أمثالهما من الملوك، واحترماه احترامه لهما سابقاً في كلّ مسلوك.

---

(١) في «د»: علاه.

(٢) في «ن»: هفىٰ.

(٣) في «ن»: شريفان.

(٤) في «ن»: والمرتشفين.

(٥) في «ن»: ظلال.

ومن حديثهما: أنّهما كانا باليمن وتلك الجهات، في دولة الشريف يحيى بن بركات، وقد أرسل إليهما من الأشراف والعساكر من يبعدهما عن تلك الأقطار، ويشتّت شملهما في هاتيك المهامّة والقفار، فصار بينهم حرب مديد، وقتال شديد، نالهما منه أعظم تعب، وأشدّ شغب[١].

فلمّا صار بين الشريف يحيىٰ وصاحب الترجمة ذلك الفراق، بعث يستدعيهما إليه بالأوراق، ويستحشم بهما علىٰ قرمه، لكونهما ابني عمّه، فما ارتحلا من المواضع التي كانا فيها، إلاّ بعد تمكّن صاحب الترجمة من مكّة ونواحيها، وأخرج يحيىٰ عن مملكته، كما تقدّم في ترجمته، فما أمكنهما[٢] بعد الوصول، إلاّ تلقّيهما بأكفّ القبول، وعاملهما بالإعزاز والإكرام، ومزيد الإعظام والاحترام ومنحهما من برّه وإسعاده، فوق ما يرجىٰ منه لوفّاده.

وطلب منهما قبل الإقامة، المعاهدة والقيام بالخدامة، ففعلا له ذلك، وسلكا معه أحسن المسالك، واستمرّا في البلاد، وهما معه في غاية السداد.

وإنّما لمّا كان شهر محرّم الحرام من سنة ألف ومائة وثنتين وثلاثين، شرعت بينه وبين الشريف عبدالله مقتضيات الفساد، ولمعت بينهما بروق النوىٰ والبعاد، وتواترت النقول لدىٰ صاحب الترجمة بفساده، وثبت عنده أنّه حول منصبه وبلاده، فثار عليه ثيار الأسد من غابته، وعزم علىٰ ردّه إلى اليمن وإعادته، فأمضىٰ عزمه من آنه، ونكبه جواد اليمن بعساكره وفرسانه، ولم يزل مستعملاً عقبه السير الحثيث، إلىٰ أن أوصله إلى الليث.

---

(١) في «ن»: سغب.

(٢) في «ن»: أمكنه.

فلمّا آمن من رجوعه، عاده باقوامه وجموعه، وما فعل به ذلك إلاّ لما ظهر له أنّه كان يحاول شام العرب وتلك المسالك، ليتمّم مطالبه المبنيّة، بملاقاته لأُمراء الحجوج وأعيان الدولة العثمانيّة، وهذا سبب بذل الهمّة في ردّه إلى اليمن، ومسايرته إذا شدّ وظعن.

ومع ذلك لمّا عاد عنه بعد ما ساره، وتنكّب سبل اليمن وتلك الأقطار، وعلم بأنّ صاحب الترجمة قد قصد الخبت للاقتناص، رجع كرّة أُخرىٰ علىٰ ظهور خيل وقلاص، محاولاً ملكاً آخر إلىٰ وادي مرّ، ثمّ منه إلىٰ ذلك المستقرّ.

فبلغ الشريف ذلك ومشىٰ مشياً عنيفاً إلىٰ مكّة المشرّفة، ثمّ منها إلىٰ نواحي وادي نعمان، إذ قد بلغه أنّه مرّ بذلك المكان، فلمّا وصل إليه، وقطع بأنّه سيصول عليه، آوىٰ إلى السادة ذوي جازان[١] في محلّهم المعروف بهم وهو الشريفة واستضافهم، فتركه الشريف احتراماً لهم، إلاّ أنّه شدّد عليهم في ارتحاله، وهو آمن علىٰ جماعته وأمواله، ويرجع من طريقه التي جاء منها.

فلمّا كان آخر الليل سار وهو خائف، وترك طريق اليمن وأخذ ثنية الطائف، فوجد بعض العساكر فيها، وجمعاً من العربان النازلين بنواحيها، فردّوه عن مراده، حتّىٰ لحقه الشريف بأجناده، ونكبه طريق اليمن مرّة ثانية، ولم يزل وراءه، إلىٰ أن أبعد مرماه، ولم يبق له خبر، ولا اسم ولا أثر.

وأمّا أخوه الشريف علي، فبقي علىٰ حاله، قانعاً بما يقيم به أود خدّامه وعياله، ولم يحدث منه شيء من المفاسد، جارياً على القوانين والقواعد. إنتهىٰ حديثهما مع صاحب الترجمة، لا زالت عقود مملكته بفوائد الظفر منظّمة.

---

(١) في «ن»: آل جازان.

فصل مفيد وأصل سديد

ينطويان علىٰ ما لعلّه يستحسن من إيراد حادثة لطيفة، وفائدة ظريفة، ونكات غريبة، وترّهات عجيبة، وقضيّة مفيدة، وسيرة جديدة، تتعلّق بسنة ألف ومائة وثلاث وثلاثين وما بعدها، فيكون ذلك كالتذييل لما تقدّم، والتكميل لترجمة هذا المليك الأعظم .

الاشتعال الهائل في جدّة :

فمن جملة الحوادث، والخطوب الكوارث: ما صار في بندر جدّة المعمور، وهو أنّه ثارت بها نار[1] يوم الاثنين رابع عشر شهر ربيع الأوّل من السنة المذكورة، ولم يعلم موضع ابتدائها، إلاّ أنّها تنتقل من موضع إلىٰ آخر، حتّى استولت علىٰ ثلثي جدّة .

ولم تزل مستمرّة إلىٰ يوم الجمعة ثامن عشر الشهر، وذلك بسبب ريح هبّت لم يعهد مثلها، حتّىٰ زجر البحر من حرّ النار، وفقد من الخلق رجال ونساء نحو من مائة وخمسين نفراً، ولم يبق لهم أثر، فافتقر بذلك[2] جمّ غفير من أهلها والواردين عليها، حتّىٰ صاروا يستحقّون الحسنات .

ومن جملة الغرائب، والأُمور العجائب، أنّه احترقت توابيت المشايخ المشاهير الذين يستغاث بهم، ويتقرّب بهم إليه عزّوجلّ، وبعض من المساجد القديمة، التي لم تزل الصلاة بها متواترة، وبيوت البغايا وما حولها قد أطافت[3] بها النار شرقاً

---

(١) في «ن»: نار بها .

(٢) في «ن»: بسبب ذلك .

(٣) في «ن»: أطاقت .

وغرباً، ولم تأكل شيئاً منها، ولم يلحقهنّ لفح منها، ولا ضرر ناشىء منها.

وقد رأى الصالحون من السادة قبل وقوع هذا البلاء بأيّام منامات باهرة، وعلامات ظاهرة[1]، تدلّ علىٰ حدوث خطب بهم، وغضب يحلّ بسببهم، وذلك لارتكاب أهلها المعاصي من الاشتهار بالربا، واحتكار الأقوات، ومنع الزكوات، والاشتغال بالغيبة والنميمة والحسد والبغي، فنعوذ بالله من شرّ ذلك، ونسأله الهداية لنا ولهم في جميع المسالك.

الحروب العظيمة بنواحي ينبع:

ومن جملة حوادثهما: أنّه صار حرب عظيم بنواحي ينبع، بين حرب وحلفائهم من صبح والحوازم وغيرهم، وبين السادة الأشراف آل هجار أمراء ينبع من جانب شريف مكّة المشرّفة، وحلفائهم من قبائل جهينة وبني إبراهيم وغيرهم، وكانت للسادة وحلفائهم علىٰ حرب وقبائلهم، وذهب من الفريقين في القتال نحو من مائة شخص، وشريف واحد من آل هجار.

وسبب ذلك: أنّه نما في قبيلة حرب شيخ لهم، يقال له: مبارك بن مضيان، وعزّ فيهم، وارتفع شأنه، وشاع صيته حتّىٰ صار ركناً تلوذ به ملوك مكّة المشرّفة إذا حصل عزل، فملك جميع الشام، وأطاعته العربان، وكان يأخذ جائزاً علىٰ جميع الحجوج التي تمرّ به، والمدينة وأهلها وحكّامها تحت أوامره ونواهيه، وكذا بندر ينبع ومن بها من حكّام الشريف ووزرائه وأمرائه.

فصارت بينه وبين أمير ينبع السيّد عبدالمعين بن هجار منابذات خفيّة، هي في الحقيقة جزئيّة، فيما يتعلّق بأحكام البندر، لم تحوج إلىٰ مثل ذلك من حرب

---

(١) في «د»: باهرة.

وقتال، مع أنّ بينه وبين السيّد المذكور عهود ثقال، غير أنّه أزمع علىٰ قتاله، ولم يلتفت إلىٰ عهوده وأقواله، فجمّع الجموع من العربان، وسار إليه، وقصده إلىٰ محلّه، والسيّد المذكور لم يزل يرسل إليه، ويبثّ الحقائق عليه، ويصرح له بتمام ما يريد، فأبىٰ إلاّ القتال.

فصار بينهم حرب شديد، أسفر عن نصرة السيّد عبدالمعين ورفاقته وقومه، وعود حرب وشيوخهم منكسرين إلىٰ محالّهم، فأخذوا من السيّد عبدالمعين ذمّة سنة وشهرين بتوسّط بعض القبائل علىٰ أن لا حكم لهم في البندر وما يتعلّق به، ويقتصرون آل مضيان عن الوصول إلىٰ ينبع، وأمّا بقيّة حرب فيصلون ويحملون علىٰ غيرهم.

واستمرّ الحال علىٰ ذلك، وهذه عاقبة الباغي، وخصوصاً علىٰ أهل البيت النبوي، فحين شاع ذلك وذاع، وملأ البقاع، ضمّت مؤلّف هذه الكلمات عصبية المشاركة في النسب الشريف، المنتهىٰ إلىٰ ذلك المقام المنيف، فنظمت قصيدة غرّاء، تتضمّن الإعلان بنصرة بني الزهراء، وذكر أوصافهم الحميدة، وآرائهم السديدة، ومدح من ثار لهم علىٰ هذا الباغي، والذمّ له ولأتباعه، وبعثت بها إلى السيّد عبدالمعين الهجاري، وهي هذه:

تبسّم ثغر النصر بالبيض والسمر ... وأورق غصن الفخر بالسادة القرّ
هم فتيةٌ من آل طـه تملّكوا ... حصون العُلا بالزاعبيّة والبتر
وشادوا مباني العزّ بالطعن في العدا ... وسادوا البرايا بالصلاة وبالبرّ
مطا غير في الهيجاء حجاجيح في الوغا ... مكاشيف للغمّاء في ملتقى الكرّ
فأحيوا رسوم المجد بعد اندراسها ... وأعلوا لواء الفاطميين بالنصر
فهم سادةٌ فاقوا هجاراً أباؤهم ... وفاقوا جدوداً من كنانة والنضر

بحزمٍ وإقدامٍ ورأيٍ وهمّةٍ ... وجزل هباتٍ لا تنهنه بالزجر
وفيهم فتىً يدعىٰ لكلّ ملمّةٍ ... وخطبٌ إذا ضاقت به سبل البرّ
قريع المعالي الشمّ بيت قصيدهم ... وواسطة العقد المنضّد بالدرّ
مجيب الندىٰ عبدالمعين أخو الندىٰ ... ومُردي العدا جون المهامة والقفر
أخو كرمٍ قد ساد كلّ قبيلةٍ ... عطاءً وطعناً بالردينيّة السمر
فأضحىٰ أمير الشام مع أرض ينبع ... ومقصد من يأتي من البرّ والبحر
لقد شنّ في حربٍ وصبح غوائراً ... يقصّر عنها حرب تغلب أو بكر
أتاه شويخ الشام أعني مباركاً ... بسبعة آلافٍ من البدو والحضر
وخان بعهدٍ قد تقادم(١) ربطه ... فأضحىٰ إماماً للخيانة والغدر
وسار لحرب الهاشميين دافقاً ... دماء بني الزهراء والأنجم الزهر
علىٰ أنّهم في العدّ عشرون فارساً ... ولكنّهم في الحرب أشجع من عمرو
فوافتهم الأقوام من كلّ جانبٍ ... ودبّوا دبيب النمل في السهل والوعر
فثارت لهم أبناء موسىٰ ومالك ... ثيار محبٍّ مخلصٍ صادقٍ برّ
وضمّ إليهم قوفة جياد قوفةٍ ... ملثٌّ يروّي القاع من وابل القطر
كذا عروة لا شتّت الله شملها ... ولا حلّ في ساحاتها كلكل الدهر
وأزرق قد وافوا بأبيض باترٍ ... وأسمر خطّي على الإبل الحمر
فجالت بمضمار الوغىٰ خيل معشرٍ ... نشاوىٰ قراعٍ لا نشاوىٰ من الخمر
لهم فتكة البراض في كلّ مازقٍ ... وعزم عليٍّ يوم خيبر أو بدر
فخرّت لهم أبطال حربٍ وأحجمت ... وقالت دهانا الخطب من حيث لا ندر

(١) في «د»: تقدّم.

فولّوا سراعاً قائلين لشيخهم ... لك الويل دع هذا وهيّا بنا نسري
فساروا وهم ما بين سلمٍ وهارب ... وآخر ملقىً للغراب وللنسر
فيا لك حرباً لم يصر قطّ مثلها ... تريك نجوم الليل تسطع في الظهر
فيا ابن مضيان علتك سحابةً ... لابن هجارٍ برقها في الدجا يسري
غدوت بها قنّاً وعبداً مملّكاً ... وذي يا أخا العصماء عاقبة المكر
حربت ولم تظفر وقد عدت هارباً ... وأذهبت عزّاً ثمّ صرت أخا ذعر
فهلاً اتّقيت الله في آل أحمد ... بني الهدىٰ غوث الورىٰ من لظى الحشر
بغيت ولم تعلم بأنّ أباهم ... علياً سيعليهم عليك مدى العمر
فقد قيل قدماً للبغاة مصارع ... وانّ مثير الشرّ يوقع في الشرّ
فتبّاً لكم يا حرب إنّ شيوخكم ... زعانف من نسل ابن ملجم والشمر
يجرّون جيشاً للسراة ذوي العلا ... بني السبط بغياً مزمعين على الكفر
لعمري لم تسر الركاب بمثلها ... ولا نظمت أنظارها قطّ في شعر
فعودوا بني حربٍ إلىٰ نخلاتكم ... وخلّوا طعان الخيل للسادة الغرّ
ودونك يا عبدالمعين خريدةً ... أتتك تجرّ الذيل كالغادة البكر
تبثّ إليك الشوق والمدح من فتىً ... رآك لها أهلاً وتنطق بالشكر
هديّة خدنٍ فاطميٍ مهذّب ... تذلّ له الألفاظ في النظم والنثر
ينضّد من درّ الكلام قلائداً ... تناط بأعناق الكعاب وبالنحر
يدير على الألباب من سحر نطقه ... كؤوس سلافٍ تستميل ذوي السكر
فها هي قد وافتك يبسم ثغرها ... سروراً وتأييداً وتعلن بالنصر
فخذها عروساً قد تكامل حسنها ... ومنّ عليها بالقبول وبالبشر
ودم صاعداً في أوج عزٍّ موطّدٍ ... عظيماً مهاباً رافعاً علم الفخر

إثارة الفتنة بين شريف مكّة والسادة الأشراف:

ومن جملة حوادثها: أنّه ثارت فتنة بين شريف مكّة وبين غالب السادة الأشراف، حتّىٰ صارت مكّة وجميع سبلها غاية الاختلاف، وذلك بسبب قطع مشاهراتهم، ورفع غالب مقرّراتهم، فخرج عليه لأجل ذلك جمع تفرّق في بعض الطرق والمسالك.

وكان ابتداء ذلك في أوائل شهر شعبان المعظّم من السنة المذكورة، ولم تزل الفتنة بينهم تكبر، ونار الحرب تضطرم وتسعر، حتّىٰ اجتمعوا بأسرهم في وادي مرّ، وترتّب حالهم به، واستقرّ علىٰ أن تكون الشرافة في زعيمهم السيّد أحمد بن عبدالمحسن، وهو الذي يبذل لهم الأموال ويحسن، ومعهم الشريف عبدالله بن سعيد المتقدّم ذكره، وأخوه الشريف علي بن سعيد، إلاّ أنّهما لم يعترضا أمر الشرافة، بل هما عضدا ذوي الخلافة؛ لأنّ الشريف عبدالله كان بنواحي اليمن وتلك الجهات، وأتىٰ بتوطئة وطلب من السادة آل بركات، فأنزلوه الوادي، وجمعوا عليها جمّاً غفيراً من الأشراف والبوادي.

وأمّا الشريف علي بن سعيد، فكان بمكّة علىٰ حاله كما سبق، وإنّما في أثناء الفتنة توجّه إلىٰ أخيه، وفارق صاحب الترجمة، لتوانيه عن الاهتمام به وتراخيه، ورجع معه إلى الوادي رجوعاً ثاني، غير قاصر عنان عزمه ولا ثاني.

ثمّ ورد عليهم السيّد أحمد، وسيف عزمه مجرّد ومشهور، فأجمعوا عليه، وفوّضوا أمر الشرافة إليه، وأقاموا في موضعهم مدّة من الأيّام، وآراؤهم الشريفة تارة تنتقض، وتارة تكون في غاية الإبرام، ولم يزل هذا حالهم، إلىٰ أن نفدت أموالهم، وقلّت لديهم الأقوات، وانحصرت عليهم جميع الطرقات، وهم ينتظرون خروج صاحب الترجمة إليهم، وصولته عليهم، فيأخذونه في طرفة عين، ويرمونه

بالبعد والبين .

هذا، وشريف مكّة مقيم في بلاده، متحصّن بعساكره وأجناده، ولم يبرح، تيقّن الرأي في قطع الأقوات عنهم، وجذب بعض أشخاص منهم، بمعاونة من بقي معه من رؤساء السادة، الذين قد منحهم برّه وإسعادة، وهم في الحقيقة أهل الرأي والاجتهاد العظيم، في جمع البادية والأقوام، ومع ذلك فقد أصابته شدّة عظيمة في البلاد، وبلاء يفطر الأكباد، لخلوّ يده من النقود، وعدم برّه المعهود، حتّىٰ آل أمره إلىٰ بيع آلات ملكه، ليسير بها قلاع فلكه، وجزم كلّ ذي عقل، بأنّ مآله إلى العزل، لقوّة هؤلئك وكثرة عددهم، وتوفّر خيولهم وعددهم .

وإنّما مع طول المدىٰ عليهم، وانقطاع الواصل إليهم، ذهب اصطبارهم، واختبطت أفكارهم، وفي كلّ درجةٍ وساعة تنفكّ عنهم أفراد وجماعة، فيصرف الآخرون عظيم جهدهم، في أخذ خواطرهم وردّهم .

فلمّا عظم الأمر علىٰ عمرو، وطال الأبد علىٰ لبد، عزموا على الحرب والقتال، وإعمال القاضب والعسال، وقصدوا مكّة المعظّمة، وعقود عزماتهم ببذل نفائس الأرواح منظّمة، وضربوا قبابهم بالزاهر، وسيف صولهم مجرّد شاهر .

فخرج صاحب الترجمة عليهم، ووجّه نجائب همّته إليهم، ووقع بينهم القتال في اليوم الرابع والعشرين من شهر شوّال، صارت بينهم معركة خطبها عظيم، وهولها جسيم، التحم فيها السادة، وأظهروا كلّ منهم شجاعته وسدادة، فاشتدّ الكرب، وكثر بينهم الطعن والضرب، فما أسفرت تلك المعركة عنهم، إلاّ بعد إصابة أشخاص من الأشراف، وموت واحد منهم، وأمّا من عداهم من الأجناد، فقد ذهب منهم بعض أفراد .

وأمّا صاحب الترجمة ومن معه من الأشراف، فلم يلحقهم من تلك المعركة

خلاف، إلاّ ما لحق أجنادهم، وعساكرهم وقوّادهم، فهو حقير لا يذكر، وكانت لصاحب الترجمة عليهم، فطلبوا منه الأمان، وبقاء ثلاثة أيّام في ذلك المكان، ثمّ يرحلون منه ويبعدون، فأبىٰ وقال: لابدّ من الرحيل والابعاد، عن أطراف هذه البلاد، ونعطيهم هذه الثلاثة الأيّام، ثمّ يتوجّهوا إلىٰ غير نواحي الشام.

فرجعوا من يومهم إلىٰ واديهم، وأذنوا بالتفرّق لعربانهم وبواديهم، واستقرّوا فيه، ومكثوا بنواحيه، فتوسّط بينهم وبين صاحبه كبار السادة، وصرف كلّ منهم همّته العليّة واجتهاده.

فكان أوّل من دنا للمسالمة والإصلاح، وبنىٰ أمره علىٰ التودّة والانطراح، الشريف عبدالله بن سعيد، ثمّ اجتهد هو في بقية الأشراف، ورفع ما كان بينهم من الزيغ والخلاف، وضمن لهم جميع حقوقهم ومقرّراتهم، وأدّىٰ إليهم ما ترتّب عليه الحال في مشاهراتهم.

فدخل مكّة المشرّفة زعيمهم السيّد أحمد بن عبدالمحسن صحبة الشريف عبدالله المذكور، ورتّبوا الأحوال لرفاقتهم، وسدّدوا الأمور، ثمّ أرسلوا إليهم بالوصول، وقبض ما نجز من المحصول، فدخلوا مكّة المشرّفة متتابعين، وجمع الله شملهم علىٰ أحسن وضع وأُسلوب، ووفّق بينهم على الوجه المطلوب.

وهذه المرّة الثانية لدخول الشريف عبدالله وأخيه، تحت أوامر صاحب الترجمة ونواهيه، وقد سبق الكلام في ذلك، وهو الموفّق في جميع المسالك(١).

إثارة فتنة عظيمة بالمدينة :

وفي هذه السنة: ثارت فتنة عظمىٰ بالمدينة المشرّفة علىٰ صاحبها أفضل

---

(١) راجع: خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام ص ١٧٢.

السلام، بين أهالي المدينة وبين حرب وبني علي .

وسبب ذلك: أنّه لمّا تغلّب قبائل حرب علىٰ سكّان المدينة، واستذلّوهم واستتبعوهم، حتّىٰ آل الأمر إلىٰ أنّ الحربي إذا دخل المدينة وأراد إمضاء أمر لم يناقضه فيها أحد، بسبب شيخ حرمها أيّوب آغا وأتباعه من الأغاوات، وذلك من وجهين :

الأوّل: فلصداقة ومودّة أكيدة، كانت بينه وبين شيخهم مبارك بن مضيان المتقدّم ذكره في قضية السيّد عبدالمعين الهجاري، فاقتضىٰ ذلك تعضيده لهم على الرعيّة وغيرهم .

وأمّا الثاني: فلكون حبوبهم الواصلة إليهم من مصر في كلّ عام هم وصّالها إليهم، وممرّها عليهم، فكثر فسادهم، وزاد طغيانهم، فخربت المدينة وأطرافها، وصار النهب والأخذ بخوارجها ليلاً ونهاراً .

فلمّا عظم عليهم الحال، وتزائد الوبال، ثارت العامّة عن يد واحدة، وعضدوهم العساكر، وتبعهم شيخ الحرم المذكور، وجميع الأغاوات وعبيدهم أيضاً رغماً علىٰ أُنوفهم، خوفاً من أن تلحقهم العامّة حرباً وبني علي، وتعاهدوا جميعاً علىٰ ضبط المدينة وأطرافها، وأن يسلكوا فيها بمقتضي الوجه الشرعي في جميع الأحوال، وأن لا يمكّنوا عربياً من دخول المدينة بسلاحه، وسدّوا جميع الطرق الخارجة عن السور، ولم يبقوا إلاّ طريقاً واحداً .

وتولّوا بأنفسهم ضبط المدينة ليلاً ونهاراً، حتّىٰ صار الحربي وغيره من العربان في غاية الذلّة، وجرت عليهم أحكام عمّال شريف مكّة المعظّمة، وصاروا يسلمون ما عليهم من الجوائز بحسب القانون الأصلي، وصلحت المدينة، وتهذّبت أطرافها، وارتخت أسعارها .

وأوّل من أنكر هذا المنكر وثار، وقوّىٰ العزائم على الذبّ عن جيران النبي المختار، السيّد الجليل، والأيّد الأصيل، السيّد محمّد بن أبي العزم، والشيخ الهمام، ذو الرأي الثاقب والاقدام، الشيخ محمّد سعيد الكردي، وعلماء المدينة وخطباؤها، وأماثلها ورؤساؤها، ثمّ تبعتهم العامّة والعساكر، ثمّ شيخ الحرم المذكور وأتباعه، فاطمأنّت البلاد، وراقت العباد، فجزاهم الله خير الجزاء، وجعل نصيبهم من سعادة الدارين أوفر الاجزاء.

إلاّ أنّهم بعد ذلك افترقت عصاهم، وتصدّعت بالشقاق حصاهم، وصارت بينهم فتنة أُخرىٰ، وهي بين أهل المدينة وعساكرها وبين الأغوات وعبيدهم، بعد أن كانوا يداً علىٰ عدوّهم.

فاتّفق أن جاء رجل من توابع الأغوات يسمّىٰ علي قنا، وأراد أن يستفرغ وظيفة، ويعمل عسكرياً، فمنعوه أغوات[(١)] العساكر، وقالوا: إنّه كان سابقاً عسكرياً، وحدثت منه خيانة، اقتضت حلّ موادّه، وإخراجه من حزب العساكر، وعندنا أمر سلطاني يعرب بأنّه من حدثت منه خيانة من العساكر السلطانية يخرج من الحزب الذي كان فيه ولا يعاد إليه، فوقعت بينهم ضجّة، وابتدأهم علي قنا المذكور وأعضاده بالشرّ، وصعدوا علىٰ منابر الحرم الشريف، وأغلقوا أبوابه، وفي بعض البيوت التي علىٰ حوافّ الحرم الشريف، وعزموا علىٰ محاربة العساكر ومن يعضدهم من أهل المدينة.

فرفعت أغوات العساكر وأهل المدينة أمرهم إلىٰ قاضي الشرع، خوفاً من قيام الفتنة على القبر المعظّم، وذهاب ما في الحجرة الشريفة من الأموال، وما سيحدث

---

(١) في «ن»: أغاوات.

من غضب الدولة العثمانيّة عليهم .

فأرسل إليهم القاضي بالمنع لهم عن ذلك، وطلبهم إلى المجلس الشرعي، فمنعوا عن الكفّ وعن الحضور، وعضدوا لهم بعض أشخاص من الأغوات، وقرّروا عزائمهم وهم خمسة أو ستّة أنفار، منهم عبدالله خزندار شيخ الحرم الشريف، ونائب الحرم، وغيرهما[١] كبلال آغا، وعنبر آغا، ومسعود آغا، وعبداللطيف آغا، فلمّا لم يكفّوا ولم يحضروا إلى المجلس الشرعي، كتب عليهم بأنّهم عصاةٌ بغاةٌ، يجب قتالهم ومجاهدتهم .

فشرعت العساكر وأهل المدينة في قتالهم يوماً كاملاً وبعض يوم آخر، وكانت العساكر وأهل المدينة عليهم، لأنّهم حشروهم من كلّ جانب، وجنحوا للسلم، فامتنعوا إلاّ بعد إحضار الأغاوات المذكورين سابقاً، وحبسهم في قلعة السلطان بالوجه الشرعي، ثمّ ترفع أمرهم إلىٰ نائب السلطان شريف مكّة المشرّفة .

فأتوا بهم في غاية الذلّة إلىٰ حبس السلطان، ماعدا عبدالله الخزندار؛ لأنّه قد هرب في أثناء الفتنة، واستجار ببعض شيوخ حرب، إلاّ أنّه حضر بعد ذلك علىٰ يد الشريف حين الدعوىٰ، وحبس مع جماعته كما يأتي .

ثمّ رفعوا الأمر إلىٰ شريف مكّة، فطلبهم من الحبس، وطلب جماعة لإقامة الدعوىٰ وإيراد الشهود علىٰ يد قاضي مكّة المشرّفة في مجلسه العالي، فوصل إلىٰ مكّة أوّلاً لرفع الشكوىٰ مفتي المدينة المنوّرة السيّد محمّد أسعد، والخطيب عبدالله البرّي، والسيّد حسن البرزنجي، والشيخ أحمد الصالحي، وغير هؤلاء .

ثمّ وصل مع وصول الأغاوات بطلب من الشريف المذكور السيّد يحيى

---

(١) في «ن»: وغيرهم .

الأزهري، وبعض سادة من آل بيت باعلوي، وغيرهم.

فنصب شريف مكّة المعظّمة لهم مجلساً عظيماً، أحضر فيه قاضي الشرع الشريف، وصاحب بندر جدّة إبراهيم باشا، والأربعة المفتيين، وجميع علماء مكّة المشرّفة، وأرباب دولته، ورفعت الدعوىٰ، وقدّمت الحجّة المسطرة بالمدينة المنوّرة علىٰ يد قاضيها، ووردت الشهود طبق الدعوى المرقومة في الحجّة المذكورة، بصورة ما تقدّم ذكره.

فعند ذلك حكم الحاكم الشرعي بخطأ الأغاوات وجماعتهم، ونفذ الأمر الشريف دام علاه، بحبسهم ثانياً في داره إعزازاً لهم، إلىٰ أن يعرض إلىٰ حضرة السلطان ما صار، وينتظر ما يأتي به الجواب في حالهم، ورجع أهل المدينة وعساكرهم مجبورين الخاطر، داعين لحضرة الشريف إلىٰ مدينتهم، وقد ارتفع منها ذلك الفساد، وعادت إلىٰ صلاحها الأوّل ورخاء أسعارها(١).

قصيدة السيّد جعفر بن محمّد البيتي:

وقد نظم السيّد الأديب الأريب، السيّد جعفر بن السيّد الجليل العارف بالله السيّد محمّد البيتي قصيدة تتضمّن صورة الواقع، ولا بأس بإيرادها؛ لأنّها قد تضمّنت شرح الحال في الفتنة الأولى التي صارت بين أهالي المدينة جملة، وبين حرب وبني علي وغيرهم من العربان، كما تقدّم إملاؤها.

والفتنة الثانية التي نحن في تفصيلها، فلأجل ذلك حسن إيرادها وإثباتها برمّتها، وإن كانت طويلة، وفيها ما فيها من اللحن وغير ذلك، وادّعاءٍ زاد عن حدّه، فيعتذر للسيّد الناظم أوّلاً عن اللحن بصغر سنّه، وبكونها قصّة تركب الشاعر

---

(١) راجع: خلاصة الكلام في بيان أُمراء البلد الحرام ص ١٧٣ ـ ١٧٤.

استعمال الضرورة، فيحمل ما فيها على الضرورة الشعريّة، التي قد جوّز أئمّة الأدب ارتكابها في الشعر، وعن الادّعاء بقولهم «أكذبه أعذبه» وما أقبح قوله منها كما سيأتي:

فهم الرجال وما سواهم نسوةٌ لم يتركوا من زيّهنّ سوى الحلي

فلقد تعدّىٰ استه الحفرة، لأنّها طفرة وأيّ طفرة، والعجب ثمّ العجب كيف أساء هذا الناظم الأدب، وقصّر البسالة علىٰ قومه في أثناء مدحه، وأورىٰ زناد العصبيّة، وأجهد قريحته في قدحه، وما قنع بتسنّم هذه الذروة، حتّىٰ جعل من عداهم نسوة، وهو قاطع بأنّ ملفّ قصيدته علىٰ بني السبط، الذين ما شأن أصلهم الشريف قطّ رومٌ ولا قبط، وهم ملوك مكّة المعظّمة، والمتقلّدون بعقود الشرافة المنظّمة، والفائزون من الشرف الأعلىٰ، بقدحه المعلّىٰ، والسابقون في مضمار الشجاعة[1] والاقدام، فرسان الجاهلية والإسلام.

قومٌ تخال وجوههم إن أسفرت يوم الفخار أهلّة الأعياد
رضعوا لبان المجد في حجر العلا فعلوا على الأكفاء والأنداد

وإذا نضد مثل هذا المدح في رعاياهم كزيد وعمرو، فماذا يقال في ملوكهم وولاة الأمر، ثمّ وأين رجال قريش، من جمال بني أقيش، وكأنّه لم يحط بعتب الخليفة من بني العبّاس علىٰ إمام الأدب أبي نواس، قال في بعض أقواله مادحاً للخصيب أحد عمّاله:

إذا لم تزر أرض الخصيب ركابنا فأيّ فتىً بعد الخصيب تزور

---

(١) في «ن»: الشرافة.

وهو نقل عظيم الشأن، مفصّل في تاريخ ابن خلّكان[(١)].

وهذه القصيدة المشار إليها، فاشرف عليها:

المجد تحت ظلال سمر الذبّل ... وشبا القواضب بالجياد القفّل

الموريات العاديات ضوابحاً ... الصافنات النافرات الجفّل

بالخوض في غمرات بطنان الشرىٰ ... يوم التصادم في القتام المسبل

وتواتر العزمات في طلب العلا ... والفوز في اقتافيا في الهوجل

والفخر ما ترك الأعادي خضّعاً ... رفل المحازم كالجبان الأعزل

بين الفتىٰ وورود[(٢)] أحواض الردىٰ ... لعق العلا قم في تراقي الحوصل

لا عاش من ترضى المذلّة نفسه ... طوعاً وعن شاوي المفاخر يا تلي

من غضّ للضيم المبرّح طرفه ... أمسىٰ وأصبح بالقذا متكحّل

العزّ أجمل ما اقتناه أُولوا النهىٰ ... والذلّ بالأحرار ليس بمجمل

من شاء إدراك المعالي فليكن ... مثل الهمام الأمجد ابن الأفضل

السيّد الذمر الشريف محمّد ... ذي العزم سبط المصطفىٰ والمرسل

وابن الكرام الطيّبين أُرومةً ... أهل الكساء الطاهرين الكمّل

الحازم المقدام دحّاض الردىٰ ... دون العباد بسيفه والمقول

لا غرو فهي سجيّةٌ مودوعةٌ ... فيه وشنشنةٌ لأخزم أو علي

ما زال ينكر في المدينة منكراً ... من مرجفٍ أومفسدٍ أو مخذل

وتغلّب العربان في أطرافها ... من كلّ ناحيةٍ وبغي بني علي

---

(١) وفيات الأعيان لابن خلّكان ١: ١٣٧.

(٢) في «ن»: وورود.

وتغافل الحكّام عمّا أبصروا من بغيهم فيها وظلم الأرمل
حتّىٰ أتى الفرج القريب وساعدت همّاته الأقدار لله العلي
فاستنهض الأبطال من أنصاره من كلّ شهمٍ للخطوب مذلّل
يهوي إلىٰ نهب النفوس بعزمه مقرونةً بالنصر مثل الأجدل
وتعاهدوا في الله أن يتناصروا في الدين لم يخشوا ملام العذّل
وحموا حاهم والديار عن العدا بالبيض والسمر اللدان الذبّل
فتذلّلت لهم البوادي عنوةً وتعدّلوا بالحدّ أيّ تعدّل
ولطالما قاسوا ليالي العسّ من هولٍ يذيب مرارة المتهوّل
يمشون في حفظ المناتق كمّناً متختّلين علىٰ حجار الجندل
يا ويل من قد أوقعته نفسه فيهم فيصبح في الحديد مكبّل
فهم الرجال وما سواهم نسوةٌ لم يتركوا من زيّهنّ سوى الحلي
فتشاور الفسّاق فيما بينهم أن ينقضوا ما أبرموه بمبطل
فجرت هنالك هدّةٌ يرقىٰ إلىٰ أُفق السماء عجاجها بل يعتلي
وطغت عليهم بعد ذلك عصبة الأ غاوات مع أتباعهم والجهّل
والأصل في ذا أنّهم قد سندوا لعلي قنا الغمر الزنيم الحسكل
منعوه أصحاب الوجاق جميعهم أن يشتري فيهم ولمّا يدخل
زعموا بأنّ له فساداً سابقاً إذ خان قدماً في الزمان الأوّل
فترافعوا للشرع وانكشف الغطا ودعاهم القاضي ليومٍ مقبل
نزلوا وألقوا في المداعين الظبا من غير مكترثٍ وغير معوّل
وأتوا إلى الحرم الشريف وأغلقوا الأبواب واصطعدوا المنابر والعلي
ورموا على الناس الرصاص وما رعوا جاه النبي ولا الكتاب المنزل

وأقـــام ذاك إلى الغـــروب وأصبحوا ... مـــتحصّنين بـــحلية المســـتقبل
فـــدعوا إلىٰ أن يـــرجـــعوا فتعصّبوا ... وأتـــوا بـــفعلٍ مـــنكرٍ لم يـــفعل
فـــقضىٰ عـــليهم أن تـــباح دمـاؤهم ... هـــدراً لحـــدّ المـــرهفات الفـــصّل
فـــتبادرت لهـــم الرجـــال عـــوابساً ... مـــن كـــلّ فـــحلٍ بـالثبات مسـربل
فـــهم بـــبيت المـــالكي وصـــفّه ... ولنـــا عـــليهم صـــفّ بـيت الحـنبلي
وســـرت إلىٰ ذروان مـــنهم عـــصبةٌ ... فـــتحصّنوا الحـــمّام مـــنه ومـا يـلي
فـــهناك قـــامت للـــمنون صـواعـق ... وتســـعّرت للـــموت نـــار القســـطل
يـــوماً أشـــدّ مـــن الحـــديد قساوةً ... وأمـــرّ طـــعماً مـــن مـذاق الحـنظل
تـــرك النـــواصـــي شـــيباً فكأنّـــه[١] ... وقـــعات جسّـــاسٍ بـــيوم مـــهلهل
نـــقبوا عـــليهم كـــلّ دارٍ عـــنوةً ... فـــاستخرجـــوهم مـــنزلاً عـــن مـــنزل
وتـــداركـــوهم بـــالردىٰ فـــتفجّرت ... أحشـــاؤهم مـــثل انـــفجار الدمّـــل
وتـــصاغرت أرواحـــهم مـــمّا رأوا ... وجـــرت دمـاؤهم كـجري الجـدول
وتـــحقّقوا المـــوت الزؤام وســـلّموا ... للأمـــر طـــوعاً خـــضّعاً بـــتذلّل
فأشـــار قـــاضي الشـــرع كـفّوا إنّـهم ... جـــنحوا لســـلمكم بـــغير تـــفعّل
فأطـــاع كـــلّ مـــنهم لمـــقاله ... إذ حـــيث كـــان أولاك عـــنه بـمعزل
فتداركوا الخطب الجليل بـحبس مـن ... قـــد كـــان رأســـاً للـــفساد الأوّل
التـــائب الجـــاني ومســـعود الذي ... جـــعل المـــفاسد ســـنّةً لم تـــجعل
وبـــلال عـــنبر رأس كـــلّ مـــصيبةٍ ... حـــبكت عـــليه غـــمّةٌ لا تـــنجلي
وتـــلاهم عـــبداللـــطيف فـــأُسجنوا ... وهـــووا إلىٰ درك الجـــحيم الأسـفل

---

(١) في «ن»: فكأنّها.

ومشت عروض الناس فيهم جملةً نحو الشريف لحلّ ذاك المشكل
فاهتال منه وابتغىٰ إحضارهم هم والخصوم مع الشهود العدّل
ليبين بالإجماع كلّ مغمغمٍ رغماً علىٰ أنف العدوّ المبطل
وتكون حجّتهم هناك قويةً غرّاء لم تدحض ولم تتحوّل
تأتي إلى السلطان قولاً مثبتاً أيضاً ويحملها بأحسن محمل
فاستمثلوا للأمر إذ هو واجبٌ ومشوا جميعاً خضّعاً يتذلّل
فإذا أتوه وحقّقوا ما أخبروا عنه بغير تلعثمٍ وتكلكل
فلسوف تأخذه هناك حميةً فينا بغير تهاونٍ وتمهّل
يا أيّها المولىٰ تدارك كربنا بالغوث منك وغارة المستعجل
فلك البلاد مع العباد وأمرهم وهم إليك بنسبةٍ كالعوّل
تأتي ويسألك المهيمن عنهم عن كلّ أمرٍ مجملٍ ومفصّل
فالغوث ثمّ الغوث إنّك كهفنا تأوي له من كلّ خطبٍ معضل
إنّ المدينة حلّ فيها منكراً لا يرتضىٰ والجور فيها قد ملي
فلأنت أولى الناس حقّاً غيرةً فافعل إذا ما شئت أو لا تفعل
ولأنت من بيتٍ تقدّس سرّه شرفاً وغيرك عن مناقبه خلي
لو تسأل القبر الشريف غداة ما رجفوه بالفعل الفضيع المشكل
لأجاب أنّ محمّداً في طيبةٍ متوجّعٌ من فعلهم بتململ
حاشا لمختلف الملائك أن يرىٰ مأوى البغاة وكلّ وغدٍ مضلّل
أفٍّ لقلبٍ مؤمنٍ لا يمتلي غضباً وطرف جامدٍ له يهمل
الله أكبر أنّها لمصيبةٍ تبدو لعين الناظر المتأمّل
إصدع فما تأخذك لومة لائمٍ في الله بالحقّ المبين المنجلي

لا تـرثينّ إذا أتـوا بـتملّقٍ ... فـلأنت تـعرف حـيلة المـتحيّل
لولا النـبي أقـام فـيهم غـارةً ... شـعواء لم تـبرح ولم تـتحوّل
مـا أوقـعتهم فـي الوبـال نـفوسهم ... ولكـان ذاك الأمـر لم يـتحصّل
قـطعت زنـانير النـفاق بكـبتهم ... ولسـوف تـقطع فـي الزمـان المـقبل
لا زلتـم يـا أهـل طـيبة نـصرةً ... للـحقّ سـمّاً للـعدوّ المـبطل
فـي ظـلّ أعـتاب النبي وجـاهه ... مـتسربلين بـنعمةٍ لم تـبدل
إنّ النـبي له عـليكم غـيرةً ... حـقّاً وإنّ الله ليس بـمهمل
فامضوا علىٰ صدق العزائم وارفضوا ... قـول المـعنّف والجـبان الأعـزل
إنّـا إذا أخـنىٰ[1] عـلينا حـادثٌ ... أو شـدّةٌ أو بـعض أمـرٍ مـعضل
فـلنا اعـتصامٌ بـالنبي مـحمّدٍ ... خـير الورىٰ المـدّثر المـزمّل
صـلّىٰ عـليه الله مـا نشـر الربـا ... نشـر العـبير مـع النسيم الشمأل
وعـلىٰ بـنيه والصـحاب وآله ... الطـيبين الراشـدين الكـمّل
مـا رجّـع الحـادي يـقول مكـرّراً ... المـجد تـحت ظـلال سمر الذبّـل

قصيدة الشيخ تاج الدين بن عارف المنوني:

ولقد أجاد صاحبنا الأديب، الفاضل الشيخ تاج الدين ابن المرحـوم الشـيخ عارف المنوني، حيث قال وأبدع في المقال:

السعي في طلب العُلا فـخرٌ جـلي ... وفكـاهةٌ للـمجتني والمـجتلي
وطـريدةٌ مـا صـادها قـطّ امـرىءٍ ... إلاّ وفـاز بـبلغة المـتطوّل
ونـفيسةٌ مـا طـوّقت إلاّ فـتىً ... نـظّام جـوهرها بـحسن المـقول

---

(١) في «ن»: أحنىٰ.

فالعزّ أشرف ما تكوّن في انتضا ... بيض السيوف وهزّ سمر الذبّل
والمجد أفخر ما تسامىٰ في ذرىٰ ... صهوات حمر الصافنات الرفّل
السابحات الساحيات سحائباً ... يوم الوغىٰ تروي الفراسة عن علي
يحملن كلّ غضنفرٍ متقلّداً ... في أحسن التدبير أمر الجحفل
من كلّ مقدامٍ مواضي عزمه ... في الحرب أمضىٰ من لسان المصقل
نامي القِرا حامي القُرا سامي الذرا ... غيث الورىٰ في كلّ خطبٍ أحول
فهم الأُولىٰ إن حاربوا أو سالموا ... قطعوا العدوّ وأوصلوا حبل الولي
وهم الأُولىٰ إن قاربوا أو باعدوا ... أدنوا وأقصوا بالمقام المعتلي
وهم الأُولىٰ إن سابحوا أو رابحوا ... سبقوا وقد فازوا بربحٍ أكمل
وهم الرجال فراسةً وسياسةً ... يوم الطعان وما سواهم فاهمل
هم سادة السادات إن قعدوا وإن ... قاموا بغير تنكرٍ[1] وتأمّل
هم ملجأ العاني ومنقطع الرجا ... عند الكروب وفي الزمان المحمل
هم أهل بيت المصطفىٰ أهل التقىٰ ... والفضل والإحسان كهف الأرمل
من أصبح البيت الحرام حماهم ... بين الحماة وذاك أشرف منزل
ومدينة المختار تحت يمينهم ... ويسارهم في دفع كلّ مهوّل
أوما تراهم أحسنوا التدبير في ... خطرٍ تأتّىٰ من مسيءٍ أجهل
قادوه حتّىٰ جاء يسعىٰ خاضعاً ... متواضعاً في قيد ذلٍّ مرذل
ورأىٰ مباركهم ومحسن فعلهم ... تأييدهم في الحقّ بالشرع الجلي

---

(١) في «ن»: تنكّل.

وإقامة الوجه الجميل لهم علىٰ ... وفق المراد ودحض[1] هذا المبطل
من صال[2] عدواناً وظلماً واعتدىٰ ... وسطاً بصارم خائفٍ متنكّل
وأقام جيران الرسول لسهمه ... غرضاً فصادف منه عين المقتل
فاستنصروا بالله ثمّ رسوله ... خير الورى المبعوث أشرف مرسل
وتظاهروا وتظافروا وتناصروا ... كالشمس كالضرغام بالصمد الولي
وتعاهدوا وتعاقدوا وتناجدوا ... صدقاً وإلزاماً ونجدة أطول
في رفع شأنهم وخفض مقامه ... بالجزم في نصب الطريق الأعدل
والأخذ بالرفق الرفيق وقطع قطّا ... ع الطريق ووصل كلّ موصّل
فالله يحرسهم بحقّ جناب من ... جيرانه فازوا بستر مسبّل
ويعين نور الرشد في توفيقهم ... للحقّ يلحظهم حراسة مفضل
فإليكم يا جيرةً جاورتهم ... ودّاً بعهدٍ عقده لم يحلل
وجزية[3] تسعىٰ بنشر ثنائكم ... في طيّ مدح الفاضل المتفضّل
الشائد العليا لبيت محمّدٍ ... بمحاسن الفخر السني الأمثل
منشي الرقائق بالدقائق جعفر ... الكاشف المعنى الخفي المشكل
الناظم الدرر النفيسة بالذكا ... عقداً يحلّي جيد ربّات الحلي
فهو الذي قد صحّ أن يدعىٰ له ... بمفاد بيت الشاعر المتمثّل
لا زال صدر الدست صدر الرتبة ... العليا صدر الجيش صدر المحفل

---

(١) في «ن»: وخصّ.

(٢) في «ن»: من طال.

(٣) في «ن»: رجزية.

في روض إقبال السعود وأوج أفلا ك الصعود ونعمة الصمد الولي
ما قال بين ذوي المعالي منشد السعي في طلب العلا فخرٌ جلي

قلت: لله درّك من ناظم أديب، وحازم أريب، أجرىٰ مياه الرئاسة في مجاريها، وأعطىٰ قوس البسالة باريها، ودخل بيوت الشرف من أبوابها، وردّ ضالّة الفخر إلىٰ أربابها، وهكذا يكون الأديب العارف، المتفيّيء ظلّ الأدب الوارف، وما أصدق قوله فيها، وهو من أمكن قوافيها :

فهم الرجال فراسةً وسياسةً يوم الطعان وما سواهم فاهمل

ولعمري انّهم بهذا القصر أحقّ، إذا حصحص الحقّ، وما ألطف تضمينه فيها لبيت الصفي، وإتقانه لهذا الاستهزاء الخفي، لأنّ من اعتقل السمر، وتقلّد البواتر، وتسنّم صهوة الصافنات الضوامر، صحّ أن يدّعىٰ له بقول هذا الشاعر، فإذا كان الأمر لا كما قال، كان هذا الدعاء استهزاء به علىٰ كلّ حال، فلقد أحسن وعدل، وأصاب الحقّ وما عدل .

قصيدة الشاعر صفي الدين الحلّي :

وبيت الصفي هذا من قصيدة له غرّاء، من قصائده الحماسية التي يفتخر فيها المصدّرات في ديوانه، وهذه القصيدة من غررها، يصف فيها حاله، ولا بأس بإيرادها؛ لأنّها من أجود الشعر، وعلىٰ روي ما تقدّم من النظم وقافيته، ومذاهبه الحماسية، فتكون كالمسك ختاماً لما سلف، من تلك الجواهر التحف، لكي تظهر لك المحاسن، فترد ماءً غير آسن، وهي هذه :

لمن الشوازب كالنعام الجفّل كسيت جلالاً من غبار القسطل
يبرزن في خلل العجاج عوابساً يحملن كلّ مدرّعٍ ومسربل
شبه العرائس تجتلىٰ فكأنّها في الخدر من ذيل العجاج المسبل

فعلت قوائمهنّ عند طرادها | فعل الصوالج في كرات الجندل
فتظلّ ترقم في الصخور أهلّةً | بشبا حوافرها وإن لم تنعل
يحملن من آل العريض فوارساً | كالأُسد في أجم الرماح الذبّل
تنشال حول مدرّعٍ بجنانه | فكأنّه من بأسه في معقل
ما زال صدر الدست صدر الـ | ـرتبة العلياء صدر الجيش صدر المحفل
لو أنصفته بنو المحاسن إذ مشوا | كانت رؤوسهم مكان الأرجل
بينا تراه خطيبهم في محفلٍ | رحبٍ تراه زعيمهم في جحفل
شاطرته حرب العداة لعلمه | أنّي كنانته التي لم تنثل
لمّا دعتني للنزال أقاربي | لبّاهم عنّي لسان المنصل
وأبيت من أنّي أعيش بعزّهم | وأكون عنهم في الحروب بمعزل
وافيت في يومٍ أغرّ محجّلٍ | أغشى الهياج على أغرّ محجل
ثار العجاج فكنت أوّل صائلٍ | وعلا الضرام فكنت أوّل مصطلي
فغدا يقول كبيرهم وصغيرهم | لا خير فيمن قال إن لم يفعل
سل ساكني الزوراء والأُمم التي | حضرت وظلّلها رواق القسطل
من كان تمّم نقصها بحسامه | إذ كلّ شاكٍ في السلاح كأعزل
أومن تدرّع بالعجاجة عندما | نادى منادي القوم يا خيل احملي
تخبرك فرسان العريكة أنّني | كنت المصلّي بعد سبق الأوّل
ما كان ينفع من تقدّم سبقه | لو لم تتمّمها مضارب منصلي
لكن تقاسمنا عوامل نحوها | فالإسم كان له وكان الفعل لي
وبديعةٍ نظرت إليّ بها العدى | نظر الفقير إلى الغنيّ المقبل
واستثقلت نطقي بها فكأنّما | لقيت بثالث سورة المزّمّل

حتّى انثنت لم تدر ماذا تتّقي ... عند الوقائع صارمي أم مقولي
حملوا عليّ الحقد حتّىٰ أصبحت ... تغلي صدورهم كغلي المرجل
إن يطلبوا قتلي فلست ألومهم ... دم شيخهم في صارمي لم ينصل
ما لي أسترّها وتلك فضيلةٌ ... الفخر في حصد[١] العدوّ بمنجل
قد شاهدوا من قبل ذاك ترفّعي ... عن حربهم وتماسكي وتجمّلي
لمّا أثاروا الحرب قالت همّتي ... جهل الزمان عليك إن لم تجهل
فالآن حين فليت ناصية الفلا ... حتّىٰ تعلّمت النجوم تنقّلي
أضحىٰ يحاولني العدوّ وهمّتي ... تعلو علىٰ هام السماك الأعزل
ويروم إدراكي وتلك عجيبةٌ ... هل يدرك الزرزور صيد الأجدل
قل لليالي ويك ما شئت اصنعي ... بعدي وللأيّام ما شئت افعلي
حسب العدوّ بأنّني أدركته ... لمّا وليت وفتّه لمّا ولي
سأظلّ كلّ صبيحةٍ في مهمةٍ ... وأبيت كلّ عشيّةٍ في منزل
وأسير فرداً في البلاد وإنّني ... من حشد جيش عزائمي في جحفل
أجفو الديار فإن ركبت وضمّني ... سرج المطهّم قلت هذا منزلي
لا تسمعنّ بأن أُسرت مسلّماً ... وإذا سمعت بأن فعلت[٢] فعوّلي
ما الاعتذار وصارمي في راحتي[٣] ... إن لم يكن من دون أسري مقتلي
ما كان عذري إن صبرت على الأذىٰ ... ورضيت بعد تدلّلي بتذلّي

---

(١) في الديوان: فصد.

(٢) في الديوان: قتلت.

(٣) في الديوان: في عاتقي.

فإذا رميت بحادثٍ في بلدةٍ جرّد حسامك صائلاً أو فارحل
فلذاك لا أخشىٰ ورود منيّتي وأرىٰ ورود الحتف أعذب[١] منهل
فإذا علا جدّي فقلبي جنّتي وإذا دنا أجلي فدرعي مقتلي
ما تهت بالدنيا إذا هي أقبلت نحوي ولا آسىٰ إذا لم تقبل
وكذاك ما وصلت فقلت لها اقطعي يوماً ولا قطعت فقلت لها صلي
صبراً علىٰ كيد العداة لعلّنا نسقي أخيرهم بكأس الأوّل
يا عصبةً فرحوا بمصرع ليثنا ماذا أمنتم من وثوب الأشبل
قومٌ يعزّون النزيل وطالما بخل الحيا وأكفّهم لم تبخل
يفنى الزمان وفيه رونق ذكرهم يبلى القميص وفيه عرف المندل[٢]

حول قصيدة الشيخ تاج الدين المنوفي :

عوداً إلىٰ قصيدة صاحبنا تاج الدين المذكور، وما فيها من تلويحه وإشاراته، التي أدرجها في ضمن عباراته، إذ المقصد والمرام، حلّ مبهجها لذوي الأفهام، ففيها تورية يجب الإمعان في بيانها، وتشييد بنيانها، وهي التي في قوله :

وأرىٰ مباركهم ومحسن فعلهم تأييدهم في الحقّ بالشرع الجلي

الضميران عائدان إلى السادة الأشراف، من غير شكّ ولا خلاف، فيصحّ حينئذ أن يكون مباركاً ومحسناً صفتان، فالأوّل مشتقّ من البركة، والثاني من الإحسان، فيوصف بهما كلّ فرد منهما، ويصحّ أيضاً أن يكونا علمين للشريفين الأكرمين، والمنيفين الأعظمين، أحدهما صاحب الترجمة، وشريف مكّة المعظّمة، الشريف

---

(١) في الديوان: عذب .

(٢) ديوان صفي الدين الحلّي ص ٢٢ ـ ٢٥، طبع بيروت .

مبارك بن أحمد بن زيد، لا زال محروساً من كلّ كيد .

والثاني عضده وذراعه وحسامه ويراعه، وسهمه النافذ، إذا سدّت المنافذ، ورأيه الصائب، إذا توالت المصائب، والصائل لديه بأعمال الظبا، إذا جاوز الحزام البطين وبلغ السيل الربا، زعيم السادة الأشراف، وعظيم القادة من آل عبدمناف، غرّة وجه زمانه، ودرّة عقد أقرانه، القامع العدىٰ، والجامع بين البأس والندىٰ، منبع الجود ومأوى الخلق الحسن، ومصقع ذوي الفصاحة واللسن، السيّد الشريف محسن بن عبدالله بن حسين بن حسن، لا زال الدهر طوع نواهيه وأوامره، والقضاء طبق موارده ومصادره .

ولا انفكّ محروس الجناب ممتّعاً بما شاء مهما شاء في أطول العمر

ولقد تشرّفت بلثم أعتابه، وخدمت بأصفريّ عالي جنابه، فشملني بنظره العالي، وغمرني بفضله المتوالي، فسأشكره علىٰ جزيل إنعامه، وجميل إعزازه وإكرامه .

عوداً إلىٰ ما نحن بصدده من ذكر صاحب الترجمة، ومدّة دولته :

تتمّة ترجمة صاحب الترجمة :

قد تقدّم أنّه كان جلوسه في سابع شهر رجب الفرد من سنة ثنتين وثلاثين ومائة وألف، واستمرّ في الشرافة إلىٰ ليلة سابع وعشرين شهر ذي القعدة الحرام انتهاء سنة أربع وثلاثين ومائة وألف، فكانت مدّة دولته سنتين وخمسة أشهر إلاّ تسعة أيّام، عزل عنها بالشريف يحيى بن بركات في عوده من الديار الروميّة، كما سيأتي.

فصل

في الحوادث الواقعة في أيّام شرافة هذا الملك المعظّم

من وفاة لبعض الأعيان، أو حادثة وقعت بمكّة المشرّفة، أو في غيرها من البلدان.

ففي سنة ثنتين وثلاثين ومائة وألف ...[١].

وفاة الشيخ عبدالله بن سالم البصري:

وفي يوم الاثنين رابع رجب من سنة أربع وثلاثين: توفّي أعلم العلماء الأعلام، وشيخ مشايخ رواة[٢] الحديث النبوي ببلد الله الحرام، مولانا الشيخ عبدالله بن سالم بن محمّد بن سالم البصري أصلاً المكّي مولداً ووطناً، الشافعي مذهباً[٣].

فلعمري لقد أظلمت لفقده جميع الآفاق، وقامت أسواق نوائح العلماء والأدباء على ساق؛ لأنّه كان إمام العلوم وعلاّمها، والناشر في الخافقين ألويتها وأعلامها، وخامس العبادلة الجلّة، المشيّدين لمباني الإسلام بقواطع البراهين والأدلّة، وأقسم بمن أحيا وأمات، وهو خالق السماوات، إنّه لقول فصل، وما هو بالهزل، وسأبرّ هذه اليمين، بقول[٤] صادق لا يمين، وهو الفاضل الأديب الشيخ سالم بن

---

(١) في نسخة «د» بياض بمقدار نصف صفحة، كان في هذا التاريخ وفاة الشريف عبدالمحسن بن أحمد بن زيد الحسني، راجع: خلاصة الكلام ص ١٧٠.

(٢) في «ن»: رواية.

(٣) ترجمه الشيخ عبدالرحمن الجبرتي في كتابه تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار ١: ١٣٢ ـ ١٣٣.

(٤) في «ن»: بشهادة.

أحمد بن إدريس الشهير بالشماع، في ترجمة له ترجم بها الشيخ .

فقال: عالم عارف، اطّلعه الله علىٰ أسرار المعارف، قارىء صحيح البخاري في الكعبة الشريفة، أجلّ من شكر الدهر تالده وطريفه، إمام الحديث وخادمه، المقدّم في هذا العصر وخاتمه، منار الشريعة ومنير جمالها، ومحقّق الحقيقة ومفصّل إجمالها، جامع العلوم، والمستخرج من بحورها درر المنطوق والمفهوم، المقتني نفائس جواهرها، والمجتني أزاهر بواطنها وظواهرها، فهو طود رسي في مقرّ العلم ورسخ، ونسخ خطّة الجهل بما خطّ ونسخ .

فعلىٰ به من حديث الفضل اسناده، وأقوىٰ به من علم الأدب إقواؤه وسناده، حتّىٰ صار صيته في الآفاق، وانعقد علىٰ فضله الوفاق، وانتهت إليه رئاسة العلم بالبلد الأمين، وصار منتجع الوافدين والآمّين، منه تقتبس أنوار الفنون، وعنه تؤخذ أحكام المفروض والمسنون، وما من علم إلّا وله فيه القدح المعلّىٰ، والمورد العذب المحلّىٰ .

أمّا علم الحديث، فقد جمع فيه بين الرواية والدراية، ورفع لجيش أحزابه أرفع راية، فاستوعب قماطره بين مقروء ومسموع، وجمع شوارده جمعاً في الحقيقة منتهى الجموع، قصدته فيه علماء الأمصار، وبهر في تقريره منهم الأسماع والأبصار، فألّف فيه وصنّف، وقرطف المسامع به وشنّف، وله علىٰ صحيح البخاري شرح سار مسير الأمثال، وعزّ أن يلفي في الشروح له مثال، لكن ضاق الوقت عن إكماله، وما أودعه فيه من الدقائق، شاهد صدق علىٰ كماله، سمّاه ضياء الساري، وهذا الإسم كاد أن يكون قسماً من أقسام المعمّا، فإنّه وافق تاريخ سنة (١١١٣) عام الشروع في تأليفه، فكان الإسم طبق المسمّىٰ .

وأمّا علم التفسير، فهو كشّاف بيان ما في كتاب الله من آيات محكمات، وأُخر

متشابهات .

وأمّا علم الفقه، فهو مفرد أئمّته في تحرير مذهب الإمام محمّد بن إدريس الشافعي، وثاني إمام الحرمين، وثالث الشيخين النووي والرافعي .

وأمّا علم العربية، فهو رابع سيبويه، وابن مالك، وأبي حيّان .

وأمّا علم المعاني والبيان، فهو السعد المشار إليه بالبنان .

وأمّا علم اللغة، فهو قاموسها والصحاح، ونهايتها والإيضاح .

وأمّا بقية العلوم، فهو جذيلها المحكّك، وعذيقها المرجّب، المعمل في[1] يده ولسانه وضميره المحجّب .

وقد أقرأ بالمسجد الحرام عدّة كتب من أجلّها صحيحا البخاري ومسلم، وكذا بقيّة السنن حتّى انتفع به النفع التامّ كلّ مسلم، وأقرأ في جوف الكعبة الشريفة صحيح البخاري سنة (١١٠٩) وكان في داخلها عمارة قام بها أحمدبيك صاحب جدّة وشيخ الحرم الشريف .

وكذلك أقرأ في جوفها مرّة أُخرىٰ سنة (١١١٩) وكان أمر بتجديد بابها السلطان أحمد، والقائم بذلك صاحب جدّة، وشيخ الحرم الشريف عوض بيك .

وكذلك أقرأ مسند الإمام أحمد بن حنبل جميعه في الروضة الشريفة عند رأس الجناب المعظّم، صلّى الله عليه وآله وسلّم وعظّم، في ستّ وخمسين مجلساً، وذلك في سنة (١١٣١) .

أخذ عن جملة من المشايخ، ممّن لهم في العلوم القدم الراسخ، منهم: ضياءالدين الشيخ محمّد البابلي، والشيخ عيسى المغربي الجعفري الثعلبي،

---

(١) في «ن»: فيها .

والقاضي تاج الدين المالكي، والشيخ علي بن الجمال الأنصاري، والشيخ عبدالله ابن سعيد باقشير الهاشمي، وولده الشيخ سعيد باقشير، والشيخ إبراهيم باغريب، والشيخ محمّد بن سليمان المغربي، والشيخ أحمد بن عبدالعزيز المغربي، والشيخ عبدالمالك المغربي، والشيخ منصور الطوخي، والشيخ أحمد البشبيشي .

ومشايخه في الطريق، وأساتذته في الارشاد والتحقيق، جملة أجلاّء، وعمد تزيّن بهم جيد الوجوه وتحلّىٰ، واسطة عقدهم الثمين، وجوهرة تاجهم ببلد الله الأمين، العارف بالله والدالّ عليه، مولانا وسيّدنا السيّد عبدالرحمٰن بن السيّد محمّد بن السيّد أحمد الحسني المغربي المكناسي المالكي الشهير بالمحجوب.

ومنهم: العلاّمة المحقّق، والفهّامة المدقّق، السيّد سعد الله الهندي، وغيرهم ممّن تعرب عنهم الإجازات، القامعة للخصم في مقام المنابزات .

عاش ولم يعرف له إلى الصبوة ميل، ومات وهو مواظب علىٰ قيام الليل، كان ورده في اليوم والليلة عشرة أجزاء من كلام ربّ العالمين .

ثمّ لمّا كبر وجاوز الثمانين، يقرأ ما أمكنه ليلاً ونهاراً، ولم يخل وقت من أوقاته بغير تدريس، أو تلاوة، أو صلاة، أو مذاكرة، ولم يخل بقيام الليل بجزئين من كتاب الله تعالىٰ إلىٰ مرضه الذي مات فيه .

ومن مناقبه: تصحيحه للكتب الستّة، حتّىٰ أنّه ليرجع إليها من الأقطار، ويعتمدها أُولوا الأبصار، أعظمها صحيح البخاري الذي وجد فيه ما في اليونينيّة وزيادة، كتبه بيده، وأخذ في كتابته وتصحيحه نحواً من عشرين سنة، وجمع مسند الإمام أحمد بن حنبل، بعد أن تفرّق أيادي سبا، وكاد أن يكون كالهبا، وصحّح من نسخة صارت أُمّاً وكعبة لمن أمّا، نقل منه السادة العلماء نسخاً تشفي الألمّا، وانتشرت في الحرمين انتشاراً أضاء به الخافقين، وأرسل ابنه البارّ بوالديه برّاً

ظهرت بركته عليه، نسخة أوقفها بطيبة الشريفة، وأخرىٰ بجامع مصر المنيفة.

وجمع من نفائس الكتب ما لا يوجد له عند غيره نظير، وكان لا يبخل بإعارة الكتب لجميع المسلمين، كانت أخلاقه رضيّة، وشمائله مرضيّة، طالما اعتورت الطلبة في مجلسه كؤوس الصحب، ولم يظهر منه في ذلك عليهم تعب، بل يأخذهم بالملاطفة واللين، حتّىٰ يبيّن لهم ما أُشكل عليهم أوضح تبيين، سيرته رحيمة، وسريرته سليمة، لا يملّ من النظر إلىٰ وجهه البهي، ولا يسأم من حديثه الشهي.

ولد عند طلوع الفجر من يوم الأربعاء رابع شعبان بالرؤية، وثالثه حساباً سنة (١٠٤٩) تسع وأربعين وألف. ومات قبيل العصر من يوم الاثنين رابع رجب الفرد بالرؤية، وثالثة حساباً سنة (١١٣٤) وقد حزن لموته الخاصّ والعامّ، وغصّ للصلاة عليه بالناس المسجد الحرام، وكانت جنازته حافلة جدّاً، وصلّىٰ عليه إماماً بالناس السيّد عبدالرحمٰن بن علي باعلي، ونقل بعد الصلاة عليه إلى المعلاّة، ودفن بزاوية الشيخ الجليل، ولي الله بلا نزاع، مولانا الشيخ عمر العرابي، وقبره هناك مشهور يزار. إنتهىٰ ما ترجمه به الأديب الفاضل المذكور[١]، وترجمه أيضاً غيره أيضاً من أرباب الفضل المشهور[٢]، ومقامه الشريف فوق هذا التعريف.

ويا عجباً منّا نحاول وصفه   وقد فنيت فيه القراطيس والصحف[٣]

هذا، وقد رثاه جماعة من أهل الأدب، وابتدر لتاريخ وفاته كلّ شاعر وانتدب، غير أنّا ننتخب منها ما يليق بهذا المجموع، ممّا يفتق الذهن بكونه أبلغ مسموع.

---

(١) وهو الفاضل الأديب الشيخ سالم بن أحمد بن إدريس الشهير بالشماع.

(٢) في «ن»: المأثور.

(٣) في «ن»: والكتب.

رثاء والد المؤلّف للشيخ عبدالله البصري:

فمن ذلك: ما رثاه به صديقه الأبرّ، ومخلصه الأكبر، والدنا المرحوم المقدّس، السيّد محمّد بن علي بن حيدر، وبعث بها من الطائف إلى ابنه المعظّم الآتي ذكره إن شاء الله تعالىٰ، ومعها نثر سنكتبه تلو القصيدة، وهي:

كسف الردىٰ للفضل شمس نهارٍ ... فرمى الحجىٰ في ظلمةٍ وتبار
شمس العلوم وهي الحلوم بفقدها ... فرأوا نجوم الليل في الإظهار
وتقلّص[1] الظلّ الظليل وقوّض الفقـ ... ـه الجليل وسنّة المختار
وتهدّم الحصن الحصين فأصبح العـ ... ـقل الرصين يطير كلّ مطار
وتفرّقت حلق الدروس كأنّها ... أيدي سبا في سالف الأعصار
أودى الزمان بجنّتيهم جنّتي ... علم الظهور وباطن الأسرار
لاقى الحمام لكي يلاقي ربّه ... في جنّة الفردوس دار قرار
من يومه هو يوم نأتي الأرض ننقـ ... ـصها وبالتفسير مثلك داري
من موته موت الحديث وأهله ... وبذاك يشهد مسلم وبخاري
والفقه والتفسير والأصلين مع ... الاتها لفهّم أو قاري
وعلوم الأخلاق الكريمة كلّها ... قولاً وفعلاً في البريّة ساري
بصريّها أودي فما حسنٌ يرىٰ ... من بعد عبدالله بالأبصار
موت العبادلة الأعالم موته ... وهو السميّ وناشر الآثار
أمّا القبور فإنّهنّ أوانس ... بقدومه ملأىً من الأنوار
وبيوت أحياء الوجود توحّشت ... وعلا ظلام الحزن كلّ جدار

---

(١) في «ن»: وتقلّطن.

(عــزّ العــزاء بــه وفــطّر رزؤه جــزعاً فــؤاد الثابت الصبّار)[١]
لكــن إذا كــان المعزّىٰ فيه أهـل العــلم والأحــلام والأفكــار
فـهم الذيـن تـضعضعوا بـمصابه والعــارفون بـقدر ذي الأفكــار
مـع نـجله والشبل كـالأسد الذي ســاد الكــواسـر بـالزناد الواري
هـو سـالمٌ شـبه المسمّىٰ له ابـن عــبدالله نــجل خــليفة المــختار
وأنــا المــعزّي والمــعزّىٰ والذي يــقضي حــقوق حــياته ويـباري
حــقّ الأبــوّة بـالإفادة والمـودّ ة والدعــا وتــفقّد الأنــظار
ذكـر المـصاب بسيّد الكونين والآ ل الكــرام وصــحبة الأخــيار
فــبذا تأسّــوا واسـتكانوا حسـبةً وتــلوا عــزاءً حكــمة الأشــعار
لا حــيّ مــن هـذه الخـليقة خـالدٌ حكــم المــنيّة في البريّة جاري
ورأوا بــعين العــلم أنّ مـماتهم عــين الحــياة لدىٰ جوار البـاري
تــلك الحـياة حـقيقة لا هــذه فــهي المـجاز بـنا لتـلك الدار
فــي هــذه الدنـيا الدنـيّة أنّــها شــرك الردىٰ وقــرارة الأكــدار
فــلذاك طـابق حـالهم إذ أرّخـوا بــيتاً كـنجم كــواكب الأسـحار
حكم الحسـاب يـحقّ في تـاريخه قــل حــلّ عــبدالله دار قــرار

وماكتبه من النثر هذا صورته :

أقامها ناظمها السالك بها طريق الوفا السوي، محمّد بن علي بن حيدر الحسيني الموسوي، مقام كتاب التعزية لولده الأسعد الأمجد، الحقيق بتظافر الأثنية والأدعية؛ لأنّها تضمّنت ذلك بلفظ أعلق من النثر بالخواطر، والشعر يخلّد

---

(١) ما بين الهلالتين أضفناها من نسخة «ن» فقط .

في مشامّ الزمان نفحات الأثنية العواطر، عنيت بجيده الذي تبقىٰ جارية في أودية الرواية مسائله.

يموت روي الشعر من قبل ريّه   وجيّده يبقىٰ وإن مات قائله

وقد قال عمر بن الخطّاب لبنت زهير أُخت كعب، الذي أعلت بانت سعاد منه الكعب: ما فعلت الحلل التي كساها هرم بن سنان أباك؟ قالت: أبلاها الدهر، قال: لكن الحلل التي كساها أبوك هرماً لا يبليها الدهر. أو ما هذا معناه، وبالله التوفيق.

وهذه القصيدة والنثر أصدرهما والدنا ـ رحمه الله تعالىٰ ـ من الطائف إلىٰ نجله الأجلّ الأكرم، وشبله المبجّل المعظّم، وخلفه الصالح في عالم الوجود، وخليفته المسدّد في كلّ أمر محمود، الحائز لطريف المجد وتالده، ولا غرو أن يحذو الفتىٰ حذو والده، والفاضل الذكي النبيه، الصادق فيه الولد سرّ أبيه، سيّدنا ومولانا، ومن بجميل فضله وإحسانه أولانا، الشيخ سالم ابن المرحوم المقدّس الشيخ عبدالله البصري، أدام الله شريف وجوده، ومنيف آبائه وجدوده، ووريف إفضاله وجوده.

ترجمة الشيخ سالم بن عبدالله البصري:

أبدر هلال سعده ورئاسته في زمن أبيه، ورقىٰ ذروة المعالي علىٰ بني الفضل ومكتبيه، اشتغل في حياة أبيه بعض الاشتغال، إلاّ أنّه أدرك فيه مع قوّة ذهنه وذكائه ما لم يدركه أغلب الرجال، وتصدّر بعد وفاة أبيه لإكمال بعض دروسه من الحديث، وحضر مجلسه الشريف أكثر العلماء الأعلام، القاطنين ببلد الله الحرام، فشكروه علىٰ تقريره، وتهذيبه للبحوث وتحريره.

وأوّل مظهره كان بصحبة مخدومه فخر الشرافة، ومفخر آل زيد أرباب الإمرة والخلافة، السيّد الأجلّ الأشرف الأرأف الأمجد الأنجد، مولانا وسيّدنا الشريف عبدالمحسن بن الشريف أحمد، المنتظم ذكره السامي المجيد، في سمط عقد ملوك

مكّة النضيد، فحلّ عنده وعند ملوكها محلّ الروح من الجسد، والبرأين من الأسد.

وكانت رئاسة مخدومه المشار إليه هو ركنها الذي يعتمد في المهمّات عليه، مع كونه مرجع الملوك أيضاً في الموارد والمصادر، ومنتجع الوافدين من رؤساء الدولة العثمانيّة، مقيماً كان أو مسافر.

كاتب وزراء الدولة المذكورة وهاداهم، وبعث إليهم من التحف المالية ما استمال به خواطرهم واستأواهم، حتّىٰ خاطبته الدولة بخطابات جميلة، قلّ أن تصدر منها لأحد من ذوي الأقدار الجليلة، وخدمهم في عمارة العين المكّية مراراً عديدة، وفي غيرها من المهمّات مدّة مديدة، وصار يطلب كلّ ما يريده من الأوامر السلطانيّة، فتأتيه على الفور طبق إرادته ومقاصده السديدة، حتّى اجتمع عنده ما لا يحصيه عدّ، ولا يحيط به حدّ.

وهذا لم يتّفق لأحد من أبناء مكّة المعظّمة، بل ولا لغيره من المتقلّدين بعقود خدمهم المنظّمة، ففاق الأوائل والأواخر، بجمع أشتات المناقب الشريفة والمفاخر، فسطعت في جميع الآفاق شموس رئاسته وذكره، وتلت ألسن الخلائق آيات حمده وشكره.

والحاصل أنّه لم يعهد بمكّة المشرّفة ممّن تقدّم له نظير، إلاّ القاضي حسين، غير أنّ هذا هو الحاجب وذاك العين، لأنّه جاراه في مضمار المفاخر، حتّىٰ قيل كم ترك الأوّل للآخر، وإذا تلوت عليك مناقبه ومآثره، علمت علوّ همّته ومقداره، وعرفت مفاخره.

إنّ آثارنا تدلّ علينا فانظروا بعدنا إلى الآثار

منها: أنّه بنىٰ بمكّة المشرّفة رباطين عظيمين، بنهاية الإحكام والسداد، جعل أحدهما وقفاً على السادة الكرام الأمجاد، آل أبي علوي حرسهم الله تعالىٰ.

والثاني على النساء المنقطعات بمكّة المشرّفة، وكلا الرباطين بأسفل مكّة المشرّفة، قريباً من دار سكناه، صرف في عمارتهما جانباً عظيماً من الأموال، وهما الآن أحسن الأربطة في جميع الأحوال.

وجعل لهما مقدار مائة قرش في كلّ شهر من علوفة بندر جدّة لمهام الرباطين وبعض المصاريف، ووقف عليهما أيضاً محلّين عظيمي الغلال لأجل عمارة الرباطين ومصارفهما، ووقف في الرباط المخصوص بالسادة جانباً عظيماً من الكتب المعتبرة من جميع الفنون.

ومنها: عمارته وتصليحه لجميع ما في مكّة المشرّفة من المحالّ المأثورة، والآبار المذكورة، حتّى التي في أطراف مكّة المشرّفة، وصرف على ذلك أموالاً عظيمة.

ومنها: بناؤه لقبّة السيّد المهدلي في منزل مستورة الكائن بين الحرمين.

ومنها: بناؤه للمدرسة العظيمة، وما عليها من المباني النفيسة الكائنة بباب العمرة أحد أبواب المسجد الشريف على يمين الداخل إلى المسجد، وهي من أفضل المباني، وبنىٰ دوراً كثيرة بمكّة المشرّفة، ووقف غالبها على معاتيقه وخواصّه، وجانباً منها في وجوه المبرّات.

ومنها: عمارته لعين مكّة المشرّفة مراراً عديدة، تارة بأمر من الدولة العثمانيّة، وتارة بطريق النيابة عن وكلائهم على ذلك، حتّىٰ صارت له بذلك اليد الطولىٰ.

ومنها: أنّه جمع كتباً لا يتأتّىٰ لغيره جمعها، ربما أنّها نافت علىٰ كتب الصاحب ابن عبّاد، وكلّها في نهاية الضبط والحسن والسداد، ثمّ أضاف إليها ما خلّفه والده

المرحوم المقدّس من الكتب التي ليس لها نظير؛ لكونها[١] خدمها مثل ذاك المقام الخطير، فملأت كتبه أماكن عديدة من داره السامية، لا زالت عامرة نامية.

ومنها: أنّه وقف على ضريح سيّدنا حبر الأمّة عبدالله بن العبّاس ـ رضي الله عنهما ـ كتباً عديدة فاخرة من جميع الفنون، لقصد انتفاع أهل الطائف من الطلبة وغيرهم بها، وشرط في وقفيتها أنّها لا تخرج من نفس القبّة الشريفة، بل كلّ من أراد المراجعة يدخل القبّة الشريفة، ويراجع فيها ما يريده من المسائل، فأحرز بهذه المنقبة الفاخرة خيري الدنيا والآخرة.

ومن عجيب أخباره، الدالّة على عظم[٢] رئاسته وجلالة مقداره، أنّه زار قبر النبي صلّى الله عليه وآله بجميع عياله وخدّامه، وفي ركابه جماعة من العلماء الأعلام المجاورين لبيت الله الحرام، منهم: الفاضل العلاّمة الشيخ محمّد بن عبدالله المغربي، المتوفّى سنة (١١٤١) بالمدينة المنوّرة، ومنهم: العالم الجليل الشيخ عيد المصري المتوفّى سنة (١١٤٢) ومنهم: الصالح الفاضل الشيخ موسى الحنفي، وغير هؤلاء من الأفاضل من أبناء أكابر مكّة المشرّفة، وغيرهم.

وجملة جماله التي تحت خزائنه وعياله وخدّامه مقدّمة عليه، ومعه ستمائة جمل، وسار في صحبته اناس كثيرون من أهالي مكّة المشرّفة، فسلّم كرى جميع ما معهم من الجمال، وسلّم أيضاً أكرية بيوتهم بالمدينة المنوّرة، مع اهتمامه بأحوالهم في الطريق، وإرسال كلّ ما يحتاجون إليه من الأقوات في كلّ منزل، حتّى وصلوا إلى المدينة المنوّرة، وهم في غاية الرفاهية، وتحت خدّامه وعبيده

---

(١) في «ن»: لكونه.

(٢) في «ن»: عظيم.

أكثر أنواع الحيوانات من الخيل والبغال والإبل وأنواع المراكيب من المحافّ وغيرها.

وصلت إليه ـ حفظه الله تعالىٰ ـ لقصد الموادعة، في موضعه الذي برز فيه في جهة الزاهر، فوجدته في مختصر حاجّ من الحجوج من كثرة العالم والخدّام والخيام، الله علىٰ ما أقول كفيل[١].

وكان كلّما جاء منزلاً من المنازل لاقاه شيوخ قبيلة حرب بالهدايا، وقابلهم هو بالعطايا الجزيلة، وألبسهم الملابيس الحسنة الفاخرة، إلىٰ أن وصل إلى المدينة المنوّرة، ثمّ لمّا وصلها قابله أهلها ودولتها وعساكرها بالإجلال والإكرام، وبعثوا إليه بالهدايا اللائقة بجنابه العالي، فقبلها منهم، ثمّ قابلهم عليها، وأرسل إلىٰ كلّ شخص ما يليق به من الأقمشة الهنديّة الفاخرة، وأوصل ضعفاءهم، وأعطىٰ من خدمه منهم العطايا العظيمة، وألبسهم أفرية السمامير.

ثمّ رجع إلىٰ بلده من عامه ذاك بمثل ما ذهب وزيادة، فسألناه ـ حفظه الله تعالىٰ ـ عن مقدار ما صرفه من الأموال علىٰ هذه الزيارة، فأجاب بأنّ المتصرّف علىٰ هذه الزيارة الشريفة، وفي عمارة المدرسة، يعني التي تقدّمت الاشارة إليها، لم نضبطه لكثرته، ولكون الانفاق في الأمرين إنّما المقصود به وجه الله تعالىٰ.

وهذه الكيفيّة لم تصر إلىٰ أحد من أبناء البلد الحرام، بل ولا لأعظم رئيس من وزراء[٢] دولة الأروام.

نعم وقفنا في تاريخ القطبي علىٰ صفة زيارة القاضي حسين المتقدّم ذكره،

---

(١) في «ن»: وكيل.

(٢) في «ن»: رؤساء.

وصارت إليه أُبّهة عظيمة، إلاّ أنّها حقيرة بالنسبة إلىٰ أُبّهة زيارة هذا الشيخ، وكثرة إحساناته، ودليل ذلك أنّ عدّة جماله مائتان وأربعون جملاً، وقس عليها غيرها .

ثمّ زار ـ حفظه الله تعالىٰ ـ بعد هذه الزيارة في سنة ...[1] زيارة مختصرة، تقارب زيارة القاضي حسين، وكانت زيارته الأُولىٰ التي ذكرنا كيفيتها سنة ...[2]، وقبلها زار زيارة إلاّ أنّها مختصرة كالأخيرة .

وله ـ أيّد الله تعالىٰ، وأدام الله عليه نعمه التي لم تزل توالىٰ ـ قضايا عجيبة، وأحوال غريبة، وهبات جزيلة، ويده بالحسنات طويلة، كان يوصل أهل مكّة المشرّفة في شهر رمضان بمفرده مائة أردب من القمح كلّ سنة، وغير ذلك، ولو أرسلنا القلم في عدّ مناقبه ومكارمه لبلغت مجلّدات عديدة، أبقاه الله تعالىٰ للمسلمين آمين .

وقد تقدّم أنّ الشريف مبارك بن أحمد عزل عنها بالشريف يحيى بن بركات في عوده من الديار الروميّة .

تولية الشريف يحيى بن بركات الثانية

وهو أنّه بعد أن عزل عن الولاية وتوجّه وسار، إلى الدولة العليّة وتلك الأقطار، فتلقّته السلطنة بالإعزاز والإكرام، وشملته بعين العناية والاحترام، وتوجّهت إليه، وجبرت خاطره ممّا وقع عليه .

فمن جملة ما صار له من العنايات السلطانيّة، والنظرات العثمانيّة، أنّه اجتمع به حضرة السلطان يوماً إلاّ قليل، وصار بينهما حديث طويل، فشمله ببرّه ورأفته،

---

(١) بياض في النسختين .

(٢) بياض في النسختين .

حتىٰ سنمه غارب شرافته، إلاّ أنّ ذلك كان بعد إسعافه، بولاية بيت المقدس وأخطافه، ليكل بخراجه مهياه، ثمّ يسير لتأطيد أساس ملكه ومبناه.

فمكث به عدّة من الشهور، وحديث عدله بين الرعيّة مشهور، إلىٰ أن آن مسير الحاجّ، وتوجّه المحامل السلطانيّة إلى الجهات الحرمية وتلك الفجاح، صدر الأمر الشريف، بتوجّه حضرة مولانا الشريف، وذلك في أواخر سنة أربع وثلاثين ومائة وألف.

وأخدمه الوزير المكرّم، والمشير المفخّم[1]، علي باشا كتاهية، متولّي بندر جدّة المعمور، وأمر بأن يكون تحت أوامر الشريف ونواهيه، في أقطار الحجاز ونواحيه، واستصحب معه من الفرامين السلطانيّة، ما استدلّ به العقال علىٰ فساد النيّة، وعزّزهما حضرة السلطان لقلع عروق الفساد، مع التأكيد في الأبعاد، لبعض أشخاص عن نواحي البلاد، بعين الوزراء العظام، وقدوة الأُمراء الكرام، علي باشا المشهور بابن المقتول أمير الحاج الشامي في السنة المذكورة.

فمشوا جميعاً علىٰ طريق الشام، ودخلوا مدينة سيّد الأنام، عليه أفضل الصلاة والسلام، ومهّدوا برأيهم الأسدّ الأحمد، بعض ما وقع بين أهلها من الفتن في أيّام دولة الشريف مبارك بن أحمد، ثمّ توجّهوا إلىٰ أُمّ القرىٰ، وجعل بأسهم وصولتهم وثيق العرىٰ، ولم تزل السادة الأشراف تلاقيه، من العلا ونواحيه، ودخلوا مكّة المشرّفة لستّ خلون من شهر ذي الحجّة الحرام انتهاء سنة ألف ومائة وأربع وثلاثين.

واستمرّ في الشرافة إلىٰ رابع عشري شهر ذي الحجّة الحرام انتهاء خمس

---

(١) في «ن»: الأفخم.

وثلاثين ومائة وألف، فكانت مدّة دولته باعتبار المنادي الواقع باسمه الشريف في اليوم السابع والعشرين من شهر ذي‌القعدة ـ كما مرّ ـ سنة كاملة إلاّ ثلاثة أيّام، ونزل بها لولده الشريف بركات بن الشريف يحيىٰ في اليوم الرابع والعشرين من شهر ذي‌الحجّة الحرام، كما سيأتي ذلك إن شاء الله تعالىٰ(١).

فصل

في الحوادث الواقعة في هذه السنة

وهي سنة خمس وثلاثين ومائة وألف؛ لأنّ دولة هذا الشريف لم تستغرق غير هذه السنة كما مرّ، وفي آخرها كان نزوله المذكور آنفاً، والآتي بيانه لاحقاً إن شاء الله تعالىٰ لولده الشريف بركات، وقد وقع في هذه السنة من الحوادث العجب العجاب، وسنذكرها لك علىٰ طريق الاختصار لا الاطناب.

وهي أنّه لمّا ورد حضرة الشريف يحيىٰ إلىٰ مكّة المشرّفة، ورفل في حلل ولايتها المفوّفة، توالى الاُمور بشدّة وغلاظة، وقابل السادة الأشراف بزعامة وفضاضة، رجوعاً منه عن سيرته الاُولىٰ، واستحساناً بأنّ هذه الكيفيّة أصوب وأولىٰ، مع اعتماده علىٰ من جاء معه من الأروام، والوزراء العظام.

فلم يزل حال السادة الأشراف معه في نهاية الاضطراب، مع نفور الأعراب، والحال أنّ الشريف مبارك بن أحمد وذويه، آل زيد بن محسن مقيمون بأطراف الطائف ونواحيه، فقضى الشريف وصاحبه الوزير علي‌باشا كتاهية الحجّ، ثمّ وجّها همّتهما لتمهيد الاُمور، وإخلاء بعض الدور، ومعهما أوامر كثيرة متضمّنة لأشياء عديدة:

---

(١) راجع: خلاصة الكلام ص ١٧٥.

منها: إبعاد السادة آل زيد بن محسن بن الحسين بن الحسن ملوك مكّة المشرّفة من قديم الزمن لأُمور اقتضت ذلك .

ومنها: هدم دارهم المعروفة بهم المسمّاة بدار السعادة .

ومنها: إبطال الدخل المعروف بين السادة الأشراف فيما إذا قتل شخص شخصاً ودخل علىٰ أحدهم، فإنّه يمنع عن القصاص منه، وأمّا الدية فلا، وهذا خلاف الوجه الشرعي .

ومنها: إبطال الطلقات المعلومة في عرفهم، وغير ذلك، غير أنّه لم يتمّ منها شيء.

أمّا السادة آل زيد، فقد علمت ممّا سبق بأنّهم نزلوا أطراف الطائف فوق قرية تسمّىٰ ليّة، في موضع عزيز يسمّىٰ جرجة، وله حصن شاهق لبعض قبائل ثقيف، وهم الشريف مبارك بن الشريف أحمد، والشريف عبدالله بن الشريف سعيد، والشريف علي بن الشريف سعيد، ومعهم إخوتهم ومن يلوذ بهم من الأتباع .

فلمّا كان أواخر محرّم من السنة المذكورة: توجّه صاحب الترجمة وعلي باشا كتاهية إلى الطائف علىٰ طريق محّله بالخيول والعساكر، وسارا سيراً عنيفاً حتّىٰ وصلوا الطائف، وأقاما به يوماً واحداً، ثمّ توجّها ليلاً بدلالة بعض شيوخ ثقيف، وصبّحاهم تحت الحصن المذكور، واستولت العساكر علىٰ جميع أوباشهم لم يسلم إلاّ الأشخاص، وكادوا يذهبون لولا حفظ الله تعالىٰ وعنايته بهم .

وهذه الغارة إنّما كانت على الشريف مبارك وأتباعه، وإلاّ فالشريف عبدالله وأخوه الشريف علي قد رحلا صبحاً قبل وصولهم إليهم بقليل، وقتل من جماعة الشريف مبارك أشخاص، وذهب جميع ما معهم، ثمّ رجعا إلى الطائف وأقاما أيّاماً يمهّدان أقطار الطائف، ثمّ سارا إلىٰ مكّة المشرّفة، ودخلا مكة شرّفها الله تعالىٰ في

الشهر المذكور ظافرين .

وفي رجوعهما إلى البلد وقع اضطراب بأهل البلد، وذلك أنّهم وجدوا فيما أخذوه من الأوباش كتباً بخطّ بعض أهالي مكّة ممّن ينسب إليهم بأشياء، كوجيه الدين عبدالرحمٰن بن علي بن سليم، فإنّ حضرة علي باشا قد وقع له علىٰ مكاتبات بينه وبين الشريف مبارك ولآخرين أيضاً، فنهب بيت عبدالرحمٰن المذكور، وأراد لزمه وقتله، لكن هرب بمساعدة بعض الخدّام، ثمّ ذهب إلى اليمن، وأراد الآخرين أيضاً لكنّهم هربوا .

ثمّ بعد مدّة جمع الشريف مبارك المذكور جمعاً من بادية سراة بجيلة وناصرة، ومن ثقيف ما يقارب الألف، وأقبل بهم على الشريف يحيى بن بركات وصاحبه، فخرجا لملاقاته إلىٰ عرفة، ووقع بينهما الحرب فوق الجبل المسمّىٰ بالخطم علىٰ يسار الصاعد إليها، وصار قتال شديد بين هؤلئك البادية وبين عساكرها .

وأمّا الخيل، فقد حملت في أوّل الأمر على الشريف مبارك وما معه من الخيل وكسرته، والبادية قد انحسرت في الجبل المذكور، ومعلوم حال المحصور القاتل عن روحه، فوقع منهم قتال أهال الأتراك؛ لأنّه لمّا خرج الشريف يحيىٰ وصاحبه أخرجا البُلكات السبعة بعساكرهم، بل ومن ينتمي إليهم من سكّان مكّة المشرّفة من أبناء الأروام والمغاربة والمصارية، وعساكر بندر جدّة المحافظين لها، وقاومت هذه البادية جميع هؤلاء الطوائف بحرب طار شرره، وقتل جمّ غفير من الأتراك وغيرهم، ولم يمكنهم الاستيلاء عليهم أبداً، فأعطوهم الأمان، وبذلك سلم بقيّة الأتراك من القتل، ونزلوا من الجبل الذي كانوا عليه، وتوجّهوا إلى الطائف آمنين مطمئنّين غير منقوصين .

ويقال: إنّ علي باشا لحقه صوابٌ[١] في فخذه في تلك الواقعة، فهذه كانت على الشريف مبارك، ورجع إلى الطائف، ثمّ خرج من الطائف بسبب عسكر وجّهه عليه الشريف يحيىٰ، وبقي في أطرافه إلىٰ شهر رمضان من السنة المذكورة، ثمّ دخل الطائف وأخرج منه وكيل الشريف يحيىٰ، وهو السيّد محمّد بن الشريف عبدالكريم، واستقربه يجمع البادية .

وكان بالطائف حين دخول الشريف مبارك، حضرة السيّد الشريف، الغضنفر الغطريف، زعيم السادة الأشراف بلا مين، مولانا وسيّدنا السيّد محسن بن عبدالله ابن حسين، فتوالى الأمر وذبّ عن الرعيّة، وأرسل كتباً مع ولده إلىٰ حضرة الشريف يحيىٰ وصاحبه يعرّفهما بذلك، فأرسلا يطلبانه، فوصل إلىٰ مكّة المشرّفة، واجتمع بهما جميعاً، ثمّ بعلي باشا بمفرده .

وتواطئا هو وإيّاه علىٰ أن يكتبا إلى الشريف مبارك كتاباً يلاطفه فيه، ويوعّده بالشرافة بعد الحجّ، وأن يرسل إليه مبلغاً من الدراهم يستعين به، ويفرق من عنده من البوادي، ويستقرّ في الطائف مصاحباً لا يعارض شيئاً من الأحكام، وأنّك إذا فعلت ذلك تعهّدت لك بأنّه ما يخالف ما تأمر به، وأنا أمشي إليه بنفسي لأجل ذلك، وفي ضمن ذلك تنطفىء نائرة السادة الأشراف القائمين الآن على الشريف يحيىٰ، لكن لابدّ من تسليم شيء لهم، فخاضوا في ذلك أيضاً، واستقرّ الأمر علىٰ تسليم علوفة شهر لهم نقداً، وسلّم إليهم من خزانة علي باشا علىٰ يد وزير الشريف .

ثمّ توجّه السيّد محسن إلى الطائف، ووفد على الشريف مبارك ومن معه من السادة الأشراف، وأعطى الشريف مبارك كتابة من حضرة الباشا والمبلغ المذكور،

---

(١) صاب صوباً السهم نحو الرمية: اتّجه ولم يخطىء .

وحلّه عمّا كان عليه والأشراف الذين معه علوفة شهر نقداً، وتفرّقت البادية، واستقرّت الأحوال، وآمنت البلاد، ومشت فيها أحكام الشريف يحيىٰ.

ثمّ عاد السيّد محسن إلىٰ مكّة المشرّفة، ومعه جماعة من عيون خدّام الشريف مبارك، لقضاء بعض أغراضهم الدنيويّة، فوجد علي باشا قد توجّه إلىٰ بندر جدّة؛ لأنّه كان عازماً على المسير إليها، بعد تعهّد السيّد محسن بانحلال الأُمور على الترتيب المذكور.

فلمّا وصل السيّد محسن إلىٰ مكّة، ووجده قد نزل إلىٰ بندر جدّة، لحقه بمن معه من جماعة الشريف مبارك، فوفد عليه في البندر، فأكرمه بما لم يعهد مثله لمثله، وأعطاه جواب الشريف مبارك بامتثال الأمر في كلّ ما أمر به، فاسترّ بذلك وتشكّر من حضرة السيّد محسن فيما فعله، ورجع إلىٰ مكّة المشرّفة، فحدث على علي باشا مرض طال به إلىٰ ذي القعدة، ثمّ هلك به، ودفن بجدّة قريباً من قبر حوّاء رضي الله عنها، وبني عليه قبّة هناك موجودة إلى الآن.

واستقرّ في منصبه بعده كيخيته إسماعيل باشا، وضبط جميع أمواله، وأقام علائف العسكر علىٰ عادتهم مع علي باشا، وكانت هذه التولية والنصب لإسماعيل برأي حضرة الشريف يحيىٰ، وقاضي الشرع الشريف وأعيان الدولة.

فاستمرّ متولّياً إلىٰ شهر الحجّ، إلاّ أنّه صار من العسكر تعدّيات كثيرة على الرعيّة، لعدم ضبطه لهم كأُستاذه، والأشراف في نهاية الاضطراب أيضاً مع شيخهم الشريف يحيىٰ؛ لقطعه مقرّراتهم المعروفة.

والشريف مبارك قد تحرّك بالطائف لجمع البادية والمسير إلىٰ مكّة بعد وفاة علي باشا المذكور، ولم تزل الحال كذلك إلىٰ أن وصل حضرة الوزير المعظّم عثمان باشا المكنّىٰ بأبي طوق، وفي مكّة أعيان الدولة العثمانيّة، كحسن آغا دار

السعادة، وأيوب آغا شيخ الحرم الشريف النبوي سابقاً، وغيرهما، فتواطؤوا علىٰ أنّ الشريف يحيىٰ ينزل بالشرافة لولده الشريف بركات، ويصير هو شيخ الحرم المكّي، فإذا فعل ذلك ذهبت حقوق الأشراف القديمة، وقام لهم الشريف بركات بما ينفعهم حالاً، وتسير الأُمور علىٰ أحسن الأوضاع، فلم يصر ذلك، كما سيأتي بيانه في ترجمة الشريف بركات إن شاء الله تعالىٰ[1].

فتنة عبيد السادة وعساكر علي باشا:

وفي هذه السنة: صارت قضيّة بين عبيد السادة الأشراف وبين عساكر علي باشا، أفضت إلىٰ قتال صار بين الفريقين، وكان الشريف يحيى المذكور ومن يتبعه من العساكر والعبيد في طرف علي باشا على الآخرين، فتحصّل من ذلك هرب عبيد السادة الأشراف، وتفرّقهم في جبال مكّة المشرّفة، فأوغلت في خواطرهم علىٰ صاحبهم.

وهمّ علي باشا بهدم بيت من بيوت السادة الأشراف؛ لأنّه رأىٰ رمي بندق منه، ولم ينحل عن هذه الهمّة إلاّ بعلاج عظيم، وقتل فيها بعض شيوخ العبيد، وصار على العبيد ذلّ لم يعهد مثله، غير أنّهم تقاصّوه من العساكر المذكورة في الحرب الواقع بين الشريف مبارك ومن معه من السادة وبين الشريف بركات، كما سيأتي في ترجمة الشريف مبارك في دولته الثانية، إن شاء الله تعالىٰ.

الحوادث الجمّة بين الشريف وعساكر الوزير:

وفي هذه السنة: صارت حوادث جمّة ومخاصمات وغارات بين الشريف والسادة الأشراف، وبين عبيدهم وعساكر الوزير المذكور، وبينهم وبين عساكر

---

(١) راجع: خلاصة الكلام ص ١٧٦.

مولانا الشريف، والحاصل أنّها كانت سنة مرّيخيّة ضدّ دولته الأُولىٰ.

ولم يزل الحال كذلك إلىٰ حلول شهر ذي‌الحجّة انتهاء السنة المذكورة، وفيه كان نزوله بالشرافة لولده الشريف بركات، كما سيأتي إن شاء الله تعالىٰ.

وكان وزير هذا الشريف في الدولتين، حضرة عين الأعيان، وفخر الأقران، وغرّة وجه الزمان، معهد الكمالات الجليّة، ومعقد خناصر ذوي الهمم العليّة، ذي الفكر الثاقب، والرأي الصائب، الأديب الأريب، المحيي لآثار ابن عبّاد وابن قريب، بدرالدين حسن بن الموفّق عبدالنبي الناشف، وبيته هذا من بيوت مكّة القديمة، المعروفة بالخير والحسنات العميمة.

وأصله الشريف من دمشق الشام، فانتقل بعض أجداده الكرام، إلى البلد الحرام، فأولد فيها، فاستمرّ ولده بها وأقاربه باقون بالشام، وهم من أعاظم رؤسائها الكرام، وحسن هذا هو بيت قصيدهم، من شايبهم ووليدهم، ولد بمكّة ونشأ بها، وتعلّق من أهداب المعالي بأصبعها، فأحرز منها أمدّ الخصل، بالمنطق العذب والقول الفصل، مع الأخلاق الحسنة، والصفات المستحسنة، واليد البيضاء، الهاطلة بالحمراء والبيضاء.

لبس خلعة الوزارة الحجازيّة لمخدومه المتقدّم ذكره الشريف، في ذي‌الحجّة افتتاح سنة (١١٣١) بعد جلوس[١] مخدومه في دست الأيالة بأيّام، فقام بعبئها أحسن قيام، وأقبلت عليه وجوه الناس، وانصرفت عنه دواعي الهمّ والبأس، فحكم وعدل، وأصاب الحقّ وما عدل، وفيه ـ حرسه الله تعالىٰ ـ صفة قد قصرت عليه، ولا ريب أنّ عليها المدار، بين ذوي الكمال والاعتبار، وهي معرفة أقدار

---

(١) في «ن»: جلوسه.

ذوي الأقدار .

فلعمري لقد فاز منها بالقدح المعلّىٰ، فهو الحسن عموماً مستفاداً من المحلّىٰ، أحسن إلى العلماء والسادة، والمشايخ الجلّة من أهل العبادة، وقابل كلاًّ بما يستحقّ من الاكرام، والفيض المتواتر والانعام، مع إدامة الخلق الحسن لكلّ وارد عليه، أو منتسب إليه، فساس الوزارة، أحسن سياسة، وسلك فيها مسلك المتواضعين من ذوي الرئاسة .

واستمرّ فيها كذلك إلىٰ أن عزل مخدومه من منصب الشرافة بالشريف مبارك ابن الشريف أحمد بن الشريف زيد في سنة (١١٣٣) فتوجّه مع مخدومه إلى الديار الروميّة، ثمّ عاد معه في دولته الثانية التي حرّرناه آنفاً، فتوالىٰ أمر الوزارة ثانياً من حين وصوله إلى أرض الحجاز، واستمرّ فيها سنة خمس وثلاثين ومائة وألف، وانفصل عنها بانفصال مخدومه عن الشرافة، وهو نزوله لولده الشريف بركات كما تقدّم ذكره، والحال أنّه ولي منصب الوزارة لمخدومه في الدولتين، فهو الجدير بأن يخاطب بذي الوزارتين .

هذا، وقد مدحه غير واحد من الشعراء، وأحسن صلتهم. فمن جملة من مدحه سيّدنا الوالد ـ قدّس الله روحه، ونوّر بمصابيح الرحمة ضريحه ـ بقصائد عديدة بليغة، لا يحضرني الآن منها شيء إلاّ ثلاثة أبيات، وهي :

يحيىٰ مليك بعدل دولته ... يحيي الهدىٰ والفروض والسنن
وكلّ أوصاف ملكه حسن ... يجلو سناها وزيره حسن
فليبشرا بالسعود مقبلةً ... عن بركاتٍ قد أسفر الزمن

وله رحمه الله مخاطباً له :

يا كهفنا وملاذنا ... المعروف بالعرف الحسن

ووزيــــر آل مــــحمّدٍ ومـــعينهم فـي ذا الزمـن
ومغيث أهـل العـلم والآ داب قـــوّام الســنن

وهذه قصيدة طويلة لم يحضرني منها إلاّ هذه الأبيات. وله قصيدة طويلة عارض بها قصيدة ابن المقرىء التي مطلعها مخاطباً به الشريف حسن بن عجلان:

أحسنت في تدبير ملكك يا حسن وأجدت في تحليل أخلاط الفتن

وقد تقدّمت، ولنا اعتراض على هذا المطلع قد حرّرناه فيما سلف، فراجعه ثمّة، ومطلع قصيدة والدنا رحمه الله تعالىٰ:

أحســنت تـدبير الوزارة يـا حسـن وأجدت في تحصيلك الذكر الحسنْ
أخـلاق بـرٍّ صـادقٍ مـتواضـع أشهىٰ لسـاهرة العـيون مـن الوسـن
فــي بسـط جـودٍ بـعده نسيانه والنـاس إن جـادوا فـمع كـبرٍ ومـن
فــي دهــي عـقلٍ لا يـحلّ عـقاله لولا الشـريعة كـان داهـية الزمـن
لكـــنّه مــحض الذكــاء وفـطنةٍ أشـطانها يـعيا بـها المـهر الأرن
قــد قـيّدت تـقوى الإلٰـه جيادها إلاّ بـمقدار الدفــاع لمــن شـطن
ذو نـــيّةٍ وبــصيرةٍ ديـــنيّةٍ ما زال من بدء الشباب علىٰ سنن
يـهوي لمـا يـرضى المـهيمن قـلبه مهوى القلوب إلىٰ حمى الحرم الأغن
لاسـيّما فـي نـفع آل المـصطفىٰ ودّاً وخـــدمتهم بـعزمٍ مـؤتمن
وكـذاك أهـل العـلم والتـقوىٰ فـلم يـبرح كـذا فـي عـزّةٍ لا تـمتهن
حـتّىٰ أتـته وزارةٌ مـنقادةٌ زفّت إليـه تـجرّ أذيـال الحـصن
لو غـيره لسـعىٰ إليـها جـهده[1] دهراً وبعد السعي كـان رأيٌ حـضن

---

(١) في «ن»: جهره.

وافته مـن أعـلى المـلوك وخـيرهم ... نـظراً ومـعرفةً وأيـداً فـي الفـطن
مــن قــارنته عـناية الرحـمٰن فـي ... أفـعاله حـتّىٰ غـدا قـطب الزمـن
يــحيى الذي أحـيا شـريعة جـدّه ... عــدلاً وفـعلاً للـفرائـض والسـنن
حـتّى رأى الأعــمىٰ مآثـر بـرّه ... أمناً وخـصباً فـايضاً من ذي المـنن
وأعـــانه وأمـــدّه فـي مـلكه ... جـاهاً ومـالاً تـلو تأيـيدٍ قـطن[1]
وبشـــائر اسـتقباله للـخير قـد ... صدقت لإخـلاص السـريرة والعـلن
فـــالله يـــلهمه امـتثال مـقاله ... ولئـــن شكــرتم إنّ ذلك مـن ومـن
هـــذا دعـــاءٌ لو سكتّ كـفيته ... فالظنّ فـيه الشكـر عـلماً غـير ظـنّ
يــا أيّـها الحسـن الخـلائق كـاسمه ... هـــذا ثـناء الودّ أعـلن أم بـطن
ودّاً لكـم فـي الله لا عـن مـطمعٍ ... إذ كـان فـيكم طـاعة البـاري تسـن
هو محض قـول الحـقّ شكـراً للإلٰـه ... والشكـر للـمخلوق تـثبته السـنن
نـظمٌ جـلته ريـاض وجٍّ فـهو مـن ... أغـصانها ثـمرٌ وزهـرٌ يـغتصن
ويـحفّه حـفّ السـياج دعـاؤنا ... لكـم لدى الحـبر العـفيف له ركـن
وافـيٰ لحـضرتك العـليّة قـائماً ... عـنّي مـقام حـضور مشـتاقٍ مـدن
قد عاقه عـجز المـزاج عـن السـرىٰ ... يطوي كراً حتّىٰ يرى الوجه الحسـن
وإذا جـلىٰ نـظمي بـحضرتكم شـذا ... روض الحجاز وعطّر المغني الأغـن
فـليجل من أعـطار يسر الهـند مـا ... يـجلي بـطائفنا أخـاريج الخـمن
ثـمّ اكـفني حـتّىٰ كأنّـي حـاضرٌ ... تكـفي بـحرمة جـدّنا غـير الزمـن

فأصدر إليه الجواب مع المرسول، بنجاح المراد والمأمول. وراسلته بأبـياتٍ

---

(١) في «ن»: بطن.

معاتباً، وهي هذه :

أبـا عـلي فـدتك النـاس قـاطبةً ... هل غيّرتك عـلىٰ خـلاّنك الدول
أم هل خلائقك الغرّ التـي عـرفت ... بالأمس منك عراها النسخ والبدل
أين المحبّة أين الاختصاص بكم ... أين الوداد الذي ما شـا بـه خـلل
قد كنت قدماً أرجّي منك مكـرمةً ... إذا علوت فـخاب الظـنّ والأمـل
تركتني واتّخذت الغير بي عـوضاً ... مـع أنّـني سـيفٌ مـا بـه فـلل
خلٌّ صـدوقٌ وفـيٌّ لم يـزل أبـداً ... يحمي عـلاك إذا مـا ذمّـه رجـل
حظوظ كلّ الورىٰ يا بـدر وافـرةٌ ... لديك دهـراً ولم تـعلق بـه عـلل
وحظّ خلّك لم يـبرح أخـا دنـفٍ ... قد مسّه السقم بل قد شفّه الكسـل
وعـدت وعـداً ولي عـامٌ أؤمّـله ... وكـلّ يـومٍ ولي وعـدٌ ولي أمـل
فلست يا بـدر كـالكمّون تـوعده ... بالسقي دهـراً إذا مـا فـاته النـهل
لا زلت يا غاية الآمـال مـرتشفاً ... كأس العطا وإليك الخلق تـرتحل
وجود كفّيك يولي الناس مكـرمةً ... إلاّ أنـا فـصديق الصـدق يـحتمل

فأجاب على العتب، بما زال به التعب، فجزاه الله خير الجزاء، وجعل نصيبه من سعادة الدارين أوفر الاجزاء.

ترجمة الشريف بركات بن الشريف يحيى بن بركات بن محمّد

قد تقدّم في ترجمة والده ـ رحمه الله تعالىٰ ـ أنّه لمّا كان آخر سنة ألف ومائة وخمس وثلاثين، اضطرب عليه حال السادة الأشراف، وظهر الخلاف في جميع الأطراف، لأسباب اقتضت ذلك :

أحدها: موت عضيده الوزير علي باشا.

وثانيها: تحرّك الشريف مبارك بن الشريف أحمد بالطائف وأطـرافـه لمـوت

الوزير المذكور وانخرام ما كان بينهما من الأقوال.

وثالثها: عجز الشريف يحيىٰ عن إيفاء السادة الأشراف حقوقهم المرتّبة عليه.

فلمّا وصلت الحجوج الشامية والمصرية وغيرهما، صعد بهم الشريف يحيىٰ إلى عرفات، والأشراف برمّتهم في ناحية عنه لم يخالطوه أصلاً، وأوصلوا شكيتهم إلىٰ أعيان الدولة العثمانيّة الواصلين في ذلك الموسم، ومن جملتهم أمير الحاجّ الوزير المكّرم عثمان باشا أبو طوق.

فاستقرّ الرأي بينه وبين حضرة الشريف يحيىٰ وأعيان الدولة علىٰ أن ينزل الشريف يحيىٰ عن الشرافة لولده الشريف بركات صاحب الترجمة.

فبهذا[1] النزول تنهدم حقوق السادة الأشراف المنكسرة عنده، وتصلح الأحوال، ويداخلهم الشريف بركات بحسب جهده، ففعل ذلك حضرة الشريف يحيىٰ، ونزل لابنه الشريف بركات في مجلس الوزير المذكور، بحضور أعيان الدولة وقاضي الشرع الشريف، علىٰ أن يلبس خلعة مشيخة الحرم استقلالاً عن صاحب بندر جدّة؛ لأنّها منصبه المختصّ به عادة، وقانوناً إنّما لمّا كان صاحب جدّة إسماعيل باشا كيخيته الوزير علي باشا الذي نصبه الشريف يحيىٰ بعد موت أُستاذه في شهر ذي القعدة من السنة المذكورة، كما تقدّم بيانه، لم ينابذ الشريف في ذلك.

وكان النزول المذكور في اليوم الرابع والعشرين من ذي الحجّة الحرام انتهاء سنة (١١٣٥) فزاد اضطراب السادة الأشراف؛ لما عرفوا أنّها حيلة علىٰ إذهاب حقوقهم، واستولىٰ على الشريف بركات المذكور أبوه وعمّه السيّد عبدالله بن

---

(١) في «ن»: فهذا.

بركات، فلا يرد ويصدر إلاّ عن رأيهما .

والحال أنّه كان بينه وبين السيد الشريف المعظّم السيّد محسن بن عبدالله بن حسين منابذات ومخاصمات عند بعض الأمور، فأراد الشريف بركات إزالتها، فلم يتمكّن له بسببهما لإطاعته لهما، فبنى السيّد محسن المذكور ومعه جملة من السادة الأشراف على الفراق والارسال إلى الشريف مبارك بن الشريف أحمد ليصل بمن معه من البادية، وعزموا علىٰ مقاتلة الشريف بركات، وإخراجه من البلاد .

فلمّا أزمع رأيهم علىٰ ذلك، فارقوه علىٰ مقتضىٰ قواعدهم، وبرزوا إلىٰ خارج البلاد، ورحلوا يوم سادس محرّم الحرام، وتلاقوا هم والشريف مبارك في عرفات يوم عاشر الشهر المذكور .

وفي أثناء هذه المدّة لم تزل المراسلة والمكاتبة بين السيّد محسن المذكور، وبين السيّد الشريف، والأيّد في اكتساب المجد المنيف، الشريف عبدالله بن الشريف سعيد المتقدّم ذكره، وكان في أطراف اليمن، ولم يزل يتقرّب إلىٰ أطراف مكّة المشرّفة، إلىٰ أن اجتمع بالسادة الأشراف والشريف مبارك .

ثمّ وصلوا جميعاً إلىٰ أعالي مكّة، وخرج لمقاتلتهم صاحب الترجمة ووالده وإسماعيل باشا بعساكره، بحيث بلغوا ثلاثة، أمثال الشريف مبارك ومن معه، وثارت الحرب بينهم في يوم الأربعاء الثاني عشر من محرّم الحرام، وحمي الوطين، واشتدّ الحال، فحملت السادة الأشراف حملة واحدة علىٰ عساكر إسماعيل باشا والشريف بركات، وهزموهم هزيمة شنيعة، وقتلوا فيهم قتلاً عظيماً لم يسمع بمثله، حتّى امتلأت أعالي مكّة من القتلىٰ، وانهزم صاحب الترجمة ومن يلوذ به من الأشراف والخدّام .

ثمّ جاء السيّد محسن بن السيّد عبدالله، وأمّن العساكر اليمنيّة، ونزل بهم إلىٰ مكّة المشرّفة، لاحقاً بهم الشريف مبارك، إلىٰ أن أوصلهم إليه، فوصل بهم إلىٰ داره العامرة، وتوجّه الشريف بركات إلىٰ وادي مرّ بأجله، وكذا علىٰ قانونهم المعتاد، فكان مدّة شرافته ثمانية عشر يوماً، ولم أقف علىٰ مدّة أقلّ من هذه لأحد من ولاة مكّة المشرّفة.

وكان وزيره في هذه المدّة الزهيدة شخص من الأتراك يسمّىٰ علىٰ صاكسلي، كان ترجماناً لحضرة الشريف يحيىٰ، فلمّا جلس الشريف بركات عزل بدرالدين حسن بن عبدالنبي الناشف المتقدّم ذكره عن الوزارة، وألبس هذا الرجل المجهول، فكان أوّل علامة دلّت على ارتفاعه من هذا المنصب، وآخر خاتمة حسنة لحسن المذكور (١).

وفاة الشريف حسن بن غالب الحسني:

وفي محرّم المذكور في أيّام شرافة صاحب الترجمة افتتاح سنة (١١٣٦) ستّ وثلاثين ومائة وألف: توفّي السيّد الشريف، والسند العالي المنيف، عمدة السادة الأشراف، ونخبة آل عبدمناف، مولانا وسيّدنا السيّد حسن بن غالب ـ أخي الشريف أحمد بن غالب المتقدّم ذكره ـ بن محمّد بن مساعد بن مسعود بن الشريف الحسن بن الشريف أبي‌نمي، أفاض الله عليه شآبيب غفراته، وأحلّه بحبوحة جنانه.

وكان هذا الشريف ذا فكر ثاقب، ورأي صائب، وفطنة وقّادة، ومعرفة نقّادة، وحلّ لمهمّات الأمور، مع خلق كالروض الممطور، ناهز عمره الشريف المعترك،

---

(١) راجع: خلاصة الكلام ص ١٧٧ ـ ١٧٨.

وهو حالّ بمكان بين رفاقته غير مشترك، وكان لا يعقد أمر بين السادة الأشراف ولا يحلّ، إلاّ في مجلسه الأشرف الأجلّ، وناهيك بهذه الرتبة السنيّة، بين السلسلة الشريفة الحسنيّة .

وصلّي عليه بالمسجد الحرام، والرئيس يخطب له في المقام، والناس واقفون على الأقدام، ثمّ دفن بالمعلاّة في مقبرة بيت الرئيس بوصية منه،ناشئة عن اعتقاد في هذا البيت العظيم، مع مصاهرة كانت بينه وبينهم من قديم .

وأعقب من الذكور ثلاثة: السيّد ناصر، والسيّد عبدالكريم، والسيّد يحيىٰ، وفّقهم الله تعالىٰ لما يحبّ ويرضىٰ. وهذه آخر ترجمة بركات .

شرافة الشريف مبارك بن الشريف أحمد بن زيد توليته الأخيرة

إعلم وفّقك الله تعالىٰ، وأولاك ألطافاً توالىٰ، أنّه لمّا انفصل عن شرافته الأُولىٰ، توجّه إلىٰ أقطار الطائف، وصحبته ذووه آل زيد بن محسن بن الحسن، وهم: الشريف عبدالله بن الشريف سعيد، وإخوته السيّد مسعود، والسيّد حسن، والسيّد مضر، والسيّد راجح، وآخرون صغار لم يبلغوا حدّ الاشتهار .

واجتمعوا بأعالي الطائف حيث المواضع الحصينة، بعد أن صال الشريف عبدالله المذكور على الطائف المعمور، ووجّه الشريف يحيى بن الشريف بركات وصاحبه الوزير علي باشا إليه حضرة السيّد محسن بن عبدالله، وجماعة من السادة الأشراف وخيلاً وعساكر، ثمّ ألحقاه بحضرة السيّد عبدالله بن الشريف بركات أخي الشريف .

وقد اجتمع على الشريف عبدالله جانب من بادية ثقيف، فلمّا سمع بتوجّه هؤلاء لدفعه من طريق نخلة سار للقائهم، فوقع القتال بينهم بمنزل القديرة، واستمرّ القتال يوماً كاملاً، وفي الليل ظهر القلب على الشريف عبدالله، فرجع إلى الطائف،

وفي صبيحة تلك الليلة لحقه السيّد محسن المذكور بالعساكر وأخرجه من الطائف، وتوجّه الشريف عبدالله إلىٰ قرية ليّة .

واستمرّ السيّد محسن بالطائف إلىٰ أن استقرّت أحواله، ثمّ عاد إلىٰ مكّة المشرّفة، فاستمرّ الشريف عبدالله والشريف مبارك، بعد أن اجتمعا ونزلا موضعاً حصيناً يسمّىٰ جرجة، فتأهّب الشريف يحيىٰ والوزير المكرّم علي باشا، وساروا جميعاً بالخيل والرجل علىٰ طريقة نخلة، ودخلا الطائف .

ثمّ سارا قاصدين آل زيد في حصن جرجة المذكورة، وصبّحاهم فيه بدلالة بعض شيوخ ثقيف، ونهبوا جميع ما معهم، وقتلوا بعض أعزّاء أتباعهم، ولم يبقوا لهم لا ما قلّ ولا ما جلّ، وأخذوا بعض ركابهم وخيلهم، وفرّوا من أيديهم فرار الظبي من يد الصيّاد، وكلّ هذه الفارّة، إنّما كانت على الشريف مبارك وأتباعه .

وأمّا الشريف عبدالله، فارتحل قبل حلول الفارّة بهم وارتفع، فسلم هو ومن معه، ثمّ عادا إلى الطائف وأقاما فيه أيّاماً .

ثمّ سارا إلىٰ مكّة المشرّفة، ودخلاها بنهاية العزّة والناموس، فبقي مبارك صاحب الترجمة في ليّة، ثمّ قصد الطائف، فاجتمعت عليه بادية ثقيف، وقد فارقه الشريف عبدالله، وتوجّه تلقاء اليمن مقيماً بها، وقصد الشريف مبارك ومن عليه من بادية ثقيف وناصرة وبجيلة وبني سعد وغيرهم ناحية مكّة المشرّفة علىٰ عقبة يَعرج بفتح أوّله وكسر ثالثه .

فلمّا تحقّق عند الشريف يحيىٰ وصاحب إقبال مقدّهما، خرجا بعساكرهما وخيلهما، وعساكر مصر حفّاظ مكّة المشرّفة وبندر جدّة وعساكر جدّة إلىٰ أرض عرفة، وصار القتال بينهم في جبل يقال له: الخطم، علىٰ يسار الصاعد إلىٰ عرفات، وتحته فتحات علىٰ عين مكّة المشرّفة، فوقفت البادية عليه، والشريف مبارك وما

معه من الخيل تحت الجبل إلىٰ جهة جبل الطارقي، وعلي باشا والشريف يحيىٰ باتا عند جبل عرفات، بناءً علىٰ أنّ القوم مقابلون لهم.

فلمّا أصبح الصبح وجدوهم وراءهم، قد قطعوا بالليل أودية كثيرة، إلىٰ أن تملّكوا الجبل المذكور، فأقبلا عليهم بالخيول والعساكر، وأحاطوا بالجبل المذكور، وحملت خيل علي باشا على الشريف مبارك وما معه من الخيل فكسرتهم، وتوجّه الشريف مبارك وما معه من الخيل صبحاً، لكونهم كثيرين لا طاقة له بهم.

وأمّا البادية الذي في جبل الخطم، فصار بينهم وبين العسكر حرب لم يسمع مثله، وفتكوا في الأتراك فتكاً عظيماً، خصوصاً في العساكر المصريّة والجداويّة، وأصاب علي باشا منهم رصاصة في فخذه، وأخذوا في ذلك إلىٰ آخر النهار، ولا انفكّ الحال بينهم إلاّ بإعطاء الأمان لهم، وأنّهم يذهبوا لاحقين بصاحبهم، فنزلوا من جبلهم آمنين، وتوجّهوا إلى الطائف، فوجدوا صاحبهم به، وعرضوا عليه.

وبقي بالطائف إلىٰ أن وجّه عليه الشريف يحيىٰ أشرافاً وعساكر، وأقام عليهم السيّد الشريف محمّد ابن المرحوم الشريف عبدالكريم بن محمّد المتقدّم ذكره، فأخرجه من الطائف إلىٰ بعض أطرافه، واستقرّ بالطائف، وبقي فيه إلىٰ شهر رمضان من السنة المذكورة، وفيه عدىٰ عليه الشريف مبارك بالبادية المذكورين، وأخرجوا السيّد محمّد بن الشريف عبدالكريم من الطائف، واستولوا عليه.

وكان بالطائف في تلك الأيّام السيّد الشريف محسن بن عبدالله بن حسين المتقدّم ذكره، فتوالىٰ أمر الرعيّة ومنع عنهم، ثمّ كتب إلى الشريف يحيىٰ وإلىٰ حضرة الوزير علي باشا بما صار، ومنعه عن الرعيّة، فأرسلا إليه يطلبانه، فوصل مكّة المشرّفة واجتمع بهما، ثمّ بالوزير المذكور بمفرده.

وتواطىء هو وإيّاه علىٰ أن يكتب إلى الشريف مبارك كتاباً، ويوعّده فيه بالوعد الجميل، بشرط تفرقة البادية، وأنّه يقيم بالطائف كافّاً يده عن الأحكام، ويصدر إليه مبلغاً يلزم به يده، فإذا فعلتم ذلك، وألزمتم حضرة الشريف يحييٰ بتسليم علوفة شهر نقداً، ثمّ تستمرّ لك هذا الحال.

فقرّ الحال علىٰ ما رتّبه هذا العزيز، فسلّم الشهر المذكور للسادة الأشراف نقداً، وأخذ الكتاب والمبلغ ورجع إلى الطائف، ووفد على الشريف مبارك، وأسلمه الكتاب والمبلغ، وسكّته عن الحركة، وفرّق البادية ومن معه من كبار السادة الأشراف، وصلتهم علائفهم، فسكنت الفتنة، واستقرّ الشريف مبارك بالطائف، ورجع السيّد محسن إلىٰ مكّة، ومعه بعض خدّام الشريف مبارك، وجواب الشريف مبارك.

فلمّا وصل إلىٰ مكّة وجد حضرة الوزير قد نزل إلىٰ جدّة متوعّكاً، فلحقه إلىٰ بندر جدّة، فتلقّاه بالاعزاز والاكرام، وأمر بنصب الخيام العظيمة له، وأمر أكابر خدّامه بملازمته وخدمته، بعد أن واجهه وأعطاه جواب الشريف مبارك بامتثال الأمر، وواجهه خدّام الشريف مبارك، وأقام عنده يومين، ثمّ توجّه إلىٰ مكّة المشرّفة بالخدّام المذكورين.

واستمرّ بمكّة والحال بينه وبين الشريف يحييٰ غير حسن، لأُمور اقتضت ذلك، ولم يزالا كذلك وحضرة الشريف مبارك مقيم بالطائف، إلىٰ أن قضي على الوزير المذكور في أواخر ذي القعدة، فاضطربت الأحوال، وهاجت النيران على الشريف يحييٰ من جميع الجهات.

أمّا الشريف مبارك، فأظهر شعار الحرب بالطائف من حين بلغه موت الوزير المذكور، والأشراف ثارت لطلب حقوقهم، ولم يزل الحال يتزائد إلىٰ أن وردت

الحجوج، فشكى السادة الأشراف علىٰ أمير الحاجّ الشامي عثمان باشا المكنّىٰ بأبي طوق، فلم يجد، وحجّ الشريف يحيىٰ بالحجوج، ثمّ نزل من منىٰ، واستقرّ الأمر علىٰ نزوله عن الشرافة لولده الشريف بركات، فكان ذلك في اليوم الرابع والعشرين من ذي الحجّة الحرام، كما تقدّم ذلك .

والشريف مبارك علىٰ حاله مقيم بالطائف يجمع البادية، والساة الأشراف قد خرجوا من مكّة، وأرسلوا إلى الشريف مبارك يحثّونه على الوصول، فنزل من الطائف بمن اجتمع عليه من الأقوام، ولاقوه بأرض عرفة، وكان إذ ذاك الشريف عبدالله بن الشريف سعيد في نواحي اليمن .

ثمّ لم يزل يقرب بمكاتبة من بعض أعاظم السادة الأشراف، حتّىٰ نزل عليهم في منزلهم الذين هم فيه، فنفر بعض السادة الأشراف عنه لما بينه وبينهم من دماء، فلاطفهم ذلك العظيم المكاتب له، وبيّن لهم أنّ الأمر محتاج إليه الآن لما هو فيه من خيل ورماة، ثمّ بعد ذلك ندبّر في إخراجه من مكّة المشرّفة، فاستمرّ معهم الشريف عبدالله المذكور، واجتمعوا جميعاً بأعالي مكّة .

فلمّا بلغ الشريف بركات إقبالهم لقتاله خرج إليهم بعساكره، وإسماعيل باشا بعساكره أيضاً، ووالد الشريف بركات، وجمع من السادة الأشراف، وتلاقوا بالمنحني بأعالي مكّة المشرّفة في يوم الأربعاء ثاني عشر محرّم الحرام إفتتاح سنة (١١٣٦) ألف ومائة وستّ وثلاثون .

واستمرّ القتال إلىٰ آخر ساعة من النهار المذكور، فحمل جماعة الشريف مبارك حملة واحدة علىٰ عساكر إسماعيل باشا، وكسروهم وهزموم، وقتلوا فيهم قتلاً شنيعاً لم يقع مثله، والعساكر اليمنيّة متحصّنون على الجبال، إلىٰ أن جاءهم السيّد محسن بن عبدالله بن حسين، ونزّلهم من مواضعهم في أمانه، وألحقهم

الشريف مبارك، فنزلوا تحت فرسه إلىٰ أن دخل داره، وخرج الشريف بركات ووالده إلىٰ وادي مرّ بأجله علىٰ قوانينهم المعتادة، ونادى المنادي بمكّة المشرّفة بأمر الشريف مبارك بالأمن والأمان .

فاستقرّت البلاد، وأمنت العباد، وراج حال السادة الأشراف لديه، ودخل صحبته الشريف عبدالله بن الشريف سعيد، واستقرّ بداره، فاستمرّ الحال علىٰ أحسن ما يكون، ثمّ بعد شهرين أو ثلاثة اضطرب الحال بين الشريف مبارك وبين السيّد محسن بن عبدالله المذكور، ولذلك سببان :

أحدهما: تعهّده بإخراج الشريف عبدالله من مكّة بعد الدخول، فلم يفعل، بل حصلت بينهما مزيد المصادقة .

وثانيهما: أنّه أراد عزل وزيره عبدالقادر بن سليم، ويهيّأ له وزيراً آخر، فلم يفعل، وعضد لوزيره جماعة من كبار السادة الأشراف، فتوقّف عنه السيّد محسن المذكور، وشرع يتألّف خواطر السادة الأشراف الشريف عبدالله المذكور، مع انقطاع الطرقات، ووقوع غلاء آخر بالناس، بسبب انقطاع السبل، وكثرة السرّاق بالليل بمكّة المشرّفة، وعدم التفاته لشيء من ذلك بالكلّية .

وفي أثناء ذلك نزل طريق جدّة، ثمّ استقرّ علىٰ بئر الحديبيّة، ولم يأمن الطريق، بل أخذ قربها منه ولم يفزع، وفي أثناء هذه المدّة قد نضج الدمث، فبلغه شيء من ذلك، فجاء إلىٰ مكّة المشرّفة مايلاً على السيّد محسن المذكور وعلى الشريف عبدالله، فلم يجده شيئاً بل زاد الحال .

وكان الشريف عبدالله حال دخوله إلىٰ مكّة مع صاحب الترجمة، بعث عرضاً إلى الدولة العليّة العثمانيّة بمساعدة آغاوات عساكر مصر المقيمين بمكّة، بأنّ الشريف مبارك قتل جميع الأتراك، وأرهب عساكرهم، ولا ذبّ عنّا، وما سلّمنا

من القتل إلاّ الشريف عبدالله بن الشريف سعيد، فوصل هذا العرض إلى الدولة، وكان جوابه عزل الشريف مبارك، وتوجيه إمارة مكّة المشرّفة إلى الشريف عبدالله.

فلمّا كان ثاني عشر جمادي الأُولىٰ، وصلت البشائر من المدينة المنوّرة بتوجيه الأمر إليه، وصادفت ما هم فيه من تذريب مع فروغ مدّة صاحب الترجمة.

ولمّا كان يوم السبت خامس عشر جمادي الثانية من سنة (١١٣٦) ألف ومائة وستّ وثلاثين نزل الشريف عبدالله إلىٰ محكمة الشرع الشريف عند حضرة قاضي مكّة المشرّفة السيّد زين العابدين أفندي، وحضر أيضاً السيّد محسن بن عبدالله بن حسين، وحضر أيضاً جميع آغاوات العساكر المصريّة، وأشرفوا على الكتب التي جاءت من المدينة المنوّرة.

فتوقّف حضرة القاضي في عزل الشريف صاحب الترجمة؛ إذ ليس له مسوّغ شرعي يستند إليه، فتغلّب عليه الأتراك مع إلزام السيّد محسن على القاضي بأنّ البلاد قد خربت، والطرقات مقطّعة، والناس قد هلكوا، وأنتم وكلاء حضرة ولي النعم، مع تحقّق هذه توجيه الأمر إليه منه بهذه الأوراق من مثل شيخ الإسلام بالمدينة المنوّرة، فهذه أشياء توجب العزل.

فعزم حضرة القاضي علىٰ ذلك، لكن أظهر خشية وقوع القتال بمكّة المشرّفة، فتعهّد له السيّد محسن المذكور بعدم ذلك، وأنّه لم يقع ما يكدر على المسلمين، غير أنّكم أحضروا الملبوس، ولا تفيضوه على الشريف عبدالله إلاّ إذا دخلت بيت الشريف مبارك، ففعلوا حسب ما أمر، وألبسوا الشريف عبدالله، وأخرجوه من

المحكمة علىٰ جهة[1] سويقة .

والسيّد محسن قد تمكّن من بيت الشريف مبارك، وحذّر عساكره اليمنيّة عن الحركة، وأخبرهم أنّ الشريف عبدالله قد لبس خلعة الشرافة عند قاضي الشرع، وهذا هو قد أقبل، ثمّ صعد للشريف مبارك، فوجده متحرّكاً للقتال، فأرخىٰ كفله عن ذلك، وأخبره بأنّ الأمر قد تمّ، وأنّ الحركة ليست بنافعة .

فلمّا تحقّق ذلك دخل عليه علىٰ عادتهم، وخرج من بيته وتوجّه إلىٰ جهة بركة ماجن، واستتمّ يومه هناك، ثمّ رحل إلى الحسينيّة وأقام بها مدّة، ثمّ توجّه إلى اليمن، وتوعّك مزاجه هناك، ولم يقدّر الله تعالىٰ له عوداً إلىٰ شرافة مكّة المشرّفة، إلىٰ أن توفّي باليمن في سنة (١١٤٠) ألف ومائة وأربعين، رحمه الله تعالىٰ، وحشره مع أجداده الأطهار، فكانت مدّة دولته خمسة أشهر وأيّاماً .

وأعقب من الذكور: السيّد فائز، والسيّد عبدالله، والسيّد حسين، وسعيد، وجسّاس، وماضي .

وكان وزيره في دولته هذه، المقام الأجلّ الأكرم، والمرام المبجّل المعظّم، عبدالقادر بن عمر بن سليم، تولىٰ أمر وزارته الشريفة ثاني يوم دخوله إلىٰ مكّة المشرّفة، ثمّ تقلّبت عليه الأحوال من جهة[2] مخدومه المذكور .

ثمّ عاد إلىٰ منصبه السامي، ولم يزل وزيراً إلىٰ أن عزل مخدومه بالشريف عبدالله، ثمّ خدم حضرته الشريفة، إلاّ أنّه تعب معه مدّة، ثمّ حلّ عليه نظره العالي، ثمّ جهّزه بهديّة سنيّة إلى الأقطار الهنديّة، واستمرّ بها سنة، ثمّ أقبل بأحسن حال،

---

(١) في «ن»: وجهة .

(٢) في «ن»: من قبل .

وأسنىٰ مقال، غير أنّه توعّك في المركب، ولمّا وصل المخا توفّي بها، وضبطت أمواله وأُتي بها إلىٰ حضرة الشريف عبدالله، وله سلسلة سامية، وفتية مكارمهم عامية، ومساعيهم عالية نامية[1].

وفي دولة حضرة هذا الشريف قتل الشيخ الجليل، الموفّق الصالح النبيل، الشيخ محمّد بن سلطان الوليدي[2]، قتله بعض السفلة بسبب ضعيف، لا يحتمل إراقة دمه الشريف، مات ولم يعقب، وانقرض بموته بيته العالي المنيف.

هذا، وقد علمت ممّا سبق تحريره أنّ صاحب الترجمة مبارك بن الشريف أحمد بن الشريف زيد ـ قدّس الله روحه، وأنار بمصابيح الرحمة ضريحه ـ قد عزل عنها بالشريف عبدالله بن الشريف سعيد المتقدّم ذكره، مترجماً تالي ترجمة والده، حيث كان وارث طريف مجده وتالده.

تولية الشريف عبدالله بن الشريف سعيد بن سعد بن زيد الأخيرة

وكان جلوسه خامس عشر شهر جمادي الثانية من سنة ألف ومائة وستّ وثلاثين، وكانت بأمر سلطاني وصل بعد جلوسه بمدّة زهيدة، واستمرّ بها محاسناً لجميع السادة الأشراف، ضابطاً لمكّة المشرّفة وما حولها من الأطراف، ضبطاً يضرب به المثل، وأمره نافذ ممتثل، والكلمة منه ومن السادة كلمة اتّفاق، والعدل شايع في جميع تلك الآفاق.

إلىٰ أن رمى الله بينهم بالعداوة والبغضاء، واستبدلت تلك المؤانسة بحرارة الرمضاء، ومدّت حبال المفاسد عليه، وتوجّهت العزائم بالعزل إليه، وعقدت عقد

---

(١) راجع: خلاصة الكلام ص ١٧٩ ـ ١٨٠.

(٢) في «ن»: الشيخ محمّد الوليدي.

العهد بين الأشراف والأتراك، ورجمته الألسنة بنزال وتراك .

وسبب ذلك العهد والائتلاف: أنّه انكسر عنده مبلغ عظيم من مقرّرات السادة الأشراف، وللأتراك أيضاً دين عظيم، ومبلغ جسيم، والحال أنّه لم يكن عنده ما يفي بذلك، وقد سدّت عليه منافذ التحصيل، وعميت المسالك .

وقد ورد بندر جدّة قبل هذه الحركة بأيّام، أربعة من المراكب الهنديّة التي ترد في كلّ عام، فاستأوىٰ حاصلها، وأوهن جسمها بعد أن أوهىٰ بالأخذ مفاصلها، وادّعىٰ بأنّ وزيره قد بدّد أيضاً ذلك النزر الزهيد، في جهات ضروريّة كما ينطق به دفتره السديد، ولم تزل الدعاوي بينهم لدىٰ قاضي الشرع الشريف ترفع، والنقول عنهم في الأندية تروىٰ وتسمع، وعظم القيل والقال، في أواخر شهر شوّال .

ثمّ آل الأمر بعد صرف تلك المدّة، إلىٰ وقوع القتال بينهم في شهر ذي‌القعدة، وكان ابتداء القتال صبح يوم الخامس والعشرين من شهر ذي‌القعدة من السنة المذكورة، واستمرّ إلىٰ مضي خمس ساعات من النهار، بمكّة المشرّفة حصاراً وأيّ حصار، وهذا القتال اليسير، لم يعهد مثله ولم يرو له نظير؛ لأنّه لمّا وقف الأمر، واشتدّ حرّ ذلك الجمر، وأعيا الوسائط، وتهدّم لشدّة كربه كلّ حائط .

وفي ضمن هذه المدد، قد استمكل كلّ من الفريقين العَدد والعُدد، وريح السادة الأشراف هابّة عليه، غير أنّه سلطان مكّة المشار إليه، وناهيك بقوّته وطوله، وكثرة عساكره وخيله، شرع الرمي بينهما بالرصاص صبيحة ذلك اليوم .

فتحصّن الشريف في بيته دار السعادة، بعد أن فرّق عساكره وأجناده، فيما حوله من البيوت والمنائر، وما ورائه من بيوت بعض السادة الأكابر، وكرّر عليهم الرمي بالمدافع، وإذا نزل أمر الله ليس له من دافع، والسادة الأشراف متحصّنون بدار الرحمة، المعروفة بإنشاء الشريف يحيى بن الشريف بركات، وبعض محلّات

أخر في تلك الجهات.

وأمّا طراد الخيل وعراك الفوارس، فهو عاطل بأسباب الرمي من المتارس.

وأمّا الأتراك المذكورون، فهم في بيوتهم مهجورون، حافظون أيديهم عن الفريقين، كافّون كفّ السوء عن الطريقين، إلاّ أنّهم في آخر الوقت انتجت فيهم لواقح الفساد، فجنحوا إلىٰ معاونة ملك البلاد، وذلك بعد أن عدّ لهم الرشا، مدّوا له الرشا، ورفضوا تلك العهود السابقة، والعقود الكلاميّة المتناسقة، وبهم حصل له النصر، فأخرجهم منكسرين من ذلك القصر، بعد قتل من الفريقين لبعض أشخاص لم يحصل بينهم انتقاص مع ذهاب عدد من أصائل الخيل العراب.

وكان أوّل من أنشأ الحرب وابتدأ بها، والتحق بالبيّنة الصادقة إلىٰ صميم نسبها، وأوقد نارها، وشعشعها وأثارها، كماة السادة الأشراف، والحماة القادة من آل عبدمناف، فعادت برزئها عليهم، وجرت كلاكلها إليهم، فتوجّهوا جميعاً إلىٰ طوىٰ، وعزموا علىٰ تجرّع كؤوس الفرقة والنوىٰ، فأقاموا به ثلاثة أيّام لقضاء مآربهم، ونجاح أغراضهم ومطالبهم.

ووصل إليهم في أثناء ذلك حضرة الشريف لأخذ خواطرهم، سيراً علىٰ سنن آبائهم ومناهجهم، فلم يجد ذلك إلاّ مسيرهم إلىٰ وادي مرّ الظهران، لملاقاة الوزير المعظّم عثمان باشا المعروف بأبي طوق أمير الحاجّ الشامي، وعرض حقائق أحوالهم، علىٰ نظره السامي؛ لأنّه وصل أميراً سنتين، هذه السنة والتي قبلها، ولي فيها الشريف بركات بن يحيىٰ، كما مرّ، فلم ينتج من ذلك الاجتهاد إلاّ العود إلى البلاد، والاقامة بها والانتظار، لحكم القاهر الجبّار[1].

---

(١) راجع: خلاصة الكلام ص ١٨١.

وأمّا حضرة الوزير المذكور، فحين اتّصل بمكّة، واجتمع بسلطانها، وأفهم بما سيصل إلىٰ خزانته العالية من الدراهم وبيانها، حلّ عنده محلّ الوسن من العين، والحبيب الواصل[١] بعد الهجر والبين، وقضىٰ به كلّ مراد له، وبلغ من جميع مطالبه أمله.

فمن جملة ذلك: أنّه ذلّل به فحول السادة الأشراف، حتّىٰ تفرّقوا في سائر الأطراف، وكتب دفتراً ينطوي على العشرة من مشاهراتهم المعروفة، ومقرّراتهم المألوفة، وأمره بوضع الختم عليه، ليرجع في الصرف إليه.

ومن جملة ذلك أيضاً: أنّه اعتقل فاتح بيت الله الحرام، وطوّقه الأدهم، وأشبه عليه الذنب المقتضي لذلك وأوهم، وألزمه بمبلغ خطير سلّمه ودفعه إليه، وحقن دمه، ثمّ وهو في أثناء الاعتقال ومساورة همّه، عزله عن المنصب، ونقله إلىٰ عمّه، وأمره بعد الفكاك بالسكوت، والمداومة علىٰ ملازمة البيوت، فامتثل الأمر ملازماً لداره، إلىٰ أن طلع بدره، من تحت سراره، فعاد إلىٰ منصبه في آخر السنة كما سيأتي.

ومن جملة ذلك أيضاً: أنّه أغار على المقام الأكرم، والهمام الأعظم، الساري ذكره في جميع الآفاق، ورئيس مكّة في أبناء جنسه على الاطلاق، الشيخ سالم بن الفاضل العلاّمة شيخ الحديث الشريف في عصره، وخليفة مسلم في مصره، الشيخ عبدالله البصري، واغتصبه مبلغ[٢] عظيم، بمسوّغ أعجف سقيم، وأفهمه بأنّ الآمر به حضرة الوزير، ومنعه من الوصول إليه، وبثّ الشكوىٰ عليه.

---

(١) في «ن»: المواصل.

(٢) في «د»: مبلغاً.

ولم يزل يكرّر عليه الرسل في إنجاز المبلغ وطلبه، حتّىٰ باع عزيز دبشه[١] وكتبه، وسلّم جميع ذلك المطلب، حيث لا ملجأ ولا مهرب.

ومن جملة ذلك أيضا: أنّه عدي علىٰ رجل من علماء الأروام، ووعّاظ المسجد الحرام، وممّن له بمكّة المشرّفة حلّ وإبرام، عند القضاة الوزراء العظام، ومحطّة[٢] ومكانة، شيّد بهما من صيته أركانه، فلاطفه إلىٰ أن اقتنصه بحبائله، وسنّمه صهوة عادي من أصائله.

ثمّ وجّهه ونفذه إلىٰ ناحية بندر القنفذة، ليعتقل هناك، إلىٰ أن يأذن الله بالفكاك، فعل فيه ذلك خشية من اجتهاده[٣]، في أثناء دخوله علىٰ هؤلاء الأعاظم وتردده؛ لأنّه كان ذا عزم ماضي، تكلّ دونه المواضي، وهمّة تزاحم الأفلاك، وتجذب بقوّتها السماك. وإقدام إذا عرض له غرض، كالسهم المنساب إلى الغرض، ولسان أفحم به المصاقع، وأعيا به البلغاء البواقع، تارة بلغة أبناء جنسه الصريحة، وتارة بالعربيّة الفصيحة، يسير مع مقتضيات الدهر حيثما سارت، ويدور مع الزجاجة كيفما دارت، ويمتزج بالقلوب والأرواح، امتزاج الصهباء بالماء القراح، يدعىٰ بصالح أفندي، وينعت بالواعظ، وصرّح مولانا الشريف، بأنّه ورد بنفيه أمرٌ من الدولة منيف، وهو كان سابقاً من جملة أعضاده، ومن أعظم أنصاره وأجناده، وهكذا كانت صفة الرجيلن الأوّلين معه، قبل أن يشرع قلاع الملك وشرعه، فرجع عليهم في جميع أفعاله، وأذاقهم مرارة نكاله.

---

(١) الدبش: أثاث البيت.

(٢) في «ن»: ومحلّة.

(٣) في «ن»: افساده.

ومن جملة ذلك: أنّه أبرز دفتراً ينطوي علىٰ أسماء التجّار، سكّان مكّة المشرّفة وبندر جدّة والواردين من جميع الأقطار، بتوزيع مال خطير، والموالي لجمعه حضرة الوزير، فسلّم كلّ منهم ظلامته، كالمؤدّي وديعته وأمانته، ورفع يده إلىٰ خالقه، لينظر بعين اللطف إلىٰ خلائقه، ولم يزل كذلك إلىٰ أن توجّه حضرة الوزير من تلك الممالك، إلىٰ حيث المصائب والمهالك، وهكذا فعلت الدولة العثمانيّة فيه حين وصل، وحصل عليه ما حصل، وسيجزي فاعل ما قد فعل.

ومن جملة أفعال هذا الوزير، تشييداً لمباني الرأي والتدبير، وإجابة لالتماس حضرة مولانا الشريف، حيث كان موافقاً لرأيه الثاقب المنيف: أن عزل متولّي بندر جدّة إسماعيل باشا، وأحلّ به من أنواع البلاء ما شاء، وسلبه أثر نعمه، وحاسبه علىٰ إعداد نقمه، وجرّعه كؤوس عذابه ونقمه، وولّي كيخيتة عثمان آغا أيالة بندر جدّة، وكمّله بأنواع المراجل المستعدّة، ليكون عوناً للمشار إليه، علىٰ كلّ ثائر عليه.

واستمرّ سنة (١١٣٧) سبع وثلاثين، وهو تحت أمره، وفي قيده وحجره، ومنع أعيان البلدة عن زيارته، ونهاهم خفية من غير درايته، خوفاً من إخلافه وإفساده، أو إيصال بعض الرسائل إليه من أضداده، ولم يزل معه علىٰ ما أراد، طبق المقصد والمراد، فدفع به عن نفسه أموراً يطول شرحها، فالأصوب تركها وطرحها.

وهذه السنة كانت من أقسى الأعوام، علىٰ سكّان بلد الله الحرام، لما حلّ بهم من مولانا الشريف، من الخسف والذلّ والأخذ العنيف، فتفرّقوا شذر بذر، وهو لا يبقىٰ ولا يذر، إلىٰ أن أراد الله تفريج هذه الشدّة بوصول الوزير المعظّم، والدستور المكرّم، أبي بكر باشا في أواخر ذي القعدة إلىٰ بندر جدّة.

ثمّ وصل إلىٰ مكّة المشرّفة، في حلل الوزارة المفوّفة، وأقام بمكّة واستقرّ،

وفطم مولانا الشريف عن ارتضاع ذلك الدرّ، ونكّبه جادة المهتدين، والخلفاء الراشدين، فدخل شهر ذي الحجّة الحرام، والرعايا في غاية العزّة والاحترام.

خروج الشريف محسن بن عبدالله إلىٰ جهة الشرق:

وفي أواخر شهر رمضان من السنة المذكورة: خرج السيّد الشريف، والسند العالي المنيف، فريد عقد السادة الأشراف، ورئيسهم في الحقيقة بلا خلاف، السيّد محسن بن عبدالله بن حسين المتقدّم ذكره الأشرف الأصعد، في ترجمة الشريف مبارك بن أحمد، ومعه جانب من بني[1] عمّه، وفصيلته التي تؤويه، إلىٰ جهة الشرق ونواحيه، مقاوماً لمولانا الشريف علىٰ عادتهم، وقانون سيادتهم.

وسبب ذلك: أنّه حصل بينهما تنافر واجتناب، بمقتضى الحوادث والأسباب، بعد الخصوصية القويّة والاتّحاد، اللذين تمكّن بهما من سلطنة البلاد؛ لأنّه لم يتسنّم ذروة تخت الملك وسريره إلّا باجتهاد السيّد محسن وتدبيره، كما تقدّم بيانه المسدّد، في كيفيّة عزل الشريف مبارك بن أحمد، فأثار عليه الغارات، وأسمعه ما شقّ عليه من الكلمات، في مجالس عديدة، بخطابات مؤيّدة سديدة؛ لأنّه هو المخاصم له والمنادي، في جميع ما سبق ذكره من الدعاوي، إلىٰ أن رماه بذلك القتال، وكان هو المباشر بنفسه في جميع تلك الأحوال، غير أنّه لمّا أراد الله بقاه، سبّب له أسباب الظفر وأبقاه، فخرج السيّد محسن ثمّ عاد، والأحوال بينهما في غاية الفساد[2].

وفي أثناء هذه السنة أيضاً حرّك عليه حركة أُخرىٰ، وقدح فيها زناد فكره

---

(١) في «ن»: أبناء.

(٢) راجع: خلاصة الكلام ص ١٨٢.

وأورىٰ، وكان القصد عزله بالسيّد الأمجد، الشريف مبارك بن أحمد، فانتبه مسرعاً في تلك المدّة، وعاد من سفرته التي قصد فيها بندر جدّة، واجتمعوا[١] له قريباً من جدّة، وظفروا به أيضاً لولا اختلاف كلمتهم، وتوانيهم في معدّاتهم وصولتهم، مع أنّهم ما انجلوا[٢] في تلك الليلة عن القتال، إلاّ حتّىٰ كتب لهم تمسّكاً بمبلغ من المال.

فلمّا أسفر صباحها، وأضاء بالفرج مصباحها، لحقه عثمان آغا متولّي بندر جدّة، المعمور بجيوشه المنظّمة، واجتمعت لديه عساكره، المخلفون بمكّة المعظّمة، عدل عن تلك المماثلة، وأبرم حبال المحاربة والمقاتلة، وذبّ[٣] عن نفسه وخلافته، ذبّ الأسد عن غابته، وسار إلىٰ وادي مرّ، ومكث به واستمر، وأبرد حرّ ذلك الجمر، ثمّ رجع إلىٰ بلاده، بأنصاره وأجناده.

وكانت هذه الحركة في شهر رجب من السنة المذكورة، وفي هذه القضيّة جمع عليه فيها ثلاثة من ملوك مكّة المشرّفة، والرافلين في حلل الشرافة المفوّهة، وهم: الشريف مبارك بن أحمد، والشريف يحيى بن بركات، وابنه الشريف بركات بن يحيىٰ.

أمّا الشريف مبارك، فمن حين خلعه من المملكة السنيّة، أقام في أطراف الحسينيّة.

وأمّا الشريف يحيىٰ وابنه الشريف بركات، فكانا قد قصدا دولة آل عثمان

---

(١) في «ن»: واجتمع.

(٢) في «ن»: انحلّوا.

(٣) في «ن» في الموضعين: ودبّ.

وتلك الجهات، فوصلا الشام، وأقاما بها أشهراً وأيّام، وقبل أن يتّصلا بأعتابهم، فتكافىء بعض خدّام أبوابهم، فخشيا من نكالهم، وسوء اغتيالهم، ورجعا القهقرىٰ قاصدين أخطاف أُمّ القرىٰ، فأقبلا عليها صائلين، وكتبا إلى السادة الأشراف مماثلين، علىٰ تسليم شهرين كاملين.

فحصل بقدومهما اضطراب تداركه بعض السادة، وفشأ حدّه بآرائه المستجادة، علىٰ أن يقيما بواديها، ويستمطرا روايح أياديه وغواديها، علىٰ شرط مبيّن، ومبلغ معيّن، وكتب بينهم العمّال، علىٰ هذا المنوال، فطنبا بمرّ القباب، ورضيا من الغنيمة بالإياب.

وكان وصولهما في أوائل السنة المذكورة، وقد مرّ ذلك في ترجمتهما، وبعد وصولهما بأربعة أشهر أو أكثر بقليل، وقعت حركة طريق جدّة علىٰ ما سلف من التفصيل.

ثمّ صارت الحركة الثالثة، التي هي أكبر قضيّة وأعظم حادثة، ومبدؤها خروج السيّد محسن بن عبدالله في أواخر شهر رمضان، كما تقدّم ذلك في أوّل الفصل، وهو أنّه بعد خروجه إلىٰ نواحي الشرق وأقطاره، واستنشاقه لروايح شيخ نجد وعراره، استقبلته البوادي، وأولته الأيادي، وتعطّر بذكره كلّ محفل لهم ونادي، وهم ما بين راهب لاجي، وراغب راجي، ومنافق راجي، فتوفّرت منهم رواحله، وكملت مراجله، وصار يتنقّل في مناهله، تنقّل البدر في منازله.

وفي أثناء سيره ومقامه، في تلك القفار والمهامّة، أرسل صاحبه عليه سريّة، قد أحكم تدبيرها بآرائه الوريّة، فصدفته في بعض تلك الأدوية، حيث لا وادّ ولا دية، ووقعت بينهم مناوشة قتال، والحرب كما علمت سجال، ثمّ افترق الحال بينهم على المسالمة، بعد مصادمة ومكالمة.

فمكث بتلك النواحي ما شاء إلىٰ أن بلغه قدوم أبي بكر باشا فأوهم في ممشاه، واتّهم للقياه، وكلّف العيس السرىٰ، حتّىٰ أضرّ بها جذب البُرىٰ، ولا ظهر خبره واستبان، إلاّ بعد وصوله إلىٰ عسفان، فما وجد لأبي بكر إلاّ سماع خبره وذكره؛ لأنّه كان قد أركب إليه من الشرق أحد أولاده، بكتب متضمّنة لاستئذانه واستنجاده، فوافاه بها علىٰ نبط، ثمّ عاد بالجواب طبق المسؤول، من الوعد بالنجدة والإذن بالوصول، وإنّما عاقته عوائق الأسفار، عن السرعة في عوده إلىٰ تلك الأقطار.

فحين ألمّ به شبله[1]، سارت رواحله وإبله، ولا أناخ بموضع وعدّه، إلاّ بعد مروره به وبعده، فاضطربت لديه الأحوال، واختلفت عليه الأقوال، ولم يدر عنه في هذه المدّة، هو قصد مكّة المشرّفة أم بندر جدّة، فقدح زناد فكره وأورىٰ، وصار يقدّم رجلاً ويؤخّر أُخرىٰ، ثمّ عزم وصمّم، علىٰ العود ثانياً، وملاقاة الوزير المعظّم، ذي الفكر الثاقب السامي، إسماعيل باشا ابن المعظّم أمير الحاجّ الشامي، ليشرح لديه حقائق أحواله، ويستنجده علىٰ بلوغ آماله، فلاقاه في بعض تلك المنازل، والسعد حافّ بسامته ونازل، وأمارات النجدة لايحة من أُسرة جبينه، وغيوث الرحمة هاطلة من سحائب يمينه، وظفر منه مولانا السيّد محسن بن عبدالله بن حسين بما يسرّ به الخاطر، وتقرّ به العين.

ولم يزالا سائرين، وعلىٰ جواديهما متباريين، يتحادثان ويتخاطبان، إلىٰ أن وصلا إلىٰ وادي مرّ الظهران، علىٰ أن يلجأ متلبّسين بالاحرام، إلىٰ بلد الله الحرام، ويؤدّيا نسكهما في تلك المشاعر الشريفة، والمآثر السامية المنيفة، ثمّ يرتقبا ماذا

---

(١) في «ن»: شمله.

يصير، ويبنيا عليه الرأي والتدبير.

وأمّا حضرة مولانا الشريف، ذي الظلّ الوريف، فحين بلغه وصول السيّد محسن إلى الوادي، ثبت لديه، إقبال حضرة الوزير عليه، وأنّه أمّله ومنّاه، بأنّه سيبلغه مناه، فقام وقعد، وارتفع وصعد، وأبرق وأرعد، وتخلّف وأوعد، وأرسل إلىٰ أبي‌بكر باشا، وهو مقيم بمكّة المشرّفة، والتمس منه أن يكتب إلىٰ إسماعيل باشا، ويعرّفه بأنّه إن أدخله معه إلى البلاد عظم الفساد، وذهبت العباد.

والشريف كان قد جمع جموعاً من البادية والعربان، وشحن بهم كلّ موضع ومكان، فأرسل إليه ليلة ستّ من ذي‌الحجّة، ومنعه من أن يستصحبه معه، خشية من حدوث الفتنة والاضطراب، وفساد هؤلاء الأعراب، وأن يبقي السيّد محسن في الوادي، إلىٰ أن يقضي نسكه كلّ حافر وبادي، ثمّ نرىٰ في حاله، وسيبلغ إن شاء الله جميع آماله، بهمّتكم العليّة، وآرائكم الجليّة.

فلمّا وصل مرقومه إلىٰ إسماعيل باشا، أوسعه سبّاً وإيحاشاً، حيث خاف وارتعب، وتزلزل وارتهب، ثمّ ألقى الأمر إلىٰ ضيفه، بعد اعتقال رمحه وسيفه، وقال: لك الاختيار في الأمرين، غير أنّ التأخير والبقاء أهون الشرّين.

فلمّا لاح للسيّد محسن منه ما لاح، ورأىٰ منه نعرة خالطها انطراح، قبل منه ما أصدره إليه من الأقوال، والعهود الثقال، وأصحبه أحد أشباله، ليعود إليه بفائدة[١] عهوده وأقواله، وتأخّر هو بالوادي وتلك الجهات.

ثمّ نزل على الشريف يحيى بن بركات، واستمرّ ثمّة ينتظر نتائج تلك الهمّة، ويترقّب في تلك المدّة، حصول الفرج بعد الشدّة، فلمّا ورد صاحبه جال، وأوسع

---

(١) في «ن»: عليه لفائدة.

في هذه المادّة المجال، وأجهد وكلّف، وتقدّم في اجتهاده وما تخلّف .

لكن لمّا كان زمام التفويض والتدبير، والتقديم والتأخير، قد وضعته الدولة العثمانيّة في يد أبي‌بكرهم، لتنفيذ نهيهم وأمرهم، وإقامة قدسهم في الأقطار الحجازيّة، وإحياء ذكرهم، صار الأمر إليه، والمعوّل في ذلك عليه، وليس لإسماعيل باشا غير حماية الحجّاج، في السبل والفجاج، وذاك ذو فكر واسع، وحزم شاسع، وإحجام في الأُمور، وفرار عن كلّ محذور، فتحسّم[1] لديه من هذه الخصال، وقوع الحرب والقتال، ونزول المصائب المدلهمّة علىٰ جميع هذه الأُمّة، إن أهمّ بدخول السيّد محسن، حتّىٰ صار عنده محالاً غير ممكن .

فعرّف إسماعيل صاحبه بما رأىٰ، ورجع عن أقواله ونأىٰ، بعذر أوضح لذوي الأبصار، من الشمس في رابعة النهار، مع وعد له بنجاح آماله، في رجوعه ثانياً واستقباله .

فلمّا اتّضح لسيّد محسن، أنّ بارق صاحبه خلّب، وأنّ الدهر بالناس قلّب، زمزم للرحيل، وأبرم حبلاً آخر سحيل، وعسعس في أمره وعمّاه، وسرىٰ بعد عسعس ليل بظلماه، فما أسفر من ليله العاطس، إلاّ وقد نكب نطقاً وبسابس، ولا حلّ عقدة انتطاقه، وماط الكور عن نياقه، إلاّ بعد أن ألمّ بربوة سنيّة، من وادي الحسينيّة، وهي منزل السيّد الأمجد الأنجد، الشريف مبارك بن أحمد، ودخل عليه على العادة، المألوفة بين هؤلاء السادة، علىٰ أن يؤجّله شريف مكّة أيّاماً معلومة، ثمّ يرحل سالكاً أثره الأوّل ورسومه .

فكتب السيّد الشريف مبارك للشريف وبعث إليه، بخبره بنزول السيّد محسن

---

(١) في «د»: فتجسّم .

عليه، ويعرّفه بالدخول[١] المعتاد، الموروث عن الآباء والأجداد، ويستأجله له مدّة معيّنة، حسبما حدّده وبيّنه، فما تمّ إمضاء الدخل والتأجيل، إلاّ بعد كلام طويل، لما مرّ علىٰ حضرته من توالي إضراره، في أثناء إقامته وإسفاره، لأنّه جرّعه كؤوس الغوائر مراراً، وأذاقه حلاوة ملكه مراراً، وما توقّف قليلاً عن إمضاء الدخل والتأجيل، إلاّ لجزمه بأنّهما يعقبان عليه وبالاً، وينتجان حرباً وقتالاً، لعلمه باجتهادات صاحبه، أنّهما[٢] لابدّ أن تثمر حتّىٰ في أقاربه.

فما حسبه وقع فيه، فلله درّ أبيه؛ لأنّه ما مكث مدّة في تلك الأطراف، حتّىٰ جذب جميع السادة الأشراف، مع تكدّر خواطرهم إلى الغاية، من حضرة الشريف لما وقع عليهم، وساقته المقادير الإلهية إليهم، من إذهابه لنواميسهم وأقداسهم، وإرهابه لروّادهم وجلاّسهم، ونسخه لقوانينهم وقواعدهم، وتتبّعه لهم في مجالسهم ومعاهدهم، ورفعه لجميع أحكامهم، ومنعه لسائر طلقاتهم وأرحامهم، حتّىٰ أجرىٰ عليهم من الأمور، ما لا يسعه المسطور.

فعزموا جميعاً علىٰ مقاومته، مع مراسلة السيّد محسن لهم ومكاتبته، وخرجوا بأسرهم إلى الحسينيّة، إلاّ بعض أشخاص من سلسلتهم السامية السنيّة، وانضمّوا إلى السيّد محسن والشريف مبارك، وصاحب مكّة يجتهد في أخذ خواطرهم، ويتدارك ويبذل في عودهم أمواله، وهم نافرون عنه نفور الظبي من الحبالة، ومذعون[٣] بأنّه صنع بهم كلّ مكيدة، وحشمهم مراراً عديدة.

---

(١) في «ن»: بالدخل.

(٢) في «ن»: أنّها.

(٣) في «ن»: ومدعون.

فألزم نفسه بعد الفحص والاجتهاد، فيما ينقيه من هؤلاء السادة الأمجاد، بقود عدّة من الصافنات الجياد، وصل بها إليهم بنفسه الشريفة، إلىٰ موضع اجتمعوا فيه من محالّهم السامية المنيفة، واستصحب معه بعض أعيان الأروام، من جماعة الوزير المكرّم أبي‌بكر باشا لقصد الاجلال والاكرام.

فقبلوا منه ذلك الاقتياد، وخاطبوه فيماعدا ذلك من المواد، وطلبوا منه مطالب ما أطاقها، ولا أمكنه أن يحلّ نطاقها، فأرادهم بالمقدور، فأبوا إلاّ النفور، بعد قيل وقال، واختلاف عظيم في الأحوال، وأهل مكّة في هذه المدّة في غاية الاضطراب، من العطال ووقوف الأسباب، فأجمع رأيهم على الترحّل إلى الطائف ونواحيه، واستنجاد من بواديه، من أعرابه وبواديه، ثمّ يعودون لقتاله، وحربه ونزاله.

وكان توجّههم لهذا المرام، في أواخر شهر محرّم الحرام، من سنة ألف ومائة وثمان وثلاثين، إلاّ أنّهم قبل عزمهم علىٰ هذه النيّة، ورحيلهم من أرض الحسينيّة، صار بينهم وبين حضرة الوزير أبي‌بكر في أثناء هذه المنابذات والمرافعات[1]، مخاطبات شفاهاً ومكاتبات.

فمن جملتها: ما صدر منهم إليه، علىٰ صفة المحضر[2] المشهود عليه، كما ستقف علىٰ مبانيه، وتطّلع علىٰ تشييد معانيه، وهو:

نسألك اللّهمّ يا من شيّد رواق الإسلام، علىٰ أساطين الحقّ المبين، وأيّد شريعة سيّد الأنام بدوام سلطان سلاطين المسلمين، خلّد الله أيّامه المحبورة، مشرقة

---

(١) في «ن»: والمدافعات.

(٢) في «ن»: صيغة محضر.

إشراق النيّرين، ونشر أعلامه المنصورة، خافقة بخيري الدارين.

ونستوهبك سعادة وريفة الظلال، شريفة الخلال، مديدة البقاء، سعيدة النموّ والارتقاء، لحضرة المقام الأجلّ الأمجد، والمرام المبجّل المؤيّد، ناشر الألوية والأعلام، وشاهر السيوف والأقلام، في مراضي العزيز العلاّم، ذي الرأي الصائب، والفكر الثاقب، وزير الدولة المعظّمة، والمتحلّي بعقود الرئاسة المنظّمة، أخينا أبي‌بكر باشا، لا زال مقامه الأجلّ الأسمى الأسنىٰ، مقرّ الرئاسة العظمىٰ، والأيالة الحسنىٰ.

وبعد: فالمنهي إلى المسامع العليّة، والمعروض على الآراء الجليّة، هو أنّه قد صدر إليكم منّا يا معشر السادة الأشراف، وحماة جيران بيته العتيق، ووفّاده من جميع الأطراف، رسل وأرقام، تتضمّن شرح حقائق أحوالنا وما حلّ ببلد الله الحرام، ومن سلطانها وأتباعه، المشيّدين لمغاني الظلم ورباعه، والهادمين لقصور العدل والاحسان، مع أنّ الآمر بهما هو الذي كلّ يومٍ هو في شأن، والرافضين لأحكام إيتاء ذي القربىٰ، الكافل بسعادة الدارين العاجلة والعقبىٰ.

فقد بسطوا بساط الظلم المدلهمّ، علىٰ سكّان مكّة من يافع وهمّ، واستباحوا أعراض ذوي الأعراض، ونهبوا أموال التجّار بالعنف علىٰ سبيل الدين والاقتراض، ممّا لا يرضى الله عزّوجلّ، ولا رسوله المعظّم المبجّل، ولا ولي أمر هذه الأقطار، وغيرها من الأمصار، أيّد الله دولته، وقرن بالظفر صولته، وقد صدر إليكم منّا ذلك، قبل وصولكم إلىٰ بندر ينبع وتلك الممالك.

ثمّ لم يزل يتكرّر منّا إليكم، ويعرض تفصيله عليكم، ثمّ وصلتم ورأيتموه عياناً، وسمعتموه من الثقات شفاهاً وبياناً، ووالله الذي لا ربّ غيره، ولا يعبد سواه، بارىء النسمة، وفالق الحبّة، لولا أن تداركَ الله تعالىٰ جيران بيته الحرام، وتجّار

بندر جدّة من اليمنيين والمصريين والأروام، بوصولكم الشريف، ونـزولكم فـي جوار هذا البيت المنيف، لما ترك على ظهرها من دابّة، ولأذاقهم مرّ الجور وصابة .

ثمّ من شهر ذيالحجّة إلى الآن، لولا موالاتكـم بـحسب الطـاقة والامكـان، للصدقات القمحية والنقدية، المقرّرة في الدفاتر السلطانيّة، لجيران هـذه البـنية وإيصالهم إليهم، حتّىٰ تكاملت لديهم، لما وصلهم منها إلاّ القدر الحقير، والجـزء اليسير .

وأمّا نحن معاشر السادة النمويّة، الداعين بدوام الدولة العليّة، والحافظين لزمام أيالة أقطار الحجاز، والناهضين بأعباء سلطنتها عـلى الحـقيقة لا المـجاز، مـنذ خمسمائة عام وكسور، كما هو مرقوم في الكتب التاريخيّة ومسطور .

وأمّا مداخيلها البرّية والبحرية، والسرّية والجهرية، فيتناولها شيخهم المعظّم، المتقلّد لعقد ولايتها المنظّم، ويقوم منها أوده بالاقتصاد، مع نهاية الرشد في تقليل العساكر والأجناد، بمقدار ما يحتاج إليه لنظام منصبه، وقوام مأربه، ويسلّم لجميع السادة الأشراف، الحاضر منهم والنائي إلىٰ بعض الأطراف، سائر[1] مـقرّراتـهم المعروفة، ومشاهراتهم المألوفـة، المـرصودة المـرقومة، فـي الدفـاتر القـديمة المعلومة، منها ما هو شهري التسليم، ومنها ما هو مؤجّل ينطق به الرقيم، وذلك غير ما يدفعه بيده إذا عرض ما يوجبه، أو تعرّض له من يطلبه، غير محاسنات جمّة، هذا إذا كان ذا مروءة وهمّة .

وأمّا هذا الرجل وحالنا معه، فحال صلمعة بن قلمعة، وضع يده علىٰ مدخول

---

(١) في «ن»: جميع .

بلادنا، واحتوىٰ علىٰ طريقنا وتلادنا[١]، من حين جلوسه في هذا المنصب، وحلوله في هذا المربع المخصب، وهو يجمع الأموال ويكنزها، ويحفظها ويحرزها، ولا يصرف منها شيئاً إلاّ علىٰ ملاهيه، وتنفيذ أوامره ونواهيه، واستكثر من الخدّام والعساكر، واتّخذهم أعضاداً له في جميع الموارد والمصادر، ورسم علائفهم علىٰ تجّار بندر جدّة، في جميع هذه المدّة، وأبناء عمّه السادة الأخيار، في غاية الفاقة والاضطرار، لم يصلهم من حقوقهم المقرّرة، ولا الواحد من العشرة، مع ارتكابه لأُمور شنيعة، دالّة على الاذهاب والقطيعة.

ونحن بحمد الله تعالىٰ، ولطفه الذي لم يزل يتوالىٰ، ممّن ينكر المنكر بجنانه، ويده ولسانه، ولا توقفنا عن مقاتلته ورفعه، وإخراجه ودفعه، إلاّ اتّقاء مخالفة السلطان، حيث كان منصوبه في ذلك الأوان[٢]، فصبرنا بناءً علىٰ وصول مثل حضرة الوزير، ذي الرأي والتدبير، ونُنهي إليه ما صار، علينا وعلىٰ أهل هذه الأقطار، من الحوادث الملمّة، والمصائب المدلهمّة، رجاء حلول نظره العالي، علىٰ كل مخلص وموالي.

فكيف يا عزيزنا ينتصرون المسلمون على الكفّار؟ أم كيف تقام شريعة النبي المختار؟ أم كيف تثبت قواعد الإسلام؟ أم كيف تتأطّد دولة سلطان الأنام؟ وكيف ترجى الرحمة من الله عزّوجلّ، والغفران للأُمّة قبل انقضاء الأجل؟

ونحن أبناء رسول الله وبضعته مظلومون، مظهودون مطرودون، عن بلادهم، وعيالهم وأولادهم، فهل يرضى الله ذلك؟ أو ولي أمر هذه الممالك؟ أم حضرة

---

(١) في «ن»: وبلادنا.

(٢) في «ن»: الزمان.

الوزير المكرّم؟ أم قاضي الشرع الشريف المعظّم؟ فنحن وهؤلاء المسلمون، نلتزم بأذيالكم يوم لا ينفع مال ولا بنون، يوم تذهل كلّ مرضعة عمّا أرضعت وتضع كلّ ذات حملٍ حملها .

فالآن يا عزيزنا قد حصحص الحقّ، واعتلت الربىٰ، وتعدّى الحزام البطين وجاوز السيل الربىٰ، فإن نظرتم بعين الرحمة والعدل والانصاف، إلىٰ لمّ شعث السادة الأشراف، وإبدال الظلم بالأمان، لرعايا حضرة مولانا السلطان، كما أنّه متعيّن عليكم، إذا أنهيٰ إليكم .

ولأجل ذلك بعثتكم الدولة العثمانيّة، لا زالت محروسة بالأسرار الربّانية، وبيدكم الشريفة، أوامرهم العالية المنيفة، بالتفويض في أحوال الحجاز من التقديم والتأخير، والرفع والوضع، وقمع المظالم والأخذ بيد المظلوم، وإجراء الأحكام الشرعيّة، وإيفاء كلّ ذي حقّ حقّه، فيطلب منكم جميع ذلك .

ونحن قد أنهينا إليكم سابقاً، ونخاطبكم الآن لاحقاً، بما لحقنا من صاحبنا كما أوضحناه لديكم، وندّعيه إلىٰ شريعة محمّد بن عبدالله ﷺ بين يديكم، ثمّ تسمعون منّا كلّ حقيقة، ونبيّن لكم مسلكه وطريقه، ونرجو منكم أن تأخذوا لنا الحقّ، وتهينوا من نكل وعقّ، ثمّ نقوم بحربه وقتاله، إذا لم يرجع عن سيّيء أفعاله.

إنّما نلتمس من تلك الحضرة السامية الغرّاء، إلزامه بالخروج إلى الصحراء، لأنّنا لا نستحسن القتال والصدام، في أكناف البيت الحرام، فإذا ظفرنا الله عليه، بتوجّه هممنا العالية إليه، ودفعناه عن هذه البلاد، وأرحنا منه العباد، فأمر المتولّي إليكم، وإقامته مقصورة عليكم، ونظركم أجلا، ورأيكم أعلا .

وعزّزه الشريف مبارك بكتاب من جنابه، دلّ على اعتنائه بأمر أحزابه، وهو :
إنّ أحسن ما تتهاداه الأعاظم الأمجاد، وتنفث به الأقلام بين الأكارم الأنجاد،

سلام سني الأنوار، حسني الإيراد والاصدار، بصحبة الدعاء الجزيل الصافي، ويحفّه الثناء الجميل الوافي، إلىٰ حضرة عين الأعيان، وغرّة وجه الزمان، الوزير المعتمد، والمشير المسدّد، المشار إليه أعلاه، أيّده سعده ومجده وعلاه، ولا زال ملحوظاً بعين العناية، ومحفوظاً في حسن الوقاية .

وبعد: حمد الله علىٰ جزيل إحسانه، وجميل برّه وامتنانه، فالواجب لإصدار الكتاب، إلىٰ حضرة عالي الجناب، تجديد مباني الوداد والاخلاص، المسبوكين بالمحبّة سبك الخلاص، لا زال[1] سالكين سبيل التوفيق، مؤيّدين بعون الله في إصلاح جيران بيت الله العتيق .

ثم المنهي إلىٰ حضرة الوزير المعظّم، والدستور المكرّم، ما أصاب سكّان بلد الله الحرام، ورعايا سلطان الإسلام، من الخوف والجوع ونقص من الأموال، والأنفس والثمرات، الواقعة عليهم من الشريف عبدالله بأسبابه المؤثّرات، وهم أهل الله وعياله، كما ورد في الأحاديث النبوية، والملازمون على الصلوات في أكناف هذه البنية، العابدون ربّ هذا البيت، الحامدون للسلطنة العليّة، في استعمالها عليهم أهل البيت .

ثمّ ما أصاب السادة الأشراف من قطعه لحقوقهم، ونسخه لأقداسهم، حتّىٰ صاروا من بعض الأطراف، وهم أبناء عمّه وشركاؤه في المحصول، وعلىٰ هذا كانت الولاة معهم في الأُصول، وقد أنهوا إليكم جميع ما صار، وعلىٰ سائر أعيان دولتنا حتّىٰ شاع في جميع الأقطار، راجين إقامة الحقّ بينهم وبين صاحبهم لدىٰ قاضي الشرع الشريف، ومن التمس الوجه الشرعي لا يقابل بالتوجيه والتسويف .

---

(١) في «د»: لا زالا .

فمعلوم حضرة أخينا أيّده الله احتفال الدولة العليّة، بالشرعيات في جميع الأُمور، وبها تجري أحكامهم السيفيّة على الآمر والمأمور .

فلمّا لم يجدوا الشكواهم سامع، ولا لشتاتهم جامع، عزموا علىٰ أن يرتحلوا من هذه البلاد، ويتركوا العيال والأولاد، ويبذلوا نفائس الأرواح، ويقاتلوا صاحبهم إلىٰ أن يأذن الله بالنجاح .

وقد وصلوا بجملتهم إلينا، ونزلوا بطوائفهم علينا، فلم يكن لنا بدّ ولا عدول، عن أن نساويهم ونعينهم بالروح والمال المبذول، فقد وجبت معاونتهم علىٰ كلّ مسلم ينطق بالشهادة، ويرجو شفاعة جدّهم ذي الشرف والسيادة، وقد صممنا جميعاً علىٰ مقارشته[١]، وارتكاب كلّ مشقّة في محاربته، غير أنّه لا يكون هذا منّا إلاّ بعد إنهاء الأمر إليكم، وعرض حقيقة كلّ حال عليكم، والتماس الوجه الشرعي بيننا وبينه لديكم، وقد صدر إليكم من السادة الأشراف بجملتهم عرض عليه خطوطهم وختومهم، ينطوي علىٰ ما لا مفرّ منه، ولا مهرب عنه .

وأنت يا عزيزنا وزير حضرة مولانا السلطان، وعينه الناظرة في هذه البلاد، وإصلاح ما حدث فيها من الفساد، فأيّ فساد أعظم من هذا الأثر العظيم، والخطب الجسيم؟ فلابدّ من تداركه بما يرضّي الله عزّوجلّ، ويرضّي حضرة الدولة العليّة من إقامة الوجه الشرعي، وتنفيذ حكمه القطعي، فنحن الآن ضامنون الخلل في الطرقات، إلىٰ أن يشملوهم بنظركم العالي من جميع الجهات، ويصلنا جوابكم الثاني، وخطابكم الكامل الوافي، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

فورد هذان الكتابان عليه، ورفعا في ساعة واحدة إليه، صحبة السيّدين

---

(١) قرش قرشاً الشيء: جمعه من هنا ومن هنا، وضمّ بعضه الىٰ بعض .

الشريفين، والسندين المنيفين، السيّد زين العابدين بن إبراهيم، والسيّد عون بن محسن، دخلا عليه نهاراً، وخرجا بالأجوبة جهاراً، ثمّ صارت بعدها مجالس عديدة، ومحاورات طويلة مديدة، لم ينتج منها إلاّ حفظ خاطره، وتقييد أجناده وعساكره، عن معاونة صاحبهم عليهم، إذا خرج للمقاتلة إليهم.

ثمّ توجّهوا إلى الطائف في اليوم السابع والعشرين من شهر محرّم الحرام افتتاح سنة ثمان وثلاثين ومائة وألف، كما تقدّم تنضيده، وتأطّد بناؤه وتشييده.

ثمّ لمّا قاربوا الطائف وشارفوا، تشاوروا وتخالفوا، في أنّ وروده وحفظ شعابه، والتحصّن بمبانيه وهضابه، أوثق للعرىٰ، أم تركه وقصد غيره من تلك القرىٰ، فتغلّب أهل الرأي الثاني، وكان الأصوب تملّك تلك الهضاب والمباني.

فما تمّ يومهم ذاك وثانيه، إلاّ وصاحبهم قد حلّ بالطائف ومثانيه، فاستقام طالعه، وسعدت مطالعه، واستتبّت أقدامه، وقوي عزمه وأقوامه، مع أنّه كان حال سيره، قد اختبطت[١] قوائم تخت ملكه وسريره، خشية من أن يدخلوا الطائف، ويتمكّنوا من ذلك الحصن النائف، فتنقاد لهم جميع العربان، لأنّه بندرهم من قديم الأزمان، وإليه تجلب بضائعهم، وله منوطة أغراضهم ومنافعهم.

ولم يزل يقيم يوماً ويسير، إلىٰ أن وافاه البشير، بأنّهم قد نكبوا الطائف ورىٰ، واختاروا غيره من القرىٰ، فجدّ في وخده[٢]، بعد أن غمر بشيره برفده، ولا أظهر أُنسه وانبساطه، حتّىٰ وطأ بساطه، ثمّ تركه خلافه، بعد أن ضبط جوانبه وأطرافه، وشرع يتابعهم في تلك الأراضي والبقاع، ويعاملهم بالمكريات في جميع

---

(١) في «د»: اختط.

(٢) في «ن»: وجده.

الأوضاع .

وكلّما رحلوا من موضع نزل فيه وأباحه، وجرع أهله كؤوس العقاب وقداحه، وإن رحلوا من الموضع الآخر نزله، وجدّد لقطّانه عمله، وإن أقاموا أقام، ولم يثر للحرب قتام، لا يثب[1] عليهم، ولا ينبذ بسوء إليهم، بل يعاملهم بالمتابعة والمصابرة، وهو في أشدّ ما يكون من المحاذرة .

وفي جميع ذلك الحلّ والارتحال، لا يفارق سفوح الجبال، بحيث لا يكون للخيل مجال، خوفاً من ركوبهم[2] إليه، ووثوبهم عليه، لأنّهم أكثر منه خيلاً، وهو أكثر منهم نفراً، وأعظم قوّة وأشدّ ضرراً، وذلك لإيساره بالزاد والنقود، مع الحظّ المسعف والطالع المسعود، لا تضرّه المصابرة ولو طالت، ولا استمرار الاقامة ولو أحالت، وموالينا السادة الأشراف، راضون في أيّام راحتهم من الرزق بدون الكفاف، فما بالك بأيّام الجلاء، والتغرّب والقلاء .

ولم يزل معهم على هذه الحال، مع تردّد رسائله على كبارهم بعرض الصلح والاتّصال، وصرم حبال الفرقة والانفصال، بما تطيب به النفوس، من بذل المبالغ العظيمة من النقد المأنوس، بكتاب مشهود، وأجل محدود، فأجمع رأيهم على قبول ذلك المدفوع، وتغيير هذا الموضوع، لأنّهم قد محّضوا[3] في حالهم الفكر، وقلّبوه بطناً وظهر، فأشمّوا من عواقبه روايح الظفر، ولأشاموا لبارقه الخلب مطر، مع توقّف الأسباب، وعدم مساعفة الأعراب، وطول مصابرة صاحبهم، وإحجابه

---

(١) في «ن»: يثبت .

(٢) في «ن»: ركونهم .

(٣) في «ن»: أمحضوا .

عن الوثوب عليهم ومحاربهم، وقلّة الدراهم والزاد، وإن امتنعوا عن الصلح اشتدّ بهم الحال وزاد .

فقبلوا وأقبلوا عليه بناهضهم وحريضهم، وجاؤوا بأقصىٰ وضيضهم ونضيضهم، ووفدوا عليه بالطائف، المحفوف باللطائف، فتساقطوا الغبون، وفرح بصلحهم المسلمون، وساروا معه إلىٰ أن دخل بهم مكّة المعظّمة، متحلّياً بعقود السيادة المنظّمة، وكان دخلوهم في الليلة الثانية عشر من شهر ربيع الأوّل من سنة ألف ومائة وثمان وثلاثين، وكانت مدّة غيبتهم خمسة وأربعين يوماً .

وهذه القضيّة من أكبر الوقائع عليه، وأعظمها مشقّة وتعباً، ولا ظنّ أحد من العقال، أن تكون خاتمتها علىٰ هذا المنوال، إلاّ أنّه بعد أن ورد، واعتلا تخت ملكه واقتعد، استبدل شكر هذه النعمة بالعقاب العنيف، لبعض قطّان هذا البلد المنيف، من رؤساء الأنام، ومشايخ الإسلام، وخدّام المسجد الحرام، بسعاية من بعض أتباعه، ومحبّيه وأشياعه .

فلمّا بلغ حضرة الوزير أبيبكر ذلك طاش مرقمه، واهتمش مخزّمه، وبعث إليه بكلام، شمّ منه روايح الكلام، واستبان من نسج غزله، أوّل الأمر إلىٰ عزله، إذا لم يعد عن حاله، ويصلح عاقبة مآله، فأراد حضرة الشريف تلافيه، وأن يصل إليه معتذراً ويوافيه، فمنعه عن الوصول إلىٰ داره، وسماع تنصّله واعتذاره، فتوسّل بقاضي الشرع الشريف، في أخذ خاطره العالي المنيف، وأن يقف بعدها علىٰ حدّ لا يتعدّاه، ولا تصل إليه يداه .

وفي ضمن هذه المدّة، مشىٰ إلىٰ بندر جدّة، بعد أن أبقىٰ له بمكّة عيون، يرفعون إليه ما سيحدث منه وما يكون .

وفي أثناء هذا الغضب عليه والانحراف، شرع يكاتب زعيم السادة الأشراف،

وهو مولانا السيّد محسن المشار إليه، بعد وصوله إلىٰ مكّة المشرّفة، مصالحاً لاعتماده عليه، فصار يرفع إليه الوقائع، وينهي ما أصاب السادة الأشراف من الشنائع، ولم تزل الحال علىٰ هذه الكيفيّة، والمكاتبة من الطرفين متوالية خفيّة، إلىٰ أن اتّضح الأمر وظهر، وبان واشتهر.

وهو أنّه لمّا كانت الليلة السادسة والعشرون من شهر ربيع الثاني من العام المذكور، مشى السيّد محسن بن عبدالله وجماعة من كبار السادة إلىٰ بندر جدّة المعمور، خفية عن شريف مكّة صاحب الترجمة، فما عطس أنف صباحها، وأضاء نور مصباحها، إلاّ وليس لذواتهم الشريفة، في منازلهم السامية المنيفة، إلاّ آثار ورسوم، وخادم بلا مخدوم.

فوردوا بندر جدّة، وألقوا بها العصىٰ بعد أن صرموا حبال الشدّة، فتلقّاهم صاحب الأيالة، بنهاية العزّة والجلالة، وأبرز لهم قباباً ببرّه، وعمّهم بإحسانه وبرّه.

ويقال: إنّها كانت منه بإشارة، بعد مراسلات واستشارة، عزم فيها علىٰ رفع صاحبه عن ولايته، ودفع ضرره بمحو آيته، إنّما اختلفت عليه بعد وصولهم الآراء، فعدل عن عزمه الأوّل وتوارىٰ، وجعل ثمرة وصولهم استنضاض محصولهم، فعادوا بعد التعب والأين، بخفي حنين، إلاّ أنّه أرسل صحبتهم حرونه، يسهّل لهم وعارة صاحبهم وحزونه.

ولقد كانوا في غنىً عن تسهيله، بعد زخرفة أقواله بأباطيله، وإن كانت هذه الهزمرة أثّرت نيل بعض مآربهم، وهبوب ريحهم بالمتنمّر علىٰ صاحبهم، في قضاء أُمورهم المتعلّقة بهم ومطالبهم، حتّى استبغث بعد استنصاره، وأمسك بعد توغّله في

شعاب التغطرش[١] وانحداره، إلاّ أنّه بعد أيّام عادت منه تلك الأحوال، مع ارتفاع تلك المصائب والأهوال، فصفت من الأكدار مشاربه، ودبّت إلىٰ معانديه بالاقتضاء عقاربه .

وأمّا عطاياه للسادة، فهي كقزع السحاب، والرذاذ بعد الاجتذاب، يعطي تارة ويمنع مراراً، ويوسّعهم جزراً واستكباراً، لا يرقّ لذي حاجة، ولا يمنح من برّه محتاجة، ولم يزل علىٰ هذه الحال، متحلّياً بهذه الخصال، إلىٰ دخول شهر ذيالحجّة الحرام ختام سنة ألف ومائة وثمان وثلاثين، وهو مستمرّ علىٰ حاله، مستقيم في جميع اُموره وأحواله .

فصل
في الحوادث الواقعة في دولته

ولنرجع إلىٰ ذكر وفيات بعض الأعيان، تغمّدهم الله بالرحمة والرضوان، الدارجين في أيّام دولة صاحب الترجمة، لا زالت غيوث الغفران عليهم منسجدة، إلىٰ ختام السنة المذكورة، ثمّ نعود بعد لتتمّة ما بقي إن حصل ما يوجب ذلك، والله الموفّق في جميع المسالك .

وفاة السيّد حسن الغرب :

وفي غرّة شعبان من سنة ألف ومائة وستّ وثلاثين: توفّي السيّد الجليل الأصيل، الصالح التقي، السيّد حسن الغرب، وأعقب ولداً يسمّىٰ السيّد عبدالواحد.

وكان هذا السيّد من كبار السادة بيت الغرب ومن صلحائهم، مكث في آخر عمره بمكّة المشرّفة، ثمّ كفّ بصره بها، واستمرّ كذلك إلىٰ أن توفّي بها في التاريخ

---

(١) غطرش الليل بصره: أظلم عليه .

المذكور.

وفاة الشيخ عبّاس القطبي:

وفيه: توفّي الشيخ الصالح المعتبر، الشيخ عبّاس بن الشيخ ...[1] القطبي، وهو من بيت جليل فاخر، وفتية جمعوا أشتات المناقب والمفاخر.

وفاة الشريف حامد بن محمّد الحسني:

وفي خامس عشر ذي‌القعدة من السنة المذكورة: توفّي السيّد الشريف الأمجد، والسند المنيف الأنجد، السيّد حامد بن محمّد بن يعلىٰ، أخو الشريف عبدالكريم المتقدّم ذكره.

وكان هذا الشريف ذا عزم شديد، ورأي سديد، ومقام جليل، ومظهر جميل، وهدىً لذويه، وقذاً في عين مناويه، مع حلم ورزانة، وصيانة وديانة، فرحمه الله تعالىٰ، وأمطر عليه سحائب غفران توالىٰ، وأعقب من الأولاد ...[2].

وفاة السيّد حسن بن زين العابدين الصحرا:

وفي اليوم المذكور: توفّي السيّد الأجلّ الأفضل، السيّد حسن بن السيّد زين‌العابدين الصحرا، المتقدّم ذكر وفاته في سنة إحدىٰ وثلاثين ومائة وألف.

وكان هذا السيّد حسن جدّ في طلب العلوم، وتتلمذ لأئمّة المنطوق والمفهوم، من العلماء الأعلام، وفضلاء بلد الله الحرام، فأحرز من العلوم النصيب الأوفر، وتضوّع بين أقرانه بمسك الفضل الأذفر.

---

(١) بياض في النسختين.

(٢) بياض في النسختين.

وفاة الشيخ محمّد بن أبي‌بكر العرابي :

وفي سادس ذي‌الحجّة من السنة المذكورة: توفّي الشيخ الأجلّ الأصلح الأتقىٰ، الأفضل الأورع الأنقىٰ، الشيخ محمّد بن أبي‌بكر العرابي .

وكان هذا الشيخ فريد عقد هذه السلسلة السامية، ونتيجة هذه الشنشنة القرشية النامية، وكانت وفاته بأرض الطائف، ودفن بمقبرتهم المعروفة. وأعقب من الذكور ولداً سميّ جدّه، لا زال مستخدماً لعظيم سعده، ووافر جدّه .

وفاة قاضي مكّة المشرفة :

وفي موسم هذه السنة: عرضت الوفاة لقاضي مكّة المشرّفة في أثناء الطريق، فصدر إلتماس من طرف محافظ الشام أمير الحاج الشريف عثمان باشا المتقدّم ذكره إلى الدولة العليّة العثمانيّة، بإرسال قاضٍ آخر، بعد التعريف بوفاة القاضي الأوّل، فاحتاج الحال إلىٰ إقامة قاضٍ يقوم بمصالح المسلمين بمكّة المشرّفة، إلىٰ أن يصل قاضٍ جديد من طرف الدولة .

تفويض قضاء مكّة للمفتي عبدالقادر :

فأجمع رأي حضرة الوزير المذكور وشريف مكّة المكرّمة وأعيان الدولة علىٰ وضع شيخ الإسلام، ببلد الله الحرام، المفتي عبدالقادر بن أبي‌بكر، مفتي السادة الحنفيّة بمكّة المشرّفة البهيّة، إذ كان أجلّ من يصلح لهذه المكانة، علماً وعقلاً وأمانة وديانة .

فصدر الأمر العالي من الوزير المعظّم، ومثله من حضرة الشريف المبجّل المكرّم، ينطقان بتفويض أمر القضاء إليه استقلالاً، وأُلبس خلعة سنيّة تسمو إلىٰ مثلها الهمم العليّة، فباشر الأحكام الشرعيّة، وأقام الشريعة المحمّديّة، احتساباً لوجه الله تعالىٰ، ولم يأخذ من أحد شيئاً، ولا علىٰ طريق الهديّة، فهرع كلّ مظلوم

إليه، ونشر ظلامته بين يديه[١].

ولم يزل يقيم الحقّ، ويهين من ظلم وعقّ، واستمرّ علىٰ هذه الحالة الرضيّة، والطريقة المرضيّة، إلىٰ أواخر محرّم الحرام افتتاح سنة سبع وثلاثين، فوصل إلى البلد قاضيه، وجرّد به بواتره ومواضيه. وكانت أيّامه من فرص الدهر، ولمعة من أيّام عمر بن عبدالعزيز، فأرّخ قضاءه هذا أُدباء مكّة المشرّفة وفضلاؤها.

ومن جملة من أرّخه سيّدنا الوالد زيد فضله، بقصيدة امتدحه بها، وهي:

سعد القضاء بحكم ربٍّ قادرٍ — بقضاء ربّ الفضل عبدالقادر

حكم المهيمن باعتدال زمانه — شرعا فقلّد خير عدلٍ ماهر

الله أعطى القوس باريها وأجـ — ـرىٰ في مجاريها سيول مواطر

جمع القضاء ومنصب الافتاء في — وافي الشروط بفيض علمٍ باهر

إلىٰ أن قال بعد أن أطال في مديحه المجال:

وأتاك في التاريخ بيت عامرٍ — بالحسن في حكم الأديب الماهر

الشـرع دال فزده في تاريخه — شرع الهدىٰ أحكام عبدالقادر

وأرّخ قضاءه هذا غير واحد، إلاّ أنّي لم أر فيها أحسن من تاريخ الفاضل الشيخ عبدالله بن الشيخ عبدالكريم الخليفتي المدني، ذيّل به قصيدة في المديح، ومطلعها:

محكمة الشرع أضاء نورها — من بعد أن أظلمها الباطل

ومنها:

الحبر عبدالقادر المرتضىٰ — العالم العلاّمة الفاضل

مفتي بلاد الله أمّ القرىٰ — خطيبها مصقعها الكامل

---

(١) في «ن»: ظلامته لديه.

فقد أتى التاريخ مع حسنه ... في بيت شعرٍ نظمه كامل
قد قلّد الحكم بأُمّ القرىٰ ... رئيسها وهو بها عادل

وما أحسب أنّ شخصاً جمع بين القضاء والافتاء، كافلاً بهما بمكّة المشرّفة إلاّ هذا الشيخ.

وفاة السيّد ظافر بن محمّد بن خيرات:

وفي سنة سبع وثلاثين ومائة وألف: توفّي السيّد الأشرف، والملاذ الأظلّ الأشفق الأرأف، فخر العصابة العلويّة، ونبراس الفتية النمويّة، مولانا وسيّدنا السيّد ظافر بن محمّد بن خيرات.

وكان هذا الشريف، ذو الظلّ الوريف، درياق الملسوع، ومأمن الخائف المروع، ومأوى البائس الفقير، وركن اللائذ المستجير، لا يعشق من الأمور، إلاّ ما تعلّق بقوادم النسور، بهمّة تزاحم الأفلاك، ويقصر عن كنه مداها الادراك، وعزم باتر يسبق قضاء البواتر، وفكر سبّاح، ورائد يفرق ويؤلّف بين الرياح، وبأس ثابت وبسالة، نهل بهما نمير العزّ وسلسالة، مع كرم مغدق هطّال، طوّق به أعناق الرجال، وتحلّىٰ بالأدب الغضّ، والفضل المتدفّق البضّ.

وكان مجلسه الشريف العالي، بحراً يستخرج منه الدرّ واللآلي، لم تتعطّل معاطاة كؤوس الأدب فيه، مع ما يتساقط من جواهر الفوائد من فيه، ولم يزل معتكفاً علىٰ كتب الأدب وعلومه، حالاً بها عقد منثوره ومنظومه، رافلاً في حلل الافتخار، شايعاً صيته في جميع الأقطار.

ولم يبرح في نضارة العيش وابتهاجه، إلىٰ أن مني بتوعّك عرض لمزاجه، تولّد منه حادث أضرّ، بشريف ذلك النظر، فلازم داره، وهجر روّاده وزوّاره، واستمرّ علىٰ هذه الكيفيّة، إلىٰ أن اختطفته يد المنيّة، في ثالث محرّم الحرام من السنة

المذكورة، فطوي سجل فضائله المنثورة .

وله شعر يضاهي ببلاغته شعر الصابي، من البحر المسمّىٰ بالحرابي، وحمينيات حسنة، ونثريات مستحسنة، غير أنّها لم تلف عندي حال الجمع، وإلاّ لأوردت لك منها ما ينعّش الهمّة وينبّه السمع .

وكانت ولادته سماعاً منه سنة ثمانين بعد الألف، وأعقب من الأولاد: السيّد محمّد أدرج بعده صغيراً، والسيّد سعداً وهو أصغر أولاده، توفّي محمّد وهو ابن ثلاث، نسأل الله تعالىٰ أن لا يقطع له نسلاً، وأن يجعل سعداً مأوى للفضل وأهلاً .

فصل

تحقيق لطيف حول شعر الحرابي

قد يقال: كيف ساغ لهذا المؤلّف وصف هذا الشعر الحرابي بالبلاغة؟ مع كونه يوجد فيه اللحن والألفاظ الغير الفصيحة ؟

قلنا: قد حقّق الإمام العلاّمة ابن خلدون في مقدّمته لتاريخه العبر كلاماً لم يسبق إليه في هذا الشأن، ولا حام حوله إنسٌ ولا جان .

قال: إعلم أنّ اللغة في المتعارف هي عبارة المتكلّم عن قصوده، وتلك العبارة فعل لساني، فلابدّ أن تصير متقرّرة في العضو الفاعل في اللسان، وهو في كلّ أُمّة بحسب اصطلاحاتهم، وكانت الملكة الحاصلة من ذلك للعرب أحسن الملكات، وأوضحها إبانة عن المقاصد؛ لدلالة غير الألفاظ فيها علىٰ كثير من المعاني، مثل الحركات التي تعين الفاعل من المفعول من المجرور، أعني: المضاف، ومثل الحروف التي تفضي بالأفعال، أي: الحركات إلى الذوات، من غير تكليف ألفاظ أُخرىٰ، وليس يوجد ذلك إلاّ في لغة العرب .

وأمّا غيرها من اللغات، فكلّ معنىً أو حال لابدّ له من ألفاظ تخصّه، ولذلك

تجد كلام العجم في مخاطاتهم أطول. وهذا معنىٰ قوله ﷺ: «أُوتيت جوامع الكلم، واختصر لي الكلام اختصاراً».

إلىٰ أن قال: والملكات لا تجعل إلاّ بتكرار، فيزيد التكرار حتّىٰ تكون الصفة التي تحصل بتكرارها للنفس ملكةً، أي: صفة راسخة، فالمتكّم من العرب الآن بالنسبة إلىٰ لسانهم العرفي، وإن لم يكن هو لسان مضر الصريح، يسمع كلام أهل جيله وأساليبهم في مخاطباتهم، وكيفيّة تعبيرهم عن مقاصدهم، فيلقنها كما يسمع الصبي استعمال المفردات فيلقنها.

ثمّ لا يزال يتجدّد ويتكرّر حتّىٰ يصير ذلك ملكة راسخة، وهكذا كانت الحال في اللسان المضري، وترسخ فيه مثل هذا سواء بسواء، وجودة العبارة من المعنى المراد وقصورها بحسب تمام الملكة ونقصانها، وليس ذلك بالنظر إلى المفردات، وإنّما هو بالنظر إلى التركيب.

فإذا حصلت الملكة التامّة في تركيب الألفاظ المفردة للتعبير بها عن المعاني المقصودة، ومراعاة التأليف الذي يطيق الكلام علىٰ مقتضى الحال، بلغ حينئذ المتكلّم الغاية من إفادة مقصوده السامع، وهذا هو معنى البلاغة.

ثمّ قال بعد أن قرّر ما نقلنا خلاصته: وما زالت هذه البلاغة ديدن العرب ومذهبهم إلىٰ هذا العهد، ولا تلتفتنّ إلىٰ خرفشة النحاة أهل الأعراب، القاصرين عن التحقيق، حيث يزعمون أنّ البلاغة في العصر قد ذهبت، وأنّ اللسان العربي قد فسد، اعتباراً بما وقع في أواخر الكلم من فساد الأعراب، ونحن نجد اليوم الكثير من الألفاظ العربيّة لم تزل عن موضوعاتها وأساليب الكلام، وقوّته من النظم والنثر، موجود في مخاطباتهم، وفيهم الخطيب المصقع في محافلهم، والشاعر

المفلق علىٰ أساليب لغتهم، والطبع السليم والذوق الصحيح شاهدان بذلك[١]. إنتهىٰ.

قال سيّدنا الوالد ـ قدّس الله روحه ـ بعد نقله لهذا الكلام في تصنيفه المسمّىٰ بـ«ثواقب العلوم السنيّة في مناقب الفهوم الحسنيّة»[٢]: قد أثبت ابن خلدون كما ترىٰ لهذا اللسان العربي الموجود الآن بين الأعراب البوادي والعرب المستحضرين بلاغة وبراعة وجودة، وجعله في هذه الأوصاف علىٰ مراتب في العلوّ والانحطاط، وأثبت أنّ في أهله الخطيب المصقع، والشاعر المفلق، كما في اللسان المضري الجاري علىٰ قوانين العلوم العربيّة سواء بسواء، لا يختلف عنه إلاّ في الحركات الاعرابيّة.

وأمّا مفردات الألفاظ، فقد ذكر أنّ أكثرها باقٍ على الموضوع، والبعض قد تغيّر، فحصلت فيه ألفاظ مولدة، وألفاظ دخيلة في الكلام العربي، وليست من اللسان

---

(١) تاريخ ابن خلدون ١: ٦٤٤ ـ ٦٤٩ طبع دار الكتب العلمية بيروت.

(٢) ذكره المؤلّف في ترجمة والده في هذا الكتاب، قال: وثواقب العلوم السنيّة في مناقب الفهوم الحسنيّة، وموضوعه بيان تعريف الملكات اللسانيّة المضريّة، وكيفيّة تحصيلها مع حلّ لكثير من الأبيات الشعريّة، وذكر مفاهيم لبعض ملوك مكّة المشرّفة صادفت الصواب، وهو كتاب مفيد جدّاً، خدم به حضرة مولانا السيّد الشريف ناصر ابن أحمد الحارث رحمه الله تعالىٰ.

وقال في الذريعة (٥: ١٩): ذكره ولده السيّد رضيالدين في إجازته للسيّد نصرالله الشهيد الحائري المكتوبة في سنة (١١٥٥) وقال: إنّه فيه بيان تعريف الملكات اللسانيّة المضريّة، وكيفيّة تحصيلها، وحلّ كثير من الأشعار والخطب المغلقة، نفيس كثير الفائدة.

المضري في شيء.

وقد صنّف في بيانها الشهاب الخفاجي كتاباً سمّاه شفاء الغليل في المولد والدخيل[(١)]، وقد تمادىٰ ابن خلدون في هذا المسلك الذي حقّقه وبيّنه، حتّىٰ أنّه أورد أشعاراً كثيرة للعرب في زمانه هي بعينها الشعر المسمّىٰ فى عصرنا وما قبله بالحرابي، وأثبت لتلك الأشعار البلاغة.

واقتصر علىٰ تفسير البلاغة بمطابقة الكلام لمقتضى الحال، ولم يلتفت إلىٰ مخالفة كلام العرب المتأخّرين عن اللسان المضري، وأشعارهم التي نقلها للقوانين النحويّة والصرفيّة، وبعض مفرداتها للموضوعات اللغويّة، ولا ريب أنّ هذا الاصطلاح مخالف لاصطلاح علماء المعاني والبيان، ولا مشاحّة في الاصطلاح، حتّىٰ أنّه قال: ولعلّنا لو اعتنينا بهذا اللسان العربي لهذا العهد، نعتاض عن الحركات الإعرابيّة التي فسدت فيه، فتكون لها قوانين تخصّها، ولعلّها تكون في أواخره علىٰ غير المنهاج الأوّل في لغة مضر، فليست اللغات وملكاتها مجّاناً.

وممّا أورده من الأشعار التي هي الفنّ المسمّىٰ في أعصارنا بـ«الحرابي» بعينه، قول بعضهم في الأمثال الحكميّة:

وطلبك الممنوع منك سفاهةً ... وصدّك عمّن صدّ عنك صواب

لياريث ناساً أغلقوا عنك بابهم ... ظهور المطايا يفتح الله باب

ولقد أصاب في جميع ما ذكره، وحقّق ما لم يسبق إليه فيما حرّره، فإنّ ملكة هذا اللسان العربي، وارتفاع مراتبه في الاجادة وحسن البيان والافادة مع تفاوت أنواعه في الارتفاع ووجود المطابقة لمقتضى الحال، وإيفاء كمال المعنىٰ حقّه

---

(١) ذكره في إيضاح المكنون ٥: ٤٣.

الذي هو معنى البلاغة، كلّ ذلك موجود في العرب، لم يفقد منهم ولا بعد منحاه عنهم.

وقوله «فنحن نجد اليوم الكثير من ألفاظ العرب» الخ، فقد صدق في ذلك وحقّق، ما لم يسبق إليه هذه المسالك، ونحن نجد اليوم من هذا الأمر مثل ما وجد في عصره من العرب، فإنّا نرىٰ من موالينا السادة الأشراف ملوك مكّة المشرّفة، ومن ضارعهم من هذا النسب القرشي الهاشمي، إذا ساعده علىٰ بقاء المنزع العربي، سلامة الوطن والمنشأ والمرجا والقوم والعشيرة، من استيلاء العجمة والمنازع الحضرية، الركيكة في محاوراتهم ومخاطباتهم بياناً بارعاً، وبلاغة فائقة، وملكة تامّة في إبراز الكلام مطابقاً لمقتضى الحال.

ولا فرق عند القائل في كلام ذوي التمييز والنباهة منهم بينهم وبين بلغاء مضر، ومصاقع خطبائها، ومغلقي شعرائها، ولا يرتاب الواقف علىٰ كلامهم بالملكة، والذوق البياني أنّ ما يصدر عنهم هو من البيان الذي ورد فيه الحديث الشريف «إنّ من البيان لسحراً»(١).

إنتهىٰ كلام هذين الفحلين المحقّقين، والنطاسيين المدقّقين، فلقد أحرزا من التحقيق أمد التحصيل، حيث أوضحا مرامهما بالذوق الصحيح، والقول الفصل، وأجاد المتأخّر منهما في قوله «إنّا نرىٰ» والتزم من الأدلّة الناهضة بأوثق العرىٰ.

ونحن أيضاًنقول كما قال فيمن رأيناه، وشاهدناه منهم وسمعناه، فوالسماء ذات الرجع، والأرض ذات الصدع، إنّه لقول فصل، وما هو بالهزل، ومن حضر مجالسهم الشريفة، ومحافلهم السامية المنيفة، المستعدّة لأمر مهمّ، أو حادث ملمّ،

---

(١) كنز العمّال ٣: ٥٧٩.

وسمع مخاطباتهم في ذلك المجال، عرف حقيقة قولهم البلاغة مطابقة الكلام لمقتضى الحال، وقضىٰ بما شهد به الفحلان، وقال: لا قرية وراء عبّادان[1].

مع ما يشوّقك عند سماعه، من سلامته وحسن ابتدائه، وما ينطوي عليه من ألفاظ مستعذبة، وأمثال منتخبة، محكم البناء والتسديد، خالياً من التنافر والتعقيد، فكأنّه المياه في مجاريها، والقوس بيد باريها، وفي أشعارهم الحرابيّة فوق ذلك من البلاغة، وحسن السبك والصياغة، ولا غرو فهم سادات قريش الذين هم أفصح العرب، وأجود الناطقين بما هو أحلىٰ من الضرب.

تذييل وتكميل

تحقيق لطيف حول كلام العرب ومحاوراتهم

قال الإمام السيوطي في كتابه الموضوع في أُصول النحو[2]: وأمّا كلام العرب فيحتجّ منه بما ثبت عن الفصحاء الموثوق بعربيتهم.

قال أبونصر الفارابي في أوّل كتابه المسمّىٰ بالألفاظ والحروف: وكانت قريش أجود العرب انتقاداً للأفصح من الألفاظ، وأسهلها عند النطق وأحسنها مسموعاً، وأوضحها إبانة عمّا في النفس.

إلىٰ أن قال: وهم الذين نقلت العربيّة منهم، وبهم اقتدي وعنهم أُخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب، وهم قيس وتميم وأسد، فإنّ هؤلاء أخذ عنهم الغريب من اللغة وفي الاعراب والتصريف، ثمّ هذيل وبعض كنانة، وبعض الطائيين، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم.

---

(١) عبّادان بلدة كبيرة في ايران في جنوب خوزستان.

(٢) وهو غير كتابه شرح ألفية ابن مالك المسمّىٰ بالبهجة المرضيّة في النحو.

وبالجملة لم يؤخذ عن حضري قطّ، ولا من سكّان البراري ممّن كان يسكن أطراف بلادهم التي تجاور سائر الأُمم الذين حولهم، فإنّه لم يؤخذ عن لخم ولا من جذام، فإنّهم كانوا مجاورين لأهل مصر والقبط، ولا من قضاعة ولا من غسّان ولا من أياد؛ لأنّهم كانوا مجاورين لأهل الشام، وأكثرهم نصارىٰ يقرؤون في صلاتهم بغير العربيّة.

ولا من تغلب ولا من النمر، فإنّهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونانيّة، ولا من بكر لأنّهم كانوا سكّان البحرين مخالطين للهند والفرس، ولا من أزد عمّان لمخالطتهم الهند والفرس، ولا من أهل اليمن أصلاً؛ لمخالطتهم الهند والحبشة، ولولادة الحبشة فيهم، ولا من بني حنيفة وسكّان اليمامة ولا من ثقيف وسكّان الطائف؛ لمخالطتهم تجّارهم الأُمم المقيمين عندهم، ولا من حاضرة الحجاز؛ لأنّ الذين نقلوا صادفوهم حين ابتدأوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم وفسدت ألسنتهم.

والذي نقل اللغة عن هؤلاء وأثبتها في كتاب وصيّرها علماً وصناعة، هم أهل الكوفة والبصرة فقط من بين أمصار العرب، وكانت صنائع هؤلاء التي يعيشون بها الرعاية والصيد واللصوصية، وكانوا أقوى العرب نفوساً، وأقساهم قلوباً، وأشدّهم حميّة، وأحبّهم لأن يَغلبوا ولا يُغلبون، وأعسرهم انقياداً للملوك، وأجفاهم أخلاقاً، وأقلّهم احتمالاً للضيم والذلّة. إنتهىٰ كلام الفارابي.

والقصد من هذه النقول المفيدة، الجواب عمّا لعلّه يتوهّم من الاعتراض، وفي ضمن ذلك حصلت فوائد جمّة، وإثارات مهمّة، ولولا خوف التطويل والخروج عمّا نحن بصدده، لأملينا من هذه الفوائد فصولاً مفيدة، وأُصولاً سديدة.

ولنرجع إلىٰ ما نحن فيه:

وفاة السيّد محمّد بن أحمد الحسني النموي:

وفي هذه السنة: توفّي السيّد الشريف، والسند العالي المنيف، خدين الصلات الجسيمة، والهبات الشاملة العميمة، السيّد محمّد بن أحمد بن حسين بن عبدالله بن حسن بن أبي‌نمي رحمه الله تعالىٰ.

وكان هذا السيّد الجليل الأكبر، والهمام النبيل الأفخر، درّة تاج ذوي الشرف والسيادة، وغرّة جبهة أرباب الصلاح والعبادة، مع كرم وفاق، انعقد علىٰ تفرّده به الاتّفاق، وعزم وشجاعة، شيّد بهما مغاني غرّه ورباعه.

فتىً علّمته نفسه وجدوده ... قراع الأعادي وابتذال الرغائب

إلىٰ دماثة أخلاق وشيم، كالروض المخضلّ غبّ[1] الديم، ومخالطة لبني الأداب، ومحادثة يستفيد منها ذوو الألباب، ناهز عمره السبعين، وهو لا يرد إلاّ ماء العزّ المعين. توفّي ﷺ بالطائف في السنة المذكورة، وأعقب من الذكور: السيّد مبارك، والسيّد غيث، والسيّد عبدالكريم، والسيّد عبدالمطّلب، والسيّد بركات، والسيّد أحمد، وفّقهم الله للعمل الأحمد.

وفاة الشيخ محمّد شمس الرومي:

وفي ثاني عشري محرّم الحرام من السنة المذكورة: توفّي الشيخ الأجلّ الأصلح الأفضل، الشيخ محمّد بن أحمد بن محمّد بن أحمد شمس الرومي.

أخذ الحديث عن شيخ الحديث بمكّة المشرّفة، ورئيس المحدّثين، الشيخ عبدالله بن سالم البصري، سمع منه الكتب الستّة وموطّأ الإمام مالك، وبعض المواهب اللدنّية، وبعض إحياء علوم الدين، وأجازه بجميع مروياته، وأخذ النحو

---

(١) في «د»: عقب.

والفلك والحساب والفرائض والعروض عن العلاّمة الشيخ أحمد القطّان، وأخذ الفقه عن الشيخ صالح الزنجاني، وعن العلاّمة الشيخ حسن العجيمي، وعن مفتي مكّة المشرّفة عبدالله أفندي عتاقي زاده، وأخذ بقيّة العلوم عن مشايخ أجلّة.

وله رسائل مفيدة في العلوم العربيّة[١]، وله مصنّف كلّه منظوم يناهز الأربعمائة البيت، سمّاه نتيجة المعقول في كلّ عدد مجهول، وله إجازة في سماع قراءة الفاتحة بينه وبين النبي صلى الله عليه وآله أربعة رجال، سمعها منه عدّة مشايخ.

وكان مشتغلاً بالصلاة والتسبيح، يتلو في كلّ يوم من الصلاة خمسة آلاف، ولا يحقد على مسلم أبداً، وكانت ولادته ليلة النصف من شعبان سنة ألف وثنتين وسبعين.

وفاة الشيخ محمّد بن تاج الدين المالكلي :

وفي ثامن جمادي الآخرة من السنة المذكورة: توفّي الشيخ الجليل الفاضل النبيل، الشيخ محمّد ابن العالم العلاّمة الشيخ تاج الدين المالكي، وكانت ولادته سنة أربع وسبعين وألف.

وفاة الشيخ محمّد الأسدي المدرّس :

وفي ثاني عشر شعبان من السنة المذكورة: توفّي الشيخ الصالح فريد دهره، وأفقه السادة الشافعيّة بمكّة المشرّفة في عصره، الشيخ محمّد الأسدي المدرّس بالمسجد الشريف المكّي، وكان هذا الشيخ من أجلّ العلماء الأعلام، القاطنين ببلد الله الحرام، وأفضلهم تقىً وديانة، وأعظمهم زهداً وأمانة.

---

(١) في «ن»: الغريبة.

وفاة الشيخ يحيى بن عوض باقشير :

وفي سادس عشر ذي الحجّة الحرام انتهاء السنة المذكورة: توفّي الشيخ التقي الورع الأديب، الشيخ يحيى بن الشيخ عوض بن محمّد باقشير، وهو بقيّة فتية أجلّة، قد طلعوا في سماء الأدب أهلّة، ترجم أفراداً منهم صاحب سلافة العصر، مع أنّ كلّ واحد منهم بقيّة دهر، ودمية قصر.

ومن جملة من ترجم منهم جدّ هذا الشيخ المتوفّى، وهو الشيخ محمّد بن سعيد باقشير، فقال[١]: أديب بارع، وشاعر له في مناهل الأدب مشارع، نظم فأجاد، وأرزم سحاب نظمه فجاد، فعلت رتبته في التقريض وسمت، وافترت ثغور محاسنه وابتسمت، إلى أن قال: ومن شعره:

كيف التخلّص من بعث الملاح وقد ... تبادرت لقتالي أعين سحرة
تغزو لواحظها في العاشقين كما ... تغزوا سيوف بني عثمان في الكفرة

ومن شعره في زيّات بديع الجمال، وقد أجاد في التورية ما شاء:

أفديه زيّاتاً رنا وانثنى ... كالبدر كالشاذن كالسمهري
أحسن ما يبصر بدر الدجا ... يلعب بالميزان والمشتري

ومن شعره في مليح اسمه قاسم:

يا من أبى إلاّ الجفا قسمةً ... للصبّ آهٍ من جفا[٢] الراحم
ما الوصل كالهجر ولكنّها ... ظلامةٌ جار بها قاسم[٣]

---

(١) أي: قال صاحب سلافة العصر.

(٢) في «ن»: جنا.

(٣) سلافة العصر في محاسن الشعراء بكلّ عصر ص ٢١٨ ـ ٢٢٧.

وأورد له في السلافة غير ذلك من الشعر الرائق، وهو جدّ هذا الشيخ المتوفىٰ .

وفاة القاضي إسماعيل بن عيسى المرشدي :

وفي سنة ثمان وثلاثين ومائة وألف: توفّي صاحبنا الأمجد، الأنجد الأوحد، القاضي إسماعيل ابن القاضي عيسى المرشدي، وكان ذا أخلاق حسنة، وصفات مستحسنة، وهمم سامية عليّة، وكمالات وافرة جليّة، توفّي في ثالث محرّم الحرام افتتاح السنة المذكورة .

وفاة الشيخ عبدالقادر الصديقي :

وفي ثامن عشر الشهر المذكور: توفّي شيخ الإسلام، ومرجع الخاصّ والعامّ، ببلد الله الحرام، الشيخ عبدالقادر بن أبي بكر الصديقي الحنفي، مفتي مكّة المشرّفة وقاضيها، وقد مرّ بيان توليته للقضاء .

وكان هذا الشيخ الجليل، والعالم الفاضل النبيل، معهد الفضائل الجليّة، ومعقد خناصر أرباب الهمم العليّة، وبحر العلم الزاخر، والمبرز على الأوائل والأواخر، فسطع في سماء الفضل نوره، وتفتّق في حدائقه زهره ونوره، فأضحىٰ وهو إمام الفضائل، ومنتهىٰ مدى السائل، وعلم الافادة بمكّة على الاطلاق، ومعلّم الوفادة من جميع الآفاق .

وأمّا الأدب، فروضه الممطور، وحديقته الغاصّة بأفانين الزهور، مع بلاغة قسّية وبراعة، أفحم بها مصانع أرباب هذه الصناعة، نشأ في كفالة أبيه، واشتغل مع طلاّب العلم ومكتسبيه، وصرف غرر أيّامه ولياليه، في تحصيل جواهره ولآليه، فما مضىٰ عليه من الزمان مدّة، إلاّ وقد نال فيها أكمل عدّة، فغدا بمكّة المشرّفة مجلي حلبة الفهوم، ومحلي أجياد الجهابذة بعقود نتائج المنطوق والمفهوم، فألّف وصنّف، وملأ الأسماع بفرائد فوائده وشنف .

فمن تصانيفه المفيدة، وتآليفه السديدة: قطع الجدال بتحقيق مسألة الاستبدال، وتحقيق البيان في حكم صرف رمضان، ومراجعة بعض الأعلام فيما كتب لترجيح قول النظّام، وتنبيه إخوان[1] الصفا علىٰ صحّة توكيل الكفيل بأن يعقد مع الديون بيع الوفا، والافادة لحكم من لم يصلّ وقد أدّى الشهادة، ومنهل الواردين علىٰ قوله تعالىٰ ﴿ثلّة من الأوّلين ❁ وقليل من الآخرين﴾[2] والقول الأجلىٰ علىٰ «وأمّا عن هوىٰ ليلي».

والأجوبة المهمّة لما سئل عنه معاوية وغيره، وأجاب عنه علي عليه السلام وحبر الأُمّة، والجواب المسدّد علىٰ أسألة الجمالي محمّد، وفتح الخلاق في جمع فرق الفسخ والطلاق، وتحبير التحرير في أحكام العتق والتدبير، والعجّ والثجّ في شرائط الحجّ، وإلجام من ليس له بالفهم إلمام عن القدح في فتوىٰ ذلك الإمام، وكتاب الردّ الواضح والردع الفاضح لما كتبه بلا شعور وإلمام علىٰ كتابنا الإلجام، وما عليه المعوّل في أحكام المحكم والمأوّل.

والفتاوي الفقهيّة في ثلاثة مجلّدات، والتذكرة الفقهيّة في مجلّد، والتذكرة المنثورة في مجلّد، والتذكرة الأدبيّة في مجلّد.

وأمّا مشايخه العظام، فيربون على الستّين من العلماء الأعلام.

تنبيه:

تقدّم في عنوان ترجمة هذه نسبته إلى الصديق، وهو أبوبكر الصديق[3]، وذلك

---

(١) في «د»: إخوة.

(٢) سورة الواقعة: ١٣ ـ ١٤.

(٣) وهذا اللقب من الألقاب الخاصّة للإمام أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام.

لاتّصاله بهذا النسب من جهة الأُمّهات، وهو أنّ والدة والده المعظّمة هنيّة بنت الشيخ أبي‌بكر بن سليمان بن محمّدطاهر بن الشيخ طاهر بن علي بن إلياس بن داود بن عبدالملك بن يونس بن عمر بن عبدالله بن حسين بن سعيد بن قاسم بن نصر بن قاسم بن محمّد بن عبدالله بن عبدالرحمٰن بن قاسم بن محمّد بن عبدالرحمٰن بن أبي‌بكر الصديق.

وأُمّ والدته الطاهرة الشريفة محرمة بنت السيّد حافظ بن السيّد محمود بن السيّد حافظ البخاري الحسيني. وأُمّ الشريفة محرمة الشريفة العمظّمة جبرة[١] بنت المرحوم السيّد محمّدعلي بن السيّد جلال الدين بن السيّد محمّد البخاري الحسيني خطيب المدينة المنوّرة. فهذا بيان سلسلة الاتّصال المذكور، وله مؤلّف في ذلك سمّاه إثبات الحكم بالنصوص الدالّة على الشرف من الأُمّ، والله أعلم.

وكانت ولادته سنة إحدىٰ وثمانين وألف. ووفاته ليلة الأربعاء ثامن عشر محرّم الحرام من السنة المذكورة.

رثاه جماعة من الأُدباء، منهم سيّدنا الوالد دام فضله مع تاريخ عام وفاته،

ـه حيث سمّاه الرسول الأعظم بالصدّيق في عدّة روايات واردة عن طريق العامّة، وحيث غصبوا منصبه السامية، فغصبوا بالتبع أيضاً ألقابه الرفيعة.

روى محبّ الدين الطبري في ذخائر العقبىٰ ص ٥٦، عن أبي‌ذرّ الغفاري، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول لعلي: أنت الصدّيق الأكبر، وأنت الفاروق الذي يفرق بين الحقّ والباطل، وأنت يعسوب الدين. ورواه أيضاً في الرياض النضرة ٢: ١٥٥، وراجع: إحقاق الحقّ ٤: ٢٧ ـ ٣٥.

(١) في «ن»: خيرة.

فقال :

قضت المحبّة من حكيمٍ قادر ... سكنى الجنان لروح عبدالقادر
مفتي الأنام خليفة النعمان في ... علمٍ وفي تقوىٰ وطهر سرائر
استأثر الباري به لجواره ... عن أهل ذي الدنيا كرامة باهر
فغدوا وللأحزان فيهم صولةٌ ... هي في القلوب كصولةٍ ببواتر
كلٌّ يرىٰ كلّ المصائب فقده ... ويطيل مبكاه بدمعٍ هامر
فقدوا عماد الدين ركن علومه ... فتوىً وتدريساً وسطر محابر
فقدوا قيام الحقّ لا يخشىٰ به ... في الله لومة لائمٍ أو نافر
فقدوا نظام الحقّ في قولٍ وفي ... فعلٍ وفي ودٍّ ورعي معاشر
فقدوا التواضع والبشاشة والرضا ... والحلم والستر الجميل لعاثر
فلأهل طاعات الإلٰه كرامةٌ ... منه وللعاصي مواعظ زاجر
فقدوا فنون مكارم الأخلاق مع ... كلّ الأنام ووارد أو صادر
فقدته أصناف الورىٰ وفقدته ... وحدي فكسري ما له من جابر
كان الصديق لي الشفيق وعزّه ... عزّي وكان علىٰ زماني ناصري
ودٌّ تطاول عهده ما زاده ... مرّ السنين سوىٰ كريم مظاهر
فالنفس هالكةٌ عليه حسرةً ... لولا رجائي في الإلٰه الغافر
عوضاً بنيه أنالهم ربّ الورىٰ ... علياه في سعدٍ وودٍّ عامر
لاسيما يحيىٰ به يحيي لنا ... إذ كان يخلفه وقرّة ناظر
إنّ الهلال إذا رأيت نموّه ... أيقنت أن سيصير بدر دياجر
هو سرّ والده علاً وفضيلةً ... ومكانةً تسمو بسعدٍ وافر
يحوي مآثره وحسن سلوكه ... ويروعه في كلّ خلقٍ زاهر

وله مـــناصبه بـــجدٍّ مســـعدٍ   مـــن منصب الافـتاء وقـرع مـنابر
إن كـــان هـــذا العـقد فـارق جـيده   مـــن بـــعد تـــقليدٍ بـــحكمة قـــادر
فالجيد قـد يـخلو مـدىً مـن عـقده   وإليــــه حـــتم مآله المـــتواتـــر
والله يســـــعده ويســــعد صـــنوه   أعـــني عـــلياً ذا الكـمال البـــاهر
وتراهـما عـضدين فـي حـوز العـلا   خـلفاً عـن الأصـل الكـريم الطـاهر
والله يـــنزله مـــنازل رحـــمةٍ   ورضـــاً ومـثوىً فـي النـعيم الغـامر
فـــي رتـــبة الشـــهداء حـــلّ لأنّـــه   بـــالعلم فـــي أعـــلىٰ مـقامٍ فـاخر
فـــلذا أتـىٰ تـاريخ(١) عـام وفـاته   من وصفهم فـي الذكـر أصغ لذاكـر
أرّخــه حـــيٌّ أدخـــل الجـــنّات لا   زيـــد عـــلىٰ هـــذا المـقال الحـاصر
ثـــمّ الصـــلاة عـــلى النـــبي وآله   والصحب تـترىٰ كـالسحاب المـاطر

وله ـ رحمه الله تعالىٰ ـ مؤرّخاً عام وفاته:

إنّ عبدالقادر اشتملت   رحمة الرحمٰن مرقده
عـــام مثواه يـؤرّخه   هو بـالجنّات أخـلده

وللأديب وجيه الدين عبدالرحمٰن بن علي بن سليم راثياً ومـؤرّخاً بـقصيدة مطلعها:

مصابٌ دهىٰ من زمانٍ غدا(٢)   فـــهدّ مـن الفـضل مـا شـيّدا

إلىٰ أن قال:

وإن رمت تاريخ عامٍ مضىٰ   به يا خـليلي وقـيت الردا

---

(١) في «ن»: التاريخ.

(٢) في «ن»: عدا.

فزد واحداً في بناه تجد　　　مؤرّخه غاب نجم الهدا

وقد رثاه غير واحد، ولولا خوف الإطالة لأوردنا لك جانباً من ذلك، وما أوردناه كافٍ لما أردناه.

وقد اجتمع في هذا الشيخ الجليل من الوظائف الدينيّة المكّية، والمناصب الشريفة الحرميّة، ما لم يتّفق اجتماعه في شخص من قبله. وهذا من أعظم الدلائل علىٰ علوّ قدره ونبله، كمنصب الافتاء الحنفي من قبل الدولة العثمانيّة، وتدريس مدرسة أعظم ملوك آل عثمان السلطان سليمان خان، ودرس السلطان أحمد خان في المقام الحنفي بالمسجد الحرام.

وتدريس مولد السيّدة فاطمة الزهراء صلوات الله عليها، وخطبة مسجد نمرة، وإمامة مسجد مزدلفة، والدعاء بجبلها، وجميع الأمراء السلطانيّة، والمحامل العثمانيّة، وشريف مكّة البهيّة واقفون بين يديه، كقاضي مكّة المشرّفة، حال دعائه علىٰ جبل عرفات، وخطبة المسجد الحرام، وإمامة شريف ذلك المقام، وكتابة الانشاء الحسني.

ونظارة الصرور السلطانيّة، قائماً مقام شريف الأقطار الحجازيّة، وقضاء بابرناس من أعمال مصر المحروسة من طرف الدولة العثمانيّة. ثمّ قضا مكّة المشرّفة أصالة في سنة سبع وثلاثين ومائة وألف، كما قد مرّ آنفاً.

واجتمع في والده أيضاً من المناصب العليّة مشيخة الحرم الشريف المكّي، ونيابته، وكتابة الحرم الشريف، كلّ هذا من قبل الدولة العثمانيّة، لا زالت محروسة بالأسرار الربّانيّة، والنظر العام علىٰ مصالح الأنام من قبل شريف مكّة الشريف سعد بن الشريف زيد رحمه الله تعالىٰ.

قال الشيخ الجليل العالم العلاّمة بدرالدين حسن بن علي العجيمي المتقدّم ذكر

وفاته، لمّا رأىٰ اجتماع هذه المناصب السامية في يد الشيخ ووالده: لقد اجتمع في هذا البيت من المناصب الشريفة، والوظائف المنيفة، ما لم يجتمع في بيت من بيوت ذوي ظهيرة .

وفاة السيّد عنان بن جازان الحسني النموي :

وفي عشري محرّم الحرام المذكور: توفّي السيّد الأجلّ الأعظم، والسند الأكرم الأفخم، مولانا السيّد عنان بن السيّد جازان بن السيّد قايتباي بن الشريف الحسن ابن أبي‌نمي رحمه الله تعالىٰ .

وكان من أكابر السادة آل حسن، وممّن رقي هام المعالي بخلقه الحسن، مع طباع عربيّة حسنيّة، وشجاعة وكرم هما أشهر من نار علىٰ علم. توفّي ولم يعقب إلا ولداً واحداً، وهو السيّد الأمجد، والسند الأنجد، السيّد حوذان بن السيّد عنان، صحبناه فوجدناه أشرف خلف فاخر، وأفضل جامع للتليد والطارف من المفاخر، وفّقه الله تعالىٰ لأن يكون طبق مفاد البيت المنقول .

إذا سيّدٌ منهم خلا قام سيّد   قؤولٌ بما قال الكرام فعول

وفاة الشيخ عبدالله باشيخ الحضرمي :

وفي صفر الخير من السنة المذكورة: توفّي الشيخ الصالح التقي الورع الفاضل، الشيخ عبدالله باشيخ الحضرمي، جَدَّ هذا الشيخ في طلب العلم بمكّة المشرّفة، فأحرز منه النصيب الأوفر، ولازم رئيس المحدّثين الشيخ عبدالله بن الشيخ سالم البصري المتقدّم ذكر وفاته، وقرأ عليه كتب الحديث، وكان في خدمته إلىٰ أن توفّي الشيخ عبدالله، ثمّ استمرّ في خدمة ابنه الشيخ سالم المترجم في تلو ترجمة أبيه، إلىٰ أن توفّي في التاريخ المذكور .

قتل السيّد عبدالكريم البرزنجي :

وفي ثامن شهر ربيع الأوّل من السنة المذكورة: قتل السيّد الجليل، السيّد الأصيل، عبدالكريم بن محمّد البرزنجي، ولقتله نقل غريب .

وهو أنّ سببه ما مرّ في فصل حوادث أيالة الشريف مبارك بن أحمد من المقاتلة الواقعة بين أهل المدينة المنوّرة وآغاوات الحرم الشريف النبوي، وما صار بين أهل المدينة من المعاهدة والمرابطة على الآغاوات وأتباعهم .

وكان هذا السيّد ممّن وضع يده في هذه المادّة، ونجله الأمجد الأفضل السيّد حسن، وأعيان أهل المدينة المنوّرة، فوقع منهم ذلك الأمر الغير المحمود، الذي ألجأتهم إليه العصبيّة من بعضهم لبعض، حتّىٰ زاد عن الحدّ، واستحقّوا التأديب، فعرض ذلك كلّه على الدولة العليّة العثمانيّة من طرف الآغاوات، مع ذكر أسماء المباشرين لذلك، فصدر الأمر الشريف العثماني بقتل بعض أشخاص ونفي آخرين .

فكان السيّد المذكور من جملة المأمور بقتلهم، وكذلك ولده المذكور، إلاّ أنّ ولده قد فرّ قبل ذلك إلىٰ جهة مصر وتلك النواحي وبقي والده، فصعب قبضه بالمدينة المنوّرة، فحسّن له بعض أعدائه الخروج من المدينة إلىٰ مكّة المشرّفة والإقامة بها، فلمّا وصل إلىٰ مكّة قبضه الوزير المكرّم، والدستور المعظّم، أبوبكر باشا المتقدّم ذكره في هذه الترجمة، لاتّصال الأمر السلطاني به، وأنفذه إلىٰ بندر جدّة، وحبس بقلعتها عند خدّامه .

ثمّ صدر الأمر بقتله، فقتل في الليلة المذكورة خنقاً، ورمي في سوق جدّة، واستمرّ يوماً كاملاً، ثمّ رفعه بعض أهل الخير بشفاعة والتماس وغسل وكفّن ودفن بجدّة، وهرعت الناس إلىٰ جنازته للتبرّك بها .

وفاة الشيخ أحمد بن عمر بن عبدالكريم :

وفي عاشر شهر ربيع الأوّل المذكور: توفّي بقية السلف الصالح، الشيخ الأجلّ الأورع، الأسعد الأصعد الأرفع، الشيخ أحمد بن الشيخ عمر بن الشيخ الأكبر عبدالكبير، وهو من بيت جليل، ونسب سامي نبيل .

وفاة السيّد شبير بن مبارك الحسني :

وفي ثالث عشري جمادي الأولىٰ: توفّي فخر بني الزهراء، وطراز العصابة النمويّة الغرّاء، المقام الأشرف، والهمام الأرأف، السيّد شبير بن مبارك بن فضل بن مسعود بن الحسن بن أبي‌نمي .

خمسة آباءٍ هم ما هم　　أكرم من يشرب صوب الغمام

وكان هذا السيّد أوحد الشرفاء، وأحد أئمّة أرباب الوفاء، ومالك أزمّة المجد والفخار، وبحر الكرم الغطمطم الزخّار، نعم :

هو معصم الفخر الذي حاطت به　　أحساب أهل البيت مثل سوار

إنسان عين المجد والقمر الذي　　حفّته أنجم هاشمٍ ونزار

كيف لا؟ وهو غرّة جبهة الدهر، وشامة وجنة الفخر، والمشرق نور طلعته بسنا التقوىٰ، والمتمسّك من العبادة الخالصة بحبلها الأقوىٰ، مع فضل عطس صباحه، وأدب أضاء مصباحه، فطالما ترعرع في رياضهما، وكرع من نمير حياضهما، حتّىٰ صار أخا الفضل، وأبا الأدب الخضل، فقال في المعاني الأدبية وطال، وأوسع في علوم العربيّة المجال، بفهم وقّاد، وفكر نقّاد .

فأتحف الأُدباء بفرائد أفكاره، وفوائد ابتكاره، فحملوا إلىٰ سوق فضله بضائعهم، ونشروا بنادية الأدبي صنائعهم، فأحيا لهم زمن ابن عبّاد، فكأنّه المعتصم

لابن أبي دؤاد، فكثرت منهم لديه المدائح، وتوالت منهم عليه[١] المنائح.

فمن جملة من أمّ سدّة سيادته، واستظلّ برواق سعادته، واسترقّ حرّ القريض، وجنىٰ له زهر روضه الأريض، فدبج[٢] به مدائحه السنيّة، ودوّح بذكره المحافل الحسنيّة، مخلص وداده، وأسير نعمه وإمداده، سيّدنا الوالد السيّد محمّد بن علي بن حيدر، فأورد في مدائحه الشريفة وأصدر، فقال في ديوان شعره الذي عنون جمعه باسمه، وتوجّه بشريف أثره ورسمه، وقلت معارضاً للقصيدة السنيّة الشهيرة لنابغة[٣] بني حسن، وباقعة ذوي الفصاحة واللسن، السيّد الشريف أحمد بن مسعود، ومطلعها:

حثّ قبل الصباح نجب[٤] كؤوسٍ ... فهي تجري مجرى الغذا في النفوس

ناظماً هذه المعارضة في سلك مدائحي لمولانا السيّد شبير بن مبارك بن فضل ابن مسعود، وهو المجموع بأمره العالي هذا الديوان، الموالي عنايته ومودّته للناظم من أوّل العمر إلىٰ هذا الأوان، وأكثر شعري القديم في امتداحه، كما أنّ الحديث أضاء بمصباحه، وأسفر للرواة بسنا صباحه، فمنه هذه السينيّة السالكة في منهج عمّ أبيه، تناسباً بين الممدوح والمعارض يستحسنه النبيه، ويكون وسيلة لانتشارها بالمفاوضة وضمن المعارضة، وهي:

صاح نبهْ للراح طرف الجليس ... وأدرها سلافة الخندريس

---

(١) في «ن»: منه عليهم.

(٢) في «ن»: فذبح.

(٣) في «ن»: للنابغة.

(٤) في «ن»: نحو.

وأجل بنت الكروم بين كرام وهبوها منهم أعزّ النفوس
خمرةٌ في كنوز كسرىٰ قديماً أودعتها أفكار بطليموس
أخلقت(١) جدّة الزمان وأفنت قوم عادٍ وجرهمٍ وجديس
كلّما أبلت الليالي كستها من برود الشباب أبهىٰ لبوس
فهي بكر عذراء عزّت منالاً عن ملوكٍ شمّ المعاطس شوس
خفيت من لطافة عن مرامي الو هم فضلاً عن مدرك المحسوس
فهي سرٌّ ثوىٰ ضمير الليالي أدركته أفكارنا بالهجوس
ثمّ لمّا شرت بروق سناها بأكفّ السقاة بين الجلوس
من شهابٍ قد أضرمته اقتداحاً لزناد الكروم أيدي القسوس
فأرتنا في الكأس بهرام أعلىٰ في سعودٍ شأناً من البرجيس
أخفت الشمس في النهار وأبدت أنجم الليل من حباب الكؤوس
خرق(٢) عاد أبدته تسلب العقل به قبل مزجها بالنفوس
فأدرها يا ساقي القوم صرفاً صارفاً شوب كل همٍّ وبؤس
واستثر أريجية الشرب حتّىٰ يخلع القوم ملبس الناموس
لا يطيب الحال(٣) في حلبة الصبو ة إلاّ الكميت الشموس
لا وعينيك حلفةً يا ابنة القو م تحاشت عن اليمين الغموس
ليس إلاّ تعلّلاً عن لماك العذ ب مدحي الطلا بوصف نفيس

---

(١) في «ن»: أخلفت.

(٢) في «ن»: خرد.

(٣) في «ن»: المجال.

ومـحالٌ لولا[١] تـلاعب عـينيك ... بـعقلي تـحكّم الخـندريس
الهـوىٰ أنت والمـرام فـمالي ... أكتم الوجد عن عذولي العبوس
ووداي عـليك وقـف فـما يـجد ... ي وقـوفي رسـم[٢] ربـع دريس
طـللٌ غـيّرته هـوج الذواري ... ومـحته أنـواؤهـا بـالطموس
ولقـد كـان مـعهداً لظـباء الإ ... نس تـعطو فـي ظـلّه المأنـوس
ولقـد كـان مكـنساً لجـوار ... خـنّسٍ تـزدري سـناً بـالشموس
يـتهادين فـي ذراه اخـتيالاً ... بـغصون قـد ركـبت فـي طـموس
يـتهادين بـينهنّ قـلوباً ... شـغفها العشـق لأثـمار الفـروس
ويـرقعن بـالعيون كـوى الأ ... سـتار حبّ المـغازل المأنـوس
مـعلّمٌ لم يـزل يـرجـىٰ إليـه ... العـيس حسـرىٰ تـحنّ للـتعريس
جـمعت عـلّة التـناسب فـيه ... بـين نـضو الهـوىٰ ونـضو العـيس
نشـتكي مـا بـنا إليـه ويشـكو ... فـعل دهـرٍ أودىٰ بـه بـالدروس
لا أُبـالى بـالدهر أنّـي مـنه ... فـي أمـانٍ مـوطّد التأسـيس
في حـمىً لا يـرام فـي كـنف النـد ... ب شـبيرٌ صـدراً للـهام الخـميس
الهـمام الحـلاحل الأبـلج الشـهم ... المـفدّىٰ بـين الورىٰ بـالنفوس
أوحـد الدهـر غـرّة الفخر سـا ... مي القدر طود[٣] العظائم البرعيس
أريـحيٌّ ضـربٌ إذا انـتدب القـو ... م بداراً فـي يـوم حـمي الوطـيس

(١) في «ن»: ومحال أو كما.

(٢) في «ن»: وقوفي في رسم.

(٣) في «د»: سامي القدّ بطود.

وهو ثهلان دو الهضاب فقاراً[١]   في نديٍّ يضمّ كلّ رئيس
الكريم الذي إذا جاد أبصرت   عباب الأمواج في القاموس
واستمدّ السحاب بعض أياد   يه فوافي بالمستهلّ العجوس
والشجاع الذي صال في الر   وع فحدّث عن فارسٍ أو فروس
وإذا ما سطا فهيهات هيهات   تصدّ الحتوف بالتتريس
والأريب[٢] الذي يرىٰ من مبا   دي كلّ أمرٍ يقاس أقصى المقيس
وإذا جال رأيه يوم خطبٍ   أشرق الفجر في الظلام الغميس
شيمٌ خصّه بها من له الخلق   تعالىٰ من منعمٍ قدّوس
كيف لا وهو من صميم ذوي التط   هير في الذكر من صدى التدنيس
أخلص الله ذاته فهو كالبتر   المصفّىٰ من شايب التدليس
وجرىٰ في القلوب صفو هواه   فهو كالماء في مجاري الغروس
وسرت من ثنائه نفحاتٌ   أُرّجت بالشذا بطون الطروس
وتوالت مناله دعواتٌ   ترتقي في البكور والتغليس
هاك من جوهري المنظّم عقداً   يشتري بالوداد لا بالنفيس
ليس يلفي فيما جلاه زيادٌ   من قريضٍ علىٰ أبي قابوس
واستمعها من مخلصٍ بك أضحىٰ   مسعداً في زمانه المنحوس
أسعفته الأقدار فاستخلصته   لك بالودّ في أعزّ النفوس
لا برحت الزمان ترفل في ثو   ب نعيمٍ من أفخر الملبوس

---

(١) في «ن»: وقاراً.

(٢) في «ن»: والأديب.

وابــق لي ثــمّ للأنـام فكـلّ ... راتـعٌ فـي جـنابك المـحروس

مـا حـدا سائق ومـا سار ركبٌ ... نـحوكم فـي إطـاعة القـدّوس

ثمّ قال أيضاً ـ رحمه الله تعالىٰ ـ في الديوان المذكور: وقلت في مديحه حرسه الله تعالىٰ، وأدام ودّه حقباً توالىٰ، معارضاً لشاعر اليمن إبراهيم بن صالح المعروف بالمهتدي، وغيره من الفضلاء، في تضمين بيتين لطيفين للبدر يوسف بن لؤلؤ الذهبي، وهما «أحمامة الوادي بشرقي الحما» والذي بعده[1]، وأوّل من ابتكر ذلك جمال الإسلام علي ابن الإمام المتوكّل، ومطلع قصيدته:

صبٌّ يكاد يذوب من حرّ الجوىٰ ... لولا انـهمال جـفونه بـالأدمع

وتلاه الفاضل الأديب، فرع بيت الوزارة، النجيب السراج، عمر بن محمّد علي ابن سليم، ومطلعه المشعر بشوقه إذ ذاك إلىٰ جوار البيت الكريم:

ذكر الحما وحلول وادي لعلع ... صبٌّ ففاضت مقلتاه بأدمع

ثمّ المهتدي مادحاً للمذكور ومطلعه:

أنسيت مرتبعاً بذات الأجرع ... ومـنازلاً بـالرقمتين فـلعلع

وما أحسن قوله في المديح:

وإذا تكدّست الصلادم في الوغا ... بـالدارعين وسحبها لم تـقلع

إلىٰ أن قال:

وافـاك كـالرئبال يـزأر تـحته ... جبلٌ يجول على الرياح الأربع

فقلت ناسجاً علىٰ منوالهم، مستهدياً بنيّرات أقوالهم:

نشر النسيم شـذا الربـا مـن لعـلع ... فشـظا فأكـناف الحـجون المـمرع

---

(١) في «ن»: والذي نفره.

مستودعاً من عرب ذيّاك الحمىٰ … سرّ الهوىٰ وحديث تلك الأربع
وافىٰ سحيراً والرفاق بهجعةٍ … متطلّباً بين المضاجع مضجعي
فكأنّما هو عالمٌ لمّا سرىٰ … إنّ المتيّم طرفه لم يهجع
ذكر العهود ولم يذكّر ناسياً … فأثار كامن لوعتي[1] من أضلعي
فأمدّ[2] قلبي في حبائل غيّه … وأمدّها بحبائل من أدمعي
وتزايدت حرقي فهبّ من الكرىٰ … صحبي انبعاثاً عن جنانٍ[3] مروع
وغدوت فيهم بين خطب مسائلٍ … جهلاً وآخر عارفٍ مسترجع
وأتىٰ عذولي للملام مردّداً … ذكر الأحبّة والديار البلقع
فاصخت سهماً للعذول وما درىٰ … ذاك الجهول لمن أصاخت مسمعي
ولطالما قد قلت معتذراً له … مهلاً فإنّي لا أرىٰ قلبي معي
حتّىٰ إذا صدحت علىٰ أيك الحما … ورقاء ذات ترجّعٍ وتولّع
صدعت وقد صدحت بسرّي في الهوىٰ … ودعت حديثي والعواذل لا تعي
وتنوح نوحي غير أنّي باذلٌ … للدمع وهي ضنينةٌ بالأدمع
أبثثتها سرّي وقلت مؤمّلاً … منها مقاسمة الحنين الموجع
أحمامة الوادي بشرقي الحما[4] … إن كنت مسعدة الحزين فرجّعي
ولقد تقاسمنا الغضا فغصونه … في راحتيك وجمرةٌ في أضلعي

---

(١) في «ن»: أصلعي.

(٢) في «ن»: فأمرّ.

(٣) في «ن»: جناب.

(٤) في «د»: الفضا.

حـاشاك مـن أنّـي أقـول مـعاتباً ... ورقـــاء ذات تــسـعزّز وتــمنّع
نوحي جوىً أو فاسجعي طرباً علىٰ ... فـنن الربـا غبّ السـحاب الهـمّع
أولست فـي روضٍ حكت أزهـاره ... أخـلاق مـولانا الهـمام الأروع
أعـني شـبيراً مـن تسـاميٰ مـجده ... مـترفّعاً فـوق الأثـير الأرفـع
هو منجدي يوم الخطوب ومسعدي ... عند الكروب وناصري في المجمع
وهو الذي استصفىٰ لبـاب مـودّتي ... مـتملّكاً رقــيٌ بـغير تـصنّع
أبقىٰ لنـا البـاري شـريف وجـوده ... مـتمتّعاً فـي كـلّ خـيرٍ مـمتع
مـا غـنّت الورقـاء فـي فـنن ومـا ... جادت غوادي المـزن ربـوة لعـلع

وقال أيضاً قدّس الله روحه: وقلت علىٰ وزان قصيدة السيّد أحمد بن مسعود رحمه الله تعالىٰ المشهور، ومطلعها: «ألا هبّي فقد بكر النداما» مادحاً مولانا السيّد شبير المتقدّم ذكره الشريف، وأصدرتها إليه من مكّة المشرّفة، وهو إذ ذاك المتولّي أحكام المدينة المنوّرة عن الشريف أحمد بن غالب رحمه الله تعالىٰ، وذلك فـي سنة (١١٠٠) مائة وألف:

سـماء المـزن مـنسجماً تـهامي ... فـجاء سـماء يـثرب مـن تـهاما
وصبّ[١] رهـــامه فــارتاح صبٌّ ... تســامىٰ ودّه عــن أن يســاما
وشـــام بـريقه شـاماً فأضـحىٰ ... حسام جوىً على الأحشاء شاما[٢]
وطـــاب بـطيبة الغـرّاء نشـراً ... نســائم فـوقها نشـرت غـماما
فـهبّ لهـا النـدامىٰ حـين هـبّت ... ومـجّ المـرج مـن ظـلم النـداما

---

(١) في «ن»: وهبّت.

(٢) في «ن»: ساما.

وزمجر رعدها والرعد وعدٌ ... يرجّي آملٌ منه الثماما
فسرّ بفاله الميمون راجٍ ... تجهّم أن يرىٰ نوءٌ جهاما
أتدري المعصرات إذا استقلّت ... عصيراً إنّ لي دمعاً ركاما
وإنّ قصارها أنبات روضٍ ... ترىٰ فيه ثماماً أو خزاما
ودمعي في قلوب أهيل ودّي ... يصوب فينبت الوصل المداما
وهب إنّ السحاب أتىٰ بغيثٍ ... فعمّ به الأهاضب والأكاما
أليس حيا ندى[1] المولىٰ شبيراً ... بحيث النقع منهمرٌ سجاما
وما التشبيه قصدي غير أنّي ... ذكرت الشيء بالشيء انتظاما
أيشبه ذو بكاءٍ وقت جود ... فتىً يهب ابتهاجاً وابتساما
نوال الغيث في الأزمات يرجىٰ ... وأنّ نواله الهامي دواما
وللأمطار قد يلقى منحبٌّ ... وقالٍ عن مواقعها تحاما
وهذا الخلق طرارق ودٍّ ... لسيّدنا اتّفاقاً والتئاما
وراعيت النظير لهم بمدحي ... فأهديت الرقيق له نظاما
هو الحرم[2] الذي تهوي إليه ... لفرض الحجّ أفئدةٌ هياما
هو ابن مبارك المسعود جدّاً ... إليه الفضل يعزىٰ حيث حاما
له النسب الشريف عمود فخرٍ ... بساحة بيت أهل البيت قاما
له المجد الطريف إلىٰ تليدٍ ... تملّك من مقادمها الزماما
ونفسٌ في العلا أحيت عصاماً ... كما أحييت به تلك العظاما

---

(١) في «ن»: نرى .

(٢) في «ن»: الحزم .

أحـاديث المكـارم عـنه تـروىٰ   تـفيد الصـدق فـي مثلٍ حذاما
أيـاديه المـواطـر حـين تـهمىٰ   يكـون ربـيعها المـنن الجسـاما
سـلام الله يـا مـطرٌ عـليها   وليس عـليك يـا مـطراً سـلاما
إضـافة جـوده صـحّت إليـه   فـدع مـن لامـه إلفـاً ولامـا
مسـاعيه إلىٰ درج المـعالي   هـي السـعدان سـيرهما استقاما
فـإن يـلحظ بـأُفقٍ نـجم نـحسٍ   يـعدّ فـي الحـال سـعداً مسـتداما
ومـيمون النـقيبة حـيث ولّـىٰ   رشـيد الرأي أيـن نـحا وراما
إذا مـا اليأس أظـلم فـي رجـاءٍ   فـفرّته الصـباح جـلا الظـلاما
إذا مـا حـلّ أرضـاً فـالأراضي   تـقاسي غـيره مـنها غـراما
أليس[(١)] تـرى البـلاد تـجاذبته   فـبلّغها المـنىٰ سـفراً مـقاما
رأىٰ جـبر القـلوب لهـا جـميعاً   كـما اعـتادت خـلائقه لزامـا
وأثّـر ذاك فـي الحـرمين حـتىٰ   تـخالهما مشـوقاً مسـتهاما
فـإن تك يـثرب غـلبت عـليه   أبـاطح أرض مكّـة لا مـلاما
هـو الفـرع الذي مـال اتّـصالا   إلى الأصـل الذي فـيها أقـاما
إلىٰ أصـل الوجـود ومـنتهاه   قـوام الدهـر كـوناً وانـتظاما
شـفيع الخـلق نـور الحـقّ طـٰه   له الصـلوات أهـدي والسـلاما
أيـا نـجل الكـرام أتـاك مـدحي   يسـوق إليك عـذراً واحـتشاما
أتـىٰ[(٢)] ومـديح جـدّك فـي قـرانٍ   بـطالع سـعده جـدّي تسـاما

---

(١) في «ن»: ألست .

(٢) في «ن»: أبي .

وخـير الشعر أكـرمه رجـالاً — وخـير القول أشرفه مـرامـا
بـهذا السعد نـطت[1] عـرى رجـاءٍ — بـه أطـفي مـن الشوق الأواما
لعـلّ الله يـدنيني مـزاراً — لمشـهد حـضرةٍ شـرفت مـقاما
لئـن أوجـزت فـي الهـادي مـديحاً — فـتلك فـريدةٌ زانت نـظاما
خـتام الأنـبياء جـعلت مـدحي — له فـي النـظم مـن مسكٍ خـتاما

وله فيه غير ذلك من القصائد الشعريّة، واللمع المزهرة النثريّة، والكتب المنضّدة بدرر الأدب الوريف، المتوّجة باسمه العالي الشريف، كـنجح أسباب الأدب المبارك، في فتح باب قرب المولىٰ شبير بن مبارك، استعطف به خاطره الشريف العالي، حين فهم منه بعض العتب علىٰ ذلك الموالي، وديوان أشعاره حيث كان هو الآمر بجمعها وتدوينها .

ومن جملة من مدحه وأثنىٰ عليه، حين حضر مجلسه الشريف، ورأىٰ ارتياح الأُدباء إليه، أديب العصر صاحب سلافة العصر، السيد علي[2] بن أحـمد نـظام الدين، بقصيدة نونيّة عارض بها نونيّة السيّد أحمد بن مسعود المتقدّم إثباتها في ترجمته[3]، ولم يحضرني ديوان شعره، حين هذه الكتابة، فأنـقل مـنه القـصيدة المطلوبة، إلاّ أنّي أخذت منها بيتن، وهما بيتا القصيد، أحدهما في الغزل، والثاني في المديح السامي المشيد، أمّا الذي في الغزل هو قوله :

لا يستوي البـدران بـدرٌ غـدا — ملقىً على الأرض وبدرٌ مصون

---

(١) في «ن»: بسطت .

(٢) تقدّم منّا تفصيل ترجمته، فراجع .

(٣) راجع: سلافة العصر ص ٢٨ ـ ٣٠ .

وأمّا الذي في المديح فهو قوله :

مديحك السامي كبحرٍ طما   لذا أتت قافيتي فيه نون

ومدحه غير هذين الأديبين، والسيّدين النسيبين، وناهيك بهما فضلاً وأدباً، إذ هما تاجا رؤوس الفضلاء والأدباء، ولو لا خوف الإطالة لأوردنا لك غير ذلك ممّا مدح به هذا الشريف المالك، فاكتفينا بما رقمناه، لكونه من أعلىٰ طبقات الشعراء وأجوده .

توفّي ـ رحمه الله تعالىٰ، وأولاه هواطل رحمات توالىٰ ـ في اليوم المذكور، وصلّي عليه بالمسجد الحرام، والرئيس يخطب في المقام، ودفن بالمعلاّة، في القبر المقابل لباب قبّة السيّدة خديجة زوج النبي صلى الله عليه وآله .

وممّن أرّخ وفاته الأديب وجيه الدين عبدالرحمٰن بن علي بن سليم، فقال :

قل للذين دهوا بمصرع سيّدٍ   ما إن له في المكرمات نظير
لا تحزنوا فجوار خالقه له   خيرٌ وكلٌّ للفناء يصير
وبسيّد الكونين أُسوة من مضىٰ   والدهر خصمٌ بالرجال بصير
هيهات لا يبقىٰ سوى الملك الذي   عاد الأمير إليه والمأمور
أين الأُولىٰ كانوا صدور زمانهم   وارتهم تحت التراب قبور
غرّتهم الدنيا فلا عينٌ ولا   أثرٌ وجلّل ما بنوه دثور
طوبىٰ لمعتبرٍ تيقّن أنّها   زورٌ وانّ خليلها مغرور
ذاك الذي عرف الحقيقة قانعاً   منها[1] بما يكفيه وهو كثير[2]

---

(١) في «ن»: ملهاً .

(٢) في «ن»: كبير .

فاستعصموا بالصبر فهو أجلّ ما ... يوصي به ورفيقه مأجور
وبغاية الفرج المحقّق أرّخوا ... حقّاً إلى الفردوس زفّ شبير

وأعقب من الذكور ثمانية: السيّد باز، والسيّد عبدالمحسن، والسيّد سعد، والسيّد سرور، والسيّد غيث، والسيّد حمّود، والسيّد فهيد، والسيّد عبدالعزيز، وفّقهم الله تعالىٰ لمراضيه .

وفاة الشيخ سعيد بن محمّد القطبي :

وفي سابع عشري شهر رجب: توفّي الشيخ الأمجد، والمقام الأنجد، الشيخ سعيد بن محمّد القطبي، وكان ذا فضيلة لا بأس بها، وثروة زهيدة ظهر بسببها، صحبناه فحمدنا طباعه، وشكرنا مسالكه وأوضاعه، وهو من بيت مؤصّل، وعقد بفرائد العلماء مفصّل، توفّي بالطائف في التاريخ المذكور، ودفن بمقبرة حبر الأُمّة سيّدنا عبدالله بن العبّاس رضي الله عنه. وأعقب من الذكور أربعة: أحمد، وسعد، وكبير، وحسن .

وفاة الشيخ حسين بن محمّد العصامي :

وفي ثاني شهر شعبان من السنة المذكورة: توفّي الشيخ الفاضل الشيخ حسين ابن محمّد العصامي، أخو الشيخ أحمد المذكور سابقاً، وكانت وفاته ببندر جدّة في منصب الإفتاء بها علىٰ مذهب الإمام الشافعي .

وفاة السيّد إبراهيم بن نعمةالله القادري :

وفي عاشر رمضان: كانت وفاة المقام الجليل، والهمام المعالي النبيل، ذي الكرامات الباهرة، والهمم العليّة الفاخرة، السيّد إبراهيم ابن الولي العارف الشهير السيّد نعمةالله المتقدّم ذكر وفاته في سنة ستّ وأربعين وألف .

وقد بسطنا الكلام هناك في بيان سلسلة نسبه الشريف المتّصل بقطب دائر

الوجود السيد عبدالقادر الجيلاني، وفي نسب سيّدنا القطب عبدالقادر المذكور أيضاً، وما اطّلعنا عليه من النقول المختلفة من غير ترجيح منّا[١]، فراجعه ثمّة تجده مفصّلاً .

وكان هذا السيّد نادرة دهره، ووحيد عصره، في بذل جاهه العالي في مصالح المسلمين، وتسديد أُمور الملتجئين بحضرته السامية والملتزمين،، فداره الشريفة مأوى الوفود، وركن اللائذ المضهود، وكان مسكنه مقاصّاً[٢] لضريح والده، فقام بحقوق طلاّب جاهه وفوائده، توفّي في اليوم المذكور، ودفن عند والده .

وأعقب من الذكور ولداً اسمه السيّد محمّد، انتقل عنه صغيراً لم يبلغ حدّ الاشتهار، وإنّما يرجىٰ أن يضارع هلاله الأبدار .

وفاة العلاّمة يحيى بن محمّد الطبري :

وفي ذي‌القعدة من السنة المذكورة: توفّي الإمام الأطهر، والهمام الأجلّ الأفخر، الإمام يحيى بن الإمام محمّد الطبري، وكان مفتي السادة الشافعيّة بمكّة المشرّفة البهيّة، وهو من عصابة شريفة، وذؤابة مراتبهم في العلوم منيفة، لهم غرر معروفة وحجول .

إذا مات منهم سيّدٌ قام سيّدٌ قؤولٌ بما قال الكرام فعول

ولعمري لقد صدق أديب العصر، حيث قال: والطبريّون سادة من غير الفضل

---

(١) وكلامه هذا يدلّ علىٰ توقّفه في صحّة نسب عبدالقادر الكيلاني، وذلك لعدم تأييد صحّته من ناحية صاحب عمدة الطالب، كما تقدّم .

(٢) أي: تجاه قبر والده .

بريؤون[١].

وفاة الشيخ عبدالهادي المؤرّخ :

وفي رابع ذيالحجّة الحرام من السنة المذكورة: توفّي الشيخ الأبرّ، والفاضل الأكبر، فريد العقد الثمين، ومؤرّخ بلد الله الأمين، الشيخ عبدالهادي بن محمّد الطاهر، وكان هذا الشيخ للفضائل النامية خدناً، وممّن برع بمكّة المشرّفة فضلاً وسنّاً، وجني من رياض العلوم زهراً، فصار للمحامل السامية صدراً، مات مناهزاً للتسعين، وهو في الفنون العلميّة من المتّسعين، وخلّف ابناً رأيناه وشاهدنا منه مطابقة اسمه لمعناه، وفّقه الله تعالىٰ، وأولاه ألطافاً توالىٰ.

وفاة الشيخ محمّد العبّاسي :

وفي سنة تسع وثلاثين ومائة وألف: توفّي الشيخ الصالح التقي الأورع، الشيخ محمّد العبّاسي، وكانت وفاته ثالث عشر محرّم الحرام من السنة المذكورة، وبوفاته انقرض هذا البيت من مكّة المشرّفة، إلاّ إن صحّ نسب أُخرىٰ[٢] من السجيين ينتسبون إلىٰ هذا البيت، غير أنّي لا أُرجّحه.

وفاة السيّد عامر بن يحيي المساوي :

وفي ثانيعشر صفر الخير من السنة المذكورة: توفّي السيّد الجليل الصالح، السيّد عامر بن يحيى المساوي.

وفاة الشيخ عبدالله بن أحمد المكّي :

وفي عشر ربيع الثاني من السنة المذكورة: توفّي الشيخ الجليل الأفضل، الشيخ

---

(١) سلافة العصر ص ٤٢.

(٢) في «د»: آخرين.

عبدالله بن أحمد بن عبدالله بن عبدالرؤوف، وكان هذا الشيخ ذا أخلاق حسنة، ومحاورات مستحسنة، وهو من بيت فضل وأدب، واجتهاد في تحصيل الفضائل وطلب.

وفاة السيّد أبي‌بكر بن محمّد بن سيف:

وفي ثاني‌عشر جمادي الثانية: توفّي السيّد الأجلّ، الكهف الأضلّ، السيّد أبوبكر بن محمّد بن سيف، وكان هذا السيّد ذا رئاسة وزعامة، أناف بهما صيته ومقامه، ورفل في حلل الافتخار، ولم يدر أنّه مخلوق من صلصال كالفخار، فأرهب وأخاف، وأجاد بهما الاختطاف.

ولم يزل ببندر جدّه علىٰ هذا الحال، وهو عند الدولتين في غاية الاجلال، فكأنّه نبراس سُمّار، حتّىٰ جوزي من صاحب الترجمة جزاءً سنمار، فاعتقله في حبسه الأظلم، وقلّد عنقه الأدهم، فنكّس علمه، وأشمت به من ظلمه، ولم ينحل ذلك الاعتقال، إلاّ بمبلغ عظيم من المال.

ثمّ رحل إلىٰ جدّة ومكث بها، غير متعلّق بسببها، إلىٰ أن رحل إلى الديار اليمنيّة، وأسرع ما عاد فصدفته المنية، فتوفّي ببندر اللحية، في التاريخ المذكور بعد مرض شديد، وتنوّع من الأكسال مديد، فشبا لهذه الدار، فلعمري إنّها كنانة الأكدار

دارٌ متىٰ[1] ما أضحكت في يومها   أبكت غداً تبّاً لها من دار

وفاة السيّد محمّد البخاري:

وفي ثالث عشري رجب من السنة المذكورة: توفّي السيّد الجليل، والشابّ الصالح النبيل، السيّد محمّد بن السيّد حسين البخاري.

---

(١) في «ن»: إذا.

وبوفاته انقرض هذا البيت من مكّة المشرّفة، ولم يبق منه أحد أبداً.

وقد خدش هذا البيت في عدم صحّة نسبه الحافظ العلاّمة أبو عبدالله محمّد جار الله[١] بن عبدالعزيز بن فهد الهاشمي العلوي في رسالة سئل فيها عن خمسة بيوت: بيت البخاري، وبيت الطبري، وغيرهما، فخدش بيت البخاري، وغيره من البيوت المذكورة، والله أعلم بالحقائق.

التوسعة في بناء مسجد الحرام:

وفي هذه السنة: رفع جميع ما كان برواق المسجد الحرام من البلاط، ووضع بدله حجر منحوت كالذي قبله، وذلك من باب سيّدنا علي عليه السلام، متّصلاً بباب السلام، ثمّ إلىٰ باب الزيارة، حتّىٰ لم يبق بتلك الجهات شيء من البلاط، وصارت الرواقات كلّها منتسقة بنوع واحد، وكحّل ما كان سابقاً من الحجر المفروش قديماً بالنورة، وهو من جملة صنائع الدولة العليّة العثمانيّة؛ لأنّه وصل من طرفهم مبلغ عظيم إلىٰ متولّي بندر جدّة الوزير أبيبكر باشا ليصرفه علىٰ عمارة عين مكّة ومسجد مكّة على النمط المذكور، فشرع في عمارة العين حتّىٰ لم يبق فيها خراباً إلاّ أصلحه، ثمّ شرع في العمارة المذكورة.

هجوم العساكر في بندر جدّة على الأفرنج:

وفي هذه السنة: صارت حادثة ببندر جدّة المعمور، وهي ثوران العساكر الروميّة والعامّة على الأفرنج الواصلين في تلك السنة، وهجموا عليهم في بيوتهم، وقتلوا ثمانية أشخاص من كبارهم، ونهبوا ما كان بالبيت من الأموال النقديّة

---

(١) هو صاحب المآثر والكتب القيّمة في تواريخ مكّة المكرّمة، منها كتابه نيل المنىٰ بذيل بلوغ القرىٰ لتكملة إتحاف الورىٰ، وغيره.

والعرضيّة .

وسبب ذلك: أنّه كان من جملة خدّامهم جماعة من المسلمين، حاولوا الفكاك منهم بواسطة متولّي بندر جدّة أبيبكر باشا المذكور سابقاً، فلم يتمّ لهم مطلوبهم، وردّوا عليهم، فأوقعوا في بعضهم قتلاً خفيّاً، فاطّلع علىٰ ذلك من العساكر والرعيّة، فهجموا عليهم، وفعلوا ما مرّ ذكره، فاضطرب حضرة المتولّي اضطراباً شديداً، خوفاً من الدولة العليّة، فتدارك الأمر، وشرع في قمع العساكر، وجمع تلك الأموال المفرّقة في أيدي الرجال، فحبس وصلب، وسلك أنواع السياسات مجدّاً في الطلب، إلىٰ أن وقع علىٰ جانب كبير، وبقي مبلغ يسير .

ثمّ نزل في أثناء القضيّة شريف مكّة المشرّفة لإعمال آرائه الوضيئة، واستصحب معه قاضي الشرع الشريف، وشيخ الإسلام، وغيرهما من ذوي الحلّ والإبرام، ونزلوا بخارج جدّة، فانحلّت بوصولهم عن سكّانها الشدّة؛ إذ لم يزل متولّياً سالكاً سبل الشناعة في أهاليها .

ثمّ بعد وصولهم استقرّ الحال علىٰ ضبط ما حصل من الأموال، وتوفية ما نقص من ذلك النزر اليسير، من مال حضرة الوزير، وإصدار رجلين سديدين، ومعتمدين وشيدين، أحدهما من طرف حضرة الشريف، والآخر من طرف الوزير المذكور، ويكتب معهما محضر بصورة الواقع، وإذا وقع أمر الله ليس له من دافع .

وفاة السيّد شبّر بن حسن الحسني النموي :

وفي هذه السنة: توفّي السيّد الشريف، والمقام العالي المنيف، مولانا السيّد شبّر ابن حسن بن مسعود بن جودالله بن حسن بن أبينمي في أرض نجد، ودفن بها .

وكان ذا خلق حسن، وتديّن يندب الاقتداء به ويسن، مع أدب[١] جمّ، وكرم شمل به وعمّ، وأعقب أولاداً، من جملتهم: السيّد مبارك، صحبناه بمكّة المشرّفة، فرأيناه فرعاً فاق أصله، وفّقه الله تعالىٰ لمراضيه .

وفاة السيّد محمّد العاملي الموسوي والد المؤلّف :

وفي يوم الإثنين ثاني شهر ذيالحجّة ختام السنة المذكورة: توفّي علم ذوي الفضائل، ومعلّم كلّ طالب وسائل، عن حلّ غوامض المسـائل، عـلاّمة زمـانه، وفهّامة معاصريه وأقرانه، سيّدي ووالدي، وسندي في طارفي من العلوم النامية، وتالدي الإمام الأكبر، والهمام الأفخر، السيّد محمّد بن علي بن حيدر، قدّس الله روحه، وأغدق بوابل الرحمة ضريحه[٢].

(١) في «د»: أدم .

(٢) وقد كتبت ترجمته حسب ما وصل لديّ من كتب التراجم فـي مـقدّمة كـتابه تنبيه وسنى العين، ثمّ عثرت علىٰ المجلّد الثالث المخطوط من كتاب تاريخ مكّـة المعروف بإتحاف فضلاء الزمن بتاريخ ولاية بني الحسن، لجمال الدين محمّد بن علي بن فضل الطبري المكّي المتوفّىٰ سنة (١١٧٣) وأصل النسخة مـحفوظة فـي خزانة إحدىٰ مكاتب القاهرة بمصر، والكتاب حول ترجـمة أشـراف أمـراء مكّـة المكرّمة، وقد طبع المجلّد الأوّل والثاني فقط .

قال: وفي يوم السبت من رجب سنة (١١٣٥): جمع الشريف والباشا جماعة من أبناء مكّة ومن أبناء العجم المتولّدين بمكّة، وجدوا لهم مكاتيب في الدبش المنهوب علىٰ مبارك، وتبعه منهم مكتوب لعبدالرحمٰن بـن سـليم كـاتب الصـرّ، وعـبدالله سنجق دار، وأحمد طاجين وولد الكتاب وغيرهم، فطلبوهم ولم يظفروا بهم، فأقعدوا ⇩

فلعمري لقد كان باقعة ذوي البلاغة والفصاحة، والصادع بصواقع مقوله فؤاد ابن وائل وابن المراغة، مقرّر علوم الأدب ومحرّرها، ومنوّر رياض البلاغة ومزهّرها.

إن هزّ أقلامه يوماً ليعملها ... أنساك كلّ كميٍّ هزّ عامله
وإن أقرّ علىٰ رقٍّ أنامله ... أقرّ بالرقّ كتّاب الأنام له

أمّا الشعر، فهو روضه الأريض، وميدانه الطويل العريض.

وأمّا النثر، فهو ابن خاقانه، وصاحب نكته، وبديع جمانه، طالما خطبته ملوك

علىٰ الأبواب عسكر.

ومن جملة المتّهمين السيّد محمّدحيدر الشامي العاملي العجمي؛ لأنّهم وجدوا في بعض الكتب: الطالع كذا، والغارب كذا، وينبغي أن تدخلوا في وقت كذا وكذا. ولم يجدوا لصاحب هذا الكتاب إسم، فاتّهم محمّدحيدر؛ لأنّه صاحب هذا الفنّ ومتعلّق به، فطلع السيّد محمّدحيدر للشريف يحيى بن بركات، فما قام له الشريف، وقال: يا سيّد محمّدحيدر جاءنا كتابك، فقال له: يا مولانا كتاب مجلّد؟ فقال: لا بل مكتوب، فقال: يا سيّدي يكون برأسي أنا ممّن أنتسب إليكم لا إليهم، ولكن صرت مثل الطبل أدقّ من الجهتين، هم يتّهموني وأنتم تتّهموني، وقام السيّد محمّد متشوّش الخاطر، ونزل إلىٰ عبدالله بن بركات، وشكىٰ له حاله مع الشريف، فقال له عبدالله: قرّ عيناً هذا المكتوب قد عرفنا صاحبه، وهو السيّد إسماعيل بن مؤمن من أبناء العجم الخ.

إلىٰ أن قال: وفي هذا اليوم جمع الشريف جماعة من أولاد العجم المتولّدين بمكّة: السيّد عبدالمطّلب، والسيّد محمّدحيدر، والسيّد إسماعيل، وغيرهم، وقال لهم: أنتم سكّان بهذه البلدة، ونحن قائمين بحمايتها وحمايتكم، وأنتم أرفاضي، ليس لكم قدرة على القتال، فأفرضت عليكم ثلاثمائة بندق. إلىٰ آخره مفصّلاً.

مكّة المشرّفة لمنصب كتابة الإنشاء، لتلاعبه بجواهر الألفاظ وأبكار المعاني كيفما شاء، فتارة يحرزون منه ذلك، وتارة يمتنع امتناع الزاهد في هذه المسالك، وسأثبت لك منها ما يقوم ببيّنة هذه الدعوىٰ، ممّا تهوي إليه الأفئدة وتهوىٰ، مع ما مرّ بك في غضون هذا الكتاب، من شعره الفائق ونظمه المستطاب، لكن لابدّ من زيادة إيضاح لهذا البيان، حتّىٰ تقول لا قرية وراء عبّادان .

وأمّا بقيّة العلوم، فلم يكن منها عنده غير معلوم، غاص في بحارها فكره السبّاح، وسلك سبل سباسبها وساح، فاستخرج منها درر القلائد، وعاد من سياحته بغرر الفرائد، فألّف في جميعها وصنّف، وملأ الأسماع بفرائد فوائده وشنف، وسأملي عليك من أسمائها، ما تعرف به ارتفاع سمائها .

وهي: إقتباس علوم الدين من النبراس المعجز المبين، تكلّم فيه علىٰ الآيات الأحكاميّة، وهو كتاب لم يصنع مثله في سعة مباحثه المتنوّعة في الأُصولين والفروع الفقهيّة، وهو مجلّد كبير .

وكنز فرائد الأبيات للتمثيل والمحاضرات، عارض به كتاب القطبي الذي سمّاه التمثّل والمحاضرة بالأبيات المفردة النادرة، وزاد عليه ثلاثة أمثاله، مع اختراع لم يحم حول مثاله، وناهيك بما يحتاج إليه مثل هذا الجمع من سعة الاطّلاع، وطول الباع، خدم به السيّد الشريف الأكبر، مولانا السيّد أحمد بن سعيد بن شبّر، رحمه الله تعالىٰ وأولاه ألطافاً توالىٰ .

وثواقب العلوم السنيّة في مناقب الفهوم الحسنيّة، وموضوعه بيان تعريف الملكات اللسانيّة المضريّة، وكيفيّة تحصيلها مع حلّ لكثير من الأبيات الشعريّة، وذكر مفاهيم لبعض ملوك مكّة المشرّفة صادفت الصواب، وهو كتاب مفيد جدّاً، خدم به حضرة مولانا السيّد الشريف ناصر بن أحمد الحارث رحمه الله تعالىٰ .

وتنبيه وسنى العين في المفاخرة بين بيني السبطين[١]، بناه علىٰ عبارة لصاحب عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب، صرّح فيها برفع بني الحسن علىٰ بني الحسين عليهما السلام، بل ترقّىٰ إلىٰ أفضليّة أحدهما على الآخر بزخارف المين، وما ذاك إلاّ لكونه من بني الحسن، فهوت به العصبيّة الواهية وادياً غير حسن، حتّىٰ أساء الأدب، وتناسل عليه اللؤم من كلّ حدب، فسلك والدنا رحمه الله تعالىٰ في هذا الكتاب مسلك الانصاف، وبيّن ما لكلّ من الفريقين من المفاخر العالية الأوصاف، فإذا استوعب الناظر، ما لكلّ منهما من المفاخر، علم بل قضىٰ بالصدق للآخر.

ثمّ ولا يخفىٰ عليك ما يحتاج إليه من سعة الإحاطة، حتّىٰ يسدّد سهمه فيما جعله غرضه ومناطه، وهو مجلّد ضخم.

وكتاب رجل الطاووس إذا تبختر القاموس، جعله كالحاشية عليه، وضمّنها زيادات مع إيرادات حقّها في طيّ الصحائف إليه، وفي الإسم نكتة لطيفة لا تخفىٰ علىٰ ذوي الأفهام الشريفة، برز منه سفرٌ مفيد.

وكتاب الحسام المطبوع في المعقول والمسموع في علم الكلام، وموضوعه أشرف موضوع[٢]، لأنّه منطوٍ على المباحث المفيدة، والمطالب السديدة، وهو مجلّد كبير.

وكتاب الأنواء المبكّرة بشرح خطبة التذكرة، شرح فيها خطبة تذكرة الشيخ

---

(١) طبع هذا الكتاب النفيس بتحقيقي في هذا الأوان، ونشرته مكتبة العلاّمة الآية المرحوم السيّد شهاب الدين المرعشي النجفي قدّس الله سرّه الشريف.

(٢) في «ن»: مطبوع.

داود الحكيم، وناهيك بها في سعة مباحثها المتعلّقة بعلمي الكلام والهيئة .

وكتاب الفوائد الجليّة في إعراب أبيات الخزرجيّة، وهو أيضاً كتاب مفيد .

وكتاب ريّ الوارد والصادر في بيان أسماء المصادر .

وكتاب مذاكرة ذوي الراحة والعنا، في المفاخرة بين الفقر والغنا[١] .

وكتاب نجح أسباب الأدب المبارك في فتح باب قرب المولىٰ شبير بن المبارك،استعطفه به، وقد مرّ ذكره في ترجمة السيّد شبير رحمه الله تعالىٰ .

وكتاب مطلع بدر التمام من قصيدتي أبي تمام، شرح فيه قصيدته الرائيّة والميميّة أحسن شرح لكونهما مغلقتين .

وله رحمه الله تعالىٰ غير هذا المرقوم، من رسائل وحواشٍ تقف دونها الفهوم، وكتب بخطّه الشريف كتباً عديدة، ووشحها بفوائد مفيدة، من جملتها القاموس، كتبه مراراً مع ضبط يرجع إليه، ويعتمد في النقل عليه، وغيره من الكتب المعتبرة الأدبيّة[٢] ،كالجمهرة وغيرها، وكتابة بعض الحواشي عليها .

هذا، وقد وعدتك بإثبات شيء من نثره ونظمه، لتعلم قوّة ملكته في الصناعة الأدبيّة ورسوخ قدمه .

فمن نثره البليغ: رسالة أنشأها بالطائف سنة (١١١٤) أربع عشرة ومائة وألف، وبعث بها إلىٰ أديب ذلك العصر، السيّد علي بن أحمد بن معصوم صاحب سلافة العصر، معتذراً إليه، وهو بالمثناة عن رحيله إلى[٣] الطائف مع إقامة السيّد بها،

---

(١) طبعت هذه الرسالة في مقدّمة كتاب تنبيه وسنى العين .

(٢) وله ديوان شعر، نقل عنه في كتابه هذا .

(٣) في «ن»: عن .

وهي من آيات البلاغة، ومعجزات الصياغة، وهي :

أهلّ وادي المثناة إنّ حكم الد ... هر يبين عن سوحكم ويعاد
فعزامي قرباً وبعد عزامي ... وودادي وصلاً وصدّاً ودادي

هذه صحيفة اعتذار، بل صفيحة بتّار، فتكت بفؤاد الراقم، ثمّ ساورته في الطروس مساورة الأراقم، وخطّ حاكة القضاء والقدر أبدع حوك، ووقف كاتبه بين الكيس والنوك، أراه وكأنّ سطوره أغصان شوك .

يردّ على المرء في أيّام محنته ... حتّىٰ يرىٰ حسناً ما ليس بالحسن

كلاً والقمر، والليل إذا أدبر، والصبح إذا أسفر، لئن عزم المحبّ على السفر، وقابله منه اليمن والظفر، وكان حظّه منه الأوفر، وقد عذر المولىٰ في الفراق وغفر، فسيصلىٰ منه سقر، وما أدراك ما سقر، نار شوقٍ يلتهب، وتقسّم فكرٍ للرقاد ينتهب، ونفس لوّامةٍ كلّما أنيمت تهب .

غربةٌ فارضيّةٌ وغرام ... عامريٌ ومحنةٌ علويّة

والعيش أسعدك الله كالجيش، منتظم الأمر بعيداً عن الطيش، إن لم يكن كذلك أضلّ المسالك، وأورد المهالك، أميره القلب القارّ، وسلاحه تصرّف الأفكار، وعتاده السكن بالأهل والولد، وزاده الأنس بالصحاب وأهل البلد، وأين القلب فيحكم له بالقرار، وهو المقيم لديكم إذا علا الجسم الأكوار، وأنّىٰ بالفكر وهو الزيبق الفرّار، والشوق النار، وكيف السكن والأنس عند من يرىٰ أنّه استبدل الجنّ بالإنس .

وما ينفع الحرّان ذا اللوح أن يرىٰ ... حياض القرىٰ مملوءةً لا يذوقها

فلا أقلت شخصي قدم، ولا أقلت من ندم، ولا أفلت من سدم، إن لم أكن أرىٰ

وجداننا كلّ شيء بعدكم عدم. نعم يا مولانا أعتذر عن الرحيل، بأنّ جنابي[١] محيل، وأخصابي بالقرض في هذه الأرض مستحيل، وأقدر أن أزيد علىٰ هذا القول المفيد.

فأقول: وقد ضعف الطالب والمطلوب، واستوى الغالب والمغلوب، وأكدى الحالب، وجفّ المحلوب، وجهد سعي القدم من تحت واللسان من فوق، وكلّ القدوم من النحت والسوط عن السوق، وكنت والدين كالفرقدين، أو كندماني جذيمة ونخلتي حلوان، فقد باعد في هذا الزمان والمكان، مباعدة الثرىٰ لسهيل[٢]، ومباينة النهار بالليل، وبان بين كليب ووائل[٣]، والقارض العنزي في الأوائل، وأطلق في مثل هذا عنان القلم، وأرفع للسارين ناراً علىٰ علم، لكن عليّ في ذلك محنة أُخرىٰ، ومكيدة تفطر القلب ولو كان صخرا، ولا أُريد بذكرها فخرا، ولم أبدها لولم أكن أعدّك لتكميل عقلي وأدبي ذخرا، فأنت الذي:

تمسّكت لمّا أن ظفرت بودّه ... علىٰ حالتي وضع النوائب والرفع
بأوثق من عقلٍ وأوفق من هوىً ... وأنسب من طبعٍ وأرفع من شرع

هي أنّ هذا الشرح والبثّ، مشعرٌ[٤] بالتعريض والحثّ، علىٰ وصل الحبل والرثّ، وأنا أقسم بالله يمين من لا يمين، ولم يزل عند مولانا عن اليمين، أنّي أعتقد أنّ إفضالكم مسعد مصعد، وأنّ التحلّي به شرف عدّ، وأنّك المولى الذي ما

---

(١) في «ن»: جناني.

(٢) في «ن»: أكثر بالسهيل.

(٣) في «ن»: عن وائل.

(٤) في «ن»: مسعرٌ.

علىٰ سائله منقصة السائل، كيف لا؟ والنسب شريف، والحسب ظلّ وريف، والمنصب عالي العماد، والمحجّة متعالي[(١)] الأمجاد، والنفس عصاميّة، أربت على المآثر الغظاميّة، فالعلم خضارة ذو الوجبات، والحلم ثهلان ذو الهضبات، والكرم والسماح، يباريان الرياح، والمروءة والتقوىٰ، لهما من العصمة سببٌ أقوىٰ.

ومع ذلك فإنّي أتقلّد الحول والقوّة دون حول الله وقوّته، يمين أهل البيت المنصوص علىٰ حرمته، إن لم يكن يعتريني الألم، من كلّ إفضال ألم، ويأخذني الأرقّ والقلق، للبس جديد المنّ والخلق، وتعلوني الكآبة والحزن، ولو كان المنعم ابن ذي يزن، ولا أعدّ الموهوب من النعماء، ولو أصبحت به ابن ماء السماء، ولا ينصرف خاطري إلىٰ غير الكفاء، إذا شغل الفرح بالعطاء، خواطر ذوي الوفاء[(٢)].

ولو أنّ نفساً بين جنبيّ أعطيت مناها ومن ذا في الدنا أُعطي المنا
أتت في زمانٍ كان يفرع مثلها إلى السيف إن لم يسعف العلم بالغنا
فإمّا قضت من موقف الجدّ حجّها وإلاّ حكت بعض الأضاحي في منىٰ

لكن هذا زمنٌ ليست فيه الهمم الخيش، وعدّ أربابها من جمال بني أقيش، ولو عرض علىٰ غير مولانا ما قلت لعدّه من الحمق والطيش، وتمثّل بقول عوام مكّة «فقر الزيا لعدو تيه قريش».

وطالما قلت متنصّلاً من لؤمهم، متوصّلاً إلى العذر داخلاً في سومهم، أي كذا خلقت، فما ينفع النحاة ما اختلفت، وأدواة الشرط والاستفهام تأبىٰ إلاّ الصدر، وإن

(١) في «ن»: متتالي.
(٢) في «ن»: العطاء.

ركبت مع كلام سافل القدر، وشواظ النار يطلب المخيط[١]، وإن نكصه القابس مع البسيط.

طبعت علىٰ ما في غير مخيّرٍ بشيءٍ ولو خيّرت كنت المهذّبا
أُريد وما أُعطي وأُعطى ولم أرد وغيّب عنّي أن أنال المغيّبا

إلىٰ قوله منها، ولم يكن هذا التفصيل يليق نشره في ذلك الجناب، لكن مولانا القائل وما دون الصديق حجاب، وأقسم بالله المعبود أن ليس المقصود إلاّ بيان العذر الجميل، من فراق هو عندي الخطب الجليل، وحسبنا الله ونعم الوكيل. إنتهت الرسالة المذكورة، وهي كافية في إثبات الدعوى المزبور.

وله نثر كثير، أورد منه جانباً الفاضل المؤرّخ السيّد محمّدأمين، مؤلّف الحانة ذيل الريحانة[٢]، وهو كتاب جليل حافل، ترجم فيه أُدباء عصره، ومن جملة من ترجم والدنا رحمه الله تعالىٰ، وأورد جانباً عظيماً من نظمه ونثره، مع مراسلات صارت بينهما.

وأمّا شعره، فقد أوردنا منه جانباً في تضاعيف هذا الكتاب، يظهر ذلك لمن تأمّله من أوّله إلىٰ آخره، ومن مراسلاته الغزليّة:

ولي واحدٌ ما لي من الناس مثله وما طالبٌ مثلاً لعلياه واجد
هو الخلق جمعاً في المزايا وأنّني أرىٰ أنّه الدنيا وإن قلت واحد
فيا مونسي لا فرّق الله بيننا دعاء عليه للقبول شواهد
سأسعد باللقيا كأن لم يكن نوىٰ ولا أقفرت للإنس منّا معاهد

---

(١) في «ن»: المحيط.

(٢) لم أعثر علىٰ عنوان الكتاب في كتب التراجم ولا علىٰ مؤلّفه.

فمت كمداً يا حاسدي فأنا الذي يصحّ هوىً والجسم بالشوق بايد
ولو كنت بالتقصير في الحقّ كالذي فلي صلةٌ ممّن أحبّ وعائد

وله رحمه الله تعالىٰ:

لئن نأت بك عنّي فرقةٌ ونوىٰ فقد دنا بك منّي الشوق والفكر
فكن كما شئت في قربٍ وفي بعد فالقلب يرعاك إن لم يرعك البصر

وممّا كتبه إلىٰ أديب عصره، صاحب سلافة العصر لأمر مقتضى، وهو بمكّة سنة (١١١٤):

وأعظم ما يلاقيه محبٌّ له في قرب من يهوي شؤون
فراقٌ قد قضاه عليه دهر يدور كما يدور المنجنون
إذا ما حاول الشكوىٰ يداوي بها البلوىٰ تظنّ به الظنون

فأجاب بأبيات أوّلها هذه:

لك الإخلاص والودّ المصون فحاشا أن تظنّ بك الظنون

فأجابه[١] رحمه الله تعالىٰ بقصيدة فريدة، هي من أعظم أمثلة الجناس التامّ الذي هو أعزّ الجناسات البديعيّة، وإذا تأمّلتها علمت قوّة علمه، وهي هذه:

حمدت الله أحمد ما يكون علىٰ مولىً تقرّ به العيون (الباقر)
علىٰ من نماه إلى المعالي إلى المختار ساداتٌ عيون (كبار القوم)
فإنّ وجوده نعمي خصوصاً بمكّة حيث تجتمع العيون (الجماعات)
وكم شهدت عيونٌ في بلاد بذاك وكم به عمرت عيون (النواحي)
فمن أدبٍ وفضلٍ مستجاد لغيث منه تنبجس العيون (عيون الماء)

---

(١) في «ن»: وقال.

وإفضال له التقوىٰ مدادُ | فلا يخشىٰ وإن قلّت عيون (النقود)
وأخلاق كرامٍ ليس تردا | بصرف الدهر هل تصدى العيون (الذهب)
حباني بالمودّة واجتباني | كما تختار باللبّ العيون (خيار الشيء)
وأنعم إذ بعثت إليه شعرا | كميزان تجاذبه العيون (عين الميزان)
فقابل منه مجتلباً بدرّ | بعقد حلاه تفتخر العيون (مناظر الرجال)
وأشكاني من الزمن المناوى | وقد قصدت له نحوي عيون (جواسيس)
بقيت لنا بعافيةٍ وعزّة | وعندك كلّما تهوى عيون (حافرة)
عدوّك رهن معطشةٍ وقحط | وتسقي من يواليك العيون (السحاب)

وقال: وفيه لزوم ما لا يلزم، وفنّ التلميح:

يا سائلي عن مكسبي | ما القصد منّي ما يصم
لكنّه بثٌّ ينادي | من له دهري مصم
أنا أحمد بن أبي دؤاد | لو وجدت المعتصم
وحبيب الطائي وا | لطوسي عنه منغصم
والعسكري وانما | ز من ابن عبّادٍ قصم
والحاتمي وأين آل | بويه عن هذا الخصم
أنا من ذكرت وإنّما | أنا بالمهيمن معتصم

ولنلزم عنان القلم عن الجري في هذا المضمار، فغايته لا يدرك لها قرار، فما أوردناه إنّما هو[1] لمعة من رياض، وجرعة من بحر فيّاض، وإنّما أردنا بما أوردنا إثبات ما قدّمناه، من الدعوى المعربة، لئلاّ يقال: كلّ فتاة بأبيها معجبة، فوربّ

---

(١) في «ن»: وإنّما أردنا بما أوردناه فإنّما هو.

السماء والأرض إنّها لدعوىٰ لا يتطرّق إليها المنع، ولا الحلّ ولا النقض، فإذا سبرت الحقيقة بعين الانصاف كلّ السبر، علمت بأنّه الفاضل الحبر.

ولد ـ رحمه الله تعالىٰ، وأفاض علىٰ قبره الشريف شآبيب غفران توالىٰ ـ سنة ألف وثنتين وسبعين، وتوفّي في السنة المذكورة، لم يعقب من الذكور إلاّ مؤلّف هذا الكتاب، بلغه الله سعادة الدارين ببركة دعائه المستجاب.

وفاة السلطان إسماعيل ملك الغرب:

وفي هذه السنة: توفّي الملك المعظّم، والسلطان المكرّم المفخّم، ذو السطوات الحيدريّة، والعزمات الاسكندريّة، السلطان إسماعيل ملك القطر الغربي، وكانت مدّة سلطنته خمساً وخمسين سنة، وله أخبار غريبة، وقصص عجيبة:

منها: الإقدام علىٰ سفك الدماء، فكان القتل عنده جرعة من ماء، مع تعظيمه لأهل العلم وأربابه، والمتمسّكين بأذياله وأهدابه، خصوصاً من عني بفنّ الحديث النبوي وآدابه.

ومن غرر أخباره: أنّه يجمع العلماء يوماً في السنة في داره لقراءة شيء من الحديث، فيصنع لهم مائدة جميلة، ويدفع إليهم فائدة جزيلة، ويمنع جميع الخدّام عن تعاطي الخدم، ويقوم بها هو بنفسه، واقفاً لديهم علىٰ قدم، وناهيك بهذه الصفة الحميدة، التي قلّ أن يصدر مثلها من ذوي الآراء السديدة.

ومن جملة ما اشتهر عنه من اعتنائه المثاب عليه، واعتقاده الذي يصير في الدار الآخرة مستندة لديه[1]: أنّه لا يرحل في سفر من الأسفار إلىٰ قطر من الأقطار، حتّىٰ يستحصب معه كتاب صحيح البخاري، ويجعل له خدّاماً كثيرين،

---

(١) في «ن»: إليه.

وخيمة لم يزالوا بها محدقين، ومحملاً عظيماً يوضع فيه وقت الارتحال، محفوفاً بنهاية الإعزاز والإجلال، ومن يلوذ به من ذوي الجرائم العظام، لا يقابل إلاّ بالعفو والإكرام، وله غير ذلك من الأوصاف الصالحة، والأعمال الفالحة.

وضبط مملكة المغرب ضبطاً لم يعهد له نظير، بصولته الباهرة وحسن التدبير، وجمع جميع الممالك الغربيّة إليه، حتّىٰ صارت كلمة إجماع عليه، وبلغنا من ثقات أهل تلك البلاد أنّه أعقب ما يناهز الأربعمائة من الأولاد.

توفّي واستقرّ الملك بعده في ولد له يسمّىٰ عبدالله، سلك مسلك أبيه في جميع ما تقدّم من الصفات، وفّقه الله تعالىٰ لبذل الحسنات.

حوادث سنة أربعين ومائة وألف

ثمّ دخلت سنة (١١٤٠) أربعين ومائة وألف.

خروج شريف مكّة إلىٰ نواحي الشرق:

وفي أوائلها: خرج شريف مكّة المعظّمة، والمتحلّي بعقود ولايتها المنظّمة، إلىٰ ناحية الشرق بخيله وعساكره، وبني عمّه المطيعين له في موارده ومصادره، إلىٰ أن حطّت ركائبه السنيّة، في موضع يقال له: الذويبيّة، فطنّب بها خيامه، وثقف مرهفه لأعدائه، وجرّد حسامه، واستمرّ هناك إلىٰ جمادي الأُولىٰ من السنة المذكورة، ثمّ عاد بعد أن مهّد تلك المهامّة والمهاد.

رخاء الأسعار في هذه السنة:

وكانت هذه السنة من أرخى السنين في الأسعار، وأكثرها في الأمطار، اشترينا البرّ الهميس بالطائف الكيلة بأربعة ديوانية ونصف وخمسة ديوانية، والنقرة الصافية بسبعة ديوانية، والشعير بديوانيين ونصف، والعسل الرطل بأربعة ديوانية، وهو من أعلىٰ طبقاته في البياض، والزبيب النعماني بأربعة ديوانية، والتمر

بديواني ونصف، والفواكه كثيرة جدّاً رخيّة إلى الغاية.

والصرف القرش العمّال المشار إليه في الصكوك الشرعيّة بأربعين ديوانياً، والأحمر المعاملة عن قرشين من قروش العمّال، والأحمر المشخّص والمغربي، والأحمر المسمّىٰ باسلامبول، كلّها بسعر واحد، كلّ واحد بأربعة قروش عمّال، والريال الحجر والفرانسة بقرشين وثمن بالديوانية، والريال المسمّىٰ بسكّة المرأة بقرشين (١).

وهذه الطريقة لم نكن سلكناها قبل هذه السنة، وأمّا من هذه السنة، فنسلكها لحادثة وقعت اقتضت ذلك.

ظفر الشريف محسن بن عبدالله علىٰ قبيلة ظفير:

وفي أواخر جمادي الثانية: وصلت البشائر المجديّة، بالفتوحات النجديّة، وهو أنّ صاحب نجد السيّد الشريف، والغضنفر الغطريف، مولانا وسيّدنا السيّد محسن ابن عبدالله بن حسين، المؤلّف هذا الكتاب باسمه دام مجده وإقباله، صال علىٰ قبيلة ظفير، كأمير وبني الحسين السبط، ومن معهما من قبائل الأعراب، وهم جموع لا يحصيهم عدد ولا حساب، وحشرهم في موضع يقال له: اليمامة، وفرّق أقوامه خلفه وأمامه، وأناخ إبلهم خمسة وثلاثين يوماً، وأراهم حصاراً لم يألفوه، وأذاقهم قتلاً لم يعرفوه.

وفي كلّ يوم من تلك الأيّام يقتل جانباً من الخيل والأقوام، إلىٰ أن ظفر بهم بعد ذلك القتال، واستباح القوم الأرواح والأموال. وأمّا النساء، فوقف عندهنّ بنفسه الشريفة، وهيّأ لهنّ ما يحملهنّ عليه إلىٰ بعض المنازل الفيحاء الوريفة، وكانت

---

(١) راجع: خلاصة الكلام ص ١٨٣، نقل عن هذا الكتاب.

واقعة عظيمة، وحادثة جسيمة، لم يعهد لها في تلك الأقطار نظير، ولا حدث بمثلها همٌّ كبير.

لعمري لم تسر الركاب بمثلها ... ولا نظّمت أنظارها قطّ في شعر

وفاة السيّد بشير بن مبارك الحسني:

وفي خامس شهر رمضان من السنة المذكورة: توفّي السيّد الشريف، والسند الغطريف، ذو الأخلاق الحسنة، والصفات المستحسنة، مولانا وسيّدنا السيّد بشير ابن مبارك بن فضل بن مسعود بن الحسن بن أبي‌نمي، تغمّده الله برحمته، وأسكنه فسيح جنّته، صحبناه مدّة من الزمان، ولازمنا بابه، وتفيّأنا ظلال فضله، ولبسنا أثوابه، فجزاه الله عنّا أفضل الجزاء، وجعل نصيبه من الدار الآخرة أوفر الإجزاء.

كان مولده الشريف سنة سبعين بعد الألف، فهو أكبر من أخيه المتقدّم ذكره بسنتين، وقد مدحهما والدنا - رحمه الله تعالىٰ - كلاهما معاً في قصيدة، وقد أتيا من سفر كانا فيه، وهي:

تبسّم الدهر عن ثغر الرضا طرباً ... والسعد ساقٍ لنا المأمول والطلبا
وأسعف الجدّ قصد المستحقّ له ... والحظّ قد يسعف الإنسان بعد أبا
بدت شموس العُلا والفضل مشرقةً ... وأسفرت عن محيا كان محتجبا
روّت غيوث الندا أرضاً أضرّ بها ... فرط الظماء فلن تستمطر السحبا
وقد تجلّت نجوم السعد من أُفق الأ ... سفار أكرم بها نأياً[1] ومقتربا
من آل فضلٍ ومسعودٍ وهم غررٌ ... في آل طه نجوم الأرض نصّ بنا
سرتم وابْتم وحزتم كلّ منقبةٍ ... في حالتي سيركم بدءً ومنقلبا

---

(١) في «ن»: رأياً.

لقد حميتم جناب اللائذين بكم | وحزتم الأجر في الحجّاج والغربا
وحين أبتم أغثتم أنفساً تلفت | بالشوق كابدت الأوصاف والنصبا
لئن أضرّ بذي ودٍّ فراقكم | فكم به للورىٰ من صالحٍ جلبا
وإنّما أنتم غيثٌ يصرفه البا | ري فتلفيد حيث النفع منسكبا
بمطلع النيّرين السعد لاح لنا | في يوم مقدمكم والنحس قد غربا
يا فرقدي أفق العليا ومن بهما | عند السرىٰ يهتدي من العلا طلبا
يا مالكي رقّ ودّي لا أستبدّ به | سواكما أحدّ جدّاً ولا لعبا
قد أعتب الدهر لا عتب علىٰ زمنٍ | أنال قربكما بعد النوىٰ وحبا[١]
إنّي غفرت لدهري كلّ سيئةٍ | أنخىٰ عليّ بها في جنب ما وهبا
فيالها نعمةً جاد الإله بها | لنا علىٰ غير وعدٍ كان مرتقبا
أضحت[٢] دليل رضا الباري ورأفته | بالخلق فليشكروا فالشكر قد وجبا
إلىٰ بشير خدين المجد وارثه | كذا شبيرٍ سليل السادة النجبا
وجّهتها من فؤادٍ قد تملّه الو | دّ الأكيد وقد أرسىٰ به الطنبا
وافت تهنّيكها حسن الاياب إلى الأ | وطان بعد بلوغ القصد والأربا
وما حويتم من الأجر الجزيل وقد | قلّدتم العجم بالمعروف والعربا
لا زلتما مقصد العالي وبغيته | إلىٰ جنابكما تحدوا الورىٰ النجبا
ودمتما أبد الأيّام في دعةٍ | ما رنّحت عذبات البان ريح صبا

---

(١) في «ن»: وجبا.

(٢) في «ن»: أضحىٰ.

وله فيه[١] ـ رحمه الله تعالىٰ ـ غير هذه القصيدة، وأعقب من الذكور خمسة، وهم: السيّد مبارك، والسيّد سليمان، والسيّد سعيد، والسيّد حسن، والسيّد عبدالله، وكلّهم بحمد الله تعالىٰ ممّن سلك سبيل الهداية، وحمدت سيرته إلى الغاية والنهاية.

وفاة السيّد أحمد بن أبي بكر بن عقيل المكّي:

وفي هذه السنة: توفّي إلىٰ رحمة الله تعالىٰ السيّد الجليل، والسند الأصيل، السيّد أحمد بن أبي بكر بن عقيل، وكان قد بلغ من السنّ الثمانين، وهو مقيم ببلد الله الأمين.

وأعقب من الذكور ولدين، هما في علوّ الهمّة واكتساب العلوم كالفرقدين، الأصغر منهما السيّد عمر، والثاني السيّد حسن، وكلاهما قد سار إلىٰ إحراز المعاني علىٰ أقوم سنن.

إلاّ أنّ الأصغر منهما قد برع في اكتساب الفضائل، وصار في مكّة علماً لكلّ سائل، ومعلّماً يلوذ به أرباب المسائل، أقرءا بالمسجد الشريف المكّي صحيح البخاري، فأقرّ بالفضيلة له كلّ ذي زند واري، وأقرءا غيره من كتب الفقه والعربيّة، وسائر العلوم الأدبيّة، وله بلاغة وبراعة، شيّد بهما معاني علمه ورباعه.

طالما دعته الملوك والأعيان، لتعاطي العقود النكاحيّة في جميع الأزمان، فتصدّر المجلس الغاصّ، من العامّ والخاصّ، ويتلو الخطبة البديعة عن ظهر قلبه الشريف، فكأنّها المياه العذبة، في مجاريها بل الرياض الباسقة، والزهور المتناسقة.

وله مع ذلك أخلاق حسنة، وصفات مستحسنة، وهمّة عليّة، وشهامة علويّة،

---

(١) في «ن»: وقيل فيه.

صحبناه من مبدء السنّ إلىٰ حين هذه الكتابة، فلم نر منه إلاّ الجميل الذي هو من نتائج أخلاقه المستطابة. جزاه الله تعالىٰ عنّا خير الجزاء، وجعل نصيبه من سعادة الدارين أوفر الإجزاء.

وفاة الشريف عبيدالله بن حسن بن جودالله الحسني :

وفي عاشر جمادي الأُولىٰ من السنة المذكورة: توفّي إلىٰ رحمة الله تعالىٰ حضرة السيّد الأمجد، والسند الأنجد، السيّد الشريف عبيدالله بن حسن بن جودالله ابن حسن بن أبي‌نمي.

وكان هذا السيّد الشريف من أعاظم السادة آل جود الله ابن الحسن، وممّن تثني عليه الخناصر في حلّ المشكلات ودفع الفتن، توفّي بالمبعوث، ثمّ نقل إلى الطائف ودفن به. وأعقب من الذكور أولاداً كثيرين، منهم: السيّد دخيل الله، والسيّد عجلان، وغيرهما.

وفاة الواعظ يحيىٰ أفندي :

وفي ثالث عشر شهر رجب من السنة المذكورة: توفّي إلىٰ رحمة الله تعالىٰ المقام الجليل، والمرام العالي النبيل، الفاضل التقي الصالح، يحيىٰ أفندي بن جعفر أفندي، الواعظ بالحرم الشريف. مات بمكّة المكرّمة، ودفن بالمعلاّة، وأعقب من الذكور ولدين: عبدالله، وعلياً، وفّقهما الله تعالىٰ.

وفاة السيّد جعفر بن السيّد أحمد ميرك :

وفي تاسع عشري شهر رجب من السنة المذكورة: توفّي قطب دائرة الوجود بمكّة المعظّمة، والمتحلّي بعقود الرئاسة المنظّمة، السيّد الجليل العارف، والأيّد في اكتساب الفضائل والمعارف، السيّد جعفر بن المرحوم السيّد أحمد ميرك، قدّس الله سرّه، ووجّه إلىٰ روحه الشريفة كرمه وبرّه.

وكان في مبدأ حاله ذا صبوة غزليّة، ونشأة باحتساء كؤوس الخمرة العمليّة، ثمّ انتقل من ذلك إلىٰ موضع احتجب فيه، عن الخروج إلىٰ خليل يوافيه، وشرع يستألف قلوب الناس، ببذل لطائف التودّد والإيناس، وأنزل نفسه الشريفة منازل الذلّ والهوان، والخضوع والتواضع لكلّ إنسان، من تلم الأيدي وتقديم الأحذية، وتطييب الماء المغني عن لذيذ الأغذية، واستمرّ علىٰ ذلك مدّة من الأعوام، والقلوب منجذبة إليه من خاصّ وعامّ، ثمّ ترك بعض تلك المفاعيل، معتذراً بأنّ مزاجه الشريف لا يخلو من توعّك قليل، ولم يزل يتركها شيئاً فشيئاً .

وفي أثناء ذلك تحسّن أحواله، ويرتفع مقامه، وتنمو أمواله، حتّىٰ صار معروفاً في جميع الأقطار، ويقصده المعتقدون له غيباً للتبرّك به في الأمصار، واختصّ بالاعتقاد فيه آل زيد بن محسن بن الحسين بن الحسن، ملوك مكّة المشرّفة في ذلك الزمن، وصار كعبة مقاصدهم، ومنهل صادرهم وواردهم .

فارتقىٰ بذلك أيضاً مكاناً عليّاً، تحسده عليه نجوم الثريّا، خصوصاً في أيّام شرافة صاحب الترجمة، وشرافة والده، فقد أحرز فيهما الحظّ الأوفر، من طارف المجد وتالده، وبني في ذلك الدور بعض الدور الحسان، وزخرفها بأنواع الألوان، واختصّ منها فريدة بالسكنىٰ، وأمر أن يدفن بها إذا صار إلىٰ جوار المقام الأرفع الأسنىٰ .

واستمرّ ساكناً بها مدّة حياته، محتجباً فيها عن أوضاع هذا الدهر وترّهاته، مختلياً فيها بنفسه الشريفة عن الخلائق، مشتغلاً بالعبادة اللائقة بذات الخالق، مظهراً لآثار نعمته عليه، ممتنعاً عن قبول ما يجبىٰ من الفتوحات الماليّة إليه .

ولمّا استتبّت له مطالبه، وطلعت في سماء الشهرة نجوم صيته الشريف وكواكبه .

وسار مسير الشمس في كل بلدةٍ   وهبّت هبوب الريح في البرّ والبحر

ترك القيام المتعارف في المحافل، لكلّ وارد عليه وداخل، وصار يعطي يده الشريفة للتقبيل، بل أكفّ رجله لأغلب الجلّة إلاّ القليل، وبدّل ذلك المسلك الأوّل بضدّه، مع بذل اللطف وإظهار رغبته، عن زخارف الدنيا وزهده .

وكان ملبوسه الشريف من أفخر ما يرىٰ، ويدفع فيه أغلا القيم في وقت المشترىٰ، وكذا الطيب بجميع أجناسه، وبه كان تمام إيناسه، واشترىٰ جانباً عظيماً من الجرايات المصرية، والموادّ الصرية، والعثمانية الجداوية، وتحت يده ضروب من النقد المضروب .

وأمّا العلوم، فليس له بها إلمام، إلاّ فأوهبه إيّاه من الملك العلاّم، واستمرّ علىٰ هذه الصفة نحواً من عشرين سنة، وهو لعيون الناس قرّة، وللقلوب حسنة، حتّىٰ عرض له بعض الأمراض، فنقله الله تعالىٰ إلىٰ دار البقاء الثابت من دار الأعراض، ودفن بدار سكناه، وبها يعمل راتبه ومحياه، وهي بأسفل مكّة علىٰ طريق الداخل من طوىٰ. وأمّا عمره الشريف، فأخال أنّه قد ناهز الثمانين .

وفاة الشيخ عثمان بن الشيخ أحمد شمس :

وفي هذه السنة: توفّي الشابّ الصالح التقي الفاضل، الشيخ عثمان بن الشيخ أحمد شمس المتقدّم ذكره .

وفاة الشيخ محمّد العناتي المغربي :

وفي أواخر هذه السنة: توفّي الشيخ التقي الفاضل، العالم الحافظ البارع العامل، شيخنا وأُستاذنا الشيخ محمّد العناتي [١] المغربي المالكي .

قدم إلىٰ مكّة المشرّفة في موسم سنة تسع وثلاثين، قاصداً حجّ بيت الله الحرام،

---

(١) في «د»: العنابي .

والتبرّك بالمشاعر العظام، والعود من عامه، إلىٰ مسقط رأسه، ومغني فطامه، فعرض له بعض المصائب الدنيويّة، فجاور بسببها سوح تلك البنية، وشرع في بثّ العلوم، ونثر درّها المنظوم.

قرأت عليه في ضمن تلك المدّة شرح مختصر التلخيص، وبعض رسائل الاستعارات، وسمعت منه جانباً من صحيح البخاري يمليه من حفظه، جزاه الله عنّا أفضل الجزاء، وجعل نصيبه من الآخرة أوفر الإجزاء. مات بمكّة المشرّفة في آخر السنة المذكورة، ودفن بالمعلاّة.

وفاة الشيخ شرف الدين المصري الشافعي :

وفي آخر هذه السنة: توفّي إلىٰ جوار ربّه، الشيخ الجليل العارف بالله، الشيخ شرف الدين المصري الشافعي، المجاور بمكّة المشرّفة. أقام بها برهة من الزمان، وهو عاكف علىٰ عبادة الديّان، اجتمعنا به مراراً، نفعنا الله به وبأمثاله.

وفاة القاسم المتوكّل إمام اليمن :

(وفي هذه السنة: توفّي إمام اليمن القاسم بن حسين الملقّب بـ«المتوكّل» وتولّى الإمامة بعده ولده الحسين الملقّب بـ«المنصور» ووقعت منه وعليه حروب عظيمة، ويكون فيها هو الغالب، وقتل ابن الأحمر شيخ ركب حائد بكيك، وحبس عيوناً من أبناء الأئمّة في القصر بصنعاء)[1].

حوادث سنة ألف ومائة وإحدىٰ وأربعين

ثمّ دخلت سنة (١١٤١) ألف ومائة وإحدىٰ وأربعين، والأسعار قد ارتفعت قليلاً، وأمّا المعاملات وصرفها، فهي باقية علىٰ مقادير السنة التي قبلها من غير

---

(١) ما بين الهلالتين من نسخة «د» فقط.

زيادة ولا نقص .

وفاة الشيخ يحيى بن عبدالقادر المكّي :

وفي ثالث شعبان منها: توفّي المقام الأجلّ، والمرام المبجّل، ذو الأخلاق الرضيّة، والمزايا المرضيّة، الشيخ يحيى ابن المرحوم الشيخ عبدالقادر، مفتي مكّة المشرّفة سابقاً، المتوفىٰ في سنة (١١٣٨) ثمان وثلاثين ومائة وألف .

صحبناه برهة من الزمان، فوجدناه حديقة فضل وإحسان، تقلّد منصب الفتيا بمكّة المشرّفة بعد وفاة أبيه، وظهر عليه مصداق الولد سرّ أبيه، ثمّ نقل عنه لأسباب اقتضت ذلك، من ولاة تلك الأقطار والمسالك، ولم يزل بعد ذلك في الاجتهاد، فأجاب داعي الحقّ قبل بلوغ المراد .

وكم من فتىً قد رام أمراً وفاته   وقبل بلوغ القصد لاقىٰ حمامه

وفاة الشيخ محمّدصالح بن عبدالهادي الطاهر :

وفي هذا الشهر أو الذي قبله: توفّي الشيخ الجليل، الفاضل النبيل، الشيخ محمّدصالح بن المرحوم الشيخ عبدالهادي الطاهر المتوفىٰ في سنة (١١٣٨) ألف ومائة وثمانية وثلاثين، وكان ذا أخلاق حسنة، وخلّة مستحسنة .

وفاة الشيخ محمّد بن عبدالله المغربي المحدّث :

وفي أواخر جمادي الآخرة: توفّي عالم الأقطار الغربيّة وعلاّمها، والمنثور[١] لديه ألوية فضائلها وأعلامها، إمام الفضائل، ومالك زمام علوم الأوائل، مولانا الشيخ محمّد بن عبدالله المغربي المالكي المحدّث .

وكان هذا الشيخ جامعاً لأغلب العلوم، ناشراً بالتدريس درر عقدها المنظوم،

---

(١) في «ن»: والمنثورة .

مشتهراً بالحديث النبوي الشريف، مكثراً للتدريس منه في سوح بيت الله العالي المنيف، وكان يهاجر إلى المدينة المنوّرة في كلّ سنة مرّة، ويشتغل فيها ببثّ العلوم، إلىٰ أن قضي عليه بها في السنة المذكورة، فطوي سجل فضائله المنشورة .

حوادث سنة ألف ومائة وثنتين وأربعين

ثمّ دخلت سنة (١١٤٢) ألف ومائة وثنتين وأربعين، وفيها قلّت الأمطار، وارتفعت الأسعار، وأمّا المصارفة، فهي علىٰ حالها مع تفاوت قليل لا يذكر .

وفاة القاضي حسن الفصيحي المنجّم :

وفي يوم السبت ثامن عشر جمادي الأُولىٰ من السنة المذكورة: انتقل إلىٰ رحمة الله تعالىٰ القاضي حسن بن القاضي محمّد بن القاضي أحسن الفصيحي المنجّم الماهر .

وكان هذا الرجل ذا معرفة تامّة بعلم الفلك، وفكر سبّاح يهتدي به من عرف سبل هذا العلم وسلك، له فيه الفوائد العزيزة، والجداول الوجيزة، منها: جداوله التي سمّاها عقد الدرر المحلول، موضوعها معرفة أعمال السنة من الأهلّة، والخسوفات والمقارنات وسير الكواكب، كلّ شهر في صفحة، فالسنة في اثني عشر صفحة عن ستّ ورقات، عمل منه إلىٰ عام ستّين من المائة الثانية عشر أو أكثر بقليل، نفع به العالم بعد وفاته، كما كان هو في أيّام حياته .

وله مشاركات أُخر في بقيّة العلوم، غير أنّه بهذا العلم صار مشهوراً ومعلوم، وأباؤه فتية علماً ومصابيح هدىً، لكلّ حادثة ظلماً، مع رئاسة دنيويّة، وحظوة عند ملوك مكّة السادة النمويّة .

ويعرف هذا البيت ببيت حكيم الملك، وترجم رجالاً منه أديب العصر، صاحب سلافة العصر، ولم يبق من هذا البيت الجليل، إلاّ هذا الرجل الفاضل النبيل، وبموته

انقرض هذا البيت، وسبحان الوارث لكلّ حيّ وميت، درج رحمه الله تعالىٰ، ولم يعقب إلاّ بنتاً واحدة .

وفاة الشريف علي بن الشريف سعيد الحسني :

وفي هذه السنة: توفّي السيّد الشريف، والهمام الغطريف، الشريف علي بن الشريف سعيد بن الشريف سعد، أخو صاحب الترجمة، وأحد المتقلّدين شرافة مكّة المعظّمة، وقد مرّت ترجمته، وفيها بيان مدّة ولايته، وسنة انتقاله، وإنّما ذكرنا وفاته هذا استطراداً لترتيب السنين، والله أعلم .

وفاة الشيخ عيد المدرّس المصري :

وفي هذه السنة: توفّي العالم العلاّمة، والفاضل الفهّامة، الشيخ عيد المدرّس المصري بالمدينة الشريفة المنوّرة، وكان ذا فضيلة جمّة، وتقرير واسع، قرأنا عليه ألفية الإمام ابن مالك، وجانباً من جمع الجوامع، واستفدنا منه فوائد كثيرة رحمه الله تعالىٰ .

حوادث سنة ثلاث وأربعين ومائة وألف

ثمّ دخلت سنة ثلاث وأربعين ومائة وألف .

وفاة القاضي عيد بن محمّد الأنصاري :

وفي شهر محرّم الحرام منها: توفّي فاضل أبناء مكّة المشرّفة، والرافل في حلل الفضائل، بين أقرانه من ذوي المعرفة، القاضي عيد ابن القاضي محمّد الأنصاري .

وكان هذا الرجل ذا فقه واسع، وصيت شاسع، وعزم وإقدام، أناف بهما ذكره بين الخاصّ والعامّ، يخاطب الملوك، ويزاحم الخطوب الكوارث، إذا أصاب أهل مكّة شيء من الحوادث .

له مخاصمات ومقاومات في كلّ ملمّة، تارة باللسان، وتارة بإعمال الأقلام،

وتارة بإلقاء نفسه الشريفة بين ذوي السيوف والأعلام، مع ملازمة التدريس والإفادة، وبذل التواضع لذوي الضعة والسيادة، ناهز عمره التسعين، وهو لا يحتاج في حركته إلىٰ معين، بل بحرارة قلبيّة، وهمّة وهبيّه، وفصاحة وبلاغة، أوهن بهما قول ابن المراغة، صنّف وألّف، وتقدّم في جميع الأُمور وما تخلّف، ولم أقف حين الجمع علىٰ شيء من تأليفه إلاّ أنّها مشهورة إلى الغاية .

وفاة الشيخ عبدالكريم المدرّس الهندي :

وفي جمادي الثانية منها: توفّي فرد زمانه، ووحيد أوانه، إمام فقهاء السادة الحنفيّة، بمكّة المشرّفة البهيّة، الشيخ عبدالكريم المدرّس الهندي أصلاً الحنفي مذهباً المكّي إقامة وتدريساً .

ورد مكّة المشرّفة سنة ...[١]، وأقام بها مشتغلاً بالمطالعة والتدريس، هاجراً لكلّ صاحب وأنيس، فبرع في جميع العلوم، وقلّد أعناق الأفاضل عقود فوائده من المنطوق والمفهوم، فأقبلت عليه وجوه الناس، وأدبرت عنه كلاكل الهمّ والإفلاس، فتوسّعت دنياه، وبنىٰ من الدور ما كان يتمنّاه، ونسخ حكم البيت المشهور بين العلماء (بين ذوي النهىٰ)[٢] قلت للفقر: أين أنت مقيم؟ قال لي: في محابر الفقهاء، واستمرّ بمكّة المشرّفة إلىٰ يوم وفاته، وأعقب من الذكور ولداً واحداً وهو الشيخ عبدالرحمٰن .

وفاة الشريف عبدالله بن بركات الحسني :

وفي السنة المذكورة: توفّي قطب دائرة السادة البركاتيّة النمويّة، ومعقد خناصر

---

(١) بياض في النسختين .

(٢) الزيادة من نسخة «ن» فقط .

ذوي الهمم السامية العليّة، مولانا السيّد الشريف عبدالله ابن الملك العظيم أبي الفتوحات الشريف بركات، رحمه الله تعالىٰ رحمة الأبرار، وحشرهما مع أجدادهما الأئمّة الأطهار. وأعقب من الذكور فتية فاخرة، وعصابة بحار مكارمها زاخرة.

قومٌ تخال وجوههم إن أسفرت يوم الفخار أهلّة الأعياد

جلوس السلطان محمود بن السلطان مصطفىٰ:

وفي تاسع وعشرين من شهر ربيع الأوّل منها: كان جلوس السلطان الأعظم، والخاقان الأكرم الأفخم، السلطان محمود بن السلطان مصطفى بن السلطان محمّد، ورفع عمّه السلطان أحمد بن السلطان محمّد، المتولّي في سنة ألف ومائة وخمس عشرة، وكان هذا الرفع والجلوس بأسباب وأُمور اقتضت وقوع هذا الحادث العظيم، والخطب الجسيم.

وهو أنّه لمّا تكاثرت المظالم من وزير السلطان أحمد بن إبراهيم باشا، ومن كيخيتة، حتّىٰ زاد الحال على المسلمين، اجتمع من أطراف العسكر اثناعشر نفراً لا زيادة، واستمرّوا عشرة أيّام، وهم في كلّ يوم يخرجون ويجتهدون في أن يعضدهم أحد من العساكر، فلم يصر ذلك.

وفي اليوم الحاديعشر: تكاثرت الأُمّة عليهم، فغاب منهم أحد عشر نفراً لا يدرىٰ أين ذهبوا، ولم يبق منهم إلاّ واحداً، فصار ذلك الواحد أمير هذه الأُمّة، أركبوه جواداً، وائتمروا له في جميع ما أمر، وصار عدّتهم فوق العشرة الآلاف، وفي أثناء ذلك والسلطان أحمد حافظ لوزيره وكيخيتة وأمير البحر المسمّىٰ بالقبطان، وهو في غاية الذلّة والهوان.

فأرسل إليه أمير الأُمّة المذكور بأن ادفع إلينا الوزير وكيخيتة، نريد أن نقتصّ

منه مظالم الخلق، فاضطرب حالهم اضطراباً أنحلّ عن قتل الوزير لكيخيته بيده، ثمّ قتل القبطان بيده أيضاً، ثمّ قتل الوزير بيد بعض خدّام السلطان، وأرسل إليهم السلطان برؤوس الثلاثة بناءً علىٰ أنّ ذلك غرض لهم .

فزاد الحال وكثر الجدال، وأجابوا بأنّ قتل القبطان كان ظلماً؛ لأنّه لم يصدر منه ما يوجب ذلك، وكفّنوه وصلّوا عليه ودفنوه، وأمّا قتل الوزير وكيخيته، فلم يكن لنا به غرض، بل كان مطلوبنا حضورهما حيّين نطالبهما بحقوق العباد، وماكان يصدر منهما في البلاد، ثمّ خرجوا بعدم الرضا بالسلطان أيضاً، فعرض عليهم تولية ابنه السلطان سليمان، فامتنعوا عن ذلك .

فرأىٰ هو ومن لديه من أهل الحلّ والعقد أنّه لا يطفيء هذه الغارة إلاّ إخراج السلطان محمود المذكور، وتوليته السلطنة، فقام السلطان أحمد بنفسه، وذهب إليه في الحبس وأخرجه وأجلسه على التخت، ثمّ أرسل إليهم بأن يتفرّقوا، فأبوا إلاّ بعزل بعض الأشخاص عن مناصبهم وتولية غيرهم، وقتل آخرين، ونفي جماعة، فتمّ لهم جميع ما طلبوه .

ثمّ طلب منهم السلطان محمود التفرّق، فتوقّفوا أيضاً، فأرسل شيخ الإسلام بأنّكم إذا لم تتفرّقوا وإلاّ أخرجت لواء النبيّ صلى الله عليه وآله وأخذت عليكم فتوىً، ووجّهت الجهاد إليكم، فعند ذلك تفرّقوا، فطلب ذلك الرجل الذي كان أمير هذه الأمّة، فلم يوجد له خبر ولا أثر، ولا يدرىٰ أين ذهب .

واستقرّت السلطنة العثمانيّة للسلطان محمود المذكور، وصدرت منه الأوامر العليّة إلىٰ جميع ممالكه المحروسة بالزينة، فزيّنت جميع البلدان الإسلاميّة .

وكان وصول البشير إلىٰ مكّة المشرّفة بالأمر الشريف بالزينة، وصحبته الخلعة الشريفة لصاحب الترجمة الشريف عبدالله بن الشريف سعيد، في أوائل شهر رجب

من السنة المذكورة.

ووصل من تلك الجهات تاريخ جلوس السلطان محمود الآية الشريفة، وهي قوله عزّوجلّ ﴿فاعتبروا يا أُولي الأبصار﴾[1] وهو من أغرب الاتّفاق، ثمّ نظمه الأديب صاحبنا الشيخ تاج الدين بن الشيخ عارف المنوفي مقتبساً، فقال:

لمّا فشى الظلم من قومٍ طغوا وبغوا ... في دينهم وبأمر الله ما ائتمروا
تقلّد الأمر محمود فقال لنا ... تاريخه يا أُولي الأبصار فاعتبروا

وله أيضاً:

يا سائلي عن ضبط عامٍ لنا ... طالعه في الحكم مسعود

إلىٰ أن قال:

فانظر لعامٍ يا زكي الحجا ... حسابه في الضبط معدود
في بيت شعرٍ صحّ تاريخه ... وهو بحسن السبك منضود
مليكنا عزّاً أشار اسمه ... بأنّه للملك محمود (١١٤٣)

وأرّخه أيضاً بقوله هذا:

محمود به الكفر ذهب

وهو ألطفها وأخصرها وأسلمها حشواً وركاكةً، والله أعلم.

وفاة الشيخ يونس المصري المدرّس:

وفي أوائل[2] شهر رجب من السنة المذكورة: توفّي الشيخ العالم العامل، الصالح التقي الفاضل الكامل، الشيخ يونس المصري الشافعي، المدرّس بالمسجد

---

(١) سورة الحشر: ٢.

(٢) في «ن»: أوّل.

الحرام.

وكان هذا الشيخ ذا هيبة ووقار، وفضل طار صيته في جميع الأقطار، مكث بمكّة الشريفة[١]، معتكفاً علىٰ إملاء الدروس والفوائد اللطيفة، المنطوية على المباحث العالية المنيفة، مع صلاح وعبادة، رقي بهما مراتب السعادة.

هذا، ولم أقف له حال الكتابة علىٰ شيء من الآثار العلميّة التي هي من نتائج الآلة القلميّة، والظاهر أنّه ليس له إلاّ ما أملاه في مجلسه الشريف؛ لأنّه لم يكن له اشتغال بالتصنيف والتأليف.

ولقد كان له مشهد عظيم، حين نقل إلىٰ جوار ربّه الكريم، وخطب له الرئيس خطبة غرّاء أمام الصلاة علىٰ جنازته الشريفة، ودفن بالمعلاّة، حشره الله تعالىٰ مع من كان يتولاّه.

وفاة السيّد محمّد بن أسعد مفتي المدينة:

وفي ثامن عشري شهر رجب المذكور من السنة المذكورة: توفّي شهيداً السيّد الجليل، والسند العالي النبيل، العالم العلاّمة، والفاضل الفهّامة، شيخ الإسلام بمدينة خير الأنام، عليه الصلاة والسلام، السيّد محمّد بن السيّد أسعد، مفتي المدينة الشريفة، ورئيس ذوي المظاهر العالية المنيفة.

قتل في ليلة المعراج الشريف، غيلة من يد شقي هذه الأُمّة، وذلك بعد صلاة العشاء، وهو خارج من المسجد النبوي، فتلقّاه هذا الشقي متزيٍّ بلباس النساء، متعرّضاً له آخذاً بيده كالمقبل لها، وفي أثناء ذلك طعنه طعنة نجلاً، قاصداً بها قتله حالاً، ثمّ هرب ودخل بيته، وطرح ما كان عليه من ذلك الملبوس، وخرج نازعاً

---

(١) في «ن»: المشرّفة.

بسلاحه كغيره .

فأنكر عليه بعض الناس، ثمّ قطعوا عليه بصدور هذا الفعل منه، فهرب مرّة ثانية واختفىٰ في بعض البيوت .

فلمّا شدّدوا في التفتيش عليه، حصلت إشارة من صاحب البيت إليه، فقبض في آخر تلك الليلة، ووضع في الحبس والأغلال .

وقبض معه رجل من بيت السيّد البرزنجي، وهو ابن أُخت السيّد عبدالكريم المقتول في بندر جدّة المتقدّم ذكر قتله، وشخص ثالث أيضاً، وهو السيّد أحمد بن السيّد يحيى[1] الأزهري .

فلمّا كان اليوم الثامن والعشرون قضي[2] على السيّد المذكور، وبعد دفنه أُحضر الضارب الشقي، وسئل عن الملجىء إلىٰ ذلك

فأجاب بأنّ هذين الرجلين دفعا لي مبلغاً عظيماً علىٰ أن أقتله لدخل له عندهما يدّعيان به عليه، ففعلت ذلك، فشنق ذلك الشقي في الحال[3]، ووضع ابن البرزنجي في الحبس والأغلال، والثالث ثارت له طائفة من العساكر وطائفة من البادية، لحلف بينه وبينهم، فعزموا علىٰ توجيهه إلىٰ شريف مكّة ليعمل به ما يقتضيه نظره العالي، وفي أثناء الطريق هرب .

وهذه القضيّة من أبكار القضايا العظام، والحوادث الغريبة بدار الإسلام ؛ لأنّه لم يكن صار لها نظير، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العلي الكبير .

---

(١) في «ن»: عيسى .

(٢) في «ن»: قبض .

(٣) في «ن»: الحين .

وفاة الشريف عبدالله بن الشريف سعيد صاحب الترجمة :

وفي خامس عشرين ذي‌القعدة الحرام ختام سنة (١١٤٣): توفّي إلىٰ رحمة الله تعالىٰ صاحب الترجمة المعظّمة، الشريف عبدالله بن الشريف سعيد بن الشريف سعد بن الشريف زيد بن محسن بن حسين بن الحسن بن أبي‌نمي، فكانت مدّة دولته سبع سنوات وخمسة أشهر وعشرة أيّام[(١)].

وأعقب من الذكور: السيّد محمّد، والسيّد ثقبة، وفّقهما الله تعالىٰ، وبلغ كلّ[(٢)] واحد منهما مأربه.

ودفن بأسفل مكّة المشرّفة برأي منه واختيار، في موضع مقابل لقبر الشيخ الولي صاحب الكرامات الباهرة، الشيخ محمود بن إبراهيم بن أدهم، وعليه بناء وتابوت، رحمه الله تعالىٰ رحمة الأبرار، وغفر له ببركة انتسابه إلى المصطفين الأخيار.

الشريف محمّد بن المرحوم الشريف عبدالله بن سعيد بن سعد بن زيد بن محسن بن حسين بن حسن بن أبي‌نمي

لمّا توفّي والده ـ رحمه الله تعالىٰ ـ في خامس عشرين من ذي‌القعدة من سنة ألف ومائة وثلاث وأربعين، كما تقدّم ذكره، كان حضرة الشريف محمّد المذكور في أطراف اليمن، أرسله والده لحفظ تلك الأقطار مع جمع من العساكر، فاستمرّ هناك إلىٰ أن دعي إلى الشرافة[(٣)].

---

(١) راجع: خلاصة الكلام ص ١٨٣.

(٢) في «د»: لكلّ.

(٣) في «ن»: للشرافة.

وكانت وفاة والده ـ رحمه الله تعالىٰ ـ آخر النهار في منزله بطوىٰ خارج البلاد، فأُخفي موته إلىٰ آخر الليل، وتوالى الأمر والتدبير إخوة المتوفّىٰ، وهم السيّد مسعود بن سعيد، والسيّد مضر بن سعيد، وغيرهما، وضبطوا البلاد، وتداخلوا هم والقاضي والعساكر المصريّة وبعض السادة الأشراف، بدفع جانب من المال علىٰ أن يكون المتولّي بعد وفاة الشريف عبدالله ولده الشريف محمّد المذكور؛ لكونه أكبر من أخيه السيّد ثقبة.

فاجتمعوا عند القاضي ليلاً وسجّلوا ذلك، ونادوا باسم الشريف محمّد أيّده الله تعالىٰ استقلالاً، وباسم أخيه الشريف ثقبة وكالة وحفظاً.

فما أصبح الصبح إلاّ وقد استتبّت أحوالهم، ونجحت آمالهم، واستقرّت البلاد، وأمنت العباد، وذهب الرسول[1] لاستدعاء الشريف محمّد للوصول.

فوصل نهار تاسع وعشرين من الشهر المذكور، ولبس الملبوس بحضور الأعيان والعساكر، ودعي له على المنابر، فحسنت بين الأنام سيرته، وكادت ترقص به فرحاً ديرته، وسنّه لم تبلغ العشرين، مع همّة لم ترض بالجوزاء لها قرين.

والمتولّي لتدبير ملكه المنيف، عمّه السيّد السند الشريف، السيّد مسعود بن سعيد، فأحكم التدبير بنهاية التسديد، ثمّ أقبلت عليهم الحجوج السلطانيّة، ولبس الشريف محمّد الخلع الشريفة العثمانيّة.

ولم تزل الحال كذلك، وأوامره المعظّمة محكمة التدبير في جميع تلك الممالك، إلىٰ أن رمى الله بينه وبين عمّه سهم التفريق، وتوحّش قلب كلّ واحد من الآخر، ثمّ

---

(١) في «د»: المرسول.

جرت بينهما منافرات ومنابذات، نشأت منها دعاوٍ ومرافعات، سنذكرها في ترجمة عمّه، إذا تشرّف هذا الكتاب باسمه، وصدر منه في أثناء هذه المدّة حادثان عظيمان، لم يؤلّف مثلهما في قديم الزمان:

أحدهما: أنّه ركب بخيله ورجله، وأحاط ببيت واحد من وجوه السادة الأشراف، وزعيم من زعماء القادة الحماة من آل عبدمناف، وهو السيّد الشريف العظيم، مولانا السيّد عبدالعزيز بن المرحوم السيّد زين العابدين بن إبراهيم، وفي مجلسه السامي المنيف، طائفة من أبناء جنسه الشريف، فما شعروا إلاّ وقد أحاطت بهم الأجناد، ووصلهم رمي الرصاص إلىٰ مجلسهم المعتاد، فوثبوا مقاتلين عن أنفسهم، وعند دورهم، فأُصيب منهم بعض أشخاص، ثمّ انحلت القضيّة بوصول كبار السادة الأشراف، فلاطفوا مولانا الشريف وردّوه إلىٰ بيته، بعد أن أفهموه بنسبة الخطأ إلىٰ جنابه والخلاف.

وسبب ذلك: أنّ أحد السادة آل بركات كان حرباً عليه، إلاّ أنّه عمل بالقانون المألوف بينهم من الدخل المعتاد، وكان في بيت السيّد عبدالعزيز المذكور، فأرسل إليه مولانا الشريف بأن يخرج من البلاد، فطلبوا منه مهلة إلى الليل، مع كونه في أجلة منه، فلم يُجْدِ ذلك إلاّ ركوبه على البيت المذكور، كما هو مشروح ومزبور.

فعند ذلك انصرفت عنه خواطر السادة، في خرقه لقانونهم الشريف وخرمه للعادة، إذ هو أمر كبير، وحادث لم يقع له نظير، فاجتمعوا في بيت زعيم منهم للمفاوضة في ذلك، وتعيين ما ينبغي أن يصدر عنهم.

ثمّ أجمعوا الأكثر على الفراق، وإقامة الحرب علىٰ ساق، وجنح البعض الآخر إلىٰ قبول ما يرد عليهم من حضرة الشريف، من الأعذار الناهضة، وسوق ما يكون فيه تجميل لهم وتخويف، لكلّ ملك عنيف، وذلك بعد المفاوضة أيضاً في تعيينه،

وتجسيمه إلى الغاية وتبيينه، ثمّ يذهب جماعة إليه ويعرضونه عليه، فإن ركب ذلك كان مجملاً لكم، ومؤدّياً لمن يأتي بعده من ولاة هذه الممالك. وإن توقّف عنه وأباه، فهمنا من ذلك مطمحه ومرماه، وقابلناه بالمباينة والفراق، وإحكام تدابير الحرب بعد الاتّفاق.

وكان هذا الرأي الجامع لمحاسن الموارد والمصادر، والساتر لكلّ خلل مضمر وظاهر، مع جعله قانوناً وسالفة، إذ لم يعهد مثله في القرون السالفة، نتيجة فكر السيّد الشريف، والأيّد في اكتساب المجد الشامخ المنيف، مولانا المؤلّف هذا التاريخ برسمه، والمتشرّف بصفاته الحميدة واسمه، سيّدنا السيّد محسن بن عبدالله ابن الحسين بن عبدالله بن الحسن، أظلّ الله سيادته، وأبّد[1] سعادته مدى الزمن.

ولعمري لقد أحكم نسج رأيه السديد، وأودعه من مراعاة جميع الأطراف ما لا عليه مزيد، يعلم محاسن هذا الرأي من شاهد القضيّة، ومحضها بآرائه الوضيئة.

ثمّ لمّا أجمع رأيهم[2] على ذلك، خاضوا في بيان ما ينبغي أن يساق، ففرضوا خمسة وعشرين من الخيل الجياد، وخمسة وعشرين من العبيد، وستّين من الإبل، مع ركوب مولانا الشريف إلىٰ دارهم لأخذ خواطرهم، والاعتراف بالخطأ عليهم، مع إرسال هذه المعدودات إليهم، فقرّت الحال، وزال ذلك الاشكال.

والثاني: أنّه بعد ذلك بمدّة زهيدة، فعل مثل ذلك أو ما يقاربه، علىٰ بيت السيّد الشريف مولانا السيّد عبدالمعين بن السيّد محمّد بن حمّود، وفيه جملة من الأشراف.

---

(١) في «ن»: أيّد.

(٢) في «ن»: آراؤهم.

وسبب ذلك: أنّه مرّ ليلة على البيت المذكور، متصيّداً لعبد من عبيد السيّد عبدالمعين، كان قد قتل أحد أولاد الشيخ الجليل الأصيل الشيخ أبي‌بكر[1] الحنبلي، فلمّا حاذىٰ باب البيت المذكور، رأىٰ جملة من العبيد مجتمعين عند الباب، ومن جملتهم العبد المذكور، فأراده فهرب هو ورفاقته، ولاذوا بالبيت المذكور.

فلمّا أحسّ أسيادهم بذلك نزلوا منجدين عبيدهم، فأوقعوا السلاح في عبيد مولانا الشريف، فرجع إلىٰ داره الشريفة وطلب العساكر، ووصل بهم إلىٰ قريب من البيت المذكور، واجتمع طائفة من السادة الأشراف عند بيت رفاقتهم أيضاً، وكاد أن يقع بينهم القتال.

لكن لمّا أراد الله تعالىٰ درأ الفتنة بينهم، حضر مولانا وسيّدنا المؤلّف هذا التاريخ باسمه الشريف، وجمع من كبار الأشراف، وحلّوا الأمر بسهولة، وردّوا مولانا الشريف إلىٰ بيته السامي المنيف، وسكنت الفتنة في أسرع وقت.

لكن قد نفرت خواطر السادة الأشراف منه، فانصرفت وجوههم عنه، وأقبلوا علىٰ عمّه إقبال الوالد الودود على الولد المفقود، وشرعوا يبرمون حبال العزل، وينقضون ما يبرمه من الغزل، ويتسلّلون من مكّة إلىٰ نواحي الطائف، حتّى استتمّ به عددهم، وحصل مقصدهم.

ثمّ خرج عمّه الشريف مسعود لاحقاً بهم، مدركاً لمأموله بسببهم، وأخرجوا من كان بالطائف من عساكر مولانا الشريف، بمجرّد الترهيب والتخويف، واستقلّوا بالطائف ونواحيه، وطلبوا من حوله من عربانه وبواديه، وصرخ منادي عمّه

---

(١) في «د»: أبوبكر.

الشريف مسعود باسمه، ودخلت العرب تحت حكمه، وكان ذلك في شهر ربيع الثاني من سنة (١١٤٥).

واستمرّوا بالطائف إلىٰ رابع شهر جمادي الأولىٰ، ونزلوا إلىٰ مكّة المشرّفة علىٰ طريق الثنية، وأرسلوا قومهم من عقبة كرا.

وسبب ذلك: أنّ مولانا الشريف محمّد دام علاه، لمّا رآهم قد طوّلوا الإقامة بالطائف، نهض إليهم بعساكره وخيوله، وصعد علىٰ طريق يعرج، فلمّا وصل إلىٰ قرن المنازل أقام[١] به ذلك اليوم للاستراحة، فبلغهم وصوله، فتأهّبوا لملاقاته يومهم ذلك، فلم يصلهم.

فلمّا صكّ الليل جعلوا أشياء تفهم ببقائهم[٢] في محلّهم، كإشعال النيران، وصدىٰ[٣] بعض الطبول، وسروا ليلتهم تلك علىٰ طريق الثنية، فما جاء الخبر بانحدارهم إلاّ ضحى اليوم الثاني، وهم فيه قد تبطّنوا[٤] تهامة، وسبقوا إلىٰ عرفة، فرجع القهقرىٰ بنهاية التعب، ومزيد النصب، إلاّ أنّه أحال بينهم وبين قومهم النازلين علىٰ عقبة كرا، ثمّ قصدهم إلىٰ موضعهم الذي وقفوا فيه للمقاتلة، وهو جبل الخطم الكائن علىٰ يسار الصاعد إلىٰ عرفات، وعنده صارت الواقعة بين الفريقين.

ثمّ انجلت في أسرع وقت عن ظفر السادة الأشراف وصاحبهم بمولانا الشريف

---

(١) في «ن»: وأقام.

(٢) في «ن»: بلقائهم.

(٣) في «ن»: وصعد.

(٤) في «ن»: تيطّنوا.

محمّد، وذهابه مكسوراً، وانحازت العساكر والطبول إلىٰ حضرة الشريف مسعود، وتوجّه الشريف محمّد وأتباعه إلىٰ جهة الحسينيّة، في ذمّة علىٰ قانونهم المعتاد.

إلاّ أنّه كانت هذه الواقعة[١] من أشدّ الواقعات[٢] وأعظمها، وأكثرها فتكاً وأجسمها؛ لأنّه لم يباشر القتال فيها إلاّ السادة الأشراف أنفسهم، ووقع فيها مقتولاً أشجعهم وأنفسهم؛ لأنّهم وجّهوا وجوه الخيل إلى العساكر، ولم يعملوا إلاّ العسالة[٣] والبواتر، والرصاص عليهم من هؤلئك الأجناد، كالمطر المتواتر على الأرض والمهاد، وهم لا يتجاوزن المائة، إلاّ أنّهم نعم العصابة والفئة.

كيف لا؟ وهم السادة النجباء الأخيار، وأبناء الفتى الفاتك الكرّار، وقد حملتهم علىٰ ذلك النفس الأبيّة، والأنفة الهاشميّة، لما أصابهم من الذلّ والهوان، اللذين لم يصبهم مثلهما[٤] في سالف الأزمان.

إذ المــرء أولاك الهــوان فأوله ... هواناً وإن كانت قـريباً أواصـرة

فإن أنت لم تقدر علىٰ أن تـهينه ... فدعه إلى اليوم الذي أنت قادرة

وقارب إذا ما لم تكن لك حيلة ... وصـمّم إذا أيـقنت أنّك عـاقرة

فلقد كانت القضيّة كذلك، إلىٰ أن رفعوه عن ولاية تلك الممالك، وكان رفعه سابع جمادي الأُولىٰ سنة (١١٤٥) ألف ومائة وخمس وأربعين، فكانت مدّة

---

(١) في «ن»: الوقعة.

(٢) في «ن»: الوقعات.

(٣) في «ن»: العساكر.

(٤) في «ن»: مثليهما.

دولته[١] سنة وخمسة أشهر واثني‌عشر يوماً.

قتل السيّد سليم بن عبدالله بن حسين الحسني:

وقتل في هذه الواقعة عدّة أشراف، وأُصيب آخرون بجروح عظيمة هائلة، كادت أن تذهب بهم لولا بقاء المدّة، وسنذكر الصنفين بالتفصيل، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

أمّا الأوّل من الأوّل، فهو السيّد الجليل، والسند الأصيل، المتفيّىء من كهف الشرف الأثيل، ظلّه الظليل، معهد الكمالات الجليّة، ومعقد خناصر أرباب الهمم العليّة، ذي الفضل الواسع، والذكر الشاسع، فارس فرسان بني الحسن، والراقي ذروة المقال بخلقه الحسن.

جمع الفضل والشجاعة والجود والتقىٰ والصلاحا

مولانا وسيّدنا السيّد سليم بن عبدالله بن حسين بن عبدالله بن الحسن بن أبي‌نمي، رحمه الله تعالىٰ رحمة الأبرار، وحشره مع أجداده الأئمّة الأطهار.

ولعمري لقد فعل في ذلك اليوم ما أذهل به عقول القوم، فإنّه حمل على العساكر والأجناد، حملات تتفطّر لهنّ الأكباد، وتذكر حاضرها بلا نكير، حملات الفرسان في يوم الهرير.

وأخبرنا بعض الثقات من العساكر، الذين كانوا في الطرف المقاتل والمناظر، بأنّنا كنّا نسمع بشجاعة علي بن أبي‌طالب عليه السلام، حتّىٰ رأيناها بالعيان، حين أقبل علينا في ذلك الميدان، والذي عدّ فيه حين أُحضر للغسيل[٢] ثمان عشرة ضربة

---

(١) في «ن»: دولتهم.

(٢) في «ن»: للغسل.

بالقليل، وقتلت تحته فرسه الجوهرة، وهي من الجياد الصافنات المشتهرة، وبسبب وقوعها استولي عليه، وإلاّ فلا قدرة للوصول إليه، تغمّده الله تعالىٰ برضوانه، وأسكنه بحبوحة جنانه .

وقد رثاه جماعة من ذوي الأدب، وابتدر لنشر صفاته كلّ مصقع وانتدب، مع التعزية والمدح لأخيه السيّد السند الأمجد، المنشد فيه «أخٌ ماجدٌ لم يخزني يوم مشهد» عين الأعيان، وفخر الأقران، وغرّة وجه الزمان، مولانا وسيّدنا وسندنا السيّد الشريف محسن بن عبدالله بن حسين المتقدّم ذكره الشريف، في تضاعيف هذا التأليف .

فممّن كتب إليه بذلك من المدينة المنوّرة، الفاضل الأديب، واللوذعي اللبيب، الشيخ زين العابدين ابن المرحوم الشيخ سعيد المنوفي، ولا بأس بنقل كتابه برمّته من منثور ومنظوم، وهو :

إنّ أغلىٰ ما تدرع المؤمن جلبابه، وأعلىٰ ما تذرع به إلىٰ ما ينال أجره وثوابه، حمد الله تعالىٰ عند نفوذ سهام المصائب المصيبة، والرضا والتسليم لحكم أحكامه المصيبة، والصلاة والسلام علىٰ من هو للصابرين قدوة، المنزل عليه خطاباً لاُمّته ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة﴾[1] سيّدنا ونبيّنا محمّد أحمد العالم بأسره، وعلىٰ آله مصابيح هدى الله تعالىٰ، ومفاتيح خزائن برّه، خصوصاً علم مجدهم الشامخ، وطود الفخار الراسخ، أجلّ من يشار إليه، وأكمل من تعقد الخناصر عليه، الإنسان الكامل على الحقيقة، وهذا التعريف كاف عن التعريف، الذي يحصر عمّن يريد حصره وتحقيقه .

---

(١) سورة الأحزاب: ٢١ .

مبارك الوجه ميمونٌ نقيبته تجليٰ بطلعته الأحداث والنوب
نور النبوّة في لألاه مؤتلقٌ للناظرين ونار العزم تلتهب
من معشرٍ شابت الدنيا ومجدهم غضٌّ وأثوابه فضفاضةٌ قشب
وفي مدائحهم فخرٌ لمادحهم وفي ولائهم ذخرٌ ومنقلب

لا زال محسناً والله يحسن إلينا بطول حياته، والدهر مغفور الجناة مادام مشرقاً بأنوار ذاته.

وبعد: فينهي العبد الذي ما برح معمور الفؤاد، بقديم العبوديّة وقويم الوداد، مغموراً بسابق الفضل ولاحقه في القرب والبعاد، قيامه بوظيفة الدعاء، حقيقة لا ادّعاء، وأداء مسنون العزاء، فيمن ضاعف الله لكم بالصبر[1] علىٰ فقده جزيل الأجر والجزاء، وقد ساء المملوك طارق الخبر، خصوصاً مع تكدّر خاطر سيّدنا متّع الله بحياته، وصانه من كلّ ضير وضرر.

ومن أجل ذلك نطق لسان الأشجان عن قريحة، ومودّة صحيحة صريحة، والمملوك وإن أتىٰ بالغثّ والسمين، وجاء بما لا يلتقي باليمين، فالثقة بإغضاء مولانا وستره، ومعاملته لمولاه بجميل برّه، جرأته أن يجعل ذلك في الكتاب مسطوراً، ويصيّره في صدر الطرس شيئاً مذكوراً.

صبراً أبا عون تفز بثوابه في فقد من نزل النعيم ثوىٰ به
صبراً علىٰ فقد الكريم أخي الكر يم ابن الكريم إلىٰ علا أنسابه
صبراً لفقد سليم الندب الذي لبّىٰ دعا المولىٰ لرحب رحابه
أكرم به من ناسكٍ متهجّدٍ يجلو دجا الأسحار في محرابه

---

(١) في «ن»: الصبر.

أعظم به من فاتكٍ متأسّدٍ ما إن يهاب الموت في محرابه
في طاعة الله الكريم وبرّه أفنىٰ زمان مشيبه وشبابه
تبكي عليه قلوبنا بدمائها ودموعنا كالغيث في تسكابه
تبكي عليه المشرفيّة والقنا ومعارك الضرغام في تلعابه
يبكي له البيت الحرام وركنه ومواقف الطاعات في أعتابه
تبكي عليه عين كلّ مهذّبٍ يدري برفعة قدره وجنابه
لكن أقول وإن تعاظم فادحٌ من خطبه وأصاب سهم مصابه
إن غاب من آل الحسين سميدعٌ ما غاب ليث شراهم عن غابه
قسماً بمن جعل العلا قسماً ومن تجري أُمور الخلق طبق كتابه
مادام محسن فالهنا أولىٰ بمن لبس الحداد وجال في أثوابه
مادام محسن فالسيادة والعلا والمجد في عليائه وقبابه
المحسن المفضال والعلم الذي تتزاحم الأعلام في أبوابه
غيث الندا غوث الندا غيظ العدا برٌّ يفوق البحر فيض عبابه
ملكٌ به العليا سمت وتبسّمت مذ لاح في الدنيا ضياء شهابه
ملك الشجاعة والمهابة والتقا سامي الذرا والفرد في أترابه
ملك الشهامة والمهابة والوفا وأجلّ من يقضي بفصل خطابه
ملكٌ يحكّم في العدا سيف الردا ويظلّ يوصل نصله لنصابه
ملكٌ يرىٰ للائذين بحبّه حقّ القرابة من وفا أحسابه
فثناؤه كالزهر طيب شميمه والزهر في أحصائه وحسابه
فليعف عمّن عجزه أولىٰ به عن مدرك الأطناب في ألقابه
وإليكها يابن الكرام ومن به افتخر الزمان وكفّ كفّ عتابه

عذراء ترجو منك عذراً لامرىءٍ إخلاصه لك صين عن إشرابه
ما شأنه نظم القريض وإنّما ناب الشجا والحبّ حقّ منابه
ما حال عن صنو الوداد ومحضه والماء ليس شرابه كسرابه
يدعو بطول بقاك في غسق الدجا بل لم يزل بذل الدعا من دابه
فاسلم ودم بأمنجع اللاجي إليه ومهيع الراجي وكاشف ما به
وصل الصلاة مع السلام على النبي وآله والطهر من أصحابه
وتعزّ في ابن أبيك أجراً واحتسب صبراً أبا عونٍ تفز بثوابه

انتقل رحمه الله تعالىٰ عن ولد صغير يسمّىٰ محمّداً، لا زال لمآثر أبيه مجدّداً.

قتل السيّد سعيد بن سليمان بن أحمد الحسني :

والثاني: السيّد الأجلّ الأشرف، والكهف الأظلّ الأرأف، مالك أزمّة المجد، والراقي من المعالي كلّ رباً ونجد، الشهم الجليل الأكبر، والراوي لأحاديث الرئاسة برّاً عن برّ، مولانا السيّد سعيد بن سليمان بن أحمد بن سعيد بن شبّر، رحمه الله تعالىٰ، وأفاض علىٰ قبره الشريف شآبيب غفران توالىٰ، فلقد كان ذا خلق لطيف، وخلق باهر شريف، ورئاسة وملاءة، أخلف بهما آباءه.

هو النجيب ابن النجيب ابن النجيب ابن النجيب
فخرٌ تغلغل في شعاب المجد مع صدرٍ رحيب

ولعمري لقد كان له آباء وجدود، أرغموا أنف الدهر بالعطاء والجود، عمروا ربوع المجد العواطل، وقلّدوا بعقود المواهب كلّ جيدٍ عاطل، وبنوا دوراً هي باقية إلى الآن، تشهد برئاستهم السامية في تلك الأزمان.

إنّ آثارنا تدلّ علينا فانظروا بعدنا إلى الآثار

ومن جملة آثارهم السامية المنيفة، كتب صنّفها مصنّفوها[١] بأسمائهم الشريفة، وسعيد هذا نعم الخلف، بعد ذلك السلف، حاز النصيب الأوفر من طريف الفخر[٢] وتالده، ولا غرو أن يحذو الفتىٰ حذو والده، فخرٌ تشهد به الأُمم، وترويه العدول من ذوي الذمم.

أشبه حاتماً عديٌّ في الكرم ومن يشابه أبه فما ظلم

له بأخطاف الطائف أبنية، وحصون وأفنية، ورياض باسقة، وأشجار متناسقة، قصد بإنشائها الاقتداء بآبائه، والاحياء لأخباره وأنبائه.

نبني كما كانت أوائلنا تبني ونفعل مثل ما فعلوا

قتل السيّد سليم بن مبارك بن شبّر الحسني:

والثالث: السيّد الماجد، الجامع لآثار المحامد، مولانا السيّد سليم بن مبارك بن شبّر، رحمه الله تعالىٰ، وسقاه من حوض الكوثر، وهو لم يكن في رتبة الأوّلين من الاشتهار، غير أنّ سيفه في الهيجاء فاتك بتّار، نازل الفوارس والأبطال غلاماً، حتّىٰ صار لهم إماماً، فرحم الله الثلاثة، وقدّس أرواحهم، وأنعم بالرضوان مساءهم وصباحهم.

وأمّا الصنف الثاني، وهم الذين أصابتهم الجروح الهائلة، والفتكات القاتلة، لولا أنّ الله عزّوجلّ لم يقض عليهم بالوفاة لبقاء الأجل، وهم: مولانا السيّد شبير بن جازان، ومولانا السيّد مبارك بن السيّد شبير بن مبارك بن فضل، ومولانا السيّد إبراهيم بن السيّد محمّد بن سعيد بن شبير، وغير هؤلاء الثلاثة من السادة، ومن

---

(١) في «ن»: مصنّفون.

(٢) في «ن»: المجد.

غيرهم من الخدّام .

وأما الطرف الآخر، وهو طرف صاحب الترجمة، فذهب من العساكر اليمنيّة عدد كثير، وجمّ غفير، وجراحات وقعت في بعض السادة الأشراف، وفي بعض أشخاص من الأطراف .

والحاصل أنّه كان هذا اليوم من غرر أيّامهم المشهورة، وفتكات سيوفهم المذكورة، وحقّ لهم أن ينشدوا صاحبهم أبيات وداك الكافلة بتلخيص حالهم من مبدئه إلىٰ يوم العراك، وهي :

رويداً بني شيبان بعض وعيدكم ... تلاقوا غداً خيلي علىٰ سفوان
تلاقوا جياداً لا تحيد عن الوغىٰ ... إذا ما غدت في المأزق المتداني
عليها الكماة الغرّ من آل مازن ... ولاة طعانٍ عند كلّ طعان
تلاقوهم فتعرفوا كيف صبرهم ... علىٰ ما جنت فيهم يد الحدثان
مقاديم وصّالون في الروع خطوهم ... بكلّ رقيق الشفرتين يمان
إذا استنجدوا لم يسألوا من دعائهم ... لأيّة حربٍ أم لأيّ مكان

خروج الشريف محمّد من مكّة المكرّمة :

هذا وقد علمت ممّا سبق توجيه الشريف محمّد إلىٰ جهة الحسينيّة، داخلاً علىٰ بعض السادة، علىٰ قوانينهم المعتادة، فأقام فيها أيّاماً ثمّ ظعن، متوجّهاً تلقاء اليمن، ولم يزل في سيره إلىٰ أن اتّصل بالمخواه، وبها كان مقرّه ومأواه، ثمّ منها[١] أنشأ توجّهه ورحيله، وتنكّب ذروة سراة بجيلة .

ولم يبرح كالرجل الخائف، إلىٰ أن بزغ قمره على الطائف، فتلقّته قبائل ثقيف،

(١) في «ن»: فيها .

وقابلوه بنهاية التعظيم والتشريف، وعرضوا أنفسهم عليه، ووجّهوا نجائب همّتهم إليه، فاستخدم بهم، ونال مقصده الأسنئ بسببهم.

وبيان ذلك: أنّه لمّا بلغ صاحب مكّة المشرّفة، والرافل في حلل ولايتها المفوّفة، الشريف مسعود بن الشريف سعد، وصول الشريف محمّد إلى الطائف على الطريق المذكور، نهض إليه بهمّة علويّة، وصولة علويّة، وأقبل عليه بعد تعب شديد، سنشرحه عند ترجمة ملكه السعيد، وتلاقيا بوادي المثناة بالطائف، في اليوم الثامن عشر من شعبان، سنة ألف ومائة وخمسة وأربعين.

فانحاز الشريف محمّد وثقيف إلىٰ جبال شاهقة، وصوىً متلاصقة، بحيث لم يكن للخيل بينها مجال، لوعارة تلك الجبال، فتواتر عليهم من ثقيف الرصاص، حتّىٰ لم يجد الشريف مسعود ومن معه غير التسليم والتوجّه مناص.

فاستقلّ الشريف محمّد بالشرافة، وتوجّه الشريف مسعود ومن معه من الأجناد، بعد أن أخذ الآجلة على المعتاد، وتوجّه الشريف محمّد إلىٰ مكّة المعظّمة، متحلّياً بعقود الشرافة المنظّمة، ودخلها في اليوم ...[1] من شعبان، فكانت مدّة غيبته ثلاثة أشهر وأيّاماً، وهي مدّة شرافة الشريف مسعود، كما سيأتي.

ثمّ استمرّ في الأيالة، ناشراً لرايات العظمة والجلالة، إلاّ أنّه[2] أصابته فيها حروب ومتاعب، وظلم وغياهب، ثمّ تنجلي علىٰ أحسن حال، بما لم يخطر لأحد ببال.

وها نحن نشرع الآن في شرح تلك الأمور، مع إضافة تاريخ وفيات بعض

---

(١) بياض في النسختين.

(٢) في «ن»: أنّها.

الأعيان، وحادثة وقعت في بعض البلدان، ونبدأ من دولته الأُولىٰ، ونقرّر حوادث دولة[١] الشريف مسعود في ترجمته كما هو الأولىٰ، والله الموفّق والمعين .

فصل

في الأُمور المذكورة والحوادث المشهورة

قد تقدّم أنّها حوادث سنة (١١٤٣) ثلاث وأربعين ومائة وألف .

وفي آخرها: كان جلوس صاحب الترجمة، فنبدأ بحوادث سنة (١١٤٤) أربعة وأربعين ومائة وألف، وفيها: صارت الحادثتان الأُوليان، وهما اللتان كانت سبب عزله، كما بيناه غاية البيان .

وفاة السيّد عبدالمعين بن محمّد الحسني :

ففي رابع عشر جمادي الأولىٰ من السنة المذكورة: توفّي إلىٰ رحمة الله السيّد الشريف، والسند العالي المنيف، مولانا وسيّدنا السيّد عبدالمعين بـن مـحمّد بـن حمّود بن عبدالله بن الحسن بن أبي‌نمي، تغمّده الله بالرحمة والرضوان، وأسكنه فسيح الجنان .

ثوران العوام على العجم بمكّة :

وفي أواخر السنة المذكورة: ثارت العوام في المسجد الحرام، علىٰ طائفة العجم المجاورين بمكّة المشرّفة؛ لأنّه كان قد أخذ الحاج العجمي[٢] قريباً من مكّة المشرّفة، في السنة التي قبل هذا العام، فأقام مكّة منهم جمّ غفير، وصاروا يتردّدون على المسجد للعبادة .

---

(١) في «ن»: حوادث مدّة دولة .

(٢) في «د»: العجيمي .

فزعم بعض العوام أنّ بعضهم وضع نجاسة بالكعبة الشريفة، وأثار الغارة عليهم بمساعدة العساكر المصريّة، وسردارهم حسين آغا الآتي ذكر قتله في حوادث سنة ستّ وأربعين، ومشت العامّة علىٰ قاضي الشرع الشريف، فهرب من المحكمة الشريفة ولجأ بحسين آغا المذكور، وسار هو وإيّاه وجمع من العساكر المصريّة إلىٰ حضرة الوزير الأعظم أبي‌بكر باشا صاحب بندر جدّة، كأنّه قد جاء إلىٰ مكّة المشرّفة في تلك الأيّام .

ثمّ ذهبت العامّة إلىٰ شيخ الإسلام ببلد الله الحرام، وأخرجوه من بيته، وأخرجوا غيره أيضاً من أهل العلم وذوي الهيآت، ثمّ اجتمعوا عند حضرة الوزير المذكور لقصد نصب الدعوىٰ، والحال أنّ الخصم غير موجود بل غير معلوم، فراجعهم حضرة المفتي في ذلك، فأجابوه بأجوبة خشنة، وأفعال غير مستحسنة، وتغلّبوا علىٰ حضرة الوزير، وأخذوا منه حكماً بإخراجهم عن مكّة المشرّفة، ونهب بيوتهم، وأخذوا من القاضي مثله .

ثمّ مشوا في أزقّة مكّة المشرّفة بالمنادي بأنّ من جلس بمكّة المعظّمة منهم فهو منهوب مقتول، وفي حال الفارّة نهبوا بيتاً من بيوتهم، ومنعهم عنه وعن غيره بعض السادة الأشراف، هذا كلّه صار وشريف مكّة الشريف محمّد صاحب الترجمة جالس في بيته لم يعترضهم .

وفي اليوم الثاني: اجتمعوا عند حضرة القاضي، وطلبوا منه أن يرسل إلى الشريف محمّد، ويأمرهم بالكتابة علىٰ ما بأيديهم من الصكوك، فامتنع الشريف عن ذلك، فأخافوه بأشياء اقتضاها الوقت، فوافقهم علىٰ ذلك، وأطلقوا منادياً آخر بخروجهم، فتوجّهوا إلى الطائف وجدّة وغيرهما، وصبر أيّاماً قلائل حتّىٰ همدت القضيّة، ثمّ ساس الأمر وتنبّه لمن كان سبباً لهذا الأمر وأخافه .

ثمّ أرسل إلىٰ من كان بالطائف وأمرهم بالوصول، فوصلوا في أواخر ذي القعدة من السنة المذكورة، مع وصول حجّاج آخرين من جنسهم من أقطارهم برّاً وبحراً، فاضمحلّت القضيّة، ولم يعترضهم معترض.

وفي الحقيقة إنّما كان التعصّب في هذا الأمر من الأتراك وآغواتهم المذكور، وبعض أراذل من سوقة مكّة المشرّفة، وإلاّ فأهل مكّة الحقيقيون لم يكونوا راضين بذلك، كما يدلّ عليه شعر من نظم ذلك[١].

فمن جملة من نظم هذه الحادثة وأرّخها صاحبنا الأديب الشيخ تاج الدين بن الشيخ عارف المنوفي، فقال:

تعاما حادثٌ قد سلّ بغياً ... علىٰ أهل النهىٰ بالفضل نصله
به الجهّال قد رجموا سفاهاً ... لقاضي الشرع أبقى الله عدله
ومفتي مكّة من غير جرمٍ ... يبيّن فرعه للناس أصله
وما عرفوا فضل العلم قدراً ... وما رفعوه بل خفظوا محلّه
وما أدّوا حقوق جوار بيتٍ ... لهم قد بيّن القرآن فضله
ولكن أسعف المقدور فيهم ... ومزّق جمعهم وأباد شمله
وداركنا بلطفٍ منه أوهىٰ ... لقوّة عقد ما برموا فحلّه
فقد أحكمت في ضبطي بعامٍ ... أساء به حليف الجهل فعله
مثالاً خذه منه واستمعه ... وأرّخه بغلب الجهل أهله (١١٤٤)

ونظمها غير واحد من العصريين، والله أعلم.

---

(١) راجع: خلاصة الكلام ص ١٨٤.

فصل
في حوادث سنة ألف ومائة وخمس وأربعين

ابتداء خروج السلطان نادر شاه في ايران :

ففي أثنائها: عدا وزير سلطان فارس علىٰ اُستاذه باصبهان، ورفعه عن سلطنته، وبعثه لملازمة الحضرة الشريفة الرضويّة بمشهد خراسان، وهو أمر غريب، وحادث عجيب .

وسبب ذلك: أنّه لمّا استولت الطائفة السليمانيّة علىٰ اصبهان في حدود سنة ألف ومائة وستّ وثلاثين، قتلوا جميع أبناء السلطنة الفارسيّة، وسبوا نساءهم، وغنموا أموالهم، وأرسلوا عمّالهم إلىٰ جميع تلك الممالك، فشذّ من أبناء السلطنة أفراد، ثمّ هلكوا إلّا شخص واحداً منهم، يسمّىٰ السلطان طهماس [١] من أولاد السلطان حسين الذي اُخذت المملكة من يده، وسنّه دون العشرين، فخرج بالسيف في طهران، واجتمع عليه أجناد من العجم وبواديهم .

وفي أثناء ذلك أيضاً عدت الدولة العثمانيّة علىٰ ما قاربها من البلدان، كتبريز وايروان وتفليس وشماخي وغيرها، واستولت عليها، وأسرت الرجال، وسبيت النساء، وتصرّفوا فيهم تصرّف الملاّك في أملاكهم، وذلك بفتوىً أفتىٰ بها شيخ الإسلام باسلامبول دار السلطنة، مع إنكار آخرين من أهل العلم عليه في هذه الفتيا، والله أعلم بحقائق الاُمور، غير أنّهم فعلوا ذلك .

فلم يزل طهماس المذكور يدافع عن نفسه وعن البلدان مع إعانة الرعايا له، وهذا الوزير من جملة الأجناد، وليس له إسم ولا رسم، وأعاظم دولته المدبّرون

---

(١) في «د» في جميع المواضع: طهماز .

لها غيره من أُمراء دولة أبيه الشاه حسين، ووقعت عليه وقائع عظيمة، حتّىٰ كاد أن يظفر به من الطائفة السليمانيّة والدولة العثمانيّة .

وهذا الوزير لم يزل يترقّىٰ إليه بهممه العالية، ومساعيه الجميلة، إلىٰ أن وصل إلىٰ رتبة الوزارة، وكان اسمه «نادرقلي» فسمّاه السلطان طهماس قلي، وصارت لهم فتوحات كثيرة بهمّته وتدبيره، وأعاد علىٰ أُستاذه أكثر ممالكه وضبطها .

ثمّ توجّه إلىٰ اصفهان، وقاتل السليمانيّة، وظفر بهم، وقتلهم وأبادهم عن آخرهم، واستقلّ باصبهان، وراسل لأُستاذه بالوصول إليها .

فلمّا قرّره بها توجّه إلىٰ حرب هراة، وهو قطر واسع يحتوي علىٰ قلاع عديدة، وحصون شامخة منيفة، وحاصرها سنة وشهوراً، حتّىٰ أنّه زرع وحصد في خوارجها في هذه المدّة، ثمّ استأصلها عن آخرها، وأباد من بها من الطائفة السليمانيّة، ونقل منها خمسة وعشرين ألف بيت من أكابرها وذوي شوكتها إلىٰ قطر خراسان، ونقل مثلهم منها إليها، ووضع عليها ولاة، ورجع إلىٰ أقطار فارس، ثمّ قصد اصبهان تخت أُستاذه، ثمّ قبّل أقدامه، إلاّ أنّه في غاية من الشحناء عليه لأُمور :

أحدها: أنّه صرف أموالاً عظيمة في غير مصارفها .

وثانيها: إنهماله في الفساد من شرب الخمر وغيره .

وثالثها، أنّه في أثناء محاصرته لهراة عدا صاحب بغداد من طرف الدولة العثمانيّة علىٰ همدان التي هي من ممالكهم؛ لأنّه بلغه أنّ الوزير المذكور قد ظفر به أهل هرات، فاغتنم الفرصة وأخذ همدان .

فلمّا بلغ السلطان ذلك ركب من اصبهان علىٰ صاحب بغداد بعساكر قليلة، فتقاتلا قريباً من البلد المذكور، وهزم صاحب بغداد عساكر السلطان طهماس،

ورجع هارباً إلىٰ اصبهان، فصارت مكاتبات ومخاطبات بينهما في الصلح، علىٰ أنّ ما كان بيد آل عثمان من الممالك الفارسيّة تبقىٰ بأيديهم، وما أنتم عليه لا معارض لكم فيه .

فاغتنم السلطان طهماس ذلك وأقرّهم عليه، فبلغ الوزير المذكور ذلك، فأرسل إلىٰ صاحب بغداد يعتّبه في هذه الوثبة ويتوعّده؛ لأنّه كان بينه وبين صاحب بغداد صداقة وأقوال فعل بخلافها .

فغضب حضرة الوزير المذكور علىٰ أُستاذه في خفّة حركته علىٰ صاحب بغداد، حتّىٰ أصابه ما أصابه، وتجرّع من كأس الانهزام علقمه وصابه، وتعب عليه في قبوله الصلح علىٰ هذه الصفة، إلاّ أنّه لم يظهر له ذلك حال المواجهة، إلىٰ أن لاطفه والتمس منه أن يشرفه في منزله خارج البلاد، ففعل .

فلمّا صار في قبضته قبضه، بعد أن طلب الشراب وسكر حتّىٰ ذهل عن نفسه، ووضعه في محمل عظيم وحفّه بالعساكر، وبعثه إلىٰ مشهد الرضا عليه السلام بخراسان، وأمر بنزوله في الصحن الشريف، وطلب إبناً له عمره دون السنة يسمّىٰ شاه عبّاس (١)، ووضعه في مهد عمل من الذهب والجوهر، ووضعه علىٰ رأسه، ومشىٰ به في الديوان، وأمر بضرب الطبول، وإفاضة الخلع السلطانيّة علىٰ أُمراء العساكر، وفرّق عليهم مبالغ من الأموال، وضربت السكك باسمه، وخطبت الخطباء في سائر البلدان بالدعاء له، ونقل التخت السلطاني إلىٰ قزوين، وهي موضع تختهم القديم، ووضع علىٰ اصفهان أميراً من طرفه، ووكيلاً ومشرفاً عليه .

ثمّ رجع بالعساكر القهقرىٰ مع أموال عظيمة جمعها من اصفهان ونواحيها .

---

(١) في «ن»: يسمّىٰ إسماعيل .

ولم يزل سائراً إلىٰ أن قصد بغداد، وأخذ جميع القرى الكائنة بأطرافها، ثمّ حاصر القلعة بعد أن عمل زناجير من الحديد، ومدّها جسراً على الشطّ، وطرح عليها أخشاباً، ومشى الخيل والعساكر عليها؛ لأنّ صاحب بغداد رفع جسرها المعتاد.

ثمّ لم يزل يحاصرهم حتّىٰ (وهمه[1] العسكر السلطاني العثماني، وأمير ذلك العسكر الوزير الأعظم عثمان باشا، ومعه وزراء كثيرون، وجنود عظيمة، وخرج لوصولهم صاحب بغداد بعساكره، وحاربوه حرباً شديداً، حتّىٰ هلك أكثر عساكره، وهرب هو وبعض أجناده إلىٰ همدان، وأقام بها شهراً، والعسكر السلطاني يريد اللحوق له.

فاستدرك حاله في أسرع مدّة، ورجع كارّاً عليهم، وهم سائرون إليه، فصادفهم في أثناء الطريق، وقاتلهم قتالاً عظيماً، أسفر عن قتل عثمان باشا، وغيره من الوزراء، وهلاك غالب العساكر، واستباد جانب عظيم منهم، ونهب المعسكر، ثمّ أقبل علىٰ بغداد كالأسد الضاري، فقابله صاحب بغداد باللطف والمحاسنة حتّى استمال خاطره، ووقع الأمر على الصلح بينهما.

ثمّ إنّه أبقىٰ عنده غالب ثقله، وارتحل من عنده لاحقاً بشيء من خدّامه، وكبار عساكره كان قد هرب بنحو اثني عشر ألفاً من العساكر لمّا رأىٰ أُستاذه قد فرّ إلىٰ همدان، أو ظنّ أنّه قد هلك في تلك المعركة، فذهب إلىٰ شيراز، فلحقه بها في ظرف عشرة أيّام، وظفر به بشيراز وقتله، ثمّ استدرك أحواله استدراكاً آخر.

وفي أثناء هذه الحركة ظفر بالشيخ أحمد المدني الذي كان عاصياً في أطراف

---

(١) من هنا إلىٰ أوّل الفصل الآتي لم توجد في نسخة «ن» بل فيها بياض.

فارس، ووضعه في قدر وطبخه، زاعماً أنّه إن كان كما تقولون من المشيخة والولاية، فما يلحقه ضرر من هذا القدر؛ لأنّ قومه كانوا يعتقدونه ولياً، ولا قامت دولته إلاّ بهذا الاعتقاد، فصبر قليلاً، ثمّ قال: اكشفوا عن الشيخ غطى القدر، فما أظنّه إلاّ ما قلي، فلمّا كشفوا عنه الغطاء وجدوه قد ذاب، وتهزّأ فقال لقومه: هذا الشخص ليس بولي، وإنّما هو شيطان قد استغواكم.

ثمّ نهب أمواله وجواهر عظيمة كانت عنده وفي خزانته، قد انتهبها من أيدي السليمانيين حين رجعوا من بلاد العجم، هاربين من نادرشاه المذكور، حين هجم عليهم باصفهان، وظفر بغير أحمد المدني في مسيره هذا من العصاة، وفتح قلاعاً كثيرة، وختم الأمر بمسكه لذلك الشخص المذكور الذي قد هرب بهؤلائك العساكر إلىٰ شيراز، ويسمّىٰ محمّد خان البلوجي، وقتله وضبط أمواله.

ثمّ لمّا تمّ استدراكه، توجّه لمقاتلة العساكر العثمانيّة الكائنين بقلاع تبريز وايروان وتفليس وشماخي، وتلك الأقطار التي هي أنهى الحدود بين الدولتين العثمانيّة والصفويّة، وهي بيد الصفويّة.

إنّما لمّا سارت الطائفة السليمانيّة علىٰ بلاد العجم، وأخذوا اصفهان، وأسروا السلطان حسين وأولاده، ثمّ قتلوه هو وأولاده، وذهبت الدولة الصفويّة عن آخرها، إلاّ هذا السلطان طهماس بن السلطان حسين، الذي خدمه نادر شاه المذكور، ثمّ حبسه وولي ولده الشاه عبّاس، كما فصّلناه سابقاً؛ لأنّه قد فرّ إلىٰ طهران كما تقدّم بيانه.

فلمّا أقبل علىٰ تلك القلاع قاتلهم، ولم يزل يأخذهم شيئاً فشيئاً، إلىٰ أن استولىٰ علىٰ جميع تلك البلدان وقلاعها، وقتل وأسر ومهّد أقطارها، وشيّد قلاعها، وحشاها بالعساكر.

ثمّ تقدّم إلىٰ سمت الدولة العثمانيّة، فجهّزت عليه العساكر الكثيرة والوزراء العظام، وأُمّرت عليهم الوزير الأعظم، والمشير الأفخم، عبدالله باشا الكبرلي.

ولمّا أن قربت منه العساكر السلطانيّة، وهم فوق مائة ألف، قابلهم وقاتلهم قتالاً عظيماً، إلىٰ أن ظفر بهم، واستشهد الوزير عبدالله باشا ومن معه من الوزراء، وقتلت تلك العساكر، وسبي جانب منهم، وأخذ الأموال والأسلحة والخيول، حتّىٰ كأنّهم لم يكونوا شيئاً مذكورا، فزادت قوّته، وعظم شأنه.

ولم يزل كذلك في تلك الجهات، وفي أثناء ذلك ركب علىٰ قبيلة اللزق وأخذهم، وهم أكثر من مائة ألف بيت، وأوقع بالتتار واقعة عظيمة أيضاً.

وراسل بني الأصفر الذين استولوا علىٰ كيلانات، فارتفعوا عنها بدون قتال، وأرسل إليها الولاة من طرفه وضبطوها.

ثمّ لم يزل في تلك الأقطار إلىٰ أن صار الصلح بينه وبين الدولة العثمانيّة، علىٰ أنّ ما أخذه من الممالك التي كانت للدولة الصفويّة سابقاً، فلا يعارض ولا يتعدّىٰ إلىٰ غيرها من الممالك العثمانيّة، كبغداد وغيره.

واستقرّ الأمر علىٰ ذلك، وبعدها لم يقع بينه وبين الدولة العثمانيّة قتال، بل لم تزل الهدايا بينهما تحفّ من جميع التحف، واشترط في أثناء عقد الصلح ردّ الأُسراء من الطرفين، فصار ذلك بالتحقيق، وحسم الله مادّة الفساد بين الدولتين، وحقن الله دماء المسلمين بمن وفّقه الله تعالىٰ من عباده الصالحين؛ لأنّه قد هلك من الفريقين جمّ غفير، وجمع كثير، كلّ ذلك في ذمّة من كان سبباً لهذا الأمر، لا حول ولا قوّة إلاّ بالله.

إلا أنّ هذا الصلح لم ينعقد بين هذا الرجل وبين الدولة العثمانيّة إلاّ علىٰ كيفيّة ونمط سنذكره في حوادث سنة (١١٤٩) تسع وأربعين ومائة وألف، وهي التي خلع

فيها أُستاذه الشاه عبّاس تنزيلاً لكلّ حادثة في سنتها، والله الموفّق للصواب)[١].

فصل

في حوادث سنة ستّ وأربعين ومائة وألف

فتنة سردار حسين أفندي:

ففي رابع عشرين شهر ربيع الأوّل منها: صارت حادثة غريبة، تولّدت منها مفاسد وأُمور غريبة، وهو أنّ سردار الأنقشاريّة المقيمين بمكّة البهيّة حسين أفندي، طلع متنزّهاً بأهله وأولاده، وخدمه وبعض أجناده، إلىٰ موضع بأعالي مكّة، فحصلت من بعض جماعته فتكة في بعض العساكر اليمنيّة، خدّام مولانا الأمجد الشريف محمّد أدام الله دولته، وأيّد صولته.

فلمّا سمعت العساكر بما أصاب صاحبهم أحاطوا بموضعه الذي هو فيه، وبادروه برمي الرصاص الذي ما عنه مناص، وأذاقوا جماعته حرّ السلاح، ووثبوا علىٰ ساحته، وثوب الأسد من غابته، وأغاروا علىٰ جميع ما في أسفل الدار من النحاس، والفراش والأثاث والآلات المستعدّة لمن يرد عليه من الناس، وقتل له عبد وخادم وحصانان جيّدان.

فبلغ مولانا الشريف ما صار، فركب فوراً ليقرع العساكر، ويحرز ما بقي من الأثاث، فلمّا وصل إلى الموضع قام السردار من محلّه كالمغتنم لوصول الشريف، ممّا حفّ به من البلاء العنيف، وفتح طاقة ليخاطب الشريف منها، فلمّا وقف بها أصابته رصاصة من بعض العساكر، عاش بعده ساعة ثمّ هلك، ودفن هو وخادمه في يوم واحد، فسبحان من تفرّد بالبقاء، وقهر عباده بالفناء.

---

(١) ما بين الهلالتين من نسخة «د» فقط ولم توجد في نسخة «ن».

ولعمري لقد كان هذا الرجل أحد الجبابرة الطغام، وأوحد المتكبّرين على الأنام، أقام بمكّة المشرّفة ثلاث سنين، وهو لم يـر له بها قرين، يسوم أهلها بالخسف والهوان، ويعاملهم بالتحقير والامتهان، لا يعرف الشفقة علىٰ عباده، ولا تلابسه الرحمة علىٰ صلحاء البلد الحرام وعبّاده.

نشأ بمصر القاهرة وأسنّ بها، وتحلّىٰ بحلية أهل الأقلام فترقّىٰ بسببها، وصار كاتبها الكبير، ومرجع أهلها في كلّ تدبير.

فنفث فيهم نوافث سحره، وافتنّ بينهم بفساده ومكره، حتّىٰ أجمعوا علىٰ تخريجه من البلاد، وتوجيهه إلىٰ مكّة المشرّفة مع غيره من أهل الفساد، مع دفع جانب من المال، ليسلم به من القتل.

وقد ولي منصب السردارية سنة أربع وأربعين، كما تقدّمت الاشارة إليه، وأُعيد إليه في السنة المذكورة التي صار عليه فيها ما صار، وتوجّه لملاقاة الملك الجبّار.

ثمّ تولّد من قتله فتن عظيمة، ومتاعب على الخلق جسيمة، وهو أنّ العساكر المصريّة تعصّبت وتحزّبت، واستدعوا بمن كان ببندر جدّة منهم، وتلقّىٰ حاضرهم باديهم، وعمرت بمدّ الإطاعة نواديهم، فصاروا جمعاً عظيماً، وتفرّقوا في بيوت سويقة وغيرها ممّا قاربها، وسدّوا منافذ الأزقّة ومساريها، واخترعوا متارس في تلك الدور، وأظهروا العجب بكثرتهم والسرور.

فأرسل إليهم مولانا الشريف من يكشفهم عن ذلك، فأجابوا بأجوبة سقيمة، تأباها قواعد الشرع المستقيمة، وفي الباطن قد أضمروا وصمّموا، وحزموا ولم يتكلّموا، علىٰ رفع الشريف عن مكانه، وعزله عن ملكه وسلطانه.

وفي أثناء ذلك قد أصدروا أرقاماً إلىٰ مناهيهم بمصر، وإخبارهم بما أصاب كبيرهم، وإفهامهم بأنّ ذلك كان عن أمر من الشريف، قاصداً به إذهابهم وتدميرهم،

واستمرّوا أكثر من شهر على الحالة التي وصفناها، وليس لهم قدرة على الإقدام عليه، والتوجّه إليه، وهو مستقرّ الفكرة بداره، لم يشهر له سيف من غراره، بل لم يزل يعاملهم بلطفه، ويحنو عليهم بشفقته وعطفه، ولو أراد تجريعهم كأس الهلاك، لما كان له مانع من ذاك .

مع أنّهم في أثناء تحزّبهم أرسلوا إلى الشريف مسعود بن الشريف سعيد، وهو مقيم بمنزل خليص، ودفعوا إليه أموالاً ليصل إليهم، وهم علىٰ تلك الحال فقبض الدراهم، وامتنع من الوصول إلى البلاد، إلاّ بعد جمع أقوام وأجناد .

ثمّ رحل من موضعه الذي كان فيه مقبلاً إلىٰ أن وصل وادي مرّ، فأقام به واستمرّ، وشرع يستأنف الأشراف، ويجمع البادية من الأطراف، وهم بمكّة المشرّفة علىٰ حالهم من التحزّب والتتريس، والتحلّي بحمل السلاح النفيس، إلاّ أنّهم في غاية من الانحصار، لما هم فيه من الانحشار .

فوصل إلىٰ مكّة المعظّمة، فخر وزراء الدولة العثمانيّة المكرّمة، الوزير الأعظم، والمشير الأفخم، أبوبكرباشا، بلغه تعالىٰ من السعادة ما شاء، بعد مكاتبات كثيرة صدرت منهم إليه في بندر جدّة المعمور، وهو لم يزل يعاملهم بالاهمال والاطالة لمراعاة بعض الأُمور :

منها: أنّه مع طول المدّة، تنحلّ عنهم الغلظة والشدّة، ويتنزّلون عن مرامهم، فيتسلّط علىٰ نقض إبرامهم .

ومنها: مراعاة طرف مولانا الشريف دام علاه، لجزمه بأنّ ما وقع من عسكره، ليس هو مراده ولا هواه، وعلمه بأنّه المولّىٰ من سلطان الإسلام، والمنصوب لحماية جيران بيت الله الحرام .

ومنها: استعمال الريث[١]، لاستنزال الغيث، وقد حصل بحمد الله تعالىٰ ورده من الماء المعين، من إحدى الجهتين لا على التعيين، وكان وصوله إلىٰ مكّة المشرّفة يوم ...[٢].

فلمّا وصل قويت شوكة الأتراك، وعرتهم هزّة للقتال والعراك، فأخذ منهم مهلة ثلاث ليال، ليمعن النظر في حلّ هذا الاشكال، ولم يزل يحلّ البعض بالبعض، ويستعين بالقوانين الشرعيّة علىٰ ما يرومه من النقض، ويدسّ إليهم من يخوّفهم من الشريف وأجناده، وخراب بلاد الله وذهاب عباده، فشموا منه روائح الجنوح إلى الإصلاح، وشاموا بوارق المهادنة التي هي عين الصلاح، فخبث منهم ما طاب، وهبطت أنفاسهم بعد أن كانت في السحاب.

فهيّأ مجلساً جمع فيه القضاة ومشايخ الإسلام، وأهل الحلّ والإبرام، من أكابر الأروام، بعد أن رتّب الكلام مع حضرة مولانا الشريف، ثمّ قرأ الفواتح علىٰ أنّ كلاًّ من الطرفين يلزم يده عن الآخر إلىٰ أن يصل الجواب، من شريف الأعتاب، ثمّ يكون التعويل عليه، وأنّه هو يكفل عليهم عدم الاعتراض، ويكفل علىٰ مولانا الشريف وعساكره بعض كبار السادة الأشراف، وكتب بذلك صكّ حافظ للطرفين، وأمر حضرة الوزير بالنداء بذلك في المسجد الحرام، ليعمّ الإعلان به جميع الأنام، فصار ذلك في اليوم ....[٣].

ثمّ في اليوم الثاني نزل أهلّ جدّة من العساكر المصريّة، ولحقهم أغلب المقيمين

---

(١) الريث: مقدار المهلة من الزمن، يقال: وقف ريثما صلّينا، أي: مقدار ما صلّينا.

(٢) بياض في النسختين.

(٣) بياض في النسختين.

بمكّة المشرّفة البهيّة، وهم في أشدّ ما يكون من الامتهان ممّا[١] أصابهم من الذلّ والهوان، وعدم حصول المراد، بعزل الشريف وقتل هؤلائك الأجناد، فأضمروا علىٰ نقض العهود، والنزول إلىٰ بندر جدّة وإعانة الشريف مسعود.

فلمّا وصلوا إلى البندر المعمور الذي هو المستقرّ، أرسلوا الميرة والمبالغ العظيمة من الدراهم إليه وهو بوادي مرّ، وأظهروا التغلّب علىٰ حكّام مولانا الشريف، بالترهيب والتخويف، واستقلّوا بالبندر وأحكامه، من غير إلتفات إلى الشريف وحكّامه، وشرعوا يشدّون الذخائر إلىٰ صاحبهم المرّة بعد المرّة، ويرسلون الدراهم الصرّة بعد الصرّة، إلىٰ أن استقلّت أحواله، وقويت في نيل الشرافة آماله.

فرحل من موضعه، ونزل على الحديبية، قاطعاً طريق جدّة عن الشريف، وعن أهالي مكّة المشرّفة البهيّة، فغليت بسبب ذلك الأسعار، ثمّ عدمت الأقوات بالكلّية إلاّ في بيوت ذوي الاقتدار.

ومع طول إقامته على الحديبيّة، عظمت الشدّة والبليّة، لأنّه أقام عليها مدّة مديدة، يستألف فيها كبار السادة الأشراف ذوي الآراء السديدة، وشريف مكّة قد برز إلىٰ سوح بئر طوىٰ، لكثرة ما فيها من الأعلام والصوىٰ، فجعلها حصوناً ومتارس، فامتنع بسببها مجال كلّ فارس؛ لأنّ أكثر عمدته علىٰ عساكره اليمنية، لما بينهم وبين الأتراك من الغرضية، وأغلب السادة الأشراف قد مال إلىٰ جهة الشريف مسعود، لخلوّ يد ذا وكثرة ما عند ذلك من النقود.

وأمّا العساكر المصريّة الذين ببندر جدّة، فبعد أن أعطوا وأجزلوا زمّوا عيسهم،

---

(١) في «ن»: لما.

وترحّلوا قاصدين مكّة المشرّفة البهيّة، قبل نـزول الشـريف مسـعود عـلىٰ بـئر الحديبيّة، بناءً علىٰ أنّهم عساكر سلطان الإسلام، وحفّاظ بلد الله الحـرام، وفـي ضمن ذلك ينفعون صاحبهم الشريف مسعود، إذا أثارت الحرب بينهما في اليوم الموعود، فيشبّون نار الغارة من داخل البلاد، إذا أقبل الشريف مسعود بمن معه من الأجناد، وهذا هو المطلوب الأوّل، والغرض الذي عليه المعوّل.

فانتبه مولانا الشريف محمّد لذلك، فبعث من البادية والعساكر من يحفظ لهم السبل والمسالك، فلمّا بلغهم ذلك وهم في أثناء الطريق، جـزموا بـخيبة الآمـال وفساد تلك الأماني، وعدلوا إلىٰ صاحبهم بمنزل الركاني، ثمّ ترحّل بهم ونزل علىٰ بئر الحديبيّة، كما تقدّم، ثمّ شدّوا جميعاً، ونزلوا قريباً من مكّة بحيث ترى النـار، ويشاف الغبار.

ولمّا كان اليوم الرابع من جمادي الثانية من السنة المذكورة: ثارت الحرب بين الفريقين، علىٰ قوانينهما المشهورة، واستمرّت إلىٰ بعد الزوال من ذلك النهار، ثمّ انجلت عن ظفر مولانا الشريف محمّد على الشريف مسعود ومن معه من العساكر المصريّة، فرجوا بأسوأ حال، وأقبح مقال.

ثمّ توجّه بهم صاحبهم إلىٰ بندر جدّة المعمور، وبذل جهده في حياطتهم إلىٰ أن أدخلهم الدور، ونزل هو ومن معه من السادة الأشراف خارج البلاد، وشرعوا في تدبير آخر واجتهاد، في حضرة أبي‌بكر بـاشا أن يـلبس الشـريف مسـعود بـن الشريف سعيد، لما بينهما من المحبّة السابقة والوداد الأكيد، وأن يأمر بالنداء في البندر باسمه الشريف، بعد لبسه لخلعة التشريف.

فامتنع عن ذلك وأبىٰ، وقال قد جاوز الحزام البطين وتعدّى السيل الربا، كيف أفعل ذلك؟ أم كيف أمتطيء هذه المسالك؟ وأنتم قد ذهبتم لقتاله فظفر بكم، بـعد

انقطاع السبل هذه المدّة بسببكم، مع كونه المنصوب من قبل سلطان الإسلام على البلد الحرام، فما المسوّغ لارتكاب هذا الأمر العظيم، والخطب الجسيم؟ وإنّما الآن حلّوا عقدة هذا الحبل، وسيصير في المستقبل إن شاء الله تعالىٰ ما وعدته به من قبل؛ لأنّي قد أرسلت إلىٰ أبواب الدولة العالية بعض من أعتمده من الخدّام، وأصحبته ما فيه الكفاية من الأرقام، فأرجو الله أن يصل الأمر السلطاني ناطقاً باسمك، مصرّحاً بوافر قسمك.

فامتنع الشريف مسعود عن قبول هذه الوعود، وخرج من عنده مغضباً، قد أضمر علىٰ تجديد القتال، والفعل الذي لم يخطر لأحد ببال.

وأمّا حضرة مولانا صاحب الترجمة وشريف مكّة المعظّمة، فقد رجع إلىٰ بيته بعد الظفر بهم، وعودهم إلىٰ منزلهم الأوّل.

فلمّا بلغه نزولهم إلىٰ بندر جدّة، تعقّبهم بعساكره وأجناده، مع إرسال بعض الأشراف الذين كانوا معه بكتب ومراسلات لحضرة الباشا وكبار السادة الذين كانوا صحبة الشريف مسعود، يعرض عليهم جميع مقرّراتهم وعلائفهم على المعتاد.

فلمّا أقبل على البندر المذكور، رام الشريف مسعود النهوض إليه، والوثبة عليه، فلم[(١)] يمكنه ذلك بسبب بعض الموانع، مع قدرة الله تعالىٰ التي ليس لها مانع، شدّ ونزل بعض تلك الأطراف، مع بعض صغار السادة الأشراف،

ودخل مولانا الشريف محمّد إلىٰ بندر جدّة، وحصل له كلّ ما طلب وشاء من حضرة الباشا، والأتراك قد صاروا في غاية الذلّة والهوان، والتماس سلامة

---

(١) في «ن»: فلمّا لم.

الأرواح والأبدان، وأخذ منهم ومن التجّار ما أراد، من غير توقّف ولا عناد، وسلّم للسادة الأشراف جميعاً ما قرّ عليه الحال، وعدّ للعساكر والبادية علائفهم المقرّرة، في الدفاتر المحرّرة.

وتوسّط بعض الأشراف في أن يصلح الحال بينه وبين عمّه الشريف مسعود، بتسليم ألف أحمر علوفة شهر واحد من النقد المنقود، فقبل منهم ذلك في الظاهر وهو مضمر علىٰ ما عزم عليه، ووجّه نجائب أمله إليه.

وذلك أنّه لمّا كان ليلة الرابع والعشرين من جمادي الثانية، سرىٰ من منزله علىٰ خيل وركاب، وقطع بها ليلاً المهامة والشعاب، من غير أن يعلم أحداً من أصحابه، الذين في ركابه.

فلمّا أصبح الصباح، وظهر ذلك وباح، واضطربت الأفكار، أين ذهب وإلىٰ أيّ جهة سار؟

فلمّا كان صبح اليوم السادس والعشرين من جمادي الثانية: صبّح الطائف بشرذمة من الخيل والرماة، ونهب بيت آغات العسكر، وسيأتي شرح ذلك في ترجمته إن شاء الله تعالىٰ، في بيان الواقعة الخامسة من وقائعه الآتي تفصيلها.

فلمّا بلغ الشريف محمّد دخوله الطائف، مشىٰ من بندر جدّة إلىٰ مكّة المشرّفة، ثمّ عيّن من عسكره جماعة، وجعل عليهم أميراً من السادة الأشراف، وأرسلهم إلى الطائف.

فلمّا صعدوا عقبة يعرج بلغهم أنّ الرجل في نهاية القوّة، فتحصّنوا في حصن العبدة، برأس عقبة يعرج، واستمرّوا هناك مدّة طويلة لا يقدرون عليه، لانحياز ثقيف وغيرهم من العرب إليه، ولم يزل هو وهم علىٰ هذه الحال، لم يقع بينهما محاربة ولا قتال، والشريف محمّد مقيم بمكّة المشرّفة، يرفل في حلل ولايتها

المفوّفة، ولم ينهض لدفعه عن الطائف وأخطافه، ولم يلتفت إلىٰ ما وقع علىٰ أهله من الحبس والخسارات؛ لعدم قدرته علىٰ ما ينهضه من الأموال، وإلاّ فهمّته العليّة فوق همم الرجال.

ولم يزل كذلك إلىٰ أن أقبل عليه الشريف مسعود بشرذمة من الخيل وقبائل ثقيف، ونزل بأعالي مكّة المشرّفة، وخرج إليه السيّد الشريف محمّد بعساكره اليمنيّة، وتقاتلا صبح اليوم السابع من شهر رمضان من السنة المذكورة عند قبب السادة الأشراف، فاستمرّ القتال بينهما ساعة من النهار.

ثمّ حمل الشريف مسعود ومن معه حملة واحدة على الشريف محمّد وأجناده، ثمّ انجلى الغبار عن ظفر الشريف مسعود بالشريف محمّد، ودخوله إلىٰ مكّة المشرّفة، وتوجّه محمّد إلىٰ جهة الحسينيّة هو ومن كان معه من السادة الأشراف، فكانت مدّة ولاية الشريف محمّد الثانية سنة وثمانية عشر يوماً، والله سبحانه وتعالىٰ أعلم، والحمد لله ربّ العالمين(١).

وليكن هذا آخر السفر الأوّل من تنضيد العقود السنيّة بتمهيد الدولة الحسنيّة، ويتلوه في أوّل السفر الثاني ترجمة الشريف مسعود بن الشريف سعيد، المتقدّم ذكره العالي المنيف في ترجمة الشريف محمّد بن الشريف عبدالله دام بقاهما، والحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام علىٰ سيّدنا محمّد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين، آمين آمين.

---

(١) راجع: خلاصة الكلام ص ١٨٨ ـ ١٩٠.

بسم الله الرحمٰن الرحيم وبه الأمان من زوال الإيمان

الحمد لله الذي اصطفىٰ محمّداً المؤيّد المسعود للرسالة، من أفخر قبيلة، وأشرف بقعة، وأكرم سلالة، وخصّ أهل بيته الأكرمين، وحماة بلده الأمين، وشملهم بالعناية الأبديّة والتأييد، بحيث لم يلف فيهم إلاّ مبارك وسعد وسعيد.

نشكره تعالىٰ بأن جعلنا من جيران بيته الحرام، وخدمة حماته المؤيّدين للإسلام، بإعمال أسنّة الأقلام في بياض الطروس والأرقام، بنشر أوصافهم الحسنة، وتخليدها في بطون الصحف نظماً ونثرا، وضبط مدد ملوكهم مع تحرير بعض وقائعهم وفتوحاتهم الحجازيّة النائفة[1] بين الخافقين ذكرا.

فهي خدمة شريف المقدار، وقطب رحى المفاخر الدنيويّة التي عليها المدار، وإلىٰ مثلها تسموا هِمم ذوي المقدار، من ملوك الأقطار، ورؤساء الأمصار[2].

وإلىٰ ذلك أشار عمر بن الخطّاب، في سؤاله لبنت زهير أُخت كعب، الذي أعلت بانت سعاد منه الكعب: ما فعلت الحلل الذي كساها هرم بن سنان أباك؟ قالت: أبلاها الدهر، قال: لكن الحلل التي كساها أبوك هرماً لا يبليها الدهر.

ونصلّي ونسلّم علىٰ سيّدنا محمّد وعلىٰ آله، وعلىٰ أصحابه السائرين علىٰ

---

(١) في «د»: النافية.

(٢) في «د»: الأبصار.

منواله .

وبعد: فيقول أسير نعمه، ونزيل حرمه، **رضي الدين بن محمّد بن حيدر**[(١)] **الموسوي**، عامله الله تعالىٰ بلطفه الخفي: إنّ هذا أوّل السفر الثاني من التاريخ المكّي الحسني، المسمّىٰ **تنضيد العقود السنيّة بتمهيد الدولة الحسنيّة**، أسأل الله تعالىٰ إتمامه، وأن يقرن بحسن التيسير ختامه، إنّه ولي النعم، وواهب النعم .

ترجمة مولانا السيّد الشريف مسعود بن سعيد ابن سعد بن زيد بن محسن بن حسين بن حسن ابن أبي نمي دام إقباله

كان هذا السيّد الشريف، ذو الرأي السامي المنيف، ركن دولة ابن أخيه، حين أُجلس في منصب الشرافة بعد أبيه، وهو الذي أطّد أساسها، ورتّب حكّامها وحرّاسها، ومهّد أُمورها حسب السداد، بهمّته العليّة وفكره المستجاد، وذلك بسبب صغر سنّ الشريف محمّد، وعدم إلمامه بمهامّ الملك، وتدبير سياسته وانتظامه .

ثمّ لمّا وصلت الحجوج في ذلك العام، قابل الأُمراء والأعيان بالاعزاز والاكرام، وأصدر إليهم قواعدهم من الهدايا والتحف، التي إلىٰ أمثالهم تحف .

وفي أثناء ذلك مهّد لنفسه مجداً وفخراً، وأناف بين الخافقين ضياءً[(٢)] وذكراً، فحسده بعض ذويه، وشرع يرمي الفتن بينه وبين ابن أخيه، فصارت بينهما مهاجرة

---

(١) نسبة إلىٰ جدّه، وهو رضي الدين بن محمّد بن علي بن حيدر .

(٢) في «ن»: صيتاً .

ومباعدة[١]، وكلّ مشىٰ علىٰ ما بينهم من القانون والقاعدة .

فلازم صاحب الترجمة أيّده الله داره، وأبدىٰ تجنّبه وازوراره، وشرع يجتهد في استمالة كبار السادة الأشراف إليه، ويوعّدهم بحسن أحواله إذا أجمعوا عليه، فمال إليه من كلّ بطنٍ جانب، مع كونه مساوياً لابن أخيه في الغالب .

ثمّ في أثناء ذلك حدثت منافرات واختلاف، بين الشريف محمّد وبين من ضمّهم إليه من أعاظم السادة الأشراف، وكان في ذلك اليوم أكبرهم مقداراً، وأعظمهم مداراً، زعيم السادة الأشراف بلا مين، السيّد محسن بن عبدالله بن حسين .

فعند ذلك وثب عليه الشريف مسعود، وضمّه إليه بالبرّ المنقود، والخير الموعود، ولم يزل ينصره ويعلي كلمته بين الخاصّ والعامّ، في مواريث ادّعي بها على ابن أخيه عند حكّام العرب والأروام، فأدرك بسببها بعض الأموال، وظهر في أثنائها ظهور البدر في رتبة الكمال، ومال إليه من الأشراف الجمّ الغفير، والعدد الكثير .

ولم تزل أحواله نامية، وكلمته بين رفاقته سامية، إلىٰ أن دخل الحجّ ختام سنة أربع وأربعين، وأقبلت الحجوج الشريفة وأُمراؤها الأعيان، من جميع البلدان، فكاتبهم قبل وصولهم إلىٰ أطراف البلاد، وهاداهم وبذل فيهم نهاية الاجتهاد، فلم ينل منهم القصد والمراد، فتوجّهت الحجوج من مكّة المشرّفة، وابن أخيه رافل في حلل أيالتها المفوّفة، فرجع إلى اجتهاده الأوّل في السادة الأشراف، وتزيين الخروج إلىٰ بعض الأطراف .

---

(١) في «ن»: مساعدة .

فوقع في أثناء ذلك إغارة الشريف محمّد علىٰ بيت السيّد عبدالمعين، وقد تقدّم لها في أثناء ترجمة الشريف محمّد نهاية التبيين .

إلىٰ أن صارت واقعة الخطم التي انكشفت عن عزل الشريف محمّد وتولية الشريف مسعود، فشمله الله تعالىٰ بالعناية الأزليّة والطالع المسعود، ودخل مكّة المشرّفة في اليوم السابع من جمادي الأوّل سنة ألف ومائة وخمسة وأربعين، وقد ذكرنا هذه الواقعة ومن قتل بها من السادة الأشراف بالتفصيل، في ترجمة الشريف محمّد .

واستمرّ الشريف مسعود بمكّة المعظّمة متقلّداً بعقود شرافتها المنظّمة، إلىٰ ثامن عشر شعبان من السنة المذكورة، ثمّ عزل عنها بالشريف محمّد، بقتال وقع بينهما في الطائف، كما تقدّم بيانه في ترجمة الشريف محمّد، وكانت مدّة دولته هذه ثلاثة أشهر وأيّاماً .

ثمّ توجّه من الطائف هو ومن معه من السادة الأشراف في أجلّة علىٰ قواعدهم الموروثة من الأسلاف، إلىٰ أن نزل بالأحمديّة، وهو موضع في أطراف مكّة البهيّة، وأقام بها مدّة أيّام، ثمّ رجع إلى (أطراف)[1] الطائف، ومعه جمع يخاف من تعدّي السادة الأشراف .

ولم يزل ينتقل من قرية إلىٰ أُخرىٰ، والطائف ملآن من عساكر الشريف محمّد وأجناده، فلمّا استتمّ مدده[2]، وكثر عدد أقوامه وعُدده، عدى على الطائف صبح

---

(١) الزيادة من «ن» .

(٢) في «ن»: عدده .

اليوم ...[١] وقاتل من به من العساكر والأجناد إلى ارتفاع النهار .

فلم يظفر بهم ورجع عنهم، ثمّ سار إلىٰ بندر جدّة المعمور، واجتمع بحضرة وزير آل عثمان أبي‌بكر باشا واجتهد فيه، فلم يجد شيئاً .

فلمّا سمع الشريف محمّد بتوجّهه إلىٰ بندر جدّة لحقه من مكّة المشرّفة، فارتفع إلىٰ جهة ديار حرب، ثمّ استقرّ عندهم بمنزل خليص، وهو موضع بين الحرمين .

ولم يزل مقيماً به إلىٰ أن أتاه داعي الأروام في شهر ربيع الثاني من سنة ستّ وأربعين ومائة وألف، كما تقدّم ذكره، من قتل آغات العساكر المصريّة، بسبب قضيّة صارت بين بعض المصريين من العساكر وبين عساكر الشريف محمّد، فانجرّ الأمر إلىٰ أن قتل حسين آغا، وكان جبّاراً طاغياً، فنسبت العساكر المصريّة قتله إلى الشريف محمّد، كما مرّ تفصيله في ترجمة الشريف محمّد .

فأرسلوا إلىٰ حضرة الشريف مسعود ـ دام بقاه ـ يستنجدون به مع مبلغ عظيم من المال ليستعين به، فنهض من موضعه وسار حتّىٰ نزل وادي مرّ وأقام به، واستمرّ يستألف السادة الأشراف، ويجمع الأجناد من الوادي وما حوله من الأطراف، إلىٰ أن عدىٰ علىٰ مكّة المشرّفة من جهة طوىٰ، وقاتل الشريف محمّد قتالاً استمرّ من الصبح إلىٰ نصف النهار، فلم يظفر به ورجع مكسوراً، وكان ذلك في اليوم الرابع من جمادي الثانية من السنة المذكورة .

ثمّ توجّه إلىٰ بندر جدّة مرّة ثانية، فلحقه الشريف محمّد بمن معه من السادة الأشراف والعساكر والبوادي .

فلمّا قرب من بندر جدّة، ارتفع الشريف مسعود إلىٰ جهة من جهات بندر جدّة،

---

(١) بياض في النسختين .

واستمرّ بتلك الجهة إلىٰ ليلة الرابع والعشرين من جمادي الثانية، وفيها سرىٰ من موضعه علىٰ خيلٍ وركاب، ولم يدر أين قصد .

فلمّا كان صبح اليوم السادس والعشرين من الشهر المذكور، صبّح الطائف وأحاطوا ببيت آغاة العسكر المقيمين به، ففرّ من البيت، فأمر بنهب ما فيه، وانحازت العساكر ووكيل الطائف من قبل الشريف محمّد إلىٰ دار شاهقة محصّنة كائنة[1] على الريع المشرف علىٰ قرية الطائف، وقصد الشريف مسعود مسجد سيّدنا حبر الأُمّة عبدالله بن عبّاس رضي الله عنهما، وأرسل إلى العساكر بالأمان، فلم يقبلوا ذلك .

فلمّا كان أقلّ من ساعة أقبلت عليه قبيلة قريش مع ما تجمّع عليها من قبائل ثقيف من جهة قرية السلامة، ورموه بالرصاص المتواتر منهم، ومن هؤلائك العساكر، حتّىٰ خرج عن البلاد قهراً، ثمّ لم يكفهم ذلك حتّىٰ تبعوه لقصد نهب خزانته، فرجع عليهم كرّة أُخرىٰ، هي لعمري به أليق وأحرىٰ، فقتل منهم جمّاً غفيراً، ومن عفىٰ عنه أزيد ممّن قتله بكثير .

ثمّ دخل البلاد، وأمّن من بها من العباد، ونادىٰ لقريش وقبائل ثقيف بالأمان، وأردف ذلك لهم بالعهود والأيمان، فأقبلوا عليه، ووجّهوا هممهم بالخدمة إليه، وعرضوا عليه علىٰ قوانينهم المعروفة، وقواعدهم المألوفة، وصرف عليهم من الأموال ما أغاثوا به أنفسهم، ونفعوا منه العيال .

وأمّا العسكر ووكيل الشريف محمّد، فأخذوا منه أماناً، وتوجّهوا إلىٰ صاحبهم بمكّة المشرّفة، وحال وصولهم إليه وجّه غيرهم من عسكره إلىٰ جهة الطائف،

---

(١) في «ن»: كامنة .

فصعدوا علىٰ عقبة يعرج، وأقاموا في حصن نائف لقبيلة تسمّىٰ العبدة، كما تقدّم بيانه في ترجمة الشريف محمّد.

ولم يزل مولانا الشريف مسعود مقيماً بالطائف إلىٰ رابع شهر رمضان، ثمّ جمع بادية وأقبل علىٰ مكّة المشرّفة، وبات ليلة السابع من شهر رمضان بأعالي مكّة المشرّفة، وصاحبها بها لم يتحرّك لملاقاته؛ لأسباب اقتضت تعطيله وتوانيه:

منها: خلوّ يده بسبب تعصّب الأتراك وإفسادهم للتجّار وذوي الأموال.

ومنها: إنفكاك كبار السادة الأشراف؛ لتقصيره في أداء حقوقهم.

ومنها: برودة وقعت بينه وبين أخيه السيّد ثقبة، واستمرّت إلىٰ حين وصول مولانا السيّد الشريف مسعود إلى الموضع المذكور. وغير ذلك، فاقتضت هذه الأسباب أنّه لم يخرج لملاقاته إلاّ آخر الليلة المذكورة.

فلمّا أسفر الصبح ترامى الجيشان بالرصاص، وقبل انتشار ضوء الشمس علىٰ جبال مكّة المشرّفة حمل الشريف مسعود ومن معه من السادة الأشراف حملة واحدة على الشريف محمّد ومن معه من الأشراف فهزموهم، ودخل مكّة المشرّفة في الساعة الأُولىٰ من يوم الخميس السابع من شهر رمضان المبارك سنة ألف ومائة وستّ وأربعين.

فحصل بقدومه المبارك غاية السرور، وذهاب كلّ محذور، وشمل بعدله العامّ، كلّ خاصّ وعامّ، من سكّان بلد الله الحرام، وأقبلت عليه الأتراك من بندر جدّة المعمور، بنهاية الأنس والحبور، وجلبوا إليه أجناس النقود، مع ما يحتاج إليه من مهمّات الملك المسعود، وقاموا به أحسن قيام، حتّى انتظمت دولته الشريفة أكمل انتظام، فمدحه أبناء الأدب، وابتدر لتاريخ ولايته هذه كلّ شاهر وانتدب.

فمن جملة ما قيل في تاريخ واقعة الخطم المتقدّم ذكرها:

أُختير للخلق شهم كلّ معتمدةٍ ... على الإله[1] فلا خلاّه من مدده
ليثٌ ينوب عن الأنياب صارمه ... وعن مخالبه سمر القنا بيده
روى الشجاعة عن سعدٍ وعن حسنٍ ... عن الإمام علي المشهور في جلده
كم صابر القوم حتّىٰ صار مسلكه ... لمّا رأىٰ منهم ما كان في خلده
باعوا نفوس كرامٍ واشتروا شرفاً ... بموقف الخطم ملهي الأب عن ولده
عادوا وعاد معاذاً من مسرّتهم ... يفترّ عن حسن عامٍ صحّ في عدده
في شطر بيتٍ أتىٰ سعداً مؤرّخه ... الربّ شرّف مسعوداً علىٰ بلده

وممّن أرّخ هذه الشرافة ...[2].

وهذه الواقعة هي سادس واقعة أوقعها بصاحبه في طرف سنة واحدة، حتّىٰ أدرك في هذه الأخيرة مآربه ومقاصده:

الواقعة الأولىٰ

هي التي كانت بالخطم، كما تقدّمت الإشارة إليه في هذه الترجمة إجمالاً، وفي ترجمة الشريف محمّد تفصيلاً.

الواقعة الثانية

هي التي صارت بالطائف، دافعاً بها الشريف محمّد حين أقبل عليه بثقيف، وأسفرت عن انكساره، وظفر الشريف محمّد عليه، وكانت في اليوم الثامن عشر من شعبان سنة خمس وأربعين.

---

(١) في «ن»: على الأنام.

(٢) بياض في النسختين.

الواقعة الثالثة

هي التي أوقعها بعساكر الشريف محمّد بالطائف أيضاً في يوم ...[١] من السنة المذكورة، فلم يظفر ورجع إلىٰ بندر جدّة، ثمّ منه إلىٰ منزل خليص، كما تقدّم بيانه .

الواقعة الرابعة

هي التي صارت بأسفل مكّة المشرّفة من جهة بئر طوىٰ على الشريف محمّد بإعانة العساكر المصريّة، ولم يظفر ورجع بهم إلىٰ بندر جدّة، كما شرحناه مفصّلاً في ترجمة الشريف محمّد، ومجملاً في هذه الترجمة، وكانت في اليوم الرابع من جمادي الثانية سنة ستّ وأربعين ومائة وألف .

الواقعة الخامسة

هي التي صارت على الطائف ومن به من عساكر الشريف محمّد، وقبائل ثقيف، وظفر بهم بعد رجوعه عنهم منكسراً، واستمرّ بالطائف إلىٰ أن مشىٰ منه علىٰ مكّة وأخذها، وكانت في اليوم السادس والعشرين من جمادي الثانية من السنة المذكورة .

الواقعة السادسة

هي التي أوقعها بالشريف محمّد بأعالي مكّة المشرّفة في سابع شهر رمضان، فظفر واستولىٰ علىٰ شرافة مكّة المعظّمة، وتحلّىٰ جيده بعقود أيالتها المنظّمة، فانظر إلىٰ همّة هذا السيّد الشريف، والأيّد في اقتناء المجد الشامخ المنيف، كيف يتبع الصولة بالصولة، ويوجّه إلىٰ تحصيل المفاخر همّته وحوله[٢]، وفيها كلّها يكون

---

(١) بياض في النسختين .

(٢) في «ن»: وصولته .

أوّل مغير، وآخر الخيل[١] في وقت الكسير، حتّىٰ أذن الله له في نيل مراده، فحباه بحماية بيته الشريف، وجيرانه من عباده، أبقاه الله تعالىٰ لحماية بلده الأمين، وبلد جدّه سيّد المرسلين آمين[٢].

وإذ قد فرغنا من تنميق ترجمته الشريفة، وصفاته العالية المنيفة، فنشرع الآن في حوادث الدهر الواقعة في أيّام أيالته لمكّة المشرّفة، وتاريخ وفاة من توفّي من الأعيان، في مكّة المشرّفة وغيرها من البلدان، والله الموفّق والمعين.

فصل

في حوادث أواخر سنة ستّ وأربعين ومائة وألف

لأنّ حوادثها أوّلها قد تقدّم في الجزء الأوّل من دولة الشريف محمّد وهي ختامه.

قتل رجل مغربي عالم بالعلوم الغريبة:

ففي أوائل شهر رمضان بعد دخول الشريف أيّده الله تعالىٰ بيومين: قتل رجل مغربي ينسب إلى العلم، إلاّ أنّه كان مسلوب الاختيار، يجانس النساء في اللبس والمشية، وكان له بالشريف محمّد نوع صحبة، لما توهّم فيه من العلوم الغريبة، كالسحريات والطلسمات وما أشبه ذلك، ممّا يستعين به علىٰ دفع ضدّه مولانا الشريف مسعود.

واتّفق في الواقعة الرابعة التي صارت بأسفل مكّة، ورجع فيها الشريف مسعود، أنّه حضرها هذا الرجل، وكان يقابل الشريف مسعود وقومه، ويقرأ بعض الأشياء،

---

(١) في «ن»: الخير.

(٢) راجع: خلاصة الكلام ص ١٩٠ ـ ١٩١.

ويرمي نحوهم بالأحجار والرمل، إلىٰ أن انهزموا، فصار له محلّة عند الشريف محمّد، ثمّ لم يزل يتظاهر بذلك ويمتدح به حتّىٰ قتل بسببه.

ثمّ لمّا دخل الشريف مسعود إلى الطائف في الواقعة الخامسة، استمرّ بالطائف تلك المدّة الطويلة، من غير سبب مع توفّر البادية لديه، فنسب هذا التعطيل إليه، وكلّ هذه الأُمور ترفع إلىٰ مولانا الشريف مسعود في مراسلات خواصّه.

ثمّ لمّا كان قضاء الله تعالىٰ لا مفرّ عنه، مشىٰ بنفسه إلى الطائف ليتيقّن العمل هناك بمرأىٰ منه، فوصل إلى الطائف، وزار ضريح مولانا الحبر عبدالله بن العبّاس رضي الله عنهما، ثمّ ذهب إليه بنفسه أيضاً، ولم يعرفه فعرف به، فلزمه فحبسه وأهانه، وأمر جميع الخدّام يبولون عليه ليبطل سحره الذي معه.

ثمّ مع قضاء الله تعالىٰ توفّرت دواعي المسير معه علىٰ صاحبه بمكّة المشرّفة كأنّما نشط من عقال، ثمّ توجّه إلىٰ مكّة وهو صحبته في الأغلال، وأفهمه بأنّه إن صار لنا ظفر عفونا عنك، وإن لم يصر أهلكناك، فقال: هكذا يكون، فحصل له الظفر بحمد الله تعالىٰ، وهي الواقعة الأخيرة.

فلمّا دخل مكّة أبقاه الخدّام في الحبس، إلىٰ أن يطلبه مولانا الشريف، وينعم عليه ويطلقه، فحدثت منه حادثة أوجبت الفتك به بدون اطّلاع مولانا الشريف، وهو أنّه هرب من الحبس، ولجأ إلىٰ بيوت بعض السادة الأشراف آل زيد، فلحقه أخ لمولانا الشريف صغير السنّ وفتك به، فكانت هي القاضية، ودفن بالمعلاّة في مقبرة الشيخ محمّد بن سليمان.

وفاة السيّد زيد بن أحمد بن سعيد الحسني:

وفي رابع عشر شهر رمضان المذكور: توفّي إلىٰ رحمة الله تعالىٰ مولانا السيّد الشريف، والهمام الغطريف، أحد زعماء السادة الأشراف، وأوحد عظماء القادة

آل عبدمناف، السيّد الأجلّ الأعظم الأفخر الأكبر، مولانا السيّد زيد ابن المرحوم المقدّس السيّد أحمد بن سعيد بن شبّر قدّس الله روحه، وأغدق بصيب الرحمة ضريحه.

وأعقب من الأولاد جملة كافية، وفتية بحقوق الرئاسة وافية، وهم: السيّد محمّد، والسيّد أحمد، والسيّد دخيل الله، والسيّد عبيدالله، والسيّد رضوان، أبقاهم الله تعالىٰ، وأولاهم لطفاً توالىٰ.

حصول كسوف كلّي هائل بمكّة:

وفي تاسع عشرين ذيالقعدة من السنة المذكورة: حصل للشمس كسوف هائل، لم تره الأوائل، ولم يذكر المؤرّخون مثله من عهد بكر بن وائل، وهو كسوف كلّي بمكّة المشرّفة وأخطافها في وسط النهار حتّىٰ أظلّت الآفاق، وارتعدت فرائص أهل النفاق، وظهرت الكواكب ظهراً، وأُسرجت المصابيح قهراً.

وكان من أعظم آياته، ومن أعجب أغلاط المنجّمين ماكتبوه في تقاويمهم من شأن هذا الكسوف، فإنّهم جعلوه جزئياً، وجزموا بعدم رؤيته بقطر مكّة إلاّ في الماء الراكد.

قال منجّم مكّة المشرّفة في ذلك الزمان، القاضي حسن بن القاضي محمّد بن القاضي أحسن في الدرّ المحلول الذي استخرجه من زيج أُلغ بيك، وقوّم فيه الشهور والبروج، ومسير الشمس والقمر، وضبط فيه الكسوفات والخسوفات، ما هذا لفظه، ومن خطّه نقلت، بعد أن ذكر تقويم هلال ذيالقعدة من السنة المذكورة:

وفيه يحصل كسوف جزئي في يوم الإثنين تاسع عشرينه، وذلك بعد مضي أربع ساعات وعشر درج، وآخره بعد مضي خمس ساعات وتسع درج، ومن أوّله إلىٰ آخره أربعة عشر درجة، والمقدار المنكسف ثلثا اصبع، فلا يظهر إلاّ بعرض

الماء الراكد بقطر مكّة المشرّفة، والله تعالىٰ أعلم.

فتأمّل في هذه الأغلاط الواضحة، والأوهام الفاضحة، مع أنّه من أضبط أهل زمانه، ومرجع معاصريه وأقرانه، ولم يتفرّد هو وحده بذلك، بل رأيت مثل هذه العبارة في تقويم آخر لبعض منجّمي العجم، فسبحان الملك العلاّم الذي لا يسهىٰ ولا ينام.

فصل

في حوادث سنة سبع وأربعين ومائة وألف

وفاة الشريف محسن بن عبدالله الحسني:

ففي اليوم السادس والعشرين من شهر صفر من السنة المذكورة: توفّي إلىٰ رحمة الله تعالىٰ قطب دائرة السادة الأشراف، ومحيي الآثار الشريفة الموروثة عن الأسلاف، المصنّف هذا التاريخ لنقل شريف مآثره، وتخليد منيف محامده ومفاخره، والمتوّج باسمه العالي، والمتشرّف بإثبات صفاته التي هي غرر المعالي، ودرر اللآلي، مولانا وسيّدنا المرحوم المقدّس، السيّد الشريف محسن بن عبدالله ابن حسين بن عبدالله بن حسن بن أبي‌نمي، رحمه الله تعالىٰ رحمة الأبرار، وحشره مع أجداده الأئمّة الأطهار.

وقد مرّ بك في تضاعيف هذا الكتاب ما يدلّك علىٰ جلالة مقدار هذا الغضنفر المهاب، وعدم صيرورة أمر من الأُمور، ولو تعلّق بخوافي النسور، إلاّ برأيه الصائب، وفكره الثابت الثاقب.

ومن أعظم أُموره الهائلة، رفعه للشريف مبارك بن أحمد بن زيد، وتوليته للشريف عبدالله بن سعيد، ثمّ المنافرات التي وقعت بينه وبين الشريف عبدالله المذكور أخيراً، ومقاومته له، كما هو مسطور في ترجمته، ثمّ معاضدته لصاحب

الترجمة الشريف مسعود في دولته الأُولىٰ، ثمّ في الدولة الثانية، ثمّ وقوع المنافرات السلطانيّة، وقصد تلك الأقطار والممالك، منشداً لسان حاله في حلّه وترحاله:

بكىٰ صاحبي لمّا رأى الدرب بيننا ... وأيقن أنّا لاحقون بقيصرا
فقلت له لا تبك عينيك إنّنا ... نحاول ملكاً أو نموت فنعذرا

وكان سفره صحبة الوزير الأكرم، سليمان باشا بن العظم أمير الحاجّ الشامي، فلمّا حطّ رحله بالشام، عرض لمزاجه الشريف بعض الآلام، ولم يزل يتزائد ذلك الألم، إلىٰ أن دعاه الحقّ إلىٰ بحبوحة جنانه، فألمّ ودفن بالشام بجانب قبر الشريف يحيى بن بركات، عليهما الرحمة والبركات.

وأعقب من الأولاد أربعة: السيّد عون، والسيّد أحمد، والسيّد الحسن، والسيّد عبدالله، وكلّهم بحمد الله تعالىٰ نجوم هدىٰ، وأئمّة رئاسة يتمسّك بهم ويقتدىٰ.

نجوم سماءٍ كلّما انقضّ كوكبٌ ... بدىٰ كوكبٌ تأوي إليه كواكبه

أبقاهم الله تعالىٰ للزمان غرّة، ولعين المفاخر والمكارم قرّة.

وقد أرّخ وفاته شعراء كثيرون، منهم: أديب زمانه، صاحبنا الشيخ تاج الدين ابن الشيخ عارف المنوفي، فقال:

رحمة الله لم تزل تتوالىٰ ... وبلّها دائماً بأوفى الزيادة
فوق رمسٍ به لقد حلّ مولىً ... أشرف كان عقد جيد السيادة
محسن الإسم وهو في الوصف برّ ... حسن صيّر المكارم عادة
قد دعاه المولى الكريم إليه ... فأجاب الداعي وألقىٰ قيادة
فتلقّاه منه رضوان طوبىٰ ... حيث علا مثواه فيها وشادة

وكساه العفو[1] الجميل بروداً   عن سماحٍ فيالها من سعادة
فهنيئاً له برائق[2] عذبٍ   من ختام مسك الشهي أجادة
فاستمع يا أخا المودّة قالاً   حسناً عنه معرباً بالإفادة
محكماً في وفاته ضبط عامٍ   فاجأتنا فيه بحكم الإرادة
واردٌ تاريخه بفوز ندي   نال بالشام محسن للشهادة (١١٤٧)

وقد وقفت علىٰ تواريخ كثيرة لوفاته، ومدائح جمّة لحضرته العليّة في أيّام حياته، ولولا خوف الإطالة لأوردتها لك برمّتها، وملكتك من أزمّتها، لكن أرىٰ ذلك بالنسبة إلىٰ شريف مقامه، ومنوف همّته التي تزاحم الكواكب وفتكات حسامه، كمهدي التمر إلىٰ هجر، وناقل الخزر[3] إلىٰ بلاد الدرر.

له هممٌ[4] لا منتهىٰ لكبارها   وهمّته الصغرىٰ أجلّ من الدهر

وممّن خاطبه بأبيات لأمر اقتضىٰ ذلك، والدنا العالم الأكبر السيّد محمّد بن علي بن حيدر، وهي:

ألسن العليا نادت محسناً   لا يراك الله إلاّ محسنا
يا فريد العقد في الآل ويا   درّة التاج سناءً وسنا
أنت عين المجد بل إنسانه   منذ حزت المجد خلّي الوسنا
أنت بدر التمّ بين الزهر من   سادة الخلق الملوك القرنا

---

(١) في «د»: من.

(٢) في «ن»: بوائق.

(٣) في «ن»: الخزف.

(٤) في «ن»: همّةٌ.

أنت فـي الظـاهر فيهم مـلكٌ ... كابن عجلان المسمّىٰ حسنا
وبفتح العين سنّاً ملكٌ ... ظاهر الأسرار قدماً بطنا
بطلٌ في الفتك قاسٌ قلبه ... وهو للرأفة في لين القنا
جمع الأضداد في أوصافه ... مثل ما في جدّه يروىٰ لنا
وأبيٌّ من حديدٍ بأسه ... ولذي الودّ كنورٍ يجتنىٰ
من يكن يسعىٰ لمالٍ ذاخراً ... فهو لم يذخر سوى حسن الثنا

فصل

في حوادث سنة ثمان وأربعين ومائة وألف

وفاة الجمال محمّد بن الحسن المدعون :

ففي هذه السنة: توفّي كاتب الصرّ بمكّة المشرّفة الجمال محمّد بن الحسن المدعون، وتولّي بعده هذا المنصب الجليل المقام، المكرم الخواجه مصطفى بن زيادة، اختاره لهذا المنصب صاحب الترجمة، أدام الله تعالىٰ إبقاؤه، وأيّد سعده وإجلاله، فقام به أحسن قيام، علىٰ أكمل نظام، فأرّخه بعض أُدباء الوقت بقوله :

مذ تولّىٰ كتابة الصرّ عدلٌ ... حسن الرأي معدن للإفادة
ضمن عامٍ في طالعٍ قد تجلّىٰ ... وتراآىٰ مسعوده بالسعادة
قلت تاريخه بجيد عزٍّ ... كاتب الصرّ مصطفى بن زيادة (١١٤٨)

سانحة

أخبار عن تيمورلنك سلطان العجم

تقدّم لفظ التيموري، وهي نسبة إلىٰ تيمور بفتح التاء المثنّاة الفوقيّة، ثمّ ياء تحتيّة ساكنة، ثمّ ميم مضمومة آخره راء مهملة، وهو تيمور لنك .

ومن خبره: أنّه راعي غنم، ثمّ سار أميراً لبعض سلاطين العجم في سمرقند

وبخارا، ثمّ لم يزل في خدمته حتّىٰ تغلّب علىٰ أُستاذه، فحبسه وادّعى السلطنة لنفسه.

ثمّ خرج وملك البلاد طرفاً بعد طرف، في أسرع زمن علىٰ أعجب أُسلوب، وذلك أنّه كان إذا قصد محلاً ورّي بغيره، فيهجم علىٰ ذلك المحلّ وأهله غافلون، ثمّ يبدأ بقتل جميع من فيه وما فيه من كلّ ذي روح، ثمّ يتملّك[1] جميع البلاد، ويأخذ جميع ما فيها من الأموال والسلاح والطعام، بحيث خرّب جميع الممالك التي دخلها من وراء النهر.

فلمّا خرج إلى الممالك الإسلاميّة الواسعة، كبغداد والروم والشام وحلب، وكان عادته يقتل أعيان البلاد وأركان دولتها، ثمّ ينصب فيها من يقوم مقامه من جماعته، فهابته أكثر سلاطين الزمن وملوكه، وقصدوه بالهدايا والتحف اتّقاء شرّه.

وكان ظهوره في سنة (٧٧٣) سبعمائة وثلاثة وسبعين، وأرّخه العلاّمة السيوطي في تاريخه[2] بلفظ «عذاب» في زمان السلطان يلدرم بايزيد بن مراد الغازي.

وكان حضرة السلطان المذكور في غزواته على الكفّار لم يلتفت إليه؛ لاشتغاله بما فيه سعادة الدنيا والآخرة، فهجم علىٰ بلاد الروم علىٰ غرّة، وأسرع في السير إلى المحلّ الذي فيه السلطان قبل أن يعلم أحد بوصوله، فما وسع السلطان إلاّ مقاتلته؛ لأنّ شهامة الملك تأبىٰ أن يعرض عنه ويترك قتاله، فاتّفق مع قضاء الله أنّه كسر السلطان المذكور، وقبض عليه وحبسه، ثمّ مرض السلطان المذكور في الحبس بالحماء المحرقة، ومات في الحبس.

---

(١) في «ن»: تملّك.

(٢) راجع: تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٥٢٧.

ومدّة سلطنة تيمور أربعة وثلاثون سنة، ومات في آخر سلطانه في عام ثمانمائة وسبعة في أرض الهند، ونقل إلىٰ سمرقند ودفن بها. وملوك الهند إلىٰ عصرنا هذا، وهو عام ألف ومائة وإحدىٰ وخمسين وأولاده آخر السلاطين من ولده محمّد شاه، الذي أسره نادر شاه المذكور في التاريخ المسطور.

وكانت مدّة سلطنتهم ثلاثمائة وثنتين وخمسين سنة تقريباً؛ لأنّه ربما يكون دخول تيمور لنك إلىٰ أرض الهند علىٰ سلخ الثمانمائة، وعاش بعد دخوله الهند سبع سنين في سلطنة الهند، وهذا لم أقف عليه في التواريخ، والله أعلم بالحقائق.

إخراج الأجانب من مكّة المكرّمة:

وفي هذه السنة: حدث من صاحب الترجمة، لا زالت عقود شرافته بجواهر العدل منظّمة، وذلك أنّه صدر منه أمران، هما في الحقيقة على الرعيّة مرّان:

أحدهما: النداء علىٰ جميع الغرباء من جميع الأجناس بالتوجّه إلىٰ بلدانهم، والظعون إلىٰ مساقط رؤوسهم، ومراتع أوطانهم، ويكرّر النداء عليهم مراراً، ويغلظ في العقوبة علىٰ من أهمل ذلك وأراد استقراراً.

وسبب ذلك: كثرة الغرباء بمكّة المشرّفة، حتّى اتّخذوها دار سكنىٰ، فقطعوا بذلك عن أهلها الحسنىٰ، وتعاطوا بيع الأقوات، وصاروا يجحفون في القيمة علىٰ أهلها في سائر الأوقات، حتّىٰ حدث بسبب ذلك غلاء وقحط أضرّ بسكّان هذه الممالك، مع استيلائهم علىٰ أغلب الدفاتر السلطانيّة استفراغاً، وجميع الدفاتر الهنديّة إلاّ ما شذّ تقريراً، من الأمراء المجرين لهذه الحسنات، وغير ذلك من المضرّات.

فسار أغلب المغاربة والمصريين والأتراك صحبة الحاجين الشامي والمصري وفي المراكب المصريّة، وتأخّر المسافرون إلىٰ جهة بلاد الهند من الهنود والأزبك

والكشامرة والعجم، فجدّد النداء عليهم عند سفر المراكب الهنديّة، فسافر أيضاً أغلبهم، وخلت البلاد منهم، وصار بسبب ذلك وجدان لأغلب الأقوات .

منع شرب التنباك في مكّة :

والأمر الثاني: أنّه أمر بالنداء في الأسواق وشوارع مكّة، بأن لا يشرب التنباك علانية فيها .

وسبب ذلك: أنّ الناس انهمكت في شرب التنباك، وعمّت بلوته الكبار والصغار، والذكور والاناث، والعليا[1] والسفلىٰ، حتّىٰ في شوارع الأسواق، وأطراف المشاعر، فيمرّ العظيم القدر من القضاة والعلماء والأمراء وذوي الهيآت وحكّام البلد، ولم يرفعه أحد من هؤلاء السفلة، ثمّ انجرّ الحال إلىٰ أن صار أساقط الناس من أهالي مكّة المشرّفة يمرّون به علىٰ باب شريف مكّة المشرّفة وهو في أفواههم، مع ما شاع عن بعض العلماء من القول بالتحريم، وإن كان غير مستند إلىٰ دليل مستقيم .

فنفذ أمره العالي بذلك، وتعطّلت جميع القهاوي الكائنة في الطرق والمسالك، وحصل علىٰ بعض الناس من ذلك أعظم شدّة ومشقّة، كاد أن تبلغ معه من الألم ما يساوي ضربه وخنقه .

ومدحه ـ دام علاه ـ بعض الأروام المتعصّبين في القول بتحريمه، والمصرّحين بتلويم من يشربه بلي وتأثيمه، وهم بمعزل في ذلك عن الصواب، لعدم الدليل الذي يفهم منه الكراهة، بقطع النظر عن التحريم من السنّة والكتاب، وبين الأروام في هذه المسألة مجادلات عظيمة، واجتجاجات غير مستقيمة، فمن محرّم قالي،

---

(١) في «ن»: والعليّة .

ومبيح في تعديد منافعه متغالي .

من ذلك: ما بلغني عن قضاة مكّة المشرّفة ممّن له بالتنباك محبّة أكيدة، ورغبة شديدة، وابتلي بنائب متعصّب في استخباثه، منتبذاً لإساءة من يقول بإباحته، في أثناء جدالاته وأبحاثه، إلاّ أنّه لا يسيء الأدب مع أُستاذه، بل يعرّض بتحسين تركه وانتقاده، وأُستاذه يجيبه بأجوبة غير مقنعة، ويهزأ به في بعض الأوقات .

فلمّا كان يوم التروية من ذي‌الحجّة الحرام، وردّ أُستاذه بما صورته: إنّ هذا يوم معظّم، ويوم مسألة ودعاء، فلو تركتم فيه شرب التنباك كان حسناً. فقال له: بل يجب تركه من يومنا هذا بعد أن نتلبّس بالإحرام؛ لأنّه من أعظم أنواع الطيب، ففي هذه المرّة نحن نطيعك يا نائبنا .

فانظر إلىٰ حسن هذا الجواب المعدود من أنواع البديع، وقد نظم هذا المعنىٰ غير واحد من الشعراء، وأجودهم سبكاً والدنا رحمه الله تعالىٰ، حيث قال :

اشرب من التنباك واقصد به　　　توديعه يا من غداً يحرم
فهو لأهل الذوق طيبٌ ومن　　　أحرم فالطيب له يحرم

وفاة السيّد مسعود بن أحمد الحسني :

وفي هذه السنة: توفّي إلىٰ رحمة الله تعالىٰ، كبير السادة بني حراز، وعظيمهم في الحقيقة لا المجاز، وهو مولانا السيّد مسعود بن السيّد أحمد بن السيّد حراز بن السيّد أحمد بن أبي‌نمي، جدّ السادة الأشراف ولاة مكّة المشرّفة، وأحمد بن محمّد أبي‌نمي هذا هو أحد أولاد أبي‌نمي الخمسة، التي تنتهي إليهم جميع فخوذ أشراف مكّة، وهم: الحسن، وأحمد، وثقبة، وبركات، وبشير .

ففي الحسن فخوذ كثيرة لكثرة أولاده، وقد مرّ بيان أسماءهم الشريفة في ترجمة والدهم الشريف حسن بن أبي‌نمي .

وفي أحمد المذكور فخذان، وهما: آل حراز، وآل منديل.

وفي ثقبة وبركات فخوذ كثيرة متشعّبة، ليس هذا محلّ تفصيلها.

وأقلّهم عقباً خصوصاً في عصر هذا التاريخ بشير الخامس.

ومسعود هذا أكبر الفخذين سنّاً، وأجلّهم قدراً، وأكثرهم عقباً، فإنّه رأىٰ ما يقارب الخمسين الولد من ولده لصلبه وولد ولده، وهذه سعادة عظيمة، ومنقبة جسيمة، وخلّف رجالاً كالأُسود الكواسر، وفرساناً تثني عليهم لدى الهيجاء الخناصر، أبقاهم الله تعالىٰ علىٰ ممرّ الدهور، وجعلهم من الحزب المنصور.

انتصار الدولة العثمانيّة على الكفّار:

وفي أواسط هذه السنة: جاءت الأخبار بانتصار الدولة العثمانيّة على الكفّار، وبقي بقيّة للحصار، نتمّم الكلام فيه في السنة الثانية إن شاء الله تعالى القهّار.

صولة الشريف محمّد علىٰ عمّه الشريف مسعود:

وفي شهر رمضان من السنة المذكورة: كانت صولة الشريف محمّد بن الشريف عبدالله المتقدّم ذكره علىٰ عمّه الشريف مسعود صاحب الترجمة.

وكان من أمره أنّه بعد عزله من الشرافة تنقّل إلىٰ محلاّت كثيرة، ثمّ توجّه إلىٰ جهة رهاط، وبها طائفة من بادية عتيبة، وكانوا جناة قطّاعين الطرق، يقال لهم: آل عالي من الروقة من فخوذ عتيبة، فاستمالهم للمسير معه علىٰ عمّه المذكور مع قبائل آخرين.

ثمّ توجّه إلىٰ سمت مكّة المشرّفة، وصاحب الترجمة لمّا بلغه ذلك استعدّ للملاقاة أدام الله بقاه، وحصل له من ذلك كرب عظيم، ووهم جسيم؛ لكثرة جموعهم، وشجاعة مجموعهم، وقلّة ما بيده من النقود، مع أسباب أُخر تنجز البلاء وتقود:

منها: انقطاع طريق بندر جدّة، وإلاّ كان ربما أسعفه وأمدّه.

ومنها: ميل بعض هؤلائك الأتراك، الذين سبق ذكر إسعافهم لحضرته فيما تقدّم من الحرب والعراك، فمالوا بعد دخوله إلىٰ مكّة المشرّفة لأمور حدثت منه.

ومنها: ما بلغه وتأكّد عنده من صحيح الروايات عن حال بعض آل حسن وجميع آل بركات بأنّهم مائلون إليه، باذلون جهدهم بين يديه، وقد راسلوه بالنزول عليهم في منازلهم بوادي مرّ، وأنّه علىٰ ذلك ترتّب الحال بينهم واستقرّ.

فلمّا أن تدانت الخطا، والتبس الحقّ بالخطا، استمال خواطر رفاقته من آل حسن، وتمّم لآل بركات أموراً كانوا ينتهزون الفرصة لها، فيسيّرها لهم علىٰ أحسن سنن.

فلمّا كان ليلة السابع عشر من شهر رمضان، نزل الشريف محمّد وقومه بوادي مرّ الظهران، وهو في غاية من كثرة العدد، وتوفّر[1] العدد، إلاّ أنّه قليل الزاد، منقطع الإمداد، ثمّ عرض له أمران نقضا ما أبرمه لعمّه من القتال والعدوان:

أحدهما: أنّ السادة آل بركات عدلوا عنه، بعد أن ارتكب لهم صاحب الترجمة ما أرادوه من المطالب، وسهّل لهم تلك المهمّات، وعمدته في القتال عليهم، فبردوا في يده بعد أن وصل إليهم.

وثانيهما: أنّه أرسل رسلاً إلىٰ بندر جدّة لقبض دراهم وعدّة، بتسليمها بعض الأتراك ليساعده ويمدّه، فحال بينهما رجال من أتباع الشريف مسعود، كان قد أمرهم بالجلوس لهذا الوعد الموعود، فرجعت الرسل بخفيّ حنين، وخيبة آل داود لابن عتين، فحاول الشريف محمّد تحصيل شيء من الزاد، من أهل الوادي فلم

---

(١) في «ن»: وتوافر.

يتهيّأ له المراد، فعاد هو وقومه من الوادي من غير قتال، راجعين من حيث جاؤوا من تلك الفجاج، بعد مقاساة أعظم الأهوال .

وأصبح الخبر في مكّة برجوعهم عن الصولة، وعودهم من الوادي، وهم في نهاية المسكنة[١] والذلّة، فحصل للشريف مسعود نهاية السرور، حيث ذهبوا ولم يحصل منهم شيء من الشرور، لكن ما صار ذلك إلاّ بعد صرف أموال عظيمة، واضطراب شديد في تلك الأقطار والممالك، وهذه حكمة ذي العظمة والجلال، ربما تجزع النفوس من الأمر له فرجة كحل العقال .

ثمّ توجّه الشريف محمّد دام علاه، إلىٰ جهة خليص وما والاه، وأقام في تلك الأطراف وهو في غاية التعب، ونهاية الشغب .

قتل ابن السلطان نادر شاه وبعض أخباره :

وفي أثناء هذه السنة: قتل ابن نادر شاه رضا علي ميرزا، الذي وضعه أبوه نادرشاه حين توجّه إلى الهند ـ كما تقدّم ذكره ـ نائباً عنه في مشهد الرضا بخراسان، علىٰ ممالك ايران الشاه طهماس بن الشاه حسين، الذي قتله السليماني محمود بن أويس هو وبيته وأولاده في الحبس سنة (١١٣٥) خمسة وثلاثين ومائة وألف، حين هجومه عليه باصفهان، ولم يفر من الحبس إلاّ هذا الولد من السلسلة الصفويّة، المسمّىٰ بالشاه طهماس، فلاقىٰ حروباً كثيرة مع السليمانيين في بلدان كثيرة، حتّىٰ كاد أن يلزموه باليد .

فحين[٢] خلّصه الله تعالىٰ منهم، وأوقعه في يد خادمه نادر قلي، الذي صار بعد

---

(١) في «ن»: المذمّة .

(٢) في «ن»: لكن .

ذلك نادر شاه، وقد مرّ بيان قبضه له وتقييده له باصفهان، وإنفاذه إلىٰ مشهد علي بن موسى الرضا عليه السلام، فحبس هناك بأهله وخدّامه، وأقام بعده ولده الصغير الشاه عبّاس وهو طفل في مهده، وأقام نفسه عنه وكيلاً عنه مدّة، ثمّ خلعه في سنة (١١٤٩) ألف ومائة وتسعة وأربعين، وجلس علىٰ تخت السلطنة كما مرّ تقريره، وأرسله إلىٰ أبيه في المشهد الرضوي محبوساً معه.

ولم يزل كذلك إلىٰ أن توجّه إلى الهند، وجعل ولده متولّياً على المشهد المذكور، وكأنّه أمره بأنّك إذا سمعت أمرًا وقع إليّ في ذهابي إلى الهند، فلا تبقي أحداً من هذه السلسلة، وإلاّ فلا تعترضهم.

فكان الولد انقطعت عنه الأخبار عن والده، وبلغه قتله، فعجّل بقتل الشاه طهماس وولده الشاه عبّاس، وصغير في بطن أُمّه في ليلة واحدة، ثمّ بعد قتله لهم بسبعة أيّام جاءت إليه أخبار بقاء والده، وفتحه للهند، ورسل وأرقام لأُستاذه الشاه طهماس يبشّره بفتح الهند، وأنّ ذلك لم يكن إلاّ بسعادة طالعكم، فندم ولده الشقي علىٰ ما فعل حيث لا ينفع الندم.

فلمّا رجع أبوه من الهند عاقبه بسلب نعمته، وحبسه مقيّداً تحت يد أمير من أمرائه، حتّىٰ آل أمره بعد ذلك بمدّة قليلة إلىٰ قلعه لعينه، ووضعه في خلوة في المشهد عند قبور الشاه طهماس وأولاده، فانظر إلىٰ عقاب الله الدنيوي كيف حلّ به، وسيخلد في جهنّم بسببه، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العلي العظيم.

فصل

في حوادث سنة تسع وأربعين ومائة وألف

كيفيّة جلوس نادرشاه في السلطنة :

تقدّم الوعد منّا سابقاً أنّه سيأتي في فصل حوادث سنة (١١٤٩) بقيّة قضايا

نادرشاه، وكيفيّة خلعه لسلطنة أُستاذه الشاه عبّاس ابن الشاه طهماس أُستاذه الأوّل الذي خلعه عن السلطنة، ووجّهه إلىٰ خراسان ليقيم عند قبر جدّه[١] علي ابن موسى الرضا عليهما السلام، وأقام ابنه الشاه عبّاس، كما تقدّم تفصيله في حوادث سنة (١١٤٦).

وفي هذه السنة: استقرّ الصلح بينه[٢] وبين الدولة العثمانيّة علىٰ ما مرّ تفصيله، فقويت صولته، وعظمت دولته، وكثرت عساكره، ونفذت أوامره، فطمع في الاستقلال، وخلع الولد بعد الوالد في أثناء هذا المجال، وأحكم الأُمور.

وقال: هذا صلح لابدّ له من عقد ومكاتبة، وملك تستند إليه الأقوال، ويعتمد عليه في المخاطبة، وملكهم هذا طفل صغير، وجاهل لا يدري ما الرأي ولا التدبير، ووالده قد جرّبتموه في المهمّات والمضايق، وأجمعتم علىٰ أنّه ليس بمناسب للملك ولا لايق، وأنا رجل وكيل، وصارم لا يعتريه تنيكل.

فلابدّ من اجتماع أعيان هذه الأقطار ليختاروا لهم ملكاً ضابطاً قادراً علىٰ ممارسة الحروب، ومقارعة الأبطال، ويكون غيري وغير ولدي، والحال أنّ جميع أكابر العساكر، وأرباب المناصب الشرعيّة في جميع تلك البلدان غرس نعمته، وهو الواضع لهم المرقّىٰ لأحوالهم بعد إزالته لجميع أكابر العساكر الصفويّة وأعيان دولتها بالقتل والعزل والتشتيت، ومحو آثارها بالكلّية في مدّة كونه وكيلاً، زاعماً

---

(١) ليس الإمام علي بن موسى الرضا صلوات الله عليه جدّاً لآل السلسلة الصفويّة، بل نسبهم ينتهي إلىٰ حمزة ابن الإمام موسى الكاظم عليه السلام، فالإمام الرضا عليه السلام في الحقيقة باعتبار أنّه أخو حمزة بن موسى الكاظم، فهو عمّ لهم.

(٢) أي: بين السلطان نادر شاه.

بأنّ هؤلاء هم سبب الخراب وضياع الأموال .

فقد مهّد لنفسه تمهيداً عجيب، لا يصدر إلاّ عن حكيم لبيب، والحال أنّ هذا الشخص المسمّىٰ بنادرقلي، الذي لقّبه أُستاذه الأوّل السلطان طهماس شاه بطهماس قلي، وبه اشتهر لم يعلم له أب ينتسب إليه، أو بيت يعتمد في المفاض عليه، بل راعي جمال، ويقال: يكاري عليها لنقل الأحمال من قبيلة في نواحي خراسان، يقال لها: الأفشار .

فانظر عناية الله تعالىٰ إذا حلّت علىٰ شخص ولو كان دنيّاً أحلّته أعلى المراتب، وملكته رقاب الملوك وأهل المناصب، كما صار مثل ذلك بعينه لتيمور، وهو راعي غنم، كما هو مذكور، في كلّ تاريخ ومسطور، فتأمّل بعين متيقّظ غير نائم، كيف اختصّت الغنائم برعاة البهائم .

وإذا العناية صادفت عبد الشرا   نفذت علىٰ ساداته أحكامه

فهذه حقيقة حاله، وعيبة أحواله، ملك الملوك إذا وهب، لا تسألنّ عن السبب .

فبعث رسله وهو مستقرّ بقزوين بعد رجوعه عن قتال الروم إلىٰ جميع الممالك الصفويّة، كخراسان واصفهان وشيراز وقطر آذربيجان، وبقيّة بلدان فارس، يطلب جميع من بها من الأعيان من الولاة، والقضاة، ومشايخ الإسلام، وأكابر الرعيّة، فذهبوا إليه أفواجاً أفواجاً من كلّ ناحية .

وهو في أثناء هذه المدّة يصنع خيمة عظيمة مطرّزة بالذهب والفضّة، مكلّلة بالجواهر، وصنع تختاً عظيماً، واثني عشر كرسياً مكلّلة بالجواهر العظيمة .

ثمّ لمّا اجتمع هذا العالم الكثير، والجمّ الغفير، شاهدوا هذه الإشارات، وبعضهم بصريح العبارات، وأعيان الدولة الروميّة حاضرون يشاهدون هذه القضيّة .

فحين عقد هذا المجلس العام، جلس علىٰ أحد الكراسي، وترك التخت خالياً،

ثمّ خاطبهم بما تقدّم زبره، فأجابوا برمّتهم: بأنّنا لا نريد سواك، ولا نأمن علىٰ أرواحنا وأموالنا غيرك.

فتمنّع قليلاً، ثمّ قبل وقام وجلس على التخت، وضربت الطبول، وأُفيضت الخلع علىٰ أرباب المناصب، وبعث الرسل إلىٰ جميع تلك الأقطار بالإعلام، والأمر بالإعلان باسمه العالي على المنابر، وأمر بضرب السكّة علىٰ نمط آخر غير نمط الدولة الصفويّة، ورفع ما كان يكتب سابقاً بالكلّية، وهو «لا إلٰه إلاّ الله، محمّد رسول الله، علي ولي الله» وفي الوجه الثاني اسم السلطان الصفوي، وفي الأطراف أسماء الأئمّة الاثني‌عشر عليهم السلام، فأمر أن يضرب في وجه «الخير فيما وقع» سنة (١١٤٩) وهو تاريخ جلوسه، وفي الوجه الثاني بيت شعر بالفارسي، وهو:

سكّه بر زر كرد نامي ... سلطنت را در جهان
نادر ايران زميني ... خسروي قيتي سنان

والمعنىٰ: ضرب السكّة على الدراهم باسم السلطنة في العالم نادر أرض ايران الذي تنثني الرقاب له، ويأخذ خراج العالم. وأودع قوله «نادر أرض ايران» من فنّ التورية ما لا يخفىٰ.

وإيران بكسر الهمزة ومثنّاة تحتيّة ساكنة ثمّ راء مهملة ثمّ ألف ثمّ نون، إسم يطلق علىٰ كلّ بلاد العجم، ينطوي تحته قطر فارس، وقطر خراسان، قطر آذربيجان وكيلانات إلىٰ بنادر البحر، صاحبها إيران بن مشور[1] بن سام، وإلىٰ إيران هذا تنسب إليه مملكة إيران التي كان فيها ملوك الفرس، قاله القلقشندي في

---

(١) في النهاية: آشور.

نهاية الأرب[١].

وفي مقابله توران بضمّ التاء الفوقيّة المثنّاة ثمّ واو ساكنة ثمّ راء مهملة ثمّ ألف بعدها نون، وهو إسم أيضاً يطلق علىٰ جميع بلاد الأُزبك، وينطوي تحته بلخ وبخارىٰ وخطا وخطي إلىٰ حدود ملك العجم.

قال في القاموس: وتوران بالضمّ إسم لجميع ماوراء النهر، ويقال لملكها: توران شاه[٢]. إنتهىٰ.

ولنرجع إلىٰ ما نحن بصدده من كيفيّة جلوس نادرشاه وضبطه أوقاته وعدده[٣]، كان جلوسه على التخت المذكور على النمط المسطور ببلده سنة (١١٤٩) ثمّ سار منها إلىٰ إصفهان، وأطّد أحواله بها.

ثمّ تأهّب منها إلىٰ حرب قندهار، وخرج منها سادس شهر رمضان من السنة المذكورة بالجنود العظيمة، والذخائر الكثيرة، وأرسل أمامه الفعلة والبنّائين والحفّارين وأهل الزيافة[٤]، يستخرجون له ما في طريقه من عيون وآبار يشرب منها عسكره ففعلوا.

ولم يزالوا ينتقلون من منزل إلىٰ منزل آخر[٥] وهو ينزل في إثرهم، فإذا رحل من ذلك المنزل أمر قبائل طلبهم من برّ الروم بالنزول في تلك المنازل وعمارتها

---

(١) نهاية الإرب ص ٣٨.

(٢) القاموس المحيط ١: ٣٨١.

(٣) في «ن»: ومدده.

(٤) زيّف البناء: ارتفع، وزياف جمه زيف: الطنف الذي يقي الحائط، الشرف.

(٥) في «ن»: أمن.

وزراعتها، ورفع الخراج عنهم ثلاث سنوات .

ولم يزل كذلك إلىٰ أن نزل بظواهر قندهار، فصار هذا الطريق من اصفهان إلىٰ قندهار في نهاية العمارة والأمان، وقبل ذلك لا يكاد يسلكها إنسان .

ثمّ شرع في حصار قلعة قندهار ومن بها من الطائفة السليمانيّة، وأميرهم حسين خان أخو محمودخان، الذي أخذ اصفهان من الشاه حسين الصفوي بعد المحاصرة الطويلة والقحط الشديد، حتّىٰ سلّموا إليه السلطنة، ودخلها سنة (١١٣٤) كما تقدّمت الإشارة إليه .

وحسين خان هذا ابن الأمير أُويس[١] الذي كان قد استقلّ بقندهار في أيّام الدولة الصفويّة، وقتل أميرها من طرفهم، ومحمود ولده أيضاً بعد وفاة أبيه خرج بالعساكر من قندهار وقصد بلاد العجم، وأخذ غالبها، وأسر ملكها، وقتله وقتل أولاد السلطان وغيرهم، وأفسدت عساكره السليمانيّة بلاد العجم خصوصاً اصفهان، وأسرت الرجال، وسلبت النساء، ونهبت الأموال والجواهر .

ثمّ في أثناء ذلك عرض للسلطان محمود المذكور مرض آل به إلىٰ رتبة الجنون حتّىٰ أكل فضلة نفسه، وكان معه رجل عظيم من بني أعمامه سمّي أشرف، وكان ذا رأي وجرأة، فخشي ضياع العسكر، واختلال الأحوال، فهجم عليه وقتله، وجلس على التخت، ثمّ ضبط الأحوال أحسن من محمود، واستمال رعايا العجم، فأركبت عليه الدولة الروميّة ثلاثين وزيراً، وعساكر عظيمة، وقاتلهم قريباً من اصفهان بعساكره[٢] ورعايا العجم، وظفر بهم وقتلهم وأخذ العسكر برمّته، ورجع إلىٰ

---

(١) في «ن»: إدريس .

(٢) في «ن»: بعسكره .

اصفهان .

ثمّ بعد ذلك شرع القتال بينه وبين الشاه طهماس أُستاذ نادرشاه المذكور، ونادرشاه هو المتولّي لقتال السلطان أشرف، إلىٰ أن ظفر بعساكره في خارج اصفهان وقتلهم، وفرّ هو وبعض الأجناد .

ثمّ دخل نادر المذكور إلىٰ اصفهان، ومهّد أحوالها، وأرسل وطلب أُستاذه الشاه طهماس من بلدة قم، وأجلسه على التخت، وتوجّه إلىٰ محاصرة بلاد هراة، إلىٰ آخر قضاياه في مبدء الأمر، والآن بعد جلوس نادرشاه المذكور في التاريخ المسطور، وتوجّهه إلىٰ اصفهان، ثمّ خروجه منها متوجّهاً إلىٰ حصار قندهار، كما تقدّم بيانه .

أقام بها في محاصرتها سنة وأربعة أشهر، وزرع في ظوارها وحصد وأكل، وعمّر بلدة عظيمة مقابلة لها، وجعل لها سوراً وقلاعاً، وسمّاها نادرآباد[١]، وحصرهم حصراً عظيماً بدون قتال عظيم، فعظمت عليهم الشدّة، وذهبوا موتاً وقتلاً .

ولمّا كان في آخر هذه المدّة خرجت أُخت محمودخان وحسين التي كان قد تزوّجها نادرشاه وأولدها ولداً، وأرسلها وولدها إلىٰ قندهار لمّا أظهر حسين خان الطاعة، فجعل منصب الحكومة لولده منها، وأمر حسين خان خال الولد المذكور بأن يكون نائباً عن ولده .

ولم يزالوا مظهرين الطاعة إلىٰ أن أقبل عليهم، فخافوا وغلّقوا الأبواب، فحاصرهم هذا الحصار الذي كان آخره خروج أُخته إليه، فقبلها وعفي عن أخيها، وطلبه فجاءه في نهاية الذلّة مسلّماً نفسه إليه، فأمره بأن يجمع أهله وتعلّقاته

---

(١) ويقال له الآن: كلات نادر .

ويتوجّه إلىٰ قطر بلاد العجم، ويسكن في بلدة هناك، فتوجّه مكرماً معزّزاً إلى البلدة المذكورة.

واستولىٰ نادر شاه علىٰ قلعة قندهار وهدمها عن آخرها، وتركها قاعاً صفصفاً، ونقل جميع من بها وما بها من المدافع والآلات إلىٰ نادرآباد، وجعل عليها والياً، ووضع فيها عساكر، وقتل جميع طائفة السليمانيّة، وهرب منهم جمع إلىٰ بلاد الهند، وكان فتح قندهار في شهر ... من سنة ...[1] كما سيأتي في محلّه إن شاء الله تعالىٰ.

وفاة الشيخ محمّد بن أحمد عقيلة المغربي:

وفي شهر ذي الحجّة الحرام ختام سنة (١١٤٩): توفّي شيخ الطريقة، وحامي حمىٰ أهل الحقيقة، الفاضل العلاّمة، والكامل الأجلّ الفهّامة، مولانا الشيخ محمّد ابن أحمد عقيلة المغربي[2]، رحمه الله تعالىٰ، وأولاه ألطافاً توالىٰ.

---

(١) بياض في النسختين.

(٢) هو العلاّمة محمّد بن أحمد بن سعيد بن مسعود جمال الدين أبو عبدالله المكّي الشهير بابن عقيلة الملقّب بالظاهر، كان عالماً فاضلاً محقّقاً، له تصانيف كثيرة تنبىء عن تضلّعه في العلوم، وهي: الزيادة الإحسان في علوم القرآن طبع في ثلاث مجلّدات موجود في مكتبتي، والسرّ الأسرا في معنىٰ سبحان الذي أسرىٰ، وعقد الجواهر في سلاسل الأكابر، والفوائد الجليلة في مسلسلات عقيلة، وقرّة العين في بيان ورد الخمسين والاثنين، وكثيب الأنوار في ذكر الله العزيز الجبّار، وكشف الأشكال في مسألة الأفعال، ولسان الزمان في أخبار سيّد العربان وأخبار اُمّته خير الإنس والجانّ في التاريخ والتراجم، ينقل المؤلّف في كتابه هذا عنه كثيراً، ومبدأ

⇩

ولد هذا الشيخ بمكّة المشرّفة، وتربّىٰ في حلل التوفيقات الإلهيّة المتصرّفة، ونشأ بين أهل العلوم، فأحرز منها درّها المنظوم، إلاّ أنّه من مبدء حاله، يميل إلىٰ ذوي التصوّف في جميع أقواله وأفعاله، ثمّ رحل إلى الديار اليمنيّة، وخدم بها بعض السادة العلويّة، فألبسه خرقة سنيّة، وسقاه شربة هنيئة.

ثمّ عاد إلى البلد الحرام، وهو في نهاية الإجلال والإكرام، وظهرت منه كرامات ظاهرة، وآيات باهرة، حتّىٰ عكف عليه بها أعيانها ورؤساؤها وملوكها وأُمراؤها، مع أخلاق حسنة، وسيرة مستحسنة، ونشر للعلوم، ونظم كقلائد الدرّ المنظوم، وتصنيف وتأليف، هما في غاية الترتيب والتوصيف.

منها: تاريخه الكبير المسمّىٰ بـ«مبدأ الوجود» ومنها تاريخه الصغير المسمّىٰ بـ«لسان الزمان» وقد نقلنا منه في السفر الأوّل من هذا التاريخ بعض النقول، وله رسائل جمّة، احتوت علىٰ فوائد مهمّة.

وكانت ولادته في سنة ألف وستّة وتسعين، وتوفّي في السنة المذكورة بعد رجوعه من رحلته الثانية التي توجّه فيها إلى الشام، ثمّ منها إلىٰ بغداد، وتشرّف بزيارة تلك المشاهد[1] الشريفة، والمآثر المنيفة، واجتمع بالوزير الأعظم، والمشير

⤶الوجود وهو تاريخه الكبير، والمواهب الجزيلة في مرويات الفقير محمّد بن أحمد عقيلة، ومولد النبي صلّى الله عليه وآله، ومسلسلات ابن عقيلة، ونسخة الوجود في الأخبار عن حال الموجود في التاريخ مرتّب علىٰ حوادث السنين، وهدية الخلاق إلى الصوفية في سائر الآفاق. وجاء في بعض التراجم أنّه توفّي سنة (١١٥٠) ولعلّ الصحيح ما أورده المؤلّف هنا.

(١) أي: العتبات المقدّسة في العراق، وهي الكائنة في النجف الأشرف وكربلاء

الأفخم، أحمدباشا بن حسن باشا صاحب أيالة بغداد، وأكرمه إكراماً عظيماً بين العباد، ووصله في داره، وهذا لم يصل لأحد من وفّاده وزوّاره.

ثمّ لمّا أخذ حظّه من الزيارات الشريفة، جاءه الطلب من حضرة الدولة العالية المنيفة، وذلك لما سمعت بأوصافه العليّة، وهمّته السامية الجليّة، وتوجّهه إلى الله تعالىٰ دون غيره من العباد، حيث كان من أعظم الزهّاد.

فتوجّه تلقاء التخت السلطاني العثماني، والملك الشريف الرحماني، واجتمع بملكها السلطان أحمد ثلاث مرّار، وصلّىٰ به بعض الفرائض، فحصل له بذلك مزيد الفخار، ومنحه دراهم معدودة، من أصناف النقود المنقودة، وقرّر له مرتّبات بمصر وبندر جدّة، ليستعين بذلك علىٰ إطعام الفقراء والتلامذة إذا وصل إلىٰ أماكنه المستعدّة.

ثمّ توجّه إلىٰ مصر، ومنها إلىٰ مكّة المعظّمة، وتحلّىٰ جيده بها بعقود الرئاسة المنظّمة، ولم يزل بها قرير العين، سالماً من غلبة الدين، إلىٰ أن دعاه الحقّ فأجاب، واستبدل دار المقامة والثواب، عن دار التعب والعقاب، ودفن في زاوية في أعالي مكّة الشريفة، ولم يعقب إلاّ بنتاً واحدة.

وله نظم لطيف، لم يحضرني منه شيء، فأُتوّج به هذا التأليف، إلاّ أنّ ديوانه في غاية الاشتهار، وأظهر من الشمس في رابعة النهار، نفعنا الله به.

ـه وكاظمين وسامراء. وهذا يدلّ علىٰ ولائه الخالص لأهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام.

فصل
في حوادث سنة خمسين ومائة وألف

وفاة الشيخ زين العابدين بن الشيخ سعيد المنوفي :

ففي هذه السنة توفّي المقام الأجلّ، والمرام المبجّل، عين أعيان أولاد مكّة المشرّفة، والرافل في حلل رئاستها المفوّفة، الشيخ زين العابدين ابن العالم العلاّمة الشيخ سعيد المتوفّىٰ بالمدينة المنوّرة، وأرّخه بعض أقاربه بقوله :

بـالفضل زيـن العـابدين أحـلّه ... ذو العفو بالجنّات في أعلىٰ محل
في ضمن عامٍ قد أتـىٰ تـاريخه ... بدر الأماثل بالمحامد قـد أفـل

وله رحمه الله تعالىٰ أخبار شريفة، تدلّ علىٰ همّته العالية المنيفة، وهو أنّه نشأ في كفالة أبيه، واشتغل في طلب العلم حتّىٰ صار السابق بين طلاّبه ومكتسبيه، وأضاف إلىٰ ذلك كمالات آخرة، وصفات فاخرة، ومظاهر جميلة، ومقاصد في المعاشرات جليلة، مع فصاحة وبلاغة، أرغم بها أنف ابن المراغة .

ثمّ لمّا كمل بدره، وشاع بين أهل الكمال خبره وذكره، توجّه من مكّة المشرّفة وضعن، ووجّه وجهه إلىٰ قطر اليمن، فوفد بها علىٰ إمامه الأعظم، وأميره المؤيّد المكرّم، المهدي لدين الله المتوفّىٰ في سنة ...(١)، فحلّ عنده محلّ الروح من الجسد، والبرثن من الأسد، وصار أحد وزرائه العظام، ذوي الحلّ والإبرام .

ولم يزل معه في أعلى المراتب السامية، والفيوضات الهامية، إلىٰ أن تقوّضت خيم إمامته، وتقلّص ظلّ رئاسته وزعامته، وولي الإمامة القاسم بن حسين، فحلّ عنده أيضاً محلّ النون من العين، فقدّم في الأمور المهمّة وأخّر، وتقدّم في جميع

---

(١) بياض في النسختين .

الأحوال وما تأخّر، وحقّ له أن يخاطب بذي الوزارتين، ورئيس الدولتين.

ولم يبرح بين يديه في نهاية الإقبال، وغاية الارتقاء في جميع الأحوال، إلىٰ أن شام بوارق ميل الشمس عن دائرة نصف النهار، وشمّ روائح الكسوف بينه وبين مخدومه بحيلولة كرة بعض الفجّار، فالتمس الإذن في الرحيل إلى الوطن لزيارة البيت والوالدين، ثمّ العود إلى اليمن، بعد أن قدّم سرّاً بين يديه، ما يكون ذخيرة له ولوالديه.

فرحل إلى المخا، ثمّ إلى البنادر بنهاية السرعة والعجلة، إلىٰ أن حلّ وطنه ومنزله، فورد بنهاية العزّ والإقبال، علىٰ شريف مكّة المشرّفة الكريم المفضال، وهو الملك المؤيّد السديد[1]، عبدالله بن الشريف سعيد، فقابله بالإعزاز والإكرام، إذ هو وآباؤه من أخصّ خواصّهم ومن خلّص ذوي الأرحام، فخدمه خدمة أمثاله، غير متشبّث بأطراف الوزر وأذياله، لأنّه من حين دخوله إلىٰ مكّة المشرّفة رجع إلىٰ زيّ آبائه العلماء الأعلام، والاشتغال ببثّ العلم في المسجد الحرام، وفي أثناء ذلك يجتمع بحضرته الشريف المذكور، ويفاوضه في مهمّات الأُمور.

ثمّ استأذن منه في الرحيل إلى المدينة المنوّرة وزيارة سيّد الأنام، عليه أفضل الصلاة والسلام، فأقام بها باثّاً[2] للعلم الشريف، في ذلك المسجد العالي المنيف.

وفي أثناء ذلك ابتنىٰ بها داراً في الجناب، واتّخذ جنّة من نخيل وأعناب، وتحلّىٰ بعقود رئاسة كاملة، وشفقة للمسلمين شاملة، وأخلاق حسنة، وصفات مستحسنة، ويرد إلىٰ مكّة المشرّفة مرّة في كلّ عام، لقصد حجّ بيت الله الحرام،

---

(١) في «ن»: الموفّق.

(٢) في «ن»: باتاً.

ويجتمع بملكها المذكور، ويحلّ من المهمّات ما تعلّق بقوادم النور.

إلىٰ أن مات صاحب الترجمة، ولبس ولده بعده خلعة الشرافة المنظّمة، وهو الملك المؤيّد الأمجد، مولانا الشريف محمّد، فحلّ عنده محلّه من أبيه، وصار هو المقدّم في كلّ ما يهواه ويشتهيه، ولم يزل كذلك إلىٰ أن رفع بعمّه الموفّق المحمود، مولانا الشريف مسعود، ولم يبرح معه أيضاً في أعلىٰ محلّ، إلىٰ أن دعاه داعي الحقّ، فنزل بحبوحة الجنان وحلّ.

والحاصل أنّه قلّ من رقي إلىٰ هذه المراتب العالية من أبناء جنسه، في مظهره العالي وفي شرف نفسه، وقبل توجّهه إلى المدينة المنوّرة باشر الإمامة والخطابة، فأظهر بلاغته، وأحكم إيجازه فيها وأطنابه، فأرّخها بعض محبيه من أبناء عمّه وذويه، بقوله من قصيدة: «شرّف المنبر زين العابدينا» وأقرأ في المسجد الحرام الشفا في حقوق المصطفىٰ، وغير ذلك من العلوم، المحتوية علىٰ دقائق المنطوق والمفهوم.

ثمّ بعد ذلك توجّه إلى المدينة المنوّرة، وأقام بها إلىٰ أن دعاه الله تعالىٰ لما قضاه عليه وقدّره، فرحمه الله تعالىٰ، وأغدق علىٰ قبره شآبيب غفران توالىٰ[١].

فصل

في حوادث سنة إحدىٰ وخمسين ومائة وألف

فتح السلطان نادرشاه بلاد الهند:

وفي أوائل هذه السنة: جاء الخبر إلىٰ مكّة المشرّفة بحراً، بأنّ نادرشاه الملقّب بـ«طهماس قلي خان» المتقدّم ذكره في السنين السابقة، قد دخل بلاد الهند بعد

---

(١) راجع: تاريخ عجائب الآثار في التراجم والآثار ١: ٢٤٣.

فراغه من نادر آباد، تابعاً للسليمانيّة الفارّين إلى الهند، فقصد أهل الهند، فقاتلهم وأسر ملكهم محمّد شاه التيموري، ووزيره قمرالدين خان بن محمّد أمين خان، ونظام الملك بن غازي الدين خان، وأميراً آخر عظيماً يسمّىٰ برهان الملك، وغير هؤلاء من الأُمراء العظام.

وتفصيل هذا الإجمال: هو أنّه بعد أن افتتح قندهار في شهر محرّم افتتاح السنة المذكورة، كما مرّ تفصيله، وهرب جمع عظيم من الأفاغنة إلى الهند، بعث يراسل ملك الهند محمّد شاه التيموري أوّلاً وثانياً وثالثاً، ويشكو عليه ما فعله الأفغان في ملكهم، ويطلب منه أن يعينه علىٰ أخذهم، بأن يخرج من كان في ممالكه منهم، فتغافل الملك عن جوابه، وأهمل رسله.

فتعب من ذلك وعزم من موضعه ذاك[1] على الوصول إلى الديار الهنديّة وأخذها من يد ملكها، والحال أنّ ملكها في نهاية الانهماك في اللهو، وأُمراؤه غير متّفقين[2] في خدمته، وليسوا بناصحين في تدبير أمر المملكة، ولم يزالوا يثبّطوا[3] الملك عن تدارك أحواله مع هذا الرجل، إلىٰ أن وصل بهم الغرور إلىٰ ما صاروا إليه، وذلك الشخص لم يزل يقدّم ويأخذ وينهب رعاياهم.

وأوّل ما ابتدأ بأخذ كابل، وهي أوّل ممالكهم، ومن أعظم الثغور، فأقدم عليها بجيوش وحاصرها، وبنىٰ قلعة عظيمة في ليلة واحدة، ما أسفر صبحها إلاّ وقد تسلّط عليهم منها، فسلّموا الأمر إليه، فدخلها وقتل من قتل، وأسر من أسر، وأخذ

---

(١) في «ن»: ذلك.

(٢) في «ن»: متقنين.

(٣) في «د»: يثبتوا.

الأموال، وضبطها ضبطاً عجيباً بالرجال والسلاح، ثمّ مشىٰ منها.

فلمّا جاء الخبر إلى الملك من عامله بها، طعن[١] فيه أمراؤه، وحملوه له علىٰ كذب عاملهم بها، وأنّه يريد بذلك استجلاب الأموال من الملك، فدعه وكذّبه.

واستمرّوا علىٰ غفلتهم لأمر يريده الله تعالىٰ، واستمرّ هو علىٰ سيره مقبلاً عليهم، فمن قاتله من ولاة البلدان ظفر به وقتل ونهب وأسر، ثمّ ضبط البلاد وحشاها عساكر من عسكره، ووضع والياً من طرفه عليها وسار عنها، ومن سلّم إليه الأمر ولم يقاتله لم يقتل فيهم أحداً ولا ينهب البلدان، وإنّما أخذ ذلك العامل معه ووضع عاملاً غيره من أتباعه، وأبقىٰ جانباً من عساكره وسار.

ولم يزل سائراً إلىٰ أن أقبل علىٰ لاهور، وفيها أمير عظيم يسمّىٰ زكريا خان بن عبدالصمد خان، فلم يقدر علىٰ دفعه بالمقاتلة، فسلّم إليه البلاد، فدخلها مؤمناً لرعاياها لم يلحقهم منه خلاف أبداً، وأخذ من عاملها زكريا خان مالاً عظيماً.

ثمّ خرج منها مقبلاً علىٰ بلد الملك دار الخلافة شاه جهان آباد المسمّاة دلّي ـ بكسر الدال المهملة وتشديد اللام المكسورة ـ وفيها الملك ووزيره وبقيّة الأمراء الكبار، لم يكن بعيداً عنهم إلاّ برهان الملك في قطر لكنو.

فلمّا خرج من لاهور تحقّقت عندهم الأخبار، واتّضح أمره عندهم اتّضاح الشمس في رابعة النهار، فشرع الملك وأمراؤه في تدبير الحال، وجمع الرجال، وصرف الخزائن من الأموال، وبعث كبار أمرائه، وهم الوزير قمرالدين خان، ونظام الملك، وأمير الأمراء، وفي ضمنهم أمراء كثيرون، وجنود لا يحصىٰ عددهم إلاّ الله، خرجوا من دار الخلافة غرّة شهر رمضان من السنة المذكورة، ونزلوا منزلاً

---

(١) في «ن»: ظعن.

قريباً بينه وبين البلد نحو خمسة فراسخ، وأقاموا فيه شهراً كاملاً، وهم يفكّرون في هذا الأمر، فما رأوا اسفرهم وحدهم[١] مجدياً، بل لابدّ من خروج الملك، فأرسلوا إلى الملك وكلّفوا عليه بالخروج، فتهيّأ الملك أيضاً، وخرج في سابع عشر شهر شوّال، فسافروا جميعاً إلىٰ خمسة منازل، وهو لمّا سمع به أسرع في السير لهم من لاهور.

فلمّا وصل نزل عنهم علىٰ نصف مرحلة، فوصل لوصوله أحد الأُمراء الكبار الذي كان بعيداً عنهم المخاطب ببرهان الملك، وكان وصوله إلىٰ عسكر الملك في يوم خامس عشر شهر ذي القعدة، ففي ذلك اليوم واجه الملك ونادر شاه.

فلمّا سمع بوصوله وقد كان نزل بعسكره خارج عسكر الملك بثلاثة أميال، أرسل إليه عساكره، فجاءت وشرعت في مقاتلة عسكر برهان الملك سعادت خان.

فلمّا خرج برهان الملك من عند الملك، وسمع أنّ القتال وقع في عسكره توجّه من هناك إليهم، فوقع القتال والمقابلة، والتحم العسكران، وصار عسكر نادر شاه يتكاسر لهم متقهقراً، حتّىٰ جرّ عسكر برهان الملك إلىٰ أربعة أميال آخرة.

فلمّا بلغ أمير الأُمراء الخبر بأنّ عسكر برهان الملك قد كسر عساكر نادر شاه، حسده باطناً علىٰ ذلك، وخشي أنّه إن تمّ ذلك كان لبرهان الملك عند الملك أتمّ صولة، وأعظم دولة، وبينهما من العداوة والشحناء ما لا مزيد عليه، فخرج هو وأخوه مظفّرخان وولداه وجميع عساكرهم ومن يلوذ بهم من الأُمراء كالمغيثين لبرهان الملك وعساكره.

---

(١) في «ن»: وحصرهم.

فلمّا وصلوا إلىٰ عسكر برهان الملك، وجدوهم علىٰ حالهم في أعظم قتال، مع ظهور القهقرىٰ في عسكر نادر شاه مكراً بهم يريد أن يبعدهم عن عسكر الملك .

فلمّا تمّ له مراده مع وصول أمير الأمراء وولديه وأخيه وعساكرهم، وثبت عساكر نادر شاه علىٰ عساكر برهان الملك، وقتلهم قتلاً شنيعاً، وأحاطت ببرهان الملك وبعض أقاربه وأتوا به أسيراً، ووثب نادر شاه بنفسه وبعض العساكر علىٰ عسكر أمير الأُمراء، وأحاط به وبعساكره، وقتلهم عن أمرهم، وقتل أمير الأُمراء وأخيه مظفّرخان، وأحدي ولدي أمير الأُمراء وأسر الآخر، وأسر أُمراء كثيرين، وقتل عدداً كثيراً من الأُمراء والخوانين، وذاب أمير الأُمراء وعساكره ومن يلوذ به ذواب الملح في الماء، فأصبحوا لا ترىٰ إلّا مساكنهم، فسبحان القاهر الجبّار، هذا وبرهان الملك أسير عند نادر شاه لكنّه في غاية العزّة .

فلمّا كان ثاني يوم القتال، أرسل الملك نادر شاه رسولاً إلىٰ نظام الملك يطلبه أن يأتي إليهم، ويتوسّط في الصلح بعد توثيقه بالأمان، فذهب إليه نظام الملك ثاني يوم، واجتمع بنادر شاه في خيمة نصبها في خارج العسكر، ومكث عنده نحو ربع نهار، ثمّ إنّه خرج من عنده، وقد خلع عليه خلعة جميلة، وذهب إلىٰ أستاذه الملك محمّدشاه التيموري، وأخبره بما صار، وتوسّط في الصلح، فصارت كيفيّة محطّها تسليم أموال مع اشتراط أن يجتمعا الملكان في مجلس واحد عند نادر شاه، فوافق الملك محمّدشاه ورضي بذلك .

فلمّا كان حادي عشرين من شهر ذي القعدة من السنة المذكورة، ركب الملك محمّدشاه ومعه نظام الملك نحو مائة شخص من خواصّه .

فلمّا قربوا إلىٰ معسكر نادر شاه وجدوه قد نصب خيمة خارج العسكر، وأرسل ابنه ووزيره لاستقبال الملك محمّدشاه، وقابله هو بنفسه عند باب الخيمة، وناكبه

وأدخله وأجلسه إلىٰ جانبه، ودخل معهما ابناهما، ونظام الملك واقف بين أيديهم، وطلب نادر شاه طعاماً وأكلوا منه، وطلب الطيب فطيّبهم، وقاموا وخرجوا من عنده، وتوجّهوا إلىٰ معسكرهم، ولم يطّلع أحد علىٰ تفصيل ما صار بينهما إلاّ نظام الملك، والتمس محمّدشاه من نادر شاه أن يأتي إليه ليضيفه أيضاً هو كما فعل، فأجابه إلىٰ ذلك.

ثمّ لمّا كان يوم رابع عشرين من الشهر المذكور، أرسل نادر شاه إلىٰ نظام الملك وطلبه، وقال له: أين الدراهم المطلوبة؟ فقال: نحن في سبيل تحصيلها، فغضب وتكلّم عليه كلاماً قاسياً وحبسه، وقال له: أرسل إلىٰ أستاذك محمّدشاه واطلبه يأتي إليّ، وأنا مختار فيه إن شئت حبسته، وإن شئت قتلته، وإن شئت ردّيته سالماً، وإن لم يقبل ذلك فاليستعدّ للقتال.

فأرسل نظام الملك إلىٰ أُستاذه محمّدشاه يخبره بذلك، فطلب وزيره قمرالدين خان، واستشاره في هذا الأمر، فقال له وزيره: إنّ العساكر ليس فيهم طاقة علىٰ قتال هذا الشخص؛ لما لحقهم من الجوع بسبب الغلاء والقحط، لا يقدرون على المشي فضلاً عن القتال، وخيلهم لا تقدر على الحركة، فيقتلون جميعاً، وإنّما التسليم أولىٰ، فأرسل إليه الملك محمّدشاه جواباً بأنّي سأصل إليك في غد مسلّماً إليك الأمر وأنت المختار.

فأعاد عليه الجواب مرّة ثانية: إنّه إن عزم على الوصول، فليرسل خيمته أمامه ينصبونها له خارج عسكرنا، فأمر الملك محمّدشاه بنصب خيمة له هناك، فنصب وذهب هو ثاني يوم، ونزل في خيمته، فسمع بوصوله الملك نادر شاه، فلم يطلبه إلىٰ آخر النهار، وطلبه بعد المغرب، وكان ذلك اليوم يوم الأحد سابع عشرين شهر ذي القعدة من السنة المذكورة.

فأرسل إليه بعد المغرب وطلبه، فلمّا حضر لديه أكرمه، ثمّ قال له: إنّي لا أُريد بك سوءً، ولكن بلغني أنّك في غاية الغفلة عن الملك، لم تعلم بسياسته، وقد خربت السلطنة، فأُريد أن آخذ كلّ ما عندك حتّىٰ لا يبقىٰ لك شيء، ثمّ أُوليك السلطنة لتكسب لنفسك وتجمع الأموال، حتّىٰ تعلم بقدر الملك والأموال.

ثمّ أذن له في الانصراف إلىٰ خيمته، وأمر له أن يطلب كلّما يريده من أسبابه ونسائه ومن يطبخ له طعاماً كما يريد على المعتاد، وأن يكون معه من يخدمه بقدر الضرورة، وأمر بعض الأُمراء بخدمته كما كان، وبقي عنده في الحبس علىٰ هذه الكيفيّة، وأرسل إلىٰ عسكره ومخيّمه من يعتمد عليه بضبط ما هناك من المدافع والأسلحة، وأرسل آخر لضبط الأموال والجواهر وغير ذلك، فضبطوا جميع ذلك ووصلوا إليه، وأرسل في طلب الوزير قمر الدين خان، فجاءه مطيعاً هو وجمع من أتباعه، فأبقاهم عنده.

واستولىٰ على السلطنة كلّها بهذا المنوال في التاريخ المذكور، ولم ينازعه منازع في ذلك، ولم يقع قتال أبداً إلاّ القتال الأُولىٰ الذي قتل فيه أمير الأُمراء، وأُسر فيه برهان الملك، ونزع الله السلطنة التيموريّة، ونقلها إلى هذا الرجل بهذه الكيفيّة، فسبحان الملك القاهر الذي يؤتي ملكه من يشاء، وينزعه ممّن يشاء، ويعزّ من يشاء، ويذلّ من يشاء.

وكان جلوسه على التخت التيموري عاشر شهر ذي‌الحجّة الحرام ختام السنة المذكورة، ووافق النيروز السلطاني الذي هو أوّل دخول الشمس في أوّل دقيقة من برج الحمل، في دار الخلافة شاه جهان آباد، وضبط خزائن هؤلائك الملوك من عهد تيمور إلىٰ هذا العهد من النقد والجواهر والأسلحة والآلات.

من جملتها: التخت الطاووسي، الذي صنعه بعض أُمراء شاه جهان وقدّمه إليه،

وقيمته تسعة كرور، وتسعة لكوك، وتسعة آلاف وتسعمائة وتسعة وتسعين ربية، ويقال: إنّه الأمير علي مرادخان الذي عمّر بها شاه جهان آباد، وله آثار عظيمة.

وهذا التخت من أعظم ما كانت تفتخر به الدولة التيموريّة، وما خفي كان أعظم، وأحسن السلوك مع الرعيّة، وضبط الأقطار، والله أعلم بما سيحدث بعد ذلك.

وأرّخ جلوسه هذا غير واحد من الشعراء مدحاً، وهجوا لما شاع عنه بأنّ اعتقاده غير مستقيم، وأنّه ممّن يصبو إلىٰ مذهب الرفض[1] وفي واديه يهيم، وادّعىٰ بعض الناس أنّه السفياني[2] لبعض علامات وجدت فيه، والله أعلم بحقيقته.

فمن جملة من أرّخ جلوسه هذا، مع بعض إشارات لما تقدّم ذكره من أنّه السفياني، وذكره بلقبه لا بصريح اسمه، الأديب الأريب الشيخ عبدالكريم بن أحمد الشماع الصعدي.

تفكّر باعتبارٍ كيف أضحت بلاد الهند بالطهماس تدمر
تملّك أرضها وأباح منها نفوساً كاد أن تشقىٰ وتكفر
وسلطان البلاد حباه أسراً وكان لمثله ينهىٰ ويأمر

---

(١) وهو مذهب الشيعة الإماميّة الإثني عشرية، وإنّما يقال لهم الرافضة؛ لأنّهم رفضوا من لم يأمر الرسول صلى الله عليه وآله باتّباعه، واتّبعوا من أمرهم باتّباعه، وهم أهل بيته وعترته، الذين أمر الله تبارك وتعالىٰ بمحبّتهم وسلوك طريقتهم في النصوص القرآنيّة، بقوله تعالىٰ ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلاّ المودّة في القربىٰ» وقوله تعالىٰ ﴿وآت ذا القربىٰ حقّه﴾ إلىٰ غيرهما من الآيات الشريفة.

(٢) والذي ورد في الروايات الكثيرة المستفيضة عن أهل البيت عليهم السلام أنّ السفياني يخرج قبل خروج الإمام الحجّة المهدي المنتظر عليه السلام متّصلاً بخروجه، فهذا الإدّعاء باطل قطعاً.

وإن أحدٌ يصاب بأمر سوءٍ　　فذاك بحسب ما يطغىٰ ويفجر
وما الطهماس عندي غير علّج　　هو المنمىٰ لسفيان بن يعفر
يسوق الناس إذلالاً وقتلاً　　وربّ العرش للجبّار ينصر
إشارات الكتاب أتت فخذها　　بباقي النصّ من تاريخ انظر

فالتاريخ هو جملة حروف «انظر» يساوي سنة (١١٥١) وإشارات الكتاب في باقي النصّ، أي: باقي الآية من بعد التاريخ، وهو قوله تعالىٰ ﴿كيف فعلنا بهم﴾[١].

وأرّخه صاحبنا الفاضل الأديب الشيخ محمّد بن ...[٢]:

قالوا أتىٰ نادر بالتعرّض　　فحاز الهند[٣] والشرق الوضي
ولم يكن أهلاً له وإنّه　　لا عجميٌ وهو ذو ترفّض
فقلت من نادر هذا فعل من　　يرفع من شاء فلم ينخفض
فأرّخ الناس تواريخاً له　　فمن محبٍّ قائل ومبغض
ولم يجد إلاّ الذي تاريخه　　انظر وذا تاريخه أمر قضي

ولقد أجاد كثيراً في هذه الأبيات، خصوصاً بالإشارة إلى التاريخ الأوّل.

وأرّخه أيضاً مولانا السيّد الفاضل الأديب العلاّمة الحبيب[٤] عبدالله مدهر العلوي لكن بزيادة واحدة:

آه على الهند وما حلّ بها　　من اختلافٍ واضطرابٍ منتشر

---

(١) سورة إبراهيم: ٤٥.

(٢) بياض في النسختين.

(٣) في «ن»: فحاز ملك الهند.

(٤) في «ن»: السيّد.

ذلك تـقديرٌ فسلّم قـائلاً أرّخ بـإقدار مـليكٍ مـقتدر

فصل

في حوادث سنة ثنتين وخمسين ومائة وألف

وفاة السيّد حسن بن الشريف سعيد الحسني :

ففي رابع محرّم من السنة المذكورة: توفّي إلىٰ رحمة الله تعالىٰ السيّد الشريف، والسند العالي المنيف، السيّد حسن بن الشريف سعيد بن الشريف سعد بن الشريف زيد، أخو مولانا الشريف صاحب الترجمة .

وقد كان ذا همّة ورئاسة، أناف بهما ذكره، وأظهر أنفاسه، إلاّ أنّه كسف هلاله قبل الإبدار، ولو بقي لاشتهر كالشمس في رابعة النهار، توفّي قبل أن تقبض أكفّ عمره الثلاثين، وهو لم يرض بالسهىٰ له قرين، ولم نقف له علىٰ عقب(١) .

وفاة السيّد عبدالله بن أحمد بن أبي القاسم :

وفي صفر: توفّي السيّد الشريف الأيّد في اقتناء المجد المنيف، السيّد عبدالله بن السيّد أحمد بن أبيالقاسم، وكان ذا أخلاق حسنة، وسيرة مستحسنة، فرحمه الله تعالىٰ ورحم أسلافه الكرام .

---

(١) في هامش نسخة «د»: بل أعقب ابناً نجيباً هو سعيد بن حسن بن سعيد ويكنّىٰ دياب، هو الذي صارت منه الواقعة في دولة سيّدنا سيّد الجميع الشريف سرور أدام الله دولته، وسافر إلى الشام مع جملة أشراف من ذوي زيد .

أقول: وهذا السيّد الشريف كان في زمن استنساخ النسخة حوالي سنة (١٢٠٠) وما بعده .

وفاة الشيخ علي بن عبدالسلام الرئيس ،

وفي رجب من السنة: توفّي إلىٰ رحمة الله تعالىٰ الشيخ الجليل، الفاضل النبيل، موقّت مكّة المشرّفة، الشيخ علي ابن المرحوم الشيخ عبدالسلام الرئيس، و تولّى المنصب بعد أخوه الشيخ عثمان بن الشيخ عبدالسلام الرئيس، وخلّف الشيخ علي المذكور خلفاً صالحاً إن شاء الله تعالىٰ .

رجوع السلطان نادر شاه من الهند و القتل العامّ :

وفي هذا الشهر من السنة المذكورة: كان رجوع السلطان نادر شاه من الهند، وترك محمّد شاه صاحب الهند، الذي تقدّم ذكر أسره له وضبط أمواله، وتصرّفه في ملكه كيف شاء .

ومن جملة ما صار منه أن أمر عساكره بالقتل العامّ في بلاد السلطان المسمّاة شاه جهان آباد مقرّ التخت التيموري .

وسبب ذلك: أنّه مات ليلة من الليالي أمير كبير، فصار في عساكره اضطراب عظيم، توهّمت الرعيّة أنّ السلطان نادر شاه هلك، فثارت الرعيّة علىٰ شرذمة من عساكره وقتلوهم .

فلمّا وصل الخبر إلىٰ نادر شاه، خرج من القلعة مغضباً، وجاء إلىٰ جامع عظيم في شاه جهان آباد يسمّىٰ مسجد الجمعة، وأمر العساكر بالقتل العامّ، فقتل في ذلك اليوم إلىٰ مضي سابع ساعة من النهار مائة وسبعة عشر ألف من الرعيّة والعساكر الهنديّة، ونهبت بيوت، وأُخذت أموال عظيمة، ولا انحلّ عنهم ذلك الأمر المعظّم إلاّ بشفاعة محمّد شاه .

ثمّ لمّا كان في أوائل شهر صفر المذكور من السنة المذكورة، أقام محمّد شاه في سلطنة الهند علىٰ حاله الأوّل، وجعل علىٰ أُمرائه الكبار المعتمد والمعوّل، وضربهم

جميعاً بثلاثة كرور في كلّ عام تصل إليه حيث كان وحيث أقام، واقتطع من هذا الإقليم العظيم مملكة السند بأجمعها، ومهّده في رجوعه هذا تمهيداً عجيباً، وأقام فيه سنة إلاّ قليل، وهو ما بين قتل وجمع للأموال، وتخسير وتنكيل.

إلىٰ أن استقامت أحواله، وتمهّدت طرقه، وعمّر قلاعاً في أوّله في موضع يقال له: نهر عتك، ونصب فيه أميراً عظيماً، وقوّاه بالعساكر والخيل الجياد.

ثمّ لم يزل كذلك إلىٰ أن وصل إلىٰ بلاد كابل ـ بضمّ الموحّدة ـ ثمّ توجّه منها إلىٰ بلاده نادر آباد التي عمّرها بدل قندهار مناظرة لها بعد أخذها من يد السليمانيّة، كما مرّ بيانه في حوادث سنة (١١٤٩) تسع وأربعين ومائة وألف.

ثمّ توجّه منها إلىٰ هرات بكسر الهاء، ثمّ منها إلى المشهد الشريف الرضوي بلدة طوس، وأقام فيها أربعين يوماً، ثمّ توجّه إلىٰ بلدان الأُزبك بلخ وبخارىٰ، وكان قد أخذهما ولده قبله، ثمّ افتتح أُورقنج، وقتل فيها قتلاً شنيعاً؛ لأنّه حين إقباله عليها قابلوه بالقتال، فأهلكهم جميعاً إلاّ القليل، ثمّ بعد مهّدها وأقام فيها عمّالاً من طرفه حين توجّه إلىٰ بلاد الداغستان، وقاتله قبائل الداغستاني حولاً كاملاً، وكسروه وكسرهم، ولم يزل حتّى استأصلهم في سنة (١١٥٥) كما سيأتي.

وفي هذه المدّة من سنة (١١٥٢) ثنتين وخمسين ومائة وألف إلىٰ سنة خمس وخمسين ومائة وألف، قطع فيها هذه المسافات والبلدان، وقتل خلقاً لا يحصيهم إلاّ الله، وبنىٰ في أرض الداغستان سدّاً وقلاعاً حصينة، وأقام فيها عمّالاً، وأودع فيها عساكر، ثمّ ما صدر منه بعد أخذه للداغستان سيأتي في حوادث سنة (١١٥٦) ستّ وخمسين ومائة وألف إن شاء الله تعالىٰ.

صلح الشريف محمّد مع عمّه الشريف مسعود:

وفي هذا الشهر من السنة المذكورة: كان صلح الشريف محمّد بن الشريف

عبدالله المتقدّم ذكره لعمّه الشريف مسعود، وذلك أنّه بعد صولته المذكورة في سنة (١١٥١) إحدىٰ وخمسين، ورجوعه وإقامته في خليص وهو بتلك الحالة من التعب، وصل الحاج الشامي وأميره الوزير الأعظم سليمان باشا بن العظم، وله به محبّة شديدة عظيمة، وصحبة قديمة، مع وقوف قبيلة حرب معه، ليبلغوه من شرافة مكّة أمله، ويوقروا بالمسرّات سمعه، فحاولوا الوزير المذكور علىٰ إبرام هذا الأمر، وإنفاذ الخلعة السلطانيّة إليه بين زيد وعمرو.

فلم يسعفهم علىٰ ذلك؛ لعدم إذن سلطان الحرمين الشريفين وتلك الممالك، وأعمل الحيلة في الخلاص من أيديهم، إلىٰ أن يرجع من حجّه بما يصلح أحوالهم ويهديهم.

فلمّا وصل إلىٰ مكّة المشرّفة، توسّط الحال بالصلح السديد بين الشريف محمّد وبين عمّه الشريف مسعود بن الشريف سعيد، علىٰ شرط مشروط، وأمر مربوط، وأخذ وثائق وثيقة، وتمسّكات ضابطة أنيقة، وضمن الخلل من الطرفين، ثمّ توجّه إلى المدينة المنوّرة، والشريف محمّد إلىٰ مكّة المشرّفة، فقابله عمّه بالإعزاز والإكرام، وتقرير كلّ ما يحتاج له ولجميع الخدّام، واستمرّا أخوي صفاء، وإماما صدق ووفاء.

فصل

في حوادث سنة ثلاث وخمسين ومائة وألف

وفاة السيّد سرور بن يعلى الحسني:

وفيها: توفّي السيّد الشريف، والهمام الغطريف، السيّد سرور بن يعلىٰ، أحد أعمام الشريف عبدالكريم بن محمّد بن يعلى المتقدّم ذكر ترجمته.

وكان من كبار البركاتيّة النمويّة، ومن وسيط عقود أكابرهم السنيّة، في السنّ

بلغ التسعين، وهو في القوّة الغزيريّة يعين ولا يستعين، وقد خلّف أولاداً نجباء، بلغوا في المفاخر مبالغ الأجداد والآباء.

نجوم سماءٍ كلّما انقضّ كوكبٌ بدىٰ كوكبٌ تأوي إليه كواكبه

وفاة السيّد محمّد بن عمرو الحسني :

وفي هذه السنة: توفّي المقام الأجلّ، والمرام المبجّل، عين الأعيان، وفخر الأقران، السيّد محمّد بن عمرو بن محمّد بن إبراهيم بن الشريف بركات، وهو ابن أخي الشريف بركات الملقّب بأبي الفتوحات، المتقدّم ذكره الشريف في تراجم هذا التصنيف.

وكان هذا السيّد من أفخر أقرانه، وأكرم معاصريه في زمانه، عضد ابن عمّه حضرة الشريف يحيى بن الشريف بركات، كما عضد أبوه أباه في جميع المهمّات، بفكره الثاقب، ورأيه الصائب، فرحمه الله تعالىٰ، وأغدق علىٰ قبره الشريف صيب غفران تتوالىٰ. وأعقب من الذكور سادة هم في رفاقتهم كالنسور.

وفاة الوزير إبراهيم بن عبدالرحيم الشامي

وفي عاشر جمادي الأُولىٰ من السنة المذكورة: توفّي وزير شريف مكّة المعظّمة، المتحلّي بعقد الوزارة المنظّمة، المقام الأجلّ الأعظم الأكرم السامي، أبوالمكارم إبراهيم بن عبدالرحيم الشامي.

وكان هذا الرجل من جملة خدّامه، ومن أعظم اللائذين بشريف مقامه، خدمه برهة من الزمان، إلىٰ أن منّ الله عليه بشرافة مكّة المعظّمة وهي أرفع مكان، فجازاه بإلباسه خلعة الوزارة، وأودعه ظواهره وأسراره، فمكث في الوزارة مدّة طويلة، إلىٰ أن دعاه داعي الحقّ فأجاب.

ثمّ أجلس ابنه بعده في دست الوزارة، وقلّده جميع الأُمور، فأظهر بيت أبيه

وأناره، وهو المقام الجليل ذو الفضل والإحسان الهامي، جمال الدين محمّد بن إبراهيم الشامي، وفّقه الله تعالىٰ في جميع أحواله، وبلّغه غاية آماله، بجاه محمّد وآله.

حصول السيل العظيم بمكّة:

وفي شهر رمضان من هذه السنة: حصل ذلك السيل العظيم، الذي قد ملأ المسجد الحرام إلىٰ باب الكعبة الشريفة، وكان حصوله في يوم الجمعة، فتعطّلت صلاة الجمعة، حيث لم يكن يحصل للخطيب طريق إلى المنبر الشريف، فخطب بهم[1] الخطيب في دكّة شيخ الحرم التي في باب الزيادة، وصلّىٰ الجمعة معه خمسة أنفار أو ستّة.

فصل
في حوادث سنة خمس وخمسين ومائة وألف

وفيها: بعث مولانا الشريف أيّده الله تعالىٰ عساكر وفرساناً من آل أبي نمي حرسهم الله تعالىٰ، ومن أتباعه، على السادة الأشراف المقيمين بالشاقتين الكائنتين بطريق اليمن، وهم أولاد أولاد الحسن بن عجلان، المتقدّم ذكر ترجمته في السفر الأوّل من تاريخنا هذا، وكأنّهم نشأوا في أطراف اليمن، وأقاموا بها حتّىٰ صاروا عدداً كثيراً، وملكوا الشاقتين، وزرعوا بها، وتصرّفوا في جميع الأعراب المجاورين لأراضيهم، وطريق اليمن المسلوك الذي تصل منه القوافل اليمنيّة إلىٰ مكّة المشرّفة البهيّة يمرّون[2] بهم ما بين الشاقتين المذكورتين.

---

(١) في «ن»: لهم.

(٢) في «د»: يمرّوا.

فصار لهم في تلك الأماكن شأن عظيم، وذكر جسيم، يردون علىٰ مكّة المشرّفة في السنة مراراً، ولم يجدوا عند ملوكها من آل أبي‌نمي إلاّ إكراماً واستيساراً، إلاّ أنّ لآل أبي‌نمي ـ أيّدهم الله تعالىٰ ـ قانون وعادة، وقد اختصّوا بهما دون غيرهم من بطون آل قتادة، وإلاّ فالأصل الشريف، الجامع لنسبهم العالي المنيف.

فإنّ أبانمي رحمه الله تعالىٰ جدّ ملوك مكّة المشرّفة، هو ابن بركات بن محمّد ابن بركات بن حسن بن عجلان، فالجدّ الجامع بينهم واحد، برغم كلّ مكابر وجاحد، وبنو حسن بن عجلان وقبله فخوذ وبطون، والكلّ غير داخل فيما لآل أبي‌نمي من العادة والقانون.

فذلك أمر اختصّوا به، ورقوا قمم جميع البطون بسببه، ولهم الملك والشوكة في أقطار الحجاز، والصولة التي ملكوا بها رقاب البادية على الحقيقة لا المجاز، فإنّ أحكامهم وأوامرهم العليّة امتدّت من حلي من جهة تهامة إلى الحسا من جهة نجد إلى المدينة المنوّرة إلىٰ ينبع.

فانظر إلىٰ هذا القطر العظيم، كيف استقرّ ملكهم الجسيم، من سنة ستمائة من الهجرة إلىٰ هذه السنة، وهم بحمد الله تعالىٰ في نهاية القوّة، والسلطان في جميع هذه البلدان، وهذا لم يصر قطّ لدولة من الدول، بل أغلب ما حدث بعدهم زال، وصار حديثاً كمن كان قبلهم من الأُول، وهذه مزيّة خصّهم بها القدير العليم بين جميع ملوك الأقاليم، ثبّت الله ملكهم علىٰ ممرّ الأزمان، إلىٰ ظهور صاحب الزمان[(١)].

وأمّا أبناء الشريف حسن بن عجلان المقيمون بالشاقتين من جهة اليمن، فهم

---

(١) وهو الإمام الحجّة المنتظر المهدي ابن الإمام الحسن العسكري عليهما السلام.

فخوذ أيضاً، فإنّه مات الشريف حسن عن عدّة أولاد، وأغلبهم تولّىٰ شرافة مكّة المعظّمة بنهاية الإحكام والسداد، وهم: بركات، وأبو القاسم، وعلي، وإبراهيم، وغيرهم.

أمّا بركات، فهو الذي تولّىٰ بعد أبيه الشريف حسن، ثمّ عزل بأخيه علي، ثمّ عزل بأخيه أبي القاسم، ثمّ رجعت الشرافة إلىٰ بركات، ثمّ بعد وفاته استمرّت في ولده محمّد بن بركات، ثمّ في بركات بن محمّد بن بركات، ثمّ في أبي نمي بن بركات بن محمّد بن بركات بن حسن بن عجلان جدّ آل أبي نمي المتقدّم ذكرهم، أبقاهم الله تعالىٰ، وأولاهم ألطافاً تتوالىٰ.

ثمّ انتشر من أولاد الشريف حسن بن عجلان المذكورين جمّ غفير، وعدد كثير، تفرّقوا في تهامة اليمن، وأغلبهم على الشاقتين، فحدث منهم أمور هائلة، وحوادث عن طرق الحقّ مائلة، بعضها بالمارّ بهم[1] من الحجّاج والوافدين إلىٰ بلد الله الأمين، وبعضهم بأرحام آل أبي نمي، وبعض الأتباع النازلين في تلك الأراضي والبقاع، إلىٰ أن ترقّىٰ بهم الحال، إلى الوقوع في بعض آل أبي نمي من الرجال.

فحينئذ شمّر صاحب الترجمة الشريف مسعود ذيل الهمّة العليّة، وجمع العساكر، وبذل أنواع النقود، وجهّز عليهم سريّة من العساكر[2] والأشراف، قبائل آخرين من بوادي تلك الأطراف، وجعل رأس هذه السريّة ومدبّر أمرها إبن أخيه الشريف محمّد بن الشريف عبدالله بن الشريف سعيد المتقدّم ذكر صلحه مع عمّه

---

(١) في «د»: منهم.

(٢) في «ن»: العسكر.

الشريف مسعود، بعد ذلك الحرب الشديد، فسار عليهم بتلك العساكر إلىٰ محالّهم ومنازلهم مسافة خمسة أيّام من مكّة المشرّفة .

فلمّا قرب منهم شدّوا وقصدوا مواضع أُخر حصينة ليتحصّنوا بها، ومن جملتهم كبيرهم وشيخهم، فإنّه هو واسطة عقدهم، ورابطة عقدهم، وبعض منهم فارقهم، توقّياً من الشرّ الجامع والنازلة العامّة، وهو خلي عمّا ينسب إليهم من تلك الأُمور، فنزلوا علىٰ مولانا الشريف محمّد المذكور، فقابلهم بالأمان، وكفّ السيف والسنان، وتبع الآخرين، وحصرهم في موضعه الذي تحصّنوا فيه، وهو موضع يقال له: الأُراك، وأخذ ما ندّ من نعمهم وأتباعهم .

وفي أثناء ذلك ظفر بمن دلّه علىٰ دفائنهم من الحبوب والأدباش[1] والذخائر، فأمر العساكر بأخذها والانتفاع بها، وهو لم يزل في موضعه .

فلمّا اشتدّ عليهم الحال، وضاقت عليهم الأرض، فرّوا ليلة من الليالي إلىٰ جبال بني سليم، إلاّ أنّهم في أثناء هذه المدّة قد ذهبت أموالهم، ووهنت أحوالهم، وهلك جانب من النساء والأطفال، واستذلّتهم القبائل، وهرب من بين أيديهم أغلب الرجال، فلحقهم الشريف محمّد والسادة الأشراف إلىٰ جهات جبال بني سليم وتلك الأطراف، وصارت معركة جزئيّة قتل فيها بعض شيوخ بني سليم .

ثمّ كان نتيجة هذا الحصر الشديد والاعتساف، دخولهم تحت الطاعة، ووصول شيخهم عسّاف، فقبضه وبعث به ومن معه إلىٰ حضرة الشريف مسعود كالأسير، والآخرون أمرهم بالنزول في بعض المواضع، إلىٰ أن يأتي من حضرة الشريف مسعود التدبير، فخمدت نارهم، وعفت آثارهم، وذهبت قوّتهم، ووهنت صولتهم،

---

(١) الأدباش جمع دبش: أثاث البيت .

وحجر على السيّد عسّاف وابنه وبعض أقاربه بمكّة المشرّفة، حتّىٰ ماتوا جميعاً بالجدري في أوائل سنة (١١٥٦).

وأمّا الآخرون، فأمرهم مولانا الشريف بنزولهم في منازلهم الأُول علىٰ تقرير سير سيرهم عليه، والجأهم بالغصب إليه.

من جملة ذلك: سيرهم علىٰ قانونهم القديم مع السادة الأشراف آل أبي نمي بن بركات، وحفظهم لأنفسهم، وطوارفهم عن التعدّيات، ورفع أيديهم عن حماية تلك الأراضي والجهات، وعدم تعرّضهم لمارّ الطّريق، وقصّاد البيت العتيق، فصلحت أحوالهم بعد ذلك الفساد، واستقاموا علىٰ سيرة الآباء والأجداد، من الهداية والرشاد.

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذىٰ حتّىٰ يراق علىٰ جوانبه الدم

وفاة الشيخ محمّدجواد بن عبد الرزّاق البغدادي:

وفي هذه السنة: توفّي بمكّة المشرّفة الشيخ الجليل، الصالح الورع النبيل، الشيخ محمّدجواد[1] بن الشيخ عبد الرزّاق البغدادي، المجاور بمكّة المشرّفة.

---

(١) ذكره العلاّمة السيّد الأمين العاملي في كتابه أعيان الشيعة (٤: ٢٧٣) قال: الحاج جواد ويقال محمّدجواد ابن الحاج عبدالرضا بن عوّاد البغدادي المعروف بالحاج محمّدجواد عوّاد أو الحاج محمّد البغدادي. كان حيّاً سنة (١١٢٨).

هو شاعر أديب، له ديوان شعر صغير، جمعه في حياته، رأينا منه نسخة في العراق سنة (١٣٥٢) وهو معاصر للسيّد نصرالله الحائري، وبينهما مراسلات، وذكره جامع ديوان السيّد نصرالله الحائري، فقال: شمس دار السلام بغداد، المولى الأكرم الحاج محمّدجواد، ووصفه أيضاً بعمدة الفضلاء، وزبدة الأُدباء الأوحد الأمجد.

⇩

ـه وذكره عصام الدين الموصلي في كتاب الروض النضر في ترجمة أُدباء العصر، كما في نسخة مخطوطة، رأيناها ببغداد في مكتبة المحامي عبّاس عزّاوي صاحب كتاب تاريخ بغداد، بعنوان محمّدالجواد، مقتصراً علىٰ ذلك وهو المراد، ومدحه بأسجاع كثيرة علىٰ عادة أهل ذلك الزمان وما قبله، فيها ذكر الفضل والمعارف والفصاحة والأدب والمعالي والشرف والكمال والسماحة، ومن جملة ما قال فيه: باءٍ بكماله، زاه بفضله وإقباله. شعر:

وحيدٌ له الإفضال طبع وشيمة ‏ ‏ ‏ وفيه انتهىٰ علم الورىٰ والتكرّم

له شعر كالطلّ، وقريض كاللؤلؤ المنحلّ، ثمّ ذكر قصيدته النونيّة الآتية في تقريض قصيدة حسن بن عبدالباقي.

وفي نشوة السلافة كما في نسخة مخطوطة رأيناها في مكتبة الشيخ محمّد السماوي بالنجف: الأديب الفاضل الحاج محمّدجواد ابن الحاج عبدالرضا البغدادي، أديب أحلّه الأدب صدر المجالس، ونجيب طابت منه الفروع والمغارس، فهو الجواد الذي لا يكبو، والصارم الذي لا ينبو، نثره يزري بمنثور الحدائق، ونظمه يفوق العقد الرائق. انتهىٰ.

وكلامه وكلام صاحب الروض النضر جاريان علىٰ نهج المبالغات المعروفة.

وفي الطليعة: الشيخ جواد بن عبدالرضا بن عوّاد البغدادي المعروف بمحمّدجواد عوّاد، كان فاضلاً سرياً أديباً شاعراً، قوي المعارضة، وكان ذا يسرة ممدّحاً، تقصده الشعراء، وللسيّد حسين بن المير رشيد فيه مدائح جيدة ضمّنها ديوانه. انتهىٰ.

ثمّ قال السيّد الأمين: له مدائح في النبي صلى الله عليه وآله وأهل البيت عليهم السلام فمن شعره قوله في مدح أمير المؤمنين عليه السلام:

⇩

أما وليال قد شجاني انصرانها ... لقد سحّ من عيني عليها سجامها

إلىٰ آخر الأبيات، وقد أوردها المؤلّف بتماها في متن الكتاب.

ثمّ قال: وقوله في مدح أمير المؤمنين عليه السلام:

أبارقٌ في جنح ديماس ... لاح لنا أم ضوء مقباس
أم ذاك نورٌ قد بدا لامعاً ... من قبر مولىً بالتقىٰ كاسي
أعني ابن عمّ المصطفى طاهر الأ ... عراق من رجسٍ وأدناس
سلالة الأمجاد من هاشم ... ذوي السناء الشامخ الراسي
كهفٌ منيع الجار للملتجي ... بحرٌ خضمّ الجود للحاسي
سهلٌ رقيق القلب في سلمه ... صعبٌ شديد العزم في الباس
قالع باب الحصن في خيبر ... رامي أُولي الشرك بإبلاس
وقاتل مرحب إذ لم يجد ... غنىً بأسيافٍ وأتراس
ومؤثرٌ بالقرص لم يدنه ... ثلاثة منه لأضراس
ويوم خمّ تمّ عقد الولا ... له على الأُمّة والناس
ليثٌ ترى المحراب خيساً له ... إن باتت الأسد بأخياس
أباد أهل الشام في جحفلٍ ... حمقٍ لدى الهيجاء أكياس
تقلّهم فيها طيورٌ لها ... يوم الوغىٰ أشخاص أفراس
للشرك قد تمّ بها مأتمٌ ... والوحش والطير بأعراس
فالكفر والإسلام من سيفه ... باتا بإيحاشٍ وإيناس
وهو الذي انقادت صعاب العُلا ... ببابه العالي بامراس
العالم الحبر الذي كم حوىٰ ... في العلم من نوعٍ وأجناس

⇩

⇐وكم له من خطب لفظها | يهزأ بالياقوت والماس
ذو مكرماتٍ جمّةٍ لم أطق | إحصاؤها في طيّ قرطاس
مناقبٌ تعجز عن حصرها | في الطرس أقلامي وأنفاسي
يا سيّدي يا خير من أودعت | أعظمه في ضمن أرماس
يا مأمن اللاجي ويا مؤمن الو | جلان من خوفٍ ووسواس
أغث محبّاً في الولا مخلصاً | عن دائه قد عجز الآسي
قدّامكم يسعىٰ ولو أنّه اسـ | ـطاع مشىٰ سعياً على الراس
فجاد مثواك الحيا مقلعاً | عن أربع بالجزع ادراس
من كلّ محلول الوكا رعده | قد ملأ الأُفق بأرجاس
حيّاك من ربّي سلام حكىٰ | زهر الربىٰ في طيب أنفاس
ما صدحت تسجع قمرية | في فننٍ بالروض ميّاس
وما أتت في الصبح ريح الصبا | تحمل نشر الورد والآس

وله أبيات أرّخ بها تجديد صندوق قبر أميرالمؤمنين عليه السلام في عهد حسن باشا والي بغداد، ألفاظ التاريخ فيها قوله «أسد جدّدوا له غابه» (١١٢٦).

وكتب رقعة وألقاها في الحجرة الشريفة النبويّة فيها:

ألا يا رسول الله إنّ مدنف شكا | إلى الناس همّاً حلّ من نوب الدهر
فإنّي امرؤ أشكو إليك نوازلاً | ألمّت فضاق اليوم عن وسعها صدري
ولمّا رأيت الركب شدّوا رحالهم | وقد أخذت عنس المطي بهم تسري
تجاذبني شوق إليك لو أنّه | بذا الصبح لم يسفر وبالليل لم يسر
فكن لي شفيعاً في معادي فليس لي | سواك شفيعٌ في معادي وفي حشري

⇓

ﻫ وله مقرضاً علىٰ قصيدة حسن بن عبدالباقي الموصلي ابن أخ عبدالباقي العمري التي مدح بها سيّدنا الإمام الحسين ابن الإمام علي عليهما السلام التي أوّلها (قد فرشنا الوطي تلك النياق) فقال:

ألا يا ذوي الآداب والفهم والفطن ... ويا مالكي رقّ الفصاحة واللسن
خذوا للأديب الموصلي قصيدةً ... بدرّ المعاني قلّدت جيد ذا الزمن
تسير بها الركبان شرقاً ومغرباً ... فتبلغها مصراً وشاماً إلىٰ عدن
غلت في مديح الآل قدراً وقيمةً ... فإنّي لمستام يوفي لها الثمن
تفنّن في تشبيبها ورثائها ... تفنّن قمري ينوح علىٰ فنن
فأعظم بممدوحٍ وأكرم بمادح ... صفا قلبه للمدح في السرّ والعلن
فلو رام أن يأتي أديبٌ بمثلها ... لأخطأ في المرمىٰ وضاق به العطن
فكيف وقد أضحىٰ يقلّد جيدها ... بدرّ رثاء السبط ذي الهمّ والمحن
سليل البتول الطهر سبط محمّدٍ ... ونجل الإمام المرتضىٰ وأخي الحسن
شهيدٌ له السبع الطباق بكت دماً ... ودكّت رواسي الأرض من شدّة الحزن
فشمس الضحىٰ والشهب أمسين ثكّلاً ... ووحش الفلا والانس والجنّ في شجن
علىٰ مثل ذا يستحسن النوح والبكا ... وسحّ المآقي لا علىٰ دارس الدمن
فلله حبرٌ حاذقٌ بات ناسجاً ... بديع برود لم تحك مثلها اليمن
حسينيةٌ أوصافها حسنيةٌ ... بتقريضها غالي ذوو الفهم والفطن
فلا غرو أن أربىٰ علىٰ البدر حسنها ... فعنصرها يعزىٰ إلىٰ والد حسن
جزاه إله العرش عن آل أحمد ... أتمّ جزاءٍ فهو ذو الفضل والمنن
فدونكها عذراء وابنة ليلةٍ ... صبية لفظٍ جانبتها يد الوهن

⇩

ـه نـتيجة سـبّاقٍ إلىٰ غـاية العـلىٰ ... إذا لزّ يـوماً مـع مـجاريه فـي قـرن
ولا بـدع إن فـاق الجـواد بسـبقه ... فـإن لم يكـن سبّاق غـاياتها فـمن
صعاب القوافـي الغرّ حـطّت رحـالها ... لديـه وقـد أضحـت تـقاد بـلا رسـن
فأفـرغ عـليها حـلّة الصـفح أنّـها ... لعـازبةٍ عـن وصـمة الغـلّ والأحـن
فـلا زلت فـي بـرد الفـصاحة رافـلاً ... وشانيك يكسـي حـلّة الغـيّ واللكـن

ثمّ ذكر له مخمّساً أبيات عمر الفارض يعتذر بها إلىٰ صديق ظنّ فيه الملل، ثمّ أرد له معاتباً صديقه الحاج صالح بن لطف الله، وكذا أورد له يعاتب الحاج محمّدالعطّار الملقّب بالقارشخلي، ثمّ ذكر من أبياته التي أرسلها إلى السيّد نصرالله الحائري، قال:

يـا قـرّب الله بُـعدك ... فالصبر قـد خـان بَـعدك
والدمـع يـجري نـجيعاً ... إذا تـذكّرت عـهدك
والعـيش ليس بـصافٍ ... وكـان يشـبه ودّك
وقد غدا الجسـم عـندي ... والرُوح والرَوح عـندك
لا درّ درّك دهـري ... فـقد تـجاوزت حـدّك
مـنعت عـنّي قـصدي ... ونـلت مـنّي قـصدك
يـا جـفن عـيني لازم ... مـدى التـفرّق سـهدك
ويـا لهـيب غـرامـي ... زاد التشـوّق وقـدك
ويـا زمـاناً تـقضّىٰ ... مـا كـان أعـذب وردك
فـليت لي عـن قـريبٍ ... يـقدّر الله ردّك
مـولاي أنت الذي قـد ... أوريت في المجد زنـدك
وقـد سـحبت فـخاراً ... عـلى المـجرّة بـردك

⇩

وكان هذا الرجل من فضلاء أهل زمانه، وزعماء معاصريه وأقرانه، ذا فضل باهر، وأدب زاهر، وفطنة نقّادة، وفكرة وقّادة، وفصاحة وبلاغة، أنسىٰ بهما ذكر حسّان وابن المراغة.

وسأثبت لك ما يقوم ببيّنة هذه الدعوىٰ، ممّا تهوي إليه الأفئدة وتهوىٰ، من شعره الذي هو أزهر من الرياض، غبّ الهاطل الفيّاض، وأبهىٰ من العقود، في جيد الكاعب الخرود، وأعذب من الرحيق، وأعطر من المسك العتيق[1]، وله فضائل جمّة، ومعارف تجلو ظلم الجهل المدلهمّة.

وفد إلىٰ مكّة المشرّفة في عام سبع وعشرين، وهمّته العليّة لم ترض بالسهىٰ لها

هـ وحزت خير خصالٍ ... بها تفرّدت وحدك
فليس حاتم طيٍّ ... يكون في الجود ندّك
كلاّ وليس أياس ... يحوي ذكاك ورشدك
خاب امرؤ قد تصدّىٰ ... بأن يداني مجدك
فأنت من لا تداني ... إذ كان أحمد جدّك
فجد بإرسال طرسٍ ... تسرّ في ذاك عبدك
ولا برحت بعزٍّ ... به تذلّل ضدّك
ودمت في صفو عيشٍ ... لا يقرب النحس سعدك

ثمّ ذكر جواب السيّد نصرالله الحائري، وأهدى المترجم إلى السيّد نصرالله الحائري عباءة بيضاء وذكر معها بيتين من الشعر، وله من قصيدة غرّاء مدح بها السيّد نصرالله الحائري، إلىٰ غيرها من القصائد والأبيات.

أقول: وغيّر المؤلّف اسم والده من عبدالرضا إلىٰ عبدالرزّاق، وذلك للتقيّة.

(١) في «ن»: الفتيق.

قرين، ولازم من بها من العلماء الأعلام، والفضلاء المجاورين ببلد الله الحرام، فأدرك فنوناً كثيرة، في مدّة يسيرة، ثمّ هاجر إلىٰ بلاده، ومقرّ أترابه وأنداده، واشتغل بها علىٰ فضلائها، وقبض أرواح علوم الأدب من صدور أدبائها[١]، فغاص في نمير الفضائل وكرع، وبذل علىٰ أقرانه وبرع.

ثمّ عاد إلىٰ مكّة المشرّفة سنة (١١٥٤) وهو في غاية القوّة الأدبيّة والتمكين، فتشرّفنا برؤية صباحه، واستضاءنا بنور مصباحه، ورتعنا في رياض آدابه، وتمسّكنا في تحقيق بعض الفوائد بأهدابه، وسمعنا من فيه بعض أشعاره، الدالّة علىٰ تمكّنه وعلوّ مقداره، فحسدنا عليه الدهر الخوّان[٢]، المفرّق بين الأحبّة والإخوان، فعرض له توعّك في شريف مزاجه، طار بطاووس رونقه وابتهاجه، ولم يزل بين الإماتة والإحياء، إلىٰ أن اختطفته يد أبي يحيا، فنقل من دار الفناء إلى الروضة الفنا.

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا ... أنيسٌ ولم يسمر بمكّة سامر

فرحمه الله تعالىٰ، وأغدق عليه صيب غفران تتوالىٰ.

ومن لطيف شعره الدالّ علىٰ علوّ قدره، ونقلتها من ديوانه، يمدح بها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، وهي:

أما وليالٍ قد شجاني انصرامها ... لقد سحّ من عيني عليها سجامها

تولّت[٣] فما حالفت في الدهر بعدها ... سوىٰ لوعة أودىٰ[٤] بقلبي كلامها

---

(١) في «ن»: أربابها.

(٢) في «ن»: الخؤون.

(٣) في «ن»: فولّت.

وصرت أُمنّي النفس والقلب عالمٌ ... بأنّ المنايا مخطئاتٌ سهامها
فلا حالفت قدري المعالي ولا رعت ... ذمامي إن لم يرع عندي ذمامها
بها بلغت نفسي إلىٰ جلّ قصدها ... علىٰ أنّها في القصد صعبٌ مرامها
وما كلّ من رام انقياد العُلىٰ له ... بملقىً إليه حيث شاء زمامها
ليالٍ بأكناف الغريّ تصرّمت ... فيا ليتها بالروح يشري دوامها
سقى الله أكناف الغري عهاده[٥] ... وحيّاه من غرّ[٦] الغوادي ركامها
ربوعٌ إذا ما الأرض أضحت ركوبةً ... فما هي إلاّ أنفها وسنامها
تباهي دراري الشهب حصباء درّها ... ويزري بنشر المسك طيباً رغامها
بها جيرةٌ قد أرضعوا النفس وصلهم ... فأودى بها بعد الرضاع فطامها
سأرعىٰ لهم ما عشت محكم صحبةٍ ... مدى العمر لا ينفضّ عنها ختامها
إذا شاق صبّاً ذكر سلعٍ وحاجرٍ ... فنفسي إليهم شوقها وهيامها
فكم عاذلتني[٧] في حماهم غزالةٌ ... يليق عقوداً[٨] للنحور كلامها
أقول وقد أرخت لثاماً بوجهها ... هل البدر إلاّ ما حواه لثامها
أو الليل إلاّ من عذائر[٩] فرعها ... أو الصبح إلاّ ما جلاه ابتسامها

---

(٤) في «د»: أيدىٰ.

(٥) في «ن»: بمهاده.

(٦) كذا في الأعيان، وفي النسختين: عزّ.

(٧) في الأعيان: غازلتني.

(٨) في الأعيان: عواذاً.

(٩) في الأعيان: غدائر.

وما المشرفي العضب[١] إلاّ لحاظها ولا السمهري اللدن إلاّ قوامها
فيا ليتها لمّا ألمّت تيقّنت بأنّ سويدا الفؤاد مقامها
فوالله مالي عن هوى الغيد سلوةٌ وإن جار في قلبي الشجي احتكامها
فلله نفسي كيف تبقىٰ وفي الحشا تباريح وجدٍ لا يطاق اكتتامها
وأنّىٰ لها تسلو الهوىٰ وغريمها إذا أزمعت نحو السلو غرامها
ألا ليس منجي النفس من غمرة الهوىٰ ولا ركن يرجىٰ في ذراه[٢] اعتصامها
سوىٰ حبّها مولى البريّة مذعناً[٣] بحقٍّ هو الهادي لها وإمامها
علي أمير المؤمنين ومن به تقوّض من أهل الضلال خيامها
مقام الندىٰ ركن الهدىٰ كعبةٌ غدا على الناس فرضٌ حجّها واستلامها
هو العروة الوثقىٰ فمستمسكٌ بها لعمري لا يخشىٰ لديه انفصامها
وصي الرسول[٤] المصطفىٰ ونصيره إذا اشتدّ من نار الهياج احتدامها
له الهمّة القعسا والرتب التي تجاوز ما فوق السماكين هامها
ينير به المحراب إذ بات قائماً بجنح ليالٍ جفنه لا ينامها
وإن نار حربٍ يوم روعٍ تسعّرت وشقّ علىٰ قلب الجبان اقتحامها
سطىٰ قاطعاً هام الكماة بصارمٍ غدا فيه يغتال النفوس حمامها
فكم فلّ جيشاً للطغاة بعزمه يهدّ الجبال الشامخات اصطدامها

---

(١) في الأعيان: الغضب.
(٢) في الأعيان: هواه.
(٣) في الأعيان: من غدا.
(٤) في الأعيان: النبي.

وأفناهم غزواً بكلّ كتيبةٍ ... على منهل الأقدام يبدو زحامها
تثير رياح الخيل فيها سحابياً ... من النقع يهمي بالنجيع ركامها
بكلّ فتىً ماضي العزيمة قد غدت ... له السابغات الفهد وهو حسامها
ألا إنّما أحكام دين محمّدٍ ... بحيدر أضحىٰ مستقيماً قوامها
له معجزاتٌ يقحم الخصم ذكرها ... ويسجع بالحقّ المبين حمامها
فمنها رجوع الشمس في أرض طيبةٍ ... وفي بابلٍ إذ كاد يغشي ظلامها
فيا نبأ الله العظيم الذي به ... قد اشتدّ ما بين البرايا خصامها
فمن فرقةٍ بالخلد فازت بحبّه ... وأخرىٰ رماها في الجحيم أثامها
فأنت لعمري فلك نوحٍ وجذوةٍ ... لموسىٰ بدا من طور سينا ضرامها
لقد فزت من[1] عهد النبي برتبةٍ ... كهارون من موسىٰ أُتيح اغتنامها
وأعظم من ذا أن رقيت مناكباً ... له قد تناهىٰ مجدها واحترامها
فكسّرت أصناماً خفضت دعاتها ... برفعك حتّىٰ ليس يرجىٰ التآمها
وكنت له في ليلة الغار واقياً ... بنفسٍ لنصر الحقّ طال اهتمامها
عشية إذ رام العداة اغتياله ... فخابت ولم تدرك مراماً لئامها
وجود الفتىٰ بالنفس أنفس[2] جودةٍ ... وأفضل[3] من ساد الرجال كرامها
أباحسنٍ يا ملجأ الخاطىء[4] الذي ... خطاياه قد أعيا الأساة سقامها

---

(١) في الأعيان: في.

(٢) في الأعيان: غاية.

(٣) في الأعيان: وأنفس.

(٤) في الأعيان: الخائف.

أغث موثقاً في قيد نفسٍ شقيّةٍ ... تعاظم منها أصرها[١] واجترامها
فليس لها[٢] حسني سوىٰ حبّها لكم ... سيغدو عليها بعثها وقيامها
وكن مسعفاً في الحشر منك بشربةٍ ... يبلّ بها إذ يجتبيها أوامها
فأنت قسيم النار والخلد في غدٍ ... إذا آن ما بين العباد اقتسامها
إليك أبا السبطين منّي مدحةً ... يفوق علىٰ سمط اللآلي نظامها
هي الروضة الغنّاء باكرها الحيا ... وذكرك أزهار مديحي كمامها
غدت دون مدح الله فيك وإنّما ... بذكرك يبهىٰ بدؤها وختامها
عليك سلام الله ما انهلّ بارق[٣] ... وما ناح في أعلى الغصون حمامها[٤]

وله رحمه الله في التشبيهات، وقد أُهدي إليه خلال أحمر وأصفر:

أُهدي خلالاً أحمراً مع أصفر ... مولىً لأعباء الرسالة حامل
كأنامل خضبت فبعضٌ عالقٌ ... لون الخضاب به وبعضٌ ناصل

وله وقد أُهدي إليه باذنجان:

أتاني باذنجانكم فكأنّه ... قد جاء في لونٍ كما الحبر أسود
ملوكٌ من السودان فوق رؤوسها ... فواخر تيجانٍ غدت من زبرجد

وله أيضاً في القهوة البنية:

---

(١) في الأعيان: وزرها.

(٢) في الأعيان: له.

(٣) في «ن»: فصلّىٰ عليك الله ما انهلّ بارق، وفي الأعيان: فصلّىٰ عليك الله ما لاح بارق.

(٤) راجع: أعيان الشيعة ٤: ٢٧٣ ـ ٢٧٤.

هات اسقني أسودين ولا ... تعبأ بمن في شربها يزهد
فالبيت من أركانه لم يكن ... يلثم إلاّ الحجر الأسود

وله غير ذلك من عقود منظّمة، بدرر معظّمة، فرحمه الله رحمة الأبرار.

فصل
في حوادث سنة ستّ وخمسين ومائة وألف

وفاة الشيخ عثمان بن عبدالسلام الرئيس:

ففي صفر من السنة المذكورة: توفّي الشيخ الجليل النبيل الموقّت، الشيخ عثمان بن عبدالسلام الرئيس، موقّت مكّة المشرّفة، وصاحب هذا المنصب المبارك بعد الشيخ علي المتقدّم ذكر وفاته في سنة (١١٥٢).

وانتقل هذا المنصب بعده إلى الشيخ محمّد يحيىٰ أخيه من أبيه، وكلّ منهم بدور هدىٰ، وأئمّة صلاح بهم يستمسك ويقتدىٰ، وناهيك بهذه الخدمة الشريفة، والخطّة العالية المنيفة، نفعنا الله بهم.

إصدار إلىٰ أهل المذاهب تولّي كلّ ذي وظيفة وظيفته بنفسه:

وفي هذا الشهر: برز الأمر الشريف العالي من صاحب الترجمة، لا زالت أحكامه في سلك العدل منتظمة، علىٰ جميع الخطباء والأئمّة، من أهل المذاهب الأربعة، أن يتولّي كلّ ذي وظيفة وظيفته بنفسه الشريفة، وإنّ كلّ من كان قاصراً عن قيامه بها تكون موقوفة إلىٰ أن يحصل له استعداده، فيقوم بخدمته على المعتاد، فبطل باب النيابة في الإمامة والخطابة، فشرع أهلها ومستحقّوها أصالة في موالاة خدمهم، كما أمر أدام الله إجلاله.

فكان أوّل خطيب حسب الترتيب، بعد إسقاط الموقوفات المذكورة، في القائمة الضابطة المشهورة، الشيخ الجليل، الصالح النبيل، الشيخ عبدالله بن الفاضل

العلاّمة الشيخ عبّاس المنوفي دام توفيقه، وهو من سلسلة سامية، وفتية مكارمهم في الأنام وافية[١].

ترجمة السيّد محمّد بن السيّد أحمد الخطيب :

ثمّ خطب من بعده عين أعيان السادة، ومفخر ذوي الرئاسة والسيادة، معهد الكمالات الجليّة، ومعقد خناصر أرباب الهمم العليّة، السيّد محمّد ابن المرحوم السيّد أحمد نائب الحرم الشريف، وقائم مقام شيخه العالي المنيف، وهو الوزير الأعظم، والمشير الأجلّ الأفخم، سلالة الوزراء العظام[٢]، ونخبة الأماجد الكرام، أحمد باشا بن النعمان الكبرلي، أحد وزراء الدولة العثمانيّة، وعين الوجود، وأعزّ كلّ موجود، لدىٰ صاحب الترجمة الشريف مسعود، أطال الله تعالىٰ بقاه، وأبّد[٣] سعده وارتقاه، مع همّة عالية ونجابة، لبس بهما تاج المجد وثيابه، وكرم يهزأ بالغيث الهاطل، ويعمر ربوع المجد وهي عواطل.

فظهر ظهور الشمس في رابعة النهار، وطبق صيته الشريف جميع الأقطار، وسار مسير الشمس في كلّ بلدةٍ، وهبّ هبوب الريح في البرّ والبحر، صعد بأفعاله الشريفة أرج المعالي وما هبط، وتسنّم بأوصافه المنيفة غارب سنام المجد وما سقط، كلّ ذلك بخلق ألطف من نسيم الصبا، وأرقّ من أحاديث الصبا، وحسن تواضعٍ لعامّة الناس، ومفاكهة حديث أعذب من شعر النحاس، وجاه مبذول لذوي الحاجات، ولطافة تعبير حتّىٰ في المحاججات، كلّ ذلك وأكفّ سنّه الشريف لم

---

(١) في «ن»: نامية .

(٢) في «ن»: النظام .

(٣) في «ن»: وأيّد .

تقبض الثلاثين، وهو لم يرض بالسهىٰ له قرين .

نشأ في كفالة أبيه، وجدّ في طلب الكمالات حتّىٰ أزرىٰ بطلاّب العلم ومكتبيه، بفكرة وقّادة، وفطنة نقّادة، وخطّ لو رآه ابن مقلة لاشتهىٰ أن يكتب مثله، وقلّ ما من جمع بين الحظّ والخطّ، وما أظنّ أنّ أحداً جمعها قبله قطّ. خطب خطبة لو سمعها قدامة، لوقف باهتاً قدّامة، أو رآها ابن الأثير، لغدا في مفرداتها كالحائر الأسير، أو وعي وعظها ابن أدهم، لاستزاد زهداً في ردّ الدرهم .

خرج من داره الشريفة متوجّهاً إلى المسجد الحرام، وأعيان مكّة المشرّفة من العلماء الأعلام، حافّون بجنابه العالي إلىٰ أن وصل إلى الحجر والمقام، ثمّ صعد المنبر الشريف، والمحلّ العالي المنيف، وتلا خطبته الغرّاء، والمسجد الشريف المكّي، غاصّ بالفضلاء من عربي وتركي، ومشايخ الإسلام العظام، وأغلب السادة المعتبرين الكرام، معه على المنبر السامي المقام، وتلاها عن ظهر الغيب، سالمة من كلّ شين وعيب .

وصار له في ذلك اليوم المشهود المشهور، أمر لم يصر لأحد قطّ علىٰ ممرّ الأعوام والدهور، إذ زفّت إلىٰ حضرته العليّة، وهو على المنبر المذكور ثلاث خلع سنيّة من الفرو والسمّور، وأُفيضت علىٰ جسمه الشريف وهو واقف يدعو بالإعلان، لحضرة مولانا السلطان حتّىٰ أعياه نقلها، وأتعبه ثقلها، إحداها من حضرة الملك المؤيّد المعظّم المسعود، مولانا وسيّدنا الشريف مسعود، أدام الله تعالىٰ وجوده، وأسعد جدوده، والثانية من حضرة الوزير الأعظم، والمشير الأجلّ الأفخم، ذي الرأي الصائب، والفكر الثاقب، مولانا أحمد باشا، بلغه الله من سعادة الدارين ما شاء، والثالثة من حضرة قاضي الشرع الشريف في ذلك العام، وهو من أعظم أفاضل قضاة الأروام، أدام الله تعالىٰ إجلاله، وأيّد إقباله .

ولكلّ واحد من هؤلاء العظام المشار إليهم، خطبة بخلعته الشريفة؛ لأنّه عوّل في طلبها عليهم، ثمّ جلس بعد الصلاة ينتظر وصوله إليه في مصلاّه، جرياً على العادة المعروفة بين هؤلاء السادة.

فلمّا فرغ من صلاته ذهب إلىٰ حضرة مولانا الشريف دام علاه، محفوفاً بمشايخ الإسلام، وأعيان العلماء الأعلام، وسائر أهل الوظائف الحرميّة الكرام، وأغلب الحاضرين بالمسجد الحرام، فقبّل أيديه الشريفة، وتشكّر من حضرته فيما أسداه إليه من أياديه المنيفة، وهو أيّده الله تعالىٰ قابله بما لم يقابل به أحد من أبناء خرقته، وأهل حرفته.

ثمّ توجّه من عنده إلىٰ حضرة مخدومه الوزير المشار إليه، وأتت نعم الباري متوالية عليه، والأُمّة واقفة تشاهد هذا النظام، الذي لم يتّفق مثله لأحد من خطباء المسجد الحرام، فقابله مخدومه أيضاً بما هو أهله من الإجلال والإكرام.

ثمّ توجّه من عنده إلىٰ قاضي الشرع الشريف، فقابله أيضاً بنهاية التعظيم والتشريف.

ثمّ توجّه إلىٰ داره السعيدة، والخلائق حافّة بحضرته، إلى أن استقرّ بها وهو قرير العين بلذيذ العيش ونضرته، فأقبلت عليه أعيان البلاد للمباركة على المعتاد، وازدحم الخلائق [١] علىٰ بابه، وتعفّرت جباه المدّاح علىٰ أعتابه، فأُلبس الملابس النفيسة ووهب، وأنعم بالأيدي من الفضّة والذهب، وأظهر أنواع التجمّلات في ذلك المجلس العالي، وأرغم أنف كلّ عدوّ وقالي.

فلله درّه من رئيس جمع محاسن الأوصاف، من غير مشقّة ولا اعتساف،

---

(١) في «ن»: الخلق.

واختصّ بهذه[١] الخطبة بأمر لم يأت بمثله من سبق، وهو اجتماع ثلاث خلع سنيّة علىٰ هذا النسق، وما أخال أنّ أحداً ممّن يأتي بعده يضاهيه، أو يحوم[٢] حول حماه ووادیه؛ لأنّ هذا مظهر خصّه به في عالم الوجود، مفيض الكرم والجود.

وقد أرّخ خطابته هذه غير واحد من أبناء الأدب، وتناسل إلىٰ مدحه المدّاحون من كلّ حدب، فوهبهم وأعطاهم، وأغدق عليهم وأكرم مثواهم.

وفاة السيّد حسن بن أحمد بن سالم شيخان:

وفي أوائل السنة المذكورة: توفّي السيّد الجليل، والسند العالي الأصيل، بقيّة السادة الأعيان، المعروفين في مكّة المشرّفة بآل شيخان، السيّد حسن بن أحمد ابن السيّد سالم شيخان، رحمه الله تعالىٰ رحمة الأبرار، وألحقه بأجداده الأطهار.

وكان السيّد ذا أخلاق حسنة، ومسالك مستحسنة، وتحلّىٰ بالعلوم الأدبيّة، مع نفس شريفة أبيّة، مات وأعقب ولداً واحداً.

غزوة بني مخلد:

وفي شهر صفر من هذا العام: جهّز صاحب الترجمة ـ أبقاه الله تعالىٰ ناصراً للإسلام، وقامعاً للبادية الطغام ـ سريّة من الخيل والعساكر، والسادة الأشراف الأكابر، ورأس السريّة، ملك مكّة المشرّفة سابقاً الشريف محمّد المتقدّم ذكر محاسنه السريّة، فإنّه كان معتمد عمّه الشريف مسعود في جميع الأمور السريّة، وذلك علىٰ جمع من عصاة العرب، الذين دأبهم النهب والهرب، مع ذنوب لهم سابقة، وأفعال شنيعة متناسقة.

---

(١) في «ن»: في هذه.

(٢) في «ن»: يحول.

وهم قبيلة يقال لهم: بنو مخلد، فأخمد فيهم سيوفه وأخلد، فقتل منهم تحت سنابك الخيل، عند أوّل قدوم النهار وإدبار الليل، فوق العشرين من أبطالهم، مع نهب حلّتهم وأموالهم، وهرب من بقي منه إلىٰ رؤوس الجبال، وهم في حالة الجنون والخبال، ورجعوا إلىٰ مكّة المشرّفة بعد أيّام، بالأوباش والأنعام، وأمر حضرة الشريف بتقسيم ذلك الفيء في العساكر والأشراف، وأمدّهم أيضاً من ماله علىٰ سبيل الإنعام والاسعاف.

فحصل بعدها ذلّ عظيم، ووهن جسيم، على البادية المذكورين، وغيرهم من بادية الحرمين، حتّىٰ سلّموا ما كان مقرّراً عليهم لملوك مكّة المشرّفة، من قديم الزمن بلا توقّف ولا مين.

إلاّ أنّ حين هجوم السادة الأشراف عليهم، ووصول أوّل الخيل إليهم، رموهم هؤلاء البادية ببعض البنادق، دفعاً للبلاء النازل عليهم، فأُصيب من ذلك السيّد الشريف، والغضنفر الغطريف، السيّد فائز ابن المرحوم الشريف مبارك بن أحمد بن زيد المتقدّم ترجمة شرافته، برصاصة في ساقه مكث بعدها خمسة أيّام، ثمّ انتقل إلىٰ رحمة الله تعالىٰ بالطائف، ودفن به، وليس في ذلك عار، بل ذلك من أفضل خلعهم الشريفة يوم الفخار، كيف لا؟ ولسان حالهم لم يزل يقول:

وما مات منّا سيّدٌ حتف أنفه ... ولا ظلّ منّا حيث كان قتيل

درج رحمه الله تعالىٰ ولم يعقب، غير أنّ له إخوان كبار، هم كالشموس الشارقة في الاشتهار.

إذا مات منهم سيّدٌ قام سيّدٌ ... قؤولٌ بما قال الكرام فعول

كيف لا؟ وهم فروع تهدّلت من دوحة المجد، وتبدّد ماء صولتهم في أعماق الأرض من كلّ غور ونجد.

لهم والدٌ لو كان للناس كلّهم   أبٌ مثله أغناهم بالمناقب

أبقاهم الله تعالىٰ ورحم أباهم، وثبّت مجدهم الراسخ وإياهم.

وفاة السيّد حسن بن غالب بن زامل الحسني:

وفي شهر ربيع الأوّل من السنة المذكورة: توفّي إلىٰ رحمة الله تعالىٰ السيّد الشريف الماجد الكامل، السيّد حسن بن غالب بن زامل، قدّس الله روحه، وأنار بمصابيح الرحمة ضريحه.

وكان هذا السيّد الشريف، من أكابر هذا العنصر اللطيف، ومن ألطفهم أخلاقاً، وأوسعهم إنفاقاً، مات رحمه الله تعالىٰ ولم يعقب إلاّ ابنتين قاصرتين.

وفاة الشيخ محمّد بن حسن العجيمي:

وفي ليلة السبت ثامن شهر ربيع الثاني: توفّي العالم العلاّمة، والقطب العظيم[١] الفهّامة، الشيخ محمّد ابن المرحوم الشيخ حسن العجيمي، المتقدّم ذكر وفاته في سنة (١١١٣).

وكان هذا الشيخ عالم زمانه، وفريد معاصريه وأقرانه، أخذ علىٰ علماء كثيرين، وتفنّن في العلوم حتّىٰ صار علماً للمتأخّرين، ثمّ قصّر أوقاته الشريفة على العبادة، وبثّ الفقه والحديث في الحرم الشريف المكّي، وقصده العلماء من جميع الأقطار، للاستفادة منه وأخذ الإجازة المتداولة بين محدّثي الأمصار.

وأمّا أخلاقه الحسنة، وسيرته المستحسنة، فهما أشبه بمن سلف من صالحي السلف، صحبته أعواماً وسنين، وهو لم يزل لمخلصه نعم المعين، فجزاه الله تعالىٰ عنّي خير الجزاء، وجعل نصيبه من السعادة الأُخروية أوفر الإجزاء.

---

(١) في «ن»: المعظّم.

وأعقب خلفاً صالحاً ظهر منهم بعض الأشخاص .

وفاة السيّد عبدالعزيز بن زين العابدين الحسني :

وفي يوم السابع عشر من شهر ربيع الثاني من السنة المذكورة: كانت وفاة السيّد الشريف، والهمام الأجلّ الأعظم المنيف، السيّد عبدالعزيز ابن السيّد المرحوم زين العابدين بن إبراهيم بن محمّد بن بركات بن أبي نمي، قدّس الله روحه، وأغدق بصيب الرحمة ضريحه .

وكان هذا السيّد الجليل الفاخر، أوحد أرباب المظاهر والمفاخر، رقي إلىٰ أعلى المراتب السنيّة، بين معاصريه من السلسلة الشريفة النمويّة، وابتداء ظهوره في شرافة ابن عمّه الشريف يحيى بن بركات؛ لأنّه أُلقي إليه مقاليد أُموره في جميع المهمّات، فظهر بسبب ذلك، وشاع صيته الشريف في جميع الممالك، ولم يزل علىٰ هذه الحال إلىٰ أن دعي فأجاب، فخليت منه المنازل والأطلال، مات رحمه الله تعالىٰ ولم يعقب .

بناء برجين عظيمين لصاحب الترجمة :

وفي أوائل هذه السنة: شرع صاحب الترجمة في بناء برجين عظيمين في واجهة بيته المسمّىٰ بدار السعادة، المعروف بسكنى الملك بمكّة المشرّفة، أحدهما أعلىٰ من الآخر، وأودعهما مدافع كباراً وصغاراً، وهو أمر لم يتنبّه له أحد من ملوك مكّة المشرّفة، ولا الذي أسّس البيت المذكور وبناه، وأتقن صنعه وبناه، وهو السيّد الشريف، ذو القدر العالي المنيف، السيّد حسين بن الشريف حسن بن الشريف أبي نمي المذكور سابقاً، رحمهم الله تعالىٰ رحمة الأبرار، وحشرهم مع أجدادهم الأطهار .

وهذا حسين هو جدّ السادة المذكورين ملوك مكّة المشرّفة آل زيد،

المتوارثين لمنصب الشرافة السنيّة، والأيالة المكّية الحسنيّة، وهم آل زيد بن محسن بن حسين المذكور بن الشريف حسن.

وكان قد بناه لوالده الشريف حسن، فسكنه مدّة حياته، وهو بنفسه لم يتحلّ جيده بعقود الأيالة، مع أنّه بين إخوته في غاية العزّة والجلالة.

ثمّ لم يزل يسكنه من تولّىٰ شرافة مكّة المشرّفة من أبناء السيّد حسين بن الحسن المذكور، وهم آل زيد، حرسهم الله تعالىٰ من كلّ همّ وكيد، وإن اتّفق أن تولّىٰ هذا المنصب أحد من بطون آل أبي نمي الأُخرىٰ، كما سبق بيانه في التراجم المتقدّم سردها، فإمّا يسكنه بأجرة معلومة، أو يسكن غيره لكونه مستحقّاً لهم دون غيرهم من البطون.

وكان كلّ ما سكنه واحد من آل زيد، جدّد فيه محلاّت، وزاد فيه زيادات، وأصلح ما خرب منه، خصوصاً مولانا صاحب الترجمة، لا زالت عقود دولته بفرائد العدل والاحسان منتظمة. وكان الفراغ من عمارة هذين البرجين في أواخر شهر جمادي الأُولىٰ من السنة المذكورة.

الفتنة العظيمة بالمدينة:

وفي هذه السنة: وقعت فتنة عظيمة بالمدينة المنوّرة، علىٰ صاحبها أفضل الصلاة والسلام، بين العساكر أهل القلعة وبين شيخ الحرم الشريف المدني، وهو عبدالرحمٰن آغا وبقيّة العساكر في طرف شيخ الحرم.

وأصل هذه الفتنة: أنّه وقع التباغض والعداوة بين أهل القلعة من العساكر، فاستقلّ جماعة منهم بحفظ القلعة، وخرج آخرون إلىٰ أطراف المدينة، واستمرّ

الحال علىٰ ذلك، فصارت المراسلة بين بعض المستقلّين[١] بالقلعة وبين المقيمين بأطراف المدينة المنوّرة .

إلىٰ أن قرّ الأمر بينهم على الدخول، والبعض الآخر لم يكن عندهم اطّلاع علىٰ ذلك إلاّ حين دخولهم إلى المدينة، وقتل شخص يسمّىٰ حسن كابوس، فتلقّاقهم أهل القلعة جميعاً باللطف والبشاشة والاستعداد والضيافة .

ثمّ أشاروا عليهم بأنّكم أخرجوا والزموا هذه الجهات القريبة من القلعة، فإنّ شيخ الحرم ربما يرسل من يحفظها عليكم، فخرجوا جميعاً إلاّ البعض المتوهّم .

فلمّا خرجوا عن القلعة أغلقوا بابها وضبطوها، فصار الحرب عليهم من جهة القلعة، ومن جهة شيخ الحرم .

فلمّا علموا أنّ الحيلة قد أبرمت عليهم، رجعوا وخرجوا إلىٰ خارج المدينة، ونزلوا في البيوت المقابلة للقلعة، وجعلوا فيها بروجاً ومرامياً للبندق، فوقع القتال بينهم وبين أهل القلعة، وشملهم حضرة شيخ الحرم بنظره العامّ، وخصّهم بالفضل والإنعام، وأغلق جميع أبواب المدينة المنوّرة .

واستمرّ الحال علىٰ ذلك، وكلّ من الفريقين ضابط لما يمكن التوصّل منه إليه من السبل والمسالك، فأبرم أهل الخارج حبال المكر والحيلة، وأظهروا السكون في جميع الاُمور الدقيقة والجليلة، ودسّوا في أهل القلعة غلاماً خدّاماً لهم ليبلغهم من مقصودهم أملهم، ورتّبوا معه أنّه إذا كان بعد المغرب من الليلة الفلانية دع شيوخ القلعة في مجلسهم، واصعد إلى الموضع الفلاني، واطرح لنا حبلاً أودعوه إيّاه، ثمّ انزل وقف في خدمتك بين أيديهم .

---

(١) في «ن»: المشتغلين .

فلمّا كان إبّان الوعد المذكور فعل ما أمروه به، ووصلوا إلىٰ مطلوبهم بسببه، وهذا ثمرة التأنّي في الأُمور، وبه يحصل الظفر والسرور، وقد قيل :

قد يدرك المتأنّي بعض حاجته   وقد يكون مع المستعجل الزلل

فصعد منهم في تلك الليلة من مؤخّر القلعة جمع كثير، وجمّ غفير، وأوقعوا السلاح في أركانهم، وقطعوا بإقدامهم وجرأتهم وإبرامهم[1]، وانحاز الباقون إلىٰ شيخ الحرم المذكور. ومن أعيانهم الشيخ الجليل العالم الأصيل الشيخ عبدالكريم الأنصاري، وولده صاحبنا الأديب الأريب الشيخ يوسف الأنصاري، وغيرهما، فثارت الحرب بين هؤلاء الذين ملكوا القلعة وما انضمّ إليهم، وبين شيخ الحرم والمنحازين إليه .

فلمّا اشتدّ الأمر ولاحت الغلبة لأهل القلعة، استعصم شيخ الحرم بالبادية، وطلب أعيان قبيلة حرب الكائنين بين الحرمين الشريفين، وكان قد وصل إليه سابقاً رئيسهم وابن شيخهم قديماً، الشيخ هزاع بن الشيخ مبارك بن مضيان شيخ قبيلة حرب قديماً، وقد تقدّم له ذكر في ترجمة الشريف مبارك بن أحمد .

وكان له علىٰ أهل القلعة يداً حين كانوا في خارج البلاد، وجعل بينه وبين قبيلة بني علي إحدىٰ قبائل حرب اتّصالاً به، وأقامهم خدّاماً وأنصاراً له علىٰ أعدائه، ثمّ ذهب وبعد مدّة من ذهابه فعلوا تلك الحيلة، وملكوا القلعة، وفعلوا ما فعلوا .

فوصل إليه جمع عظيم من بني علي المذكورين، وفرّقهم في المنائر التي حول المسجد الشريف النبوي، وفي مواضع أخر لحفظ المسجد الشريف، وما فيه من الأموال زيادة علىٰ عبيد الآغاوات وأتباعهم، ومن انحاز إليهم من بقايا أهل

---

(١) في «د»: إبرائهم .

القلعة سابقاً.

فتحصّنوا وسدّوا بعض المنافذ، وأغلقوا جميع أبواب المسجد الشريف إلاّ ما والاهم، كباب النساء، وباب الرحمة، ومن أبواب السور المحيط بالمدينة باب الجمعة الخارج منه إلىٰ جهة البقيع وبقيّة الأبواب، كباب المصريين، وباب السلام، وغيرهما في يد أهل القلعة، وباطن المدينة المنوّرة، قد انقسم قسمين: قسم بيد أهل القلعة وهو الأكبر، وقسم بيد شيخ الحرم وهو الأصغر، وقاضي الشرع الشريف قد استولىٰ عليه أهل القلعة وصار جهتهم وبأيديهم، يتصرّفون فيه كتصرّف الملاّك[1] في أملاكهم.

واستمرّ الحال علىٰ ذلك، والمسجد لا يؤذّن فيه ولا تقام فيه صلاة جمعة ولا جماعة، وقد دخل الرصاص فيه من أهل القلعة، وضرب في سواري المسجد الشريف، وخرق بعض المصاحف الشريفة التي في الحجرة العالية المنيفة، وأرسل شيخ الحرم رسلاً من طرفه إلىٰ حضرة الدولة العثمانيّة يعرّف بما صار من هؤلاء الأنفار.

وفي أثناء ذلك يكاتب شريف مكّة المشرّفة المشار إليه، لا برحت نعم الباري متوالية عليه، وصاحب أيالة بندر جدّة المعمورة، وهو الوزير المعظّم أحمد باشا الكبرلي المشهور، ويطلب منهما النجدة والنصر علىٰ محاربيه، واستخلاص مسجد شفيع الأمّة من جرأة كلّ عدوّ[2] وسفيه.

ولم يزالا يجيباه بإظهار نسبة الخطأ إليه، وطرح كلّ معصية عليه، ويزيلا عن

---

(١) في «ن»: الأملاك.

(٢) في «د»: وغد.

أهل القلعة اللوم، ويصرّحا له بالقمع الشديد عن هذا الروم، ويأمراه بإجابة أهل القلعة إلىٰ سؤالهم، وإنجاح مطالبهم وآمالهم، وهو إخراج خمسة أنفار ممّن كانوا في القلعة سابقاً، وبعض أنصار لهم من الأنصار، وقد سبق ذكرهم في أثناء الحديث، وهم عمدة أهل الحرم في كلّ أمر قديم أو حديث .

وبهذا السبب توقّف في إخراجهم، لانحصار قوّته وقومه في إخراجهم، وأهل القلعة قد أقاموا الحرب علىٰ ساق، حتّىٰ يخرج هؤلاء أو تقوم الساعة، ويصير إلىٰ ربّهم يومئذ المساق .

فلمّا طال الأمر، وكلّ من الفريقين لازم جهته كم شهر، استحسن شريف مكّة أيّده الله تعالىٰ إرسال جمع من عساكره المنصورة، تحت ألويته المنشورة، وأمّر عليهم رئيساً من السادة الأشراف، وبعث معه عدّة من العاديات ضبحاً، الموريات قدحاً، المغيرات صبحاً، وأسر إليهم بأنّه إن أطاع شيخ الحرم بإخراج الخمسة الأنفار، ولو بتوجيههم إلىٰ تلك الفيافي والنفار، فأصلحوا بين الفريقين، وألزموا العساكر والرعايا إطاعة ولي أمرهم، ومهدّوا تلك الأقطار، ولو بنفي بعض الأشرار، وإن لم يطع شيخ الحرم على الإخراج، ولو إلىٰ بعض تلك الفجاج، فقاتلوه حتّىٰ يخاف أمر الله عزّوجلّ، ولعلّ ذلك وافق منه الأجل، فيكون كالفراش الهادي بنفسه إلى النار، من غير إكراه ولا إجبار

فقد قيل قدماً للبغاة مصارع وإنّ مثير الشرّ يوقع في الشرّ

فلمّا أحسّ شيخ الحرم بمسير هذه العساكر، وتوجّهها إلى المدينة بحسب الظاهر، علم بأنّها عليه لا له، وسيبلغ العدوّ منه أمله، فكتب إلىٰ هزاع المذكور وأعيان حرب، وسألهم منع هذه العساكر وقائدهم عن الوصول إلى المدينة وحفظ الدرب، وأمدّهم بالأموال والتحف التي إلىٰ أمثالهم تحف .

فجمع هزاع الجموع من البوادي، وشرع يستجيش حرباً في كلّ مجلس ونادي، ويوهم عليهم بأنّ هذه العساكر ليست مرسلة إلى المدينة في الحقيقة، بل إنّما أرسلها شريف مكّة أمامه[1] لتمهّد له مسلكه علينا وطريقه، وليس القصد إلاّ استئصالكم، واستباحة أموالكم، فاجتمع عليه قوم حمراً في منزله المسمّىٰ بالصفراء.

فلمّا وصلت العساكر إلىٰ منزل رابغ بالخيل الصافنات، والدروع السوابغ، معتمدين علىٰ شيخ لحرب[2] قد وضعه صاحب مكّة المشرّفة عليهم، وأنّه يتّصل بخيله ورجله إليهم، وقد جاء الخبر الصحيح قبل[3] خروجهم بشهر أنّه مقيم ببدر منتظر لوصولهم، وقبض محصولهم، وكان أغلب قبيلة حرب خارجون عن طاعته، ما يكون عنه إلىٰ هزاع وجماعته، فكبر جمع هزاع، وعزم على الصولة على العساكر في رابغ وتلك البقاع، وصحبته الشيخ عيد بن الشيخ سعد بن بدوي الذي كان شيخاً لحرب[4] نحو عشرين سنة، فتوفّي في سنة ...[5].

ثمّ تولّى المشيخة بعده ولده عيد هذا، فعزله شريف مكّة المشرّفة المذكور، ونصب عمّه الشيخ منصور، وهو المشار إليه في صدر العبارة، بأنّه يصير عوناً للعساكر إن وقعت عليهم من هزاع وعيد الغارة.

---

(١) في «ن»: قدّامه.

(٢) في «ن»: الحرم.

(٣) في «ن»: من قبل.

(٤) في «ن»: علىٰ حرب.

(٥) بياض في النسختين.

فلمّا كان ثاني شعبان من السنة المذكورة عدىٰ هزاع وعيد بمن معهما من جموع حرب علىٰ عساكر شريف مكّة المشرّفة في رابغ، وكثر بينهما الطعن والضرب، ثمّ انجلى الغبار عن رجوع العساكر إلىٰ جهة خليص ضاربة تلك المهامة والقفار، وفقد من الفريقين أشخاص، ولعلّ فيهم بعض الخواصّ، ورجع هزاع ومن معه إلى الصفراء نادمين علىٰ ما صدر منهم لأنّها مصيبة كبرىٰ، لجزمهم بأنّه لابدّ أن يعقب هذا من شريف مكّة ـ أيّده الله تعالىٰ ـ بلاء عظيم، ونكال جسيم، وأنّه لابدّ ما يصول بنفسه عليهم، ويوجّه أنواع البلاء إليهم.

وأمّا منصور وقومه، فلم يقع منهم إلاّ السكون[1] لغلبة هؤلائك عليهم.

فلمّا بلغ شريف مكّة ما صار من هزاع وقومه من قوّة جرأته، بالغ في لومه، وصار يهمّهم به في يقظته ونومه، ثمّ أمر بحبس جميع البنادر عليه، وعلىٰ من صال معه وانتسب إليه، وقبض منهم جمعاً أسكنهم الحبوس، وقطع عنهم حسنته المعتادة، ومقرّراته التي لم تزل إلىٰ زيادة.

ثمّ توجّه هزاع وعيد ومن معهما من قبائل حرب إلى المدينة المنوّرة، وأوقعوا فيها فساداً عظيماً وقتالاً شديداً لأهل القلعة، وقتل من العرب جانب عظيم، وأخذوا من شيخ الحرم أموالاً عظيمة، أخذها من الحجرة الشريفة.

ثمّ صارت المهادنة بين شيخ الحرم وبين أهل القلعة، ورجع هزاع وعيد وقومهما إلىٰ بدر وجهاته، ومنصور مقابل لهما معتصم ببعض القبائل لضعفه عنهم.

ثمّ رأىٰ حضرة شريف مكّة ـ دام علاه ـ أن يقوّي منصوراً ببعض الفرسان، فأرسل إليه ثلاثين خيالاً من عبيده وعبيد أجداده، وكمّلهم بأنواع السلاح

---

(١) في «ن»: السكوت.

والدروع والزانات، ومشىٰ صحبتهم من مكّة ولد الشيخ منصور وابن أخيه .

فلمّا كانوا في بدر أقبل عليهم هزاع ومن معه من رفاقته، فصار بينهم قتال أسفر عن قتل ابن الشيخ وبعض أشخاص من الفريقين وبعض الخيل، ورجوع خيل مولانا الشريف منكسرة إلىٰ بندر ينبع، وأقامت هناك مدّة، ثمّ رجعت إلىٰ مكّة المشرّفة، وحيل بين الخيل وبين منصور، فاشتدّ غضب مولانا الشريف، لكن لم يسعه الوقت للخروج عليهم لقرب الحجوج .

فلمّا آن وصول الحجّين الشامي والمصري، كتب مولانا الشريف إلى الأميرين بأن لا يسلما ما عليهما من المقرّرات إلاّ إلى الشيخ منصور، فتوجّه منصور إلى المدينة لملاقاة الحاجّ الشامي، وبقي هزاع وعيد في بدر لانتظار الحاجّ المصري، فقبض منصور صرّة الحاجّ الشامي، ومشىٰ بالحاجّ إلىٰ مكّة علىٰ طريق الفرع ـ بضمّ الفاء ـ وقبض هزاع وعيد صرّة المصري بالغلبة على الأمير، ومشى الطريق السلطاني ذهاباً وإياباً .

وأمّا شيخ الحرم، فجاء عزله من طرف الدولة العثمانيّة، والأمر بمسيره إلىٰ مصر، وإلقاء أمر المدينة إلىٰ شريف مكّة المشرّفة، فاستقرّت المدينة أحسن استقرار، وتفرّق أنصار شيخ الحرم في المهامة والقفار، وأكثرهم نزلوا علىٰ هزاع وعيد، وساروا في البلاء الشديد، وأرسل حضرة الشريف عساكر لحفظ المدينة، ونفذ فيها أوامره ونواهيه، ورجع هزاع إلىٰ تدبير أباعره ومواشيه، وصار محصوراً بين الحرمين، مقطوعاً عن الميرة من البندرين المكرمين، ورجعت حليمه إلىٰ قواعدها القديمة، ثمّ توجّهت الحجوج آمنة إلىٰ أوطانها، واستقرّت المدينة المنوّرة بسكّانها .

ثمّ بعد مدّة طويلة أدرك فيها هزاع من التعب الشديد ما أذهب به كثيره وقليله،

رجع خاسئاً ذليلاً، بعد أن ذاق عذاباً وبيلاً، يلتمس الدخول تحت الطاعة، ويكون لمنصور إمام جماعة، ويترك عيداً وأباطيله، ويوجّه علىٰ قومه كلاكله وتنكيله، فأقبل عليه الشيخ منصور، وأخذ له من صاحب الترجمة أمناً يستقرّ به بقية الدهور، وردّ عليه ما كان له المقرّرات، واجتمع هو وإيّاه علىٰ إصلاح الطرقات، واستمرّ الحال علىٰ أحسن الأوضاع، وترك عيد كنقع بقاع .

ومن يعص أطراف الزجاج فإنّه　　　يطيع العوالي ركّبت كلّ لهزم

وفاة الشيخ عبدالوهّاب بن أحمد الطنطاوي :

وفي تاسع شعبان من السنة المذكورة: توفّي الشيخ الجليل، العالم النبيل، الشيخ عبدالوهّاب بن أحمد بن بركات الأحمدي معتقداً، الطنطاوي بلداً، الشافعي مذهباً، المكّي مجاورة .

ولقد كان هذا الشيخ الأجلّ، والإمام الفاضل المبجّل، معهد الكمالات الجليّة، ومعقد خناصر أرباب الهمم العليّة، أقام بمكّة برهة من الزمان، وهو في غاية العزّة، بين من بها من الأعيان، نشر بها العلوم، وأظهر دقائق المنطوق والمفهوم، حتّىٰ صار لمدرّسي المسجد الشريف المكّي غرّة، ولعيون الفضلاء والعلماء قرّة، ولم يزل إلىٰ أن دعاه داعي الحقّ، فقضىٰ منه المراد، ولا مانع لما أراد .

وقد أرّخ وفاته جمع كثير من ذوي الأدب، ممّن التزم من مودّته ومحبّته بأوثق سبب. ومن جملة من رثاه، وأرّخ وفاته بعد ما واراه، مؤلّف هذه الكلمات، المتشرّف بتاريخ من مات، فقال :

أقفر المنزل وازداد ظلاما　　　وعفت آثار من فيه أقاما

وخلت دار التقىٰ من عالمٍ　　　كان بالأمس بها صلّىٰ وصاما

ودروسٌ عطّلت من بعد ما　　　كان يمليها جلوساً وقياما

فعدى الدهر عليه حاسداً لبنيه إذ رقوا فيها مقاما
بإمامٍ عالمٍ قد زانه منطق عذبٍ وفضلٍ لن يراما
فدنت منه المنايا شرّعاً وقضت منه مراداً ومراما
لا سقى الله زماناً بعده عارض الرحمة تحدوه النعاما
بل ولا عيشاً زهت نضرته لفتىً من بعده يرجو مقاما
بل ولا كتبٍ لعلمٍ[1] صنّفت فهي اليوم حيارىٰ تتراما
بل ولا حلقة درسٍ نضدت قد خلت من عالمٍ يبري السقاما
كان في الدنيا إماماً واحداً ثمّ في الأخرىٰ تسرّ وتساما
وبذا أخبرنا تاريخه في جنان الخلد قد سمّي إماما[2]

تصدّي الشيخ عمر الأفندي لخطابة عيد الفطر:

ومن جملة ما صار في هذا العام، من المظاهر الفاخرة لأبناء بلد الله الحرام، من سلالة العلماء الأعلام، والعظماء الكرام: وهو أنّه اتّفق أن صار في خطابة عيد الفطر تناقض بين خطيبين متباغضين، وقرمين متناهضين، وذلك في خطبة عيد الفطر الشريف، وما لها من المظهر العالي المنيف، وكلّ منهما يريد القيام بها، والظهور التامّ بسببها، لكون الخطابة المذكورة شركة بينهما، وربما وقعت أُمور أُخر دنيويّة حقّقت بينهما.

فتوقّف أمرها بسبب ذلك إلىٰ عشرين من شهر رمضان، فرفع ذلك إلىٰ ولي الأمر أدام الله علاه، وأيّد صولته القاهرة وأعلاه، فاقتضىٰ نظره العالي عدم الميل

---

(١) في «ن»: علوم.

(٢) وهي سنة (١١٥٦).

العالي إلىٰ أحد الجانبين، تمييزاً له؛ لكونهما من جملة من شملته عنايته، وتوالت عليه شفقته ورعايته.

ولم تزل هذه سيرته وطريقته بين رعاياه من أبناء الزمان، وخصوصاً الأعيان، كما شاهدناه بالعيان، أطال الله تعالىٰ بقاه، وأيّد دولته وأسعد نموّه وارتقاه، وأطّد صولته، فرفعهما كلاهما عن هذا المرام، وعوّضهما بما غمرهما من الفضل والإنعام.

وأمر شيخ الخطباء والأئمّة، وأوحد صلحاء هذه الأُمّة، ذي الأخلاق الرضيّة، والمزايا المرضيّة، عين الأعيان، وغرّة جبهة الأمثال والأقران، الخطيب المجيد، المحيي لآثار الأُستاذ عبدالحميد، الشيخ إبراهيم ابن الفاضل العلاّمة الشيخ أحمد[1] شمس، لا زال بدر سعادته كامل الاشراق، وشمس إفادته محمودة[2] الرواق، بأن يتولّى الخطبة بنفسه، بعد تحريرها بسواد نفسه، فتلقّى الأمر العالي بالامتثال، وشكىٰ ضيق الوقت عن إنشاء الخطبة وحفظها غيباً مع مباشرة الأحوال، وفي الحقيقة أنّه أمر عظيم، ومهمّ جسيم.

فعند ذلك ابتدر عين الأعيان، وقرّة عين أبناء الزمان، معهد الكمالات الجليّة، ومعقد خناصر أرباب الهمم العليّة، سلالة العلماء الأعلام، ونخبة أفخر بيت الله الحرام.

ولعمري أنّه البيت الذي جمع من المظاهر والمفاخر، ما لم يحوه الأوّل ولا الآخر، واجتمعت فيه من المناصب الشريفة على الحقيقة، فوق الثمانية عشر كما شهد به شيخ الطريقة، وذلك كالقضاء والافتاء ومشيخة الحرم الشريف، وغير ذلك

---

(١) في «ن»: محمّد.

(٢) في «ن»: محدودة.

من كلّ منصب عال منيف، ورئاسة شاملة عامّة، يشهد بها الخاصّة والعامّة.

وهو المقام الأسعد الأنفع، الأصعد الأرفع، مولانا الشيخ عمر ابن مفتي مكّة المشرّفة وقاضيها وعقدة عقد أوامرها ونواهيها، مولانا الشيخ عبدالقادر ابن من تقلّد مشيخة الحرم، وقلّد الأعناق بعقود الجود والكرم، وجمع أكثر المناصب العليّة، بهمّته السامية، وآرائه الجليّة، مولانا الأفندي أبي بكر.

وقال لحضرة مولانا الخطيب بصدر رحيب الفقير: يقوم بجميع المهمّات والمصارف، والمحلاّت[1] اللائقة بكم وبأهل الرئاسات والمعارف، وما يلحق ذلك من الحلوىٰ والطيب والملابس المعتادة، وإعطاء كلّ ذي قانون حقّه وزيادة، وأنتم اشتغلوا بإنشاء الخطبة وحفظها، وإفراغ معانيها في قوالب لفظها، وكلّ ما لخطيب العيد من القواعد المرتّبة الوافية، هي لحضرتكم العليّة زاد عافية.

ثمّ شمّر ذيل الهمّة، ووجّه نجائب أفكاره العليّة في تسهيل كلّ مهمّة، وذلق فم الكيس، وجمع كلّ ما يحتاج إليه من قناطير الحلوىٰ وأحسن الطيب وأفخر الملابس، وهيّأ أيوانه الشريف، بأنواع الفرش الفاخر المنيف، والمساند المقصّبة، والأواني المذهّبة، ونثر الشموع المزيّنة في أيوانه العالي، والمصابيح التي هي في الطرق كالنجوم العوالي، حتّىٰ صار الليل نهاراً، والسرّ جهاراً.

ثمّ أجلس الخطيب في محلّه، بعد أن بلغ هدي كلّ شيء إلىٰ محلّه، وتهيّأ هو وصنوه الأجلّ الأفضل، الأعلم الأكمل[2]، شيخ الإسلام، ومرجع الخاصّ والعامّ، في بلد الله الحرام، صدر الأفاضل، وبقيّة كلّ عالم وفاضل، مولانا الشيخ علي

(١) في «ن»: والمحالات.

(٢) في «ن»: الأعمل.

مفتي مكّة المشرّفة حالاً، زاده الله تعالىٰ علماً وإجلالاً، لتلقّي الوافدين من الأعيان الأجلّة، والوجوه التي هي أبهىٰ من الأهلّة .

فأقبلت الخلق أفواجاً بعد أفواج متباركة حضرة الخطيب، وهو في تمام السرور والابتهاج، فانتظمت الأندية، وأفيضت الملابيس، والمجالس غاصّة بكلّ عظيم رئيس، وهو أدام الله إقباله، وأيّد سعده وإجلاله، يستقبل الناس ويشايعهم، ويلاطفهم ويمازجهم، بوجه منطلق، ولسان ذلق، ويأمر بإعطاء أهل العوائد، وذوي القوانين والقواعد، ولم يزل كذلك إلىٰ أن عطس أنف الصباح، وداره أيّده الله تعالىٰ مزهرة بالأفراح .

ثمّ خرج الخطيب من داره المذكورة، متوجّهاً إلى المسجد الحرام، محفوفاً بأعاظم العلماء الأعلام، وبأعيان مكّة المشرّفة الرافلين في حلل المظاهر المفوّفة، وبعد أداء الصلاة والخطبة رجعوا إلىٰ داره السامية، صحبة حضرة الخطيب، وقد استعدّ لهم جميعاً بالأسمطة الفاخرة، وأنواع من الطيب، فأكلوا وشربوا، وتطيّبوا وذهبوا، ثمّ إنّه أمر بعد ذلك بتقسيم الحلوىٰ مرّة ثانية، وإرسالها إلىٰ بيوت الأعيان العظام، علىٰ رؤوس الخدّام، وهذا أمر لم يسبق إليه أيضاً، فامتلأت قلوب أعاديه حسداً وغيظاً .

وبالجملة إنّ الذي صدر من هذا الرجل ـ وفّقه الله تعالىٰ وأدامه ـ من أعظم مخائل الهمم العليّة، والمروءة الكاملة، والرئاسة العامّة، ولم يسبقه أحد في مثل ذلك إلاّ جدّه أبوبكر حين قام بمثله لبعض خطباء مكّة المشرّفة، لكنّه استعدّ قبل ذلك بكم شهرٍ، وسبطه هذا في عشرة أيّام، قام بهذا الأمر علىٰ أكمل نظام، فجزاه الله تعالىٰ علىٰ همّته هذه ومروءته خير الجزاء، وجعل نصيبه من سعادة الدارين أوفر الإجزاء .

وممّن أشار إلىٰ ذلك بل شرح، ومدح هذا البيت الجليل، ولأكباد أعاديه جرح، أفضل شعراء تلك الليلة، وأعظم من شمّر[١] في تهذيب شعره البليغ ذيله، فقال مخاطباً حضرة الخطيب، ومشيراً إلىٰ ما ذكرناه:

نهنيك بالعيد الذي أنت عيده ... وتجديد عزٍّ ليس يبلىٰ جديده
وزفّت لك الأفراح في موكب الهنا ... لديوان مجدٍ يستضيء مجيده
فإنّك عقد[٢] العيد عقد نظامه ... فتجلّىٰ بكم مهما خطبتم عقوده
فسُدْ وارْقَ في أعلىٰ رواقٍ مشيّد ... بمنبر مجدٍ رافعاً ما تشيّده
وشنّف بما تروي المسامع صادعاً ... بوعظك والمسموع منك سديده
وقل لأفلاك الدهر واصعد معارجاً ... فمثلك يزهو في المعالي صعوده

إلىٰ أن قال مخاطباً حضرة المخدوم، ومصرّحاً بما صدر من جدّه المرحوم:

فدم يا عظيم الشأن في أُفق العُلا ... سراجاً منيراً قد تربّت[٣] سعوده
وسُدْ ثمّ شد بيت الفخار وصُل وصِل ... فأنت عماد المرتجىٰ وعميده
وأحي بهذا الحيّ حييت سنّةً ... لمجدك جدّت في الكرام جدوده
ودارك أمست للدراري مطالعاً ... كما أنّ عقد الفخر علياك جيده
فإنّ علي القدر من كان عارفاً ... وجيهاً نبيهاً قومه تستفيده
ورثتم من الصدّيق مجداً مؤثّلاً ... فأكرم بمن قد ورّثته جدوده
ومفتي بلاد الله منكم وقد هدىٰ ... بفتواه في تحرير حكمٍ يفيده

---

(١) في «ن»: شهر.

(٢) في «د»: عيد.

(٣) في «ن»: تبدّت.

ولا ريب أنّ الفرع طابق أصله ... وأثمر من كلّ العلوم حميده
فما منكم إلاّ ذكيٌ مهذّب ... جميلٌ جليل القدر قلّ نديده
ومن حبّكم نال المطالب والمنىٰ ... ووافاه من سعد الزمان سعوده
وكم فاضلٍ عند الأفاضل تقتفىٰ ... مآثره في كلّ ما يستجيده
أُولئك أسباب المعالي فمن يرد ... بهم كلّ خيرٍ جاءه ما يريده
فيا ربّ يا الله وجّه وجوهنا ... إليك بفضلٍ ليس يحصىٰ عديده
وصلّ علىٰ طه الشفيع وآله ... وأصحابه ما عاد للفطر عيده

فصل

في حوادث سنة سبع وخمسين ومائة وألف

وصول رسول من طرف نادر شاه إلىٰ شريف مكّة :

وفي هذه السنة: وصل رسول من طرف نادر شاه إلىٰ شريف مكّة المعظّمة، مولانا الشريف مسعود صاحب الترجمة، أدام الله إقباله، وأيّد سعده وإجلاله، بأرقام تتضمّن ذكر ما وقع عليه الاتّفاق، في تلك الآفاق، بينه وبين وكيل الدولة العثمانيّة، أحمد باشا صاحب بغداد، بعد أن وصل إلىٰ أطراف عراق العرب بنفسه، وأخذ بلداناً عديدة، منها كركوك وقلعة أربل والمشهد الشريف العلوي [١] والبصرة، وتصرّف في جميع قرىٰ بغداد، إلاّ بغداد نفسها لسبب أنّها مصوّرة، وبينه وبين متولّيها صداقة ومحبّة، ثمّ توجّه إلى الموصل وحاصرها أيّاماً.

ثمّ استدرك بالمخاطبة معه في أمر الصلح، بعد تفويض أمر الدولة العثمانيّة أمر الصلح إلىٰ أحمد باشا المذكور، فرجع إلى المشهد الشريف العلوي فزارها، ثمّ زار

---

(١) وهو النجف الأشرف، حيث حلّ فيها مرقد الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام.

مآثر تلك البقعة المباركة جميعاً، وأوصل أهلها إحساناً جزلاً، ثمّ عقد أمر الصلح بحضور جميع تلك الأقطار، من أهل السنّة والجماعة والإماميّة الجعفريّة، وأوقع بينهما سخباً[١] طويلاً استمرّ ثلاثة أيّام.

ثمّ استقرّ الحال بينهم علىٰ أحقّية مذهب الجعفريّة، وأنّ الإمام جعفر الصادق عليه السلام لا طريق لإنكار فضله وعلمه، إنّما لمّا لم يثبت عندنا[٢] صحّة الرواية عنه[٣]، عملنا بأقوال عديدة من الأئمّة الأربعة؛ لاعتناء سلفنا بتصحيح الروايات عنهم، وضبطها في كتب معلومة مشهورة، محقّقة بالتواتر المفيد للقطع.

فإن ثبت عندكم الرواية عنه بمثل ثبوتها عن الأئمّة الأربعة، لا حرج عليكم إذا أردتم التقليد له هو أهل لذلك، بعد موافقة الجعفريّة أيضاً لأهل السنّة والجماعة في أحقّية أصولهم، وذكر الخلفاء الراشدين في الخطب في جميع المساجد الكائنة في الممالك النادريّة والعثمانيّة، ثمّ الدعاء للسلطانين مع تقديم العثماني.

ترجمة السيّد نصرالله الحائري وما جرىٰ عليه:

ثمّ أقام جمعة في المسجد الشريف الغروي، وكان خطيبها السيّد الجليل الفاضل العلاّمة السيّد نصرالله[٤] بن الحسين الجعفري الإمامي، الواصل إلىٰ

(١) أي: معارضةً.

(٢) أي: عند العامّة والجماعة، وذلك لإعراضهم عن أهل البيت عليهم السلام بالكلّية.

(٣) بل ثبت صحّة الرواية عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام بالنصوص المستفيضة من الفريقين، لا مجال لذكرها في هذه العجالة.

(٤) هو السيّد أبوالفتح نصرالله عزّالدين بن الحسين بن علي الحائري الموسوي ⇩

ــــــــــــــــــــــــ

﴿ الفائزي المدرّس في الروضة الشريفة الحسينيّة.

قال السيّد الأمين: استشهد بقسطنطينية على التشيّع سنة (١١٥٥) أو (٥٣) عن عمر يقارب الخمسين. والفائزي نسبة إلىٰ عشيرته، ويسمّون آل فائز وآل أبي‌فائز، وفيهم يقول المترجم من قصيدة يرثي بها والدته:

كـيف لا وهـي لبّ آل فـا ... ئزٍ من هديهم بـه الاقـتداء

معشرٌ شاد مجدهم وعلاهم ... سيّد المرسلين والأوصـياء

سـادةٌ قـادةٌ كـرامٌ عـظام ... عـلماء أئـمّةٍ أتـقياء

لهم أوجـهٌ تـنير الديـاجي ... ما أظلّت نظيرها الخـضراء

لست تلقىٰ سواهم قطّ قطباً ... إن أدارت أرجاءها الهيجاء

فهو عالم جليل محدّث أديب شاعر خطيب، كـان مـن أفـاضل أهـل العـلم بالحديث، متبحّراً في الأدب والتاريخ، حسن المحاضرة، جيّد البيان، طلق اللسان، ماهراً في العربيّة، خطيباً مصقعاً شاعراً مفلقاً.

وقال السيّد عبدالله الجزائري: كان آية فـي الفـهم والذكـاء، وحسـن التـقرير، وفصاحة التعبير، شاعراً أديـباً، له ديـوان حسـن، وله اليـد الطـولىٰ فـي التأريـخ والمقطّعات، وكان مرضيّاً مقبولاً عند المخالف والمؤالف.

وممّن ذكره عصام الدين العمري الموصلي في كتابه الروض النضير في ترجمة أُدباء العصر، فأورد فيه أسجاعاً كثيرة، من جملتها: العلاّمة السيّد نصرالله المشهدي الحسيني:

وحيدٌ أريبٌ في الفضائل واحـد ... شـذا مـثل بسـم الله فـهو مـقدّم

إذا كان نور الشمس لازم جـرمها ... فـطلعته الطـهراء نـورٌ مـجسّم

⇩

ـه واسطة عقد بيت السيادة، وإكليل هام النجابة والسعادة، تجسّم من شرف باهر وكرم، سعىٰ إليه الظلف والحافر، قد جمع أشتات الكمال، وملك أصناف المعال، فهو مزن الفضل الهاطل، وعقد جيد الأدب العاطل، سما بعلمه وكماله، فلم تر العيون مثل طلعته، ولا رقىٰ أهل الأدب إلىٰ أكرم من تلعته، فأدبه ممّا يبهر العقول، ويحير أفهام الفحول، قد عاشرته فرأيت منه في معرفة أبيات العربيّة ما يعيي الفصحاء، ويبهر البلغاء.

فممّا اتّفق أنّه في مجلس السيّد عبدالله كاتب ديوان بغداد قرأت أبياتاً من ديوان أبي تمام، فكشف عن خرد تلك الأبكار كثيف اللثام.

فرأيت منه كلّ غريب، ومعرفة ما لها في هذا العصر أديب، بفصاحة بيان، وطلاقة لسان، فلم أر في من رأيته مثل هؤلاء الثلاثة: العلاّمة صبغةالله، والسيّد عبدالله، وهذا الفاضل، بحور أدب، لا يحتاجون في السؤال والجواب إلىٰ مراجعة رسالة أو كتاب، له شعر رايق، ونثر فايق، مع أنّه لم يعتن بذلك حصده كفّ الدهر، ولم يراع صفوة شبابه ولا كثرة علمه وآدابه.

وأمّا مشايخه، فمنهم: المحدّث السيّد باقر المكّي، ويروي عنه بالإجازة عن السيّد علي خان المدني، ومنهم الشيخ أحمد الجزائري، والمولىٰ محمّدحسين الطوسي البغجمي، والمولىٰ محمّدصالح الهروي، والشيخ علي بن جعفر بن علي بن سليمان البحراني، والشريف أبوالحسن بن محمّدطاهر الفتوني العاملي الغروي، ويروي عنه عن المجلسي، والشيخ علي بن الشيخ محمّد قنديل، والميرزا عبدالرحيم، وللمترجم طرق كثيرة أوردها في كتابه سلاسل الذهب.

وأمّا تلاميذه ومن يروي عنه، فتلمّذ عليه جماعة، منهم: أبوالرضا أحمد بن

⇩

الحسن النحوي الشهير بالشيخ أحمد النحوي، والسيّد حسين بن المير رشيد التقوي الحائري وغيرهما.

إلىٰ أن قال: ومن شعره لمّا ذهّب نادر شاه قبّة أميرالمؤمنين عليه السلام سنة (١١٥٥) قال المترجم قصيدة يمدح بها أميرالمؤمنين عليه السلام ويؤرّخ التذهيب، وقد خمّسها تلميذه الشيخ أحمد النحوي، وهي:

إذا ضامك الدهر يوماً وجارا ... فلذ بحمىٰ أمنع الخلق جارا
علي العلىٰ وصنو النبي ... وغيث الورىٰ وغوث الحيارىٰ
هزبر النزال وبحر النوال ... وشمس الكمال التي لا تُوارىٰ

إلىٰ أن يقول في وصف القبّة:

هي الشمس لكنّها مرقدٌ ... لظلّ المهيمن جلّ اقتدارا
هي الشمس لكنّها لا تغيب ... ولا يحسد الليل فيها النهارا
هي الشمس والشهب في ضمنها ... قناديلها ليس تخشى استتارا
عروسٌ تجلّت بورديّةٍ ... ولم ترض غير الدراري نثارا
فها هي في تربها والشعاع ... جلاها لعينيك درّاً صغارا
بدت تحت أحمر فانوسها ... لنا شمعةٌ نورها لا يوارىٰ
هو الشمع ما احتاج للقطّ قطّ ... ولا النفخ أطفأه مذ أنارا
ملائكة العرش حفّت به ... فراشاً ولم تبغ عنه مطارا
هي الترس ذهبٌ ثمّ استظلّ ... به فارسٌ ليس يخفي افتقارا
وياقوتةٌ خرطت خيمةً ... علىٰ ملكٍ فاق كسرىٰ ودارا
وحقّ عقيقٍ حوىٰ جوهراً ... تخطّى الجبال وعام البحارا

⇩

ولم يتّخذ غير عرش الإلٰه له مسعداً وكفّاه فخارا
حسميا الجنان له نشوة تسرّ النفوس وتنفي الخمارا
إذا رشفتها عيون الوفود تراهم سكارىٰ وما هم سكارىٰ
عجبت لها إذ حوت يذبلاً وبحراً بيوم الندىٰ لا يجارىٰ
وكنت أُفكّر في التبر لِمَ غلا قيمةً وتسامىٰ فخارا
إلى أن بدا فوقها يخطف النو اظر مهما بدا واستنارا
وما يبلغ التبر من قبّةٍ بها عالم الملك زاد افتخارا
ومذ كان صاحبها للإلٰه يداً أبداً نعمةً واقتدارا
يد الله من فوق أيديهم بدت فوق سرطوقها لا توارىٰ
وقد رفعت فوق سرطوقها تشير إلىٰ وافديها جهارا
هلمّوا إلىٰ من يفيض اللهىٰ ويردي العدىٰ ويفك الأسارىٰ
وتدعو إلٰه السما بالهنا لمن زار أعتابها واستجارا
قد اتّصلت بذراع النجوم وقد صافحتها الثريّا جهارا
وكفّ الخضيب لها قد عنا غداة اختفىٰ وهي تبدو نهارا
قلائدها الشهب والنجم قد غدا شنفها والهلال السوارا
وبالآي خوف عيون الأنام ممنطقةً قد بدت كالعذارىٰ
غلت في السموّ فظنّ الجهول بأنّ لها عند كيوان ثارا
وكيف وكيوان والنيّرات بها من صروف الزمان استجارا
ترى الوفود الندىٰ حولها طوافاً بأركانها واعتمارا
وفي قصر غمدان بان القصور غداة تجلّت وإن عزّ دارا

⇩

ومهما بدا طاق أيوانها ... أرانا الإله هلالاً أنارا
لعين ذكاه غدا حاجباً ... بنورٍ أحال الليالي نهارا
هلال السماء له حاسدٌ ... لذلك دقّ وأبدى اصفرارا
هلالٌ لصومٍ وفطرٍ غدا ... لهذا يسرّ ويسمو فخارا
له طاق كسرىٰ غداً خاضعاً ... وقد شقّ من غيظه حين غارا

❊ ❊ ❊

ولمّا بدا لي المناران في ... حماها الذي في العلىٰ لا يبارىٰ
هما الهرمان بمصر الفخار ... أبانا عجائب ليست تسمارىٰ
عمودا صباحٍ ولكن هما ... معاً صادقان لنا إن أنارا
أحاطت بها حجراتٌ بها ... نقوشٌ بزينتها لا تـوارىٰ
لأطلس أفلاكها فاخرت ... بموشي بردٍ به الطرف حارا
أزاهر روضٍ ولكنّها ... أبت منه السحب إلاّ اضطرارا
فثغر الأقاحي بها ضاحكٌ ... وإن لم يرق جفن مزنٍ قطارا
ونرجسها طرفه لا يزال ... يلاحظ للحبّ ذاك المزارا
كوشي الحباب وكالوشم في ... معاصم بيضٍ جلتها العذارىٰ
وقد أخجلت أرماً فاغتدت ... محجّبةً لا تميط الخمارا
بها الآي تتلىٰ وتحيي العلوم ... فيشفي غليل القلوب الحيارىٰ
هي النار نار الكليم التي ... عليها الهدىٰ قد تبدّت جهارا
تبدّىٰ سناها عيناً فأر ... خت آنست من جانب الطور نارا

ومن شعره ما أرسله إلىٰ صاحب نشوة السلافة :

⇩

سلامٌ كنشر الروض إذ جاده القطر ... وكالدرّ في الآلاء إذ حازه البحر
أخصّ به المولىٰ سليل بشارةٍ ... أخا الفضل من في مدحه يزدهي الشعر
فتىً فاز بالقدح المعلّىٰ من العلىٰ ... وحاز علوماً لا يحيط بها الحصر
طوىٰ سبل العلياء في متن سابقٍ ... لهمّته القعساء عشيره الفخر
وبعد فإنّ الحال من بعد بعدكم ... كحال رياض الحزن فارقها القطر
فلله ليلات تقضّت بقربكم ... ولم يذو من روضات وصلكم الزهر
وإذ مورد اللذّات صافٍ وناظري ... يزيل قذاه منكم منظر نضر
فلا تقطعوا يوماً عن الصبّ كتبكم ... ففي نشرها للميت من بعدكم نشر
ولا برحت تبدو بأفق جبينكم ... نجوم السعود الزهر ما نجم الزهر

وله يرثي الإمام الحسين عليه السلام:

يا شموساً في الترب غارت وكانت ... تبهر الخلق بالسنا والسناء
يا جبالاً شواهقاً للمعالي ... كيف وارتك تربة الغبراء
يا بحاراً في عرصة الطفّ جفّت ... بعدما أروت الورىٰ بالعطاء
يا غصوناً ذوت وكان جناها ... دايناً للعفات في اللأوّاء
آه لا يطفىء البكاء غليلي ... ولو أنّي اغترفت من دأماء
كيف يطفي والسبط نصبٌ لعيني ... وهو في كربةٍ وفرط عناء
لست أنساه في الطفوف فريداً ... بعد قتل الأصحاب والأقرباء
فإذا كرّ فرّ جيش الأعادي ... وهم كثرةٌ كقطر السماء
فرموه بأسهم الغدر بغياً ... عن قسي الشحناء والبغضاء
ومن الجدّ قد دنا قاب قوسيـ ... ـن من الله ليلة الاسراء

⇩

ﻫ فأتــاه ســهمٌ رمــاه عــن السر ... ج صـــريعاً مــخضّباً بــالدماء
فــبكته الســما دمــاً وعــليه الـ ... ـجنّ ناحت في صبحها والمســاء
يــا بــني أحــمد ســلامٌ عــليكم ... مــن حــزينٍ مــقلقل الأحشـاء
يشــتكي مــن حــواسـدٍ فــي ... هــواكــم ومــدحكم والرثــاء
فــلئن كــان مــا يــقولون عــيباً ... فهو تــاجي وطـوق جـيد سنائي
طــينتي خــمرت بــماء ولاكــم ... وأبــونا مــا بــين طــينٍ ومـاء
وأنــا العـبد ذو الجـرائـم نـصر اللّـ ... ـه نـجل الحسـين حـلف البكـاء
أرتــجي مــنكم شـرابـاً طـهوراً ... يثلج الصـدر يـوم فـصل القـضاء
فـاسمحوا لي بـه وكـونوا مـلاذي ... من خطوب الزمـان ذي الاعـتداء
وعــليكم مــن ربّكــم صلواتٌ ... تــتهادىٰ مــا فــاح نشـر الكـباء

وله أيضاً في رثاء الإمام الحسين عليه‌السلام :

يــا بــقاع الطــفوف ثــراك ... وسقى الوابل الملثّ حـماك
وحماك الإله من كلّ خـطبٍ ... فلقد أخجل النجوم حـصاك
ووجوه الملوك تحسد فـرشاً ... تــحت أقــدام زائـرٍ وافـاك
حيث قد صرت مرقداً لإمـامٍ ... واطىءٌ نـعله لفـرق السـماك
الحسين الشهيد روحي فـداه ... نجل مخدوم سـائر الأفـلاك
شنف عرش الإله مولى نـداه ... طوق جيد الأقيال والأمـلاك
أفتك الناس يوم طعنٍ وضربٍ ... وهو مـع ذاك أنسك النسّـاك

وقال يرثي الإمام الحسين عليه‌السلام من قصيدة :

هـل المـحرّم فـاستهلّ دمـوعي ... وأثار نار الوجـد بـين ضـلوعي

⇩

ﮦوأمات سلواني وأحيا لوعتي وأطال أحزاني وروّع روعي

هذا هلالٌ لاح أم هو خنجرٌ طعن الفؤاد فبان طيب هجوعي

يا ليته طول المدىٰ لم يبد من حجب السرار ولم يفز بطلوع

ما هلّ إلاّ جدّدت حلل الأسىٰ وتداعت الأحشاء للتقطيع

إذ كان يذكرني مصيبة ذي عُلىٰ فوق السماوات العلىٰ مرفوع

سبط النبي المصطفىٰ خير الورىٰ أكرم به من منعمٍ وشفيع

فهوىٰ صريعاً بالدماء مرمّلاً أفديه من دامي الجبين صريع

فاسودّت الآفاق والدنيا غدت مقلية المنظور والمسموع

أتموت عطشاناً وكفّك سحبها كم أنبتت للناس زهر ربيع

قد قلت للورقاء لمّا أن غدت تبدي الأسىٰ بالنوح والترجيع

ما من تباكي مثل من يبكي دماً فضح التطبّع شيمة المطبوع

وله وقد كتبه علىٰ باب من أبواب الطارمة المقدّسة الحسينيّة :

أيّها الزوّار نلتم هاهنا أقصى المرام

هذه جنّات عدنٍ فادخلوها بسلام

وله وقد كتبه علىٰ باب آخر من أبوابها الشريفة :

زائري سبط أحمد منبع الرشد والهدىٰ

هذه باب حطّةٍ فادخلوا الباب سجّدا

وله وقد كتبت علىٰ باب من أبواب المشهد الحائري :

هذه بابٌ لجنّات النعيم سقفها رضوان ربّ العالمين

حيث قد شرّفها الله بمن جدّه مخدوم جبريل الأمين

⇩

الحسين المجتبىٰ بحر الندىٰ | درّ تاج الشهداء الأكرمين
فحماها الله من بابٍ غدت | تطرد الأعدا وتأوي الخائفين

وله :

ولست أعدّ الشعر فخراً وانّني | لأنظم منه ما يفوت الدراريا
ولكنّني أحمي حماي وأتّقي | عداي وأرمي قاصداً من رمانيا
وإن رمت لي فخراً عددت من العلىٰ | مزايا عظاماً لا عظاماً بواليا
علىٰ أنّني من هاشمٍ في صميمها | وحسبك بيتاً في ذرى المجد ساميا

وله مشطّراً بيتي دعبل الخزاعي :

لا أضحك الله سنّ الدهر إن ضحكت | ولا تبسّم في أفنانه الزهر
ولا مشىٰ في الورىٰ حافٍ ومنتعل | وآل أحمد مظلومون قد قهروا
مشرّدون نفوا من عقر دارهم | فليس يأويهم بدوٍ ولا حضر
جنوا ثمار المنايا وهي يانعةً | كأنّهم قد جنوا ما ليس يغتفر

وله مشطّراً بيتي أبي نواس في الرضا عليه‌السلام :

إذا عاينتك العين من بعد غايةٍ | ونورك يسمو البدر والشمس لا يخبو
وأدهشت الأبصار من عظم ما رأت | وعارض فيك الشكّ أثبتك القلب
ولو أنّ قوماً يمّموك لقادهم | سنا وجهك الوضّاح والسائق الحبّ
وإن خسئت أبصارهم بالسنا يقد | نسمّيك حتّىٰ يستدلّ بك الركب

وله مشطّراً أبيات أبي نواس في أهل البيت عليهم‌السلام :

مطهّرون نقيّات ثيابهم | والذكر يشهد والقرآن والسير
تجري مجاري نداهم للأنام كما | تجري الصلاة عليهم كلّما ذكروا

⇩

ـه من لم يكن علوياً حين ينسبه ... فليس يعلو له قدرٌ ولا خطر

وكيف يسحب ذيل الفخر يوم علا ... وما له من قديم الدهر مفتخر

الله لمّا برىٰ خلقاً فأتقنه ... ولاكم أمره فالكلّ مفتقر

وحيث كنتم لسرّ الله أوعيةً ... صفاكم واصطفاكم أيّها الغرر

فأنتم الملأ الأعلىٰ وعندكم ... توراة موسىٰ وما قد أودع الخضر

والصحف أجمع والانجيل يتبعها ... علم الكتاب وما جاءت به السور

وله في أمير المؤمنين عليه السلام :

يا عين هذا المرتضىٰ حيدر ... هذا البطين الأنزع الأطهر

هذا الذي رايات أوصافه ... في راحة الذكر غدت تنشر

واليوم أكملت لكم دينكم ... عن سرّ ما قد قلته تخبر

هذا الذي للناس في سيفه ... وسيبه النيران والأبحر

هذا الذي أرغم صمصامه ... أنف قريشٍ بعدما استكبروا

وجدّل الأبطال في بدرهم ... ووجهه كالشمس إذ تسفر

هذا الذي لو كانت الجنّ والإ ... نس وأملاك السما تسطر

وكانت الأشجار أقلامهم ... وحبرهم ما حوت الأبحر

لم يحرزوا معشار عشر الذي ... له من الفضل ولم يحصروا

أحسن بها من روضةٍ غضّةٍ ... أريجها كالمسك بل أعطر

ودّت دراري الشهب لو أنّها ... علىٰ ثراها كالحصىٰ تنتر

وكيف لا وهي جنابٌ لمن ... دان له الأسود والأحمر

من شرف البيت بميلاده ... وحجره والحجر الأنور

⇩

ﻫ وقد صفا عيش الصفا فيه والـ　　　ـمروة أضحت بـالهنا تـخطر
وكم به نالت مـنىً مـن مـنىً　　　قـبلٌ بـها بشّـرت الأعـصر
وزال خـوف الخيف فيه وقـد　　　تـنعّم التـنعيم والمشـعر
فاسمع أمير النحل نظماً غـداً　　　كالشهد ألباب الورىٰ يسـحر
وكن كفيلاً بـخلاص امـرىءٍ　　　ما زال في بحر الخـطا يـغمر

وقال في التشوّق إلىٰ كربلاء المشرّفة ومدحها ومدح ريـحانة رسـول الله صلى الله عليه وآله أبي عبدالله الحسين عليه السلام :

يـا تـربةً شـرّفت بـالسيّد الزاكـي　　　سـقاك دمـع الحـيا الهـامي وحـيّاك
زرنـاك شـوقاً ولو أنّ النوىٰ فـرشت　　　عـرض الفـلاة لنـا جـمراً لزرنـاك
وكـيف لا وقـد فـقت السماء عـلا　　　وفـاق شـهب الدراري الغـرّ حـصباك
وفـاق مـلوك أمـواه الحياة وقـد　　　أزرىٰ بـنشر الكـبا والمسك ريّـاك
رام الهـلال وإن جـلّت مـطالعه　　　أن يـغتدي نـعل مـن يسـعىٰ لمـغناك
وودّت الكـعبة الغـرّاء لو قـدرت　　　عـلى المسـير لكـي تـحظىٰ بـمرآك
أقدام من زار مـثواك الشـريف غـدت　　　تـفاخر الرأس مـنه طـاب مـثواك
ولا تخاف العمىٰ عـينٌ قـد اكـتحلت　　　أجـفانها بـغبارٍ مـن صـحاراك
فأنت جـنّتنا دنـيا وآخـرةً　　　لو كـان خـلّد فـيك المـغرم البـاكـي
وليس غير الفـرات العـذب فـيك لنـا　　　من كوثرٍ طاب حـتّى الحشر مـرعاك
وسدرة المنتهىٰ في الصحف منك زهت　　　طـوبىٰ لصبٍّ تـملي مـن مـحياك
كم خضت بـحر سـرابٍ زادنـي ظـمأً　　　سـفينة العـيس مـن شـوقي للـقياك
كم قد ركبت إليك السـفن مـن شـغفٍ　　　فـقلت يـا سـفن بسـم الله مـجراك

⇩

ـه لله أيّـــام أُنسٍ فـيك قـد سـلفت حيث السعادة من أدنىٰ عطاياك
فكم سقيت بـها العـاني كـؤوس مـنىٰ ممزوجةً بـالهنا سـقياً لسـقياك
وكـم قـطفنا بـها زهـر المسرّة من وصـال قـومٍ كـرام الأصـل نسّـاك
كأنّـهم أبـحرٌ جـوداً ولفـظهم كأنّـه دررٌ مـن غـير أسـلاك
فالآن تـنهل سـحب الدمـع من كـمدٍ مـهما تـبدّت بـروقٍ مـن ثناياك
وهـا أنـا اليـوم بكّـاءٌ تساورني مـن الأسـىٰ جـية تـعزىٰ لضـحّاك
حـيّاك ربّـي وحـيّا سـادةٌ نـزلوا فـي القـلب منّي وإن لاحـوا بـمغناك
ولا بـرحت مـلاذاً للأنـام ومصـباح الظلام وبـرء المـدنف الشـاكي

ثمّ ذكر عدّة قصائد له ومطارحات بينه وبين غيره.

وقال حرزالدين: ولد حدود سنة (١١٠٩) في كربلاء، وكان من العلماء والأدباء، والكتّاب والمؤلّفين، والشعراء البليغين والمؤرّخين، وكان وجهاً ساطعاً مبرّزاً في الحائر الحسيني، وجليلاً محترماً عند الوجوه العلميّة في النجف والحكوميّة في بغداد وعند الشيعة والسنّة، له مجلس تدريس في الحضرة المطهّرة للإمام الحسين عليه السلام يحضره طائفة كبيرة من أفاضل أهل العلم العراقيين والمهاجرين.

سافر إلىٰ ايران عدّة مرّات، منها: في عصر السلطان نادر شاه الأفشاري، وقيل: إنّ السلطان أكرمه وأحبّه كثيراً، وكان المترجم له شاعراً لامعاً، وله مراسلات مع علماء عصره وأُدبائه وشعرائه.

وتتلمذ في النجف على الشيخ أبي‌الحسن الشريف الفتوني العاملي، والشيخ محمّدباقر النيسابوري المكّي، والشيخ أحمد الجزائري، والشيخ عبدالله البلادي، والشيخ ياسين البلادي. وألّف كتاب الروضات الزاهرات في المعجزات بعد الوفاة، ⇩

شريف مكّة رسولاً، فخطب وذكر الخلفاء الأربعة، ودعا للسلطانين، ثمّ للمسلمين، ثمّ صلّىٰ بالناس الصلاة المعلومة[١]، إلاّ أنّه قنّت في صلاة الجمعة، وقدّم القنوت على الركوع، ثمّ بعد فراغه من الصلاة أرسل إليهم حضرة نادر شاه شيئاً كثيراً من الحلوىٰ في المسجد المذكور، وأوصل أكثر العلماء مبالغ من المال علىٰ طريق الصلة، وتفرّقت الخلق علىٰ ذلك.

فكتب أرقاماً إلىٰ شريف مكّة المشرّفة، وشيخ حرم المدينة المنوّرة، مع صورة الوثيقة التي وقع عليها الصلح بخطوط علماء الفريقين إعلاماً لهما بذلك، وتنفيذاً لما وقع عليه الصلح من إظهار المذهب الجعفري، وصلاة إمام من طرفهم خامس الأئمّة الأربعة، بمقتضىٰ مذهبه في المسجدين المكّي والمدني، بدون اعتراض من أحد على الآخر، فوصل هذا الرسول إلىٰ شريف مكّة المعظّمة، ونزل عليه، فأكرمه وقبض منه الأرقام المذكورة.

ثمّ كتب إلى الدولة العليّة العثمانيّة يخبرهم بذلك؛ لأنّه عامل من طرفهم، فلابدّ من رفع الأمر إليهم، وأرسل الأرقام الواصلة منه إليهم، فاستمرّ الرسول المذكور إلىٰ آخر السنة المذكورة عند شريف مكّة المشرّفة ينتظر الجواب.

ﻫ وكتاب سلاسل الذهب، ورسالة في تحريم شرب التتن، وديوان شعر مخطوط.

وقتل شهيداً في الديار التركية سنة (١١٦٦) وقيل: سنة (١١٦٨).

أقول: والصحيح من وفاته هو سنة (١١٥٨) كما سيأتي التصريح بذلك من المؤلّف في كتابه هذا، قال: وقتل ضرباً بالسيف نهاراً، برحبة باب السرايا باسلامبول، تاسع شهر رجب المرجّب من سنة (١١٥٨) هـ.

(١) في «ن»: العامّة.

وفي آخر السنة المذكورة: وصل الطلب من حضرة الدولة العثمانيّة للرسول المذكور وبجميع ما جاء به، صحبة أمير الحاجّ الشامي أسعد باشا بن العظم، فسلّمه مولانا الشريف ـ دام علاه ـ إليه، واعتمد في إكرامه إلىٰ أن يصل إلى الدولة العليّة عليه، فتوجّه صحبته إلىٰ تلك الجهات، والله تعالىٰ أعلم بما هو آت.

إلاّ أنّه حصل بوصول هذا الرسول إرجاف واضطراب، أوشك أن تقع فتنة مآلها إلى الخراب، مع وقوع بعض المفاسد الدنيويّة بين حضرة مولانا الشريف وبين صاحب بندر جدّة أبي‌بكر باشا.

فوصل في أثناء السنة المذكورة لحضرة الوزير المذكور، مراسيم من جهة الدولة العثمانيّة، ومعها كتاب من ابن أُخته أحمد باشا المقيم بالعساكر العثمانيّة في أزروم، وهي آخر حدود الروم، خشية من غدر نادرشاه إذا علم بأنّ الدولة العثمانيّة ربما تتوقّف فيما رتّبة من أمر الصلح ووشاه، فأخبر أحمد باشا المذكور بأنّ الصلح قد انتقض، وثارت الحرب بيننا وبينه، ثمّ رجع القهقرىٰ وهو مكسور، فأظهر الفرح والسرور في جميع الأقطار والممالك، ففعل هو في بندر جدّة ما ينبغي أن يفعل من إظهار الفرح، فبشّر[1] لذلك وجه كلّ مسلم وانشرح.

وحضرة مولانا الشريف ذو القدر العالي المنيف توقّف عن ذلك؛ لعدم وصول أجوبته المتعلّقة بهذا الأمر، ثمّ وافق علىٰ إظهار الفرح والسرور، خشية أن ينسب إليه هذا الشقي شيئاً من الأُمور.

وفي أثناء ذلك طلب رسول نادر شاه من حضرة الشريف ليعامله بالقتل، بعد تحقّق اضمحلال ذلك الخارجي العنيف، فتوقّف عن تسليمه، وبالغ في تخطأته في

---

(١) في «ن»: فسرّ.

هذا الطلب وتلويمه، فأجابه بأنّه يمنعنا من ذلك أمران، وهما في الحقيقة مرّان:

أحدهما: أنّنا ننتظر ما يصل من حضرة ولي الأمر في شأن هذه القضيّة التي قد شاعت بين زيد وعمرو، فلابدّ من التربّص في أمره، إلىٰ إتيان ما يقتضيه رأيهم العالي السديد، بعد التحقيق والتسديد .

وثانيهما: أنّه ضيفنا النازل علينا، فقد ضمّنته الحقوق العرفيّة إلينا، فزاد الشقي في نسبة ما لا يليق إليه من ميله إلىٰ نادر شاه، وإلىٰ مذهبه الذي هو معتمد عليه، وهو الرفض المشهور، الدائرة على الألسنة إلىٰ يوم البعث والنشور، فاحتاج مولانا الشريف إلىٰ إحداث أمرين بالمسجد الحرام، حتّىٰ يشيع ذكرهما بين الخاصّ والعامّ :

أحدهما: أمر خطيب الجمعة بالمبالغة في لعن الرافضة أكثر من المعتاد، ودفعاً لمادّة الفتنة والفساد .

وثانيهما: الأمر بشيء لم يعهد مثله في قديم الأعوام، ولا أظنّه صار من حين عمارة المسجد الحرام، وهو اللعن تلو كلّ صلاة تقام في مقام الإمام الأعظم علىٰ رؤوس الأشهاد، حتّى اشتهر ذلك عند جميع الحجّاج الواردين من كلّ بلاد .

كلّ ذلك لأجل دفع ما نسبه إليه هذا الوزير السيّيء التدبير، فاستمرّت هذه الحادثة علىٰ حالها، والله أعلم بمن يكون عليه في الآخرة قبح وبالها، فاستمرّ هذا الرسول عند حضرة الشريف إلىٰ موسم الحجّ، فوصل طلبه من الدولة العثمانيّة، فوجّهه حضرة الشريف السامي صحبة أمير الحاجّ الشامي، فوصل إلىٰ اسلامبول، وهو محمول مزمول، واستمرّ عندهم، وسيأتي بقية أخباره في سنة (١١٥٨) .

فصل

في حوادث سنة ثمان وخمسين ومائة وألف

وفاة السيّد علي المهدلي :

ففي أوائلها: توفّي السيّد الجليل، الصالح الأصيل، السيّد علي بن ...[1] المهدلي رحمه الله تعالىٰ. وكان هذا السيّد ذا صلاح وديانة، وعزّة عن الأُمور الدنيويّة ورصانة، وقد برع في السنّ إلىٰ أن بلغ الثمانين، وهو في غاية القوّة والتمكين. وأعقب أولاداً صالحين، ونجباء مفلحين .

خروج الوزير أبي‌بكر باشا إلى المدينة :

وفي شهر ذي‌الحجّة من هذه السنة: كان توجّه حضرة الوزير الأعظم، والمشير الأفخم، عين الأعيان، ومفخر وزراء آل عثمان أبي‌بكر باشا، بلغه الله تعالىٰ من السعادة ما شاء، إلى المدينة المنوّرة، لقصد إصلاحها ممّا وقع فيها من الفساد الذي عظم بسبب الفتنة الواقعة بين شيخ الحرم وأهل القلعة من العساكر والأنجاد .

وقد تقدّم تفصيل ذلك في حوادث سنة ستّ وخمسين وسبع وخمسين، بنهاية التوضيح والتبيين، ومشىٰ صحبة الحاج الشامي مع أميره المكرّم، والوزير المفخّم، أسعد باشا بن العظم، فوصل المدينة بالإعزاز والإكرام، وتلقّاه عساكرها بنهاية الإجلال والاحترام .

ثمّ إنّه لمّا كان اليوم الثاني جمع جميع أعيان المدينة المنوّرة من: العلماء، والقضاة، وشيخ الحرم، وآغوات العساكر، وبعض الغرباء، بحضور الوزير المكرّم أسعدباشا، وسأل عن أحوال المدينة بعد قراءة ما وصل من حضرة السلطان من

---

(١) بياض في النسختين .

الأرقام في إصلاح المدينة، ولو بالقتل أو الحبس أو النفي إلىٰ بعض الأقطار.

فأجاب الحاضرون جميعاً: بأنّها الآن قد استقرّت بحمد الله تعالىٰ بعد قتل هؤلائك الأشرار؛ لأنّه قتل بعض أشخاص كانوا سبب الفتنة، وعزل شيخ الحرم الأوّل، والآن المدينة في غاية الاطمئنان، ولم يكن فيها أحد يستحقّ النفي والحبس بقطع النظر عن القتل.

فسأل الغرباء المجاورين، فأجابوا بأنّ لنا مدّة في المدينة، وما رأيناها آمنة مطمئنّة مثل هذه السنة. فحمد الله تعالىٰ علىٰ ذلك، وألبس أهل المناصب ما ينبغي من القواعد والقوانين.

ثمّ كتب محضراً أكتب عليه جميع الحاضرين شهاداتهم بما صار في المجلس المذكور، وأرسله إلى الدولة العليّة العثمانيّة صحبة الحاج الشامي، وبقي هو بالمدينة ينتظر الجواب الذي سيعود عليه من شريف تلك الأبواب.

غزوة قبيلة عضل:

وفي أوائل صفر الخير: كانت غزوة مولانا الشريف مسعود صاحب الترجمة علىٰ قبيلة عضل، وهم بنو عضل ـ بالعين المهملة والضاد المعجمة المفتوحة ولام ـ بطن من بطون الهون من مضر، ذكرهم صاحب نهاية الإرب في أنساب العرب[1]، وهم الآن من قبائل اليمن، ومنازلهم الهضب وما فوقه.

فقصدهم إلىٰ محالّهم هو بنفسه، وأغلب السادة الأشراف آل أبي نمي بن بركات، وصحبتهم العساكر وبعض الأعراب، صبّحهم علىٰ لحيين، موضع فوق الليث بكسر اللام وثاء مثلّثة في آخره بعد ياء مثنّاة من تحت.

---

(١) نهاية الإرب في أنساب العرب ص ٣٢٩.

مشىٰ من مكّة المشرّفة ليلة الأربعاء، وصبّحهم يوم الأحد، مع أنّه دام بقاه لم يأخذ الطريق المعروف المألوف، بل قصد طريقةً أُخرىٰ، مورياً بأنّه قاصد قبيلة حرب، ثمّ عرج عليهم.

وهذه الغزوة كانت من أعظم الأدلّة علىٰ همّته العليّة، وآرائه السامية الجليّة، فإنّه سلك فيها مسالك وكيفيّات، تشبه مسالك جدّه في غزواته، في أكثر حركاته وسكناته.

وبنو عضل هؤلاء قد حدث منهم في سبيل المسلمين حوادث جمّة، أوجبت نزول هذه الملمّة، ولعمري إنّها فتكت البراض [١]، والغارة التي عظم بها غيرهم عن النهب في السبل والاعتراض، فانحسمت المادّة، وسلكت الجادّة، أمدّه الله تعالىٰ بتأييده، ووفّقه لخدمة جيران بيت الله وعبيده.

وفاة السيّد محمّد بن يحيى بن هاشم الحطّاب:

وفي سابع صفر الخير من السنة المذكورة: توفّي السيّد محمّد بن السيّد يحيى ابن السيّد هاشم الحطّاب، رحمه الله تعالىٰ، وحشره في زمرة أجداده الأقطاب.

وكان هذا السيّد ذا خلق حسن، ومداومة شديدة علىٰ إقامة الفروض والسنن، وعلوم غزيرة، وآداب كثيرة، حتّىٰ برع في زمانه، علىٰ معاصريه من أقرانه، مع صغر سنّه، وحداثة عهده بالشباب، فهو الذهب الابريز المصفّىٰ وإن دعي بالحطّاب.

وقد أرّخ وفاته بعض العصريين، فقال وأجاد في المقال:

دعي السيّد الحطّاب للفوز بالرضا وأسكنه الفردوس مولاه منشينا

---

(١) البراض جمع البرض: القليل، يقال هذا برض من عدّ، أي: هذا قليل من كثير.

فقلت بمبدأ الأمن بشـراه أرّخـوا　　علىٰ سيّدي الحطّاب رحمة بارينا

وقد أعقب ابناً واحداً وبنات، وفقّهم الله تعالىٰ جميعاً للصالحات الباقيات.

وفاة السيّد سند بن أحمد بن زين العابدين الحسني :

وفي شهر صفر أيضاً: توفّي السيّد الشريف، والسند العالي المنيف، مولانا السيّد سند ابن المرحوم المقدّس السيّد أحمد بن زين العابدين بن عبدالله بن الحسن بن أبي‌نمي الحسني، تغمّده الله برضوانه، وأسكنه فسيح جنانه. وكان ذا رئاسة غضّة، وأخلاق بضّة.

غزوة قبيلة البقّوم :

وفي آخر شهر رمضان من السنة المذكورة: صارت غزوة البقّوم، وهي قـبيلة طاغية عظيمة كثير الخيل والسلاح، ومنازلهم يمني حضن، ويتّصلون إلىٰ أطراف الشرق، وضبط لفظها «البقم» بضمّة وبضمّتين، كما في القاموس[١]، وهم بطن من العرب.

وقد صدر منهم بعض عصيان، أوجب أن جهّز عليهم صـاحب التـرجـمة دام علاه، سريّة عظيمة كثيرة الخيل والرجال، مشحونة من القواضب والعسال، وأمّر عليهم أخاه الشريف مساعد بن الشريف سعيد، وهو ولي عهده المؤيّد السـديد، فغزاهم في سفح حضن، وأنزل عليهم البلاء والمحن، فقتل ونهب وربط، وصعد إلىٰ أوج المعالي بها وما هبط، فصارت البادية لا تأمن في أوطانها، ولا تؤانس دورها وحيطانها، ممّا حلّ بهم من الخوف والرعب إلىٰ ديار قبيلة زعب.

---

(١) القاموس المحيط ٤: ٨١.

ظفر الدولة العثمانيّة علىٰ نادرشاه :

وفي هذه السنة: وصلت الأخبار السنيّة من الدولة العثمانيّة بظفرهم بنادرشاه وعساكره في أطراف بلدة فارس، وسارت عساكرهم خلفه إلىٰ أربعة منازل، ونهبوا جميع معسكره، واستمرّ هذا الحال أربعة أو خمسة أيّام .

شهادة العلاّمة السيّد نصرالله الحائري :

وفيها: شاعت الأخبار، وتوجّهت البشائر إلى الأقطار، وأقدمت الدولة علىٰ قتل رسوله الذي تقدّم ذكر وصوله، وهو السيّد الجليل الأصيل، الأديب النبيل، السيّد نصرالله[١] بن الحسين الحسيني العراقي، أحد رؤساء العراق، وواحد ذوي البيوت والأعراق، فأُخرج من الحبس وقتل ضرباً بالسيف نهاراً، برحبة باب السرايا باسلامبول، تاسع شهر رجب المرجّب من السنة المذكورة .

ظفر السلطان نادرشاه علىٰ العساكر العثمانيّة :

ثمّ بعد عشرة أيّام من ذلك الخبر وصل ضدّ ذلك، فنسأل الله تعالىٰ اللطف في جميع المسالك .

وهو أنّ نادرشاه رجع عليهم رجوعاً عنيفاً، مبيداً مهلكاً مذهباً، إلىٰ أن وصل إلىٰ قلعة فارس، وغنم الأموال، ومات فيها أحد الوزراء العظام، ورأس العساكر الروميّة بلا كلام، محمّدباشا اليقن المتولّي سابقاً للختام .

ثمّ رجع إلىٰ حدوده[٢] بعد القتل والنهب والأسر، واستقرّ بموضع من بلدانه، ووجّه رسولاً إلى الدولة العثمانيّة بأرقام، تتضمّن التهكّم بسلطان الإسلام، وأنّه إلىٰ

---

(١) تقدّم منّا آنفاً تفصيل ترجمته، فراجع .

(٢) في «ن»: حمدون .

متىٰ وأنت ملازم الدار، لم تخرج لملاقاة الحروب والأسفار، وتجمع رعايا الإسلام، وتجعلهم طعاماً للسيوف، وهدفاً للمدافع، وغرضاً للسهام، فكلّ منّا طالب سلطان، وباحث عن برهان، فالأولىٰ أن تخرج بنفسك متلثّماً[1]، أو تترك السلطنة مسلّماً. فذهب الرسول، ولم يأت إليه خبر السيّد المقتول. وسيأتي بقيّة هذا الحديث.

فصل
في حوادث سنة تسع وخمسين ومائة وألف
المصالحة بين السلطان نادر شاه والعثمانيّة:

ففي هذه السنة لم يقع بين نادر شاه والدولة العثمانيّة شيء من الحروب، بل ذهب إلىٰ إصلاح بلدانه، وتهذيب رعيته بأرض ايران، ووصل رسوله[2] الذي وجّهه إلى السلطان العثماني، وصحبته رسول من طرفهم، فجاءه خبرهما وهو في بعض أقطار خراسان، فأمر ببقائهما في بلدة مازندران إلىٰ أن يرجع فيطلبهما حيث يستقرّ.

وفي أثناء هذه المدّة يكاتبه عامل بغداد من طرف الدولة العثمانيّة أحمدباشا ابن حسن باشا، إذ هو من أعقل عمّالهم، وأحسنهم رأياً وتدبيراً.

فلمّا رأىٰ أنّ هذا الأمر لا يكون له مقرّ[3]، خيّر بينهما إدخال نفسه في عرض

---

(١) في «ن»: مليماً.

(٢) وهو غير العلاّمة الشهيد السيّد نصرالله الحائري، بل أرسل رسولاً آخر، كما لا يخفىٰ.

(٣) في «ن»: مفرّ.

الصلح عليهما، فقبل كلّ منهما ذلك،فأرسل من طرفه أكبر خدّامه صاحب سرّه إلىٰ دولته ليختلي بهم، ويشرح لهم حقيقة حال هذا الرجل، وكثرة أحواله وعساكره، وأنّ الأموال تجبىٰ إليه من جميع الأقطار، وليس له ما يشغله عنكم، وقضيّة فارس في العام الماضي أذهب أغلب العساكر بعد جمعها مدّة مديدة، فالأولىٰ موافقته، فأرسلت الدولة العثمانيّة إليه بالتعويل في كلّ الأُمور عليه .

فعرض علىٰ نادر شاه في بيان ما أراده وشاء، فوصل إلىٰ بلدة طهران، وطلب ما جاء به الرسولان، فتأمّل ما صدر منهم إليه، مع مخاطبات عامل بغداد، فكان جوابه للدولة أنّه علىٰ نوروز السنة المذكورة يصل من تعتمدون عليه من رؤساء دولتكم من أهل السيف والرأي، ومن أهل العلم والقلم إلىٰ بلدة كذا، وأنا أصل ونكتب ما نريده، ويكون عليه الصلح إن شاء الله تعالىٰ .

فجاء الخبر بأنّ أحمدباشا الكبرلي توجّه بهديّة جميلة، وجملة من الخيل والآلات، وصحبته بعض أهل العلم إلى الموضع الذي أشار إليه حضرة نادرشاه، والله أعلم ما يصير، وسيأتي بقيّة هذا الحديث في السنة الآتية إن شاء الله تعالىٰ .

فتنة الأفرنج في أطراف بنقالة وبنادرها :

وفي هذه السنة: وصلت الأخبار بوقوع الفتنة العظيمة بين الأفرنج في أطراف بنقالة(١) وبنادرها، وذلك بين الفرنسيين والإنقريز(٢) .

حقيقة الحال: أنّ الإنقريز قعدوا على الفرنسيس، وتعاظموا عليهم، حتّىٰ أذلّوهم، فكاتبوا أهل ولايتهم وسلطان ملّتهم، فخرجت من ولاية الفرنسيس

(١) من المدن المعروفة في الهند .

(٢) وهو الإنكرترة، أي: بين الفرانسة والبريطانية .

أربعون مركباً قد شحنوها بالرجال وآلات الحروب[١]، وأقبلوا عليهم في بحر بنقالة، وصالوا عليهم برّاً وبحراً، ودخلوا بنادرهم المعروفة بهم المستوطنين بها، ولهم بها قلاع وأموال ورجال، فنهبوها وأخربوها واستأصلوهم عن آخرهم إلاّ من هرب إلى الدكن.

ومن جملة ما دخلوه وأخربوه ونهبوه من البنادر المعمورة بندر مدراس، وما أدراك ما مدراس، وجدوا فيه من الدراهم المسكوكة ثمانية وأربعين كرّاً من الربّيات المسكوكة بسكّة الهند، كلّ كرّ عن مائة لكّ، وكلّ لكّ مائة ألف ربّية، غير الجواهر العظيمة التي لم توجد في غيرها، والأقمشة المستعدّة للتجارة.

وهذا الذي وجد في قلعة الإنقريز مع ما نهبوه من البلاد من الأموال والجواهر، وحازوا ذلك جميعاً في محالّهم وقلاعهم التي في تلك الجهات، والله أعلم بما يحدث بعد ذلك من الإنقريز؛ لأنّهم أرسلوا إلىٰ ولايتهم أيضاً وسلطان ملّتهم، فإن بلغنا شيء بعد ذلك أثبتناه في حوادث سنته، والله أعلم.

وفاة السيّد عبدالله بن جعفر بامدهر:

وفي حادي عشرين شهر ذي الحجّة من السنة المذكورة: توفّي إلىٰ رحمة الله تعالىٰ، السيّد الجليل، والسند العالي الأصيل، الأديب المجيد، والفاضل المجيد، العارف بالله، صاحبنا السيّد عبدالله بن السيّد جعفر بامدهر رحمه الله تعالىٰ.

فلقد كان هذا السيّد الشريف العلوي، واحد السادة آل باعلوي، وأوحدهم في العلوم الأدبيّة، والأخلاق النبويّة، والنفس الشريفة الأبيّة، قطن بأمّ القرىٰ، واسع الجاه عظيم الذرا، مع كونه ملازم الدار، ليس له تردّد علىٰ أحد من ذوي القدرة

---

(١) في «ن»: والآلات للحروب.

والاعتبار، ولا اتّصل بأحد من الملوك، بل هو مقتصر على العبادة، والحثّ علىٰ حسن السلوك، إلىٰ أن توفّي إلىٰ رحمة الله تعالىٰ، وشمل بفيض فضله الذي لم يزل يتوالىٰ، ودفن بالمعلاّة بجنب قبر والدته. وخلّف أولاداً صغاراً لم يبلغوا حدّ الاشتهار. وقد أرّخ وفاته غير واحد من الشعراء.

السيل والريح العاصف بمكّة :

وفي ليلة ثاني عشر ذي الحجّة الحرام ختام السنة المذكورة: حصل مطر بمنىٰ على الحجّاج[1] وأهالي مكّة الحاجّين في تلك السنة، مع ريح مزعجة كادت تأخذ الجبال، وحصل منها سيل عظيم، وذهب بجانب من الخلق، ولم يبق خيمة ولا صيوان للخلق، أو لأمراء الحجوج، أو لشريف مكّة، إلاّ سقط وأظلّت الدنيا حتّىٰ لم تكد ترىٰ من عندك، وكان ذلك في آخر الليل.

ثمّ عقبها برد شديد وسيل، ثمّ أسفر الصباح بعد العويل والصياح، وذهبت على الناس أموال كثيرة، فأصبحوا نافرين إلىٰ مكّة المشرّفة، وهم في نهاية التعب والمشقّة، يمرّون بأشخاص ذكور واناث وأطفال قد طمّهم السيل، وبعض الأموال، نسأل الله تعالىٰ الحماية.

وبسبب ذلك أمر أمير الحاجّ الشامي أسعد باشا وكيله بمكّة المشرّفة ببناء دكاك عالية في منزله المعتاد بمنىٰ مقابلاً لمسجد الخيف، فبنيت هناك عدّة دكاك.

---

(١) في «ن»: الحاجّ.

فصل

في حوادث سنة ألف ومائة وستّين

وفاة الشيخ سالم بن عبدالله البصري المكّي :

ففي ثاني محرّم الحرام افتتاح السنة المذكورة: توفّي رئيس الحرمين الشريفين على الاطلاق، وثاني القاضي حسين بالاتّفاق، بل المتأبّط له في علوّ الهمّة وعظم الأفعال، والمقلّد لأعناق رؤساء زمنه قلائد المنن في جميع الأحوال، علم الافضال المشار إليه، ومعلّم الكرم المجمع بالثناء الحسن عليه، مولانا الشيخ سالم ابن أفضل أهل زمانه، ورئيس العلماء الإمام من معاصريه وأقرانه، شيخ الحديث بالحرمين الشريفين، والموطنين المنفين، الشيخ عبدالله البصري المكّي، شارح البخاري، وقد تقدّم ذكرهما عند تاريخ وفاة والده الشيخ المذكور في سنة (١١٣٤).

وقد ذكرنا هناك خلفه هذا، وذكرنا جملة وافية من أفعاله، وعلوّ همّته، ورئاسته التامّة الكاملة في جميع أحواله، إلاّ أنّه ابتلي قبل وفاته بأعوام بمرض الفالج المعطّل له عن الحركة بالأقدام، فلازم داره مدّة مديدة، ثمّ صنع من المراكيب أشياء عديدة، يتحرّك عليها بعض الأوقات، إلىٰ حيث شاء من الجهات .

ولم يزل رافلاً في رئاسته، مجرياً لقواعده وعوائده لقاصديه، والمتقدّمين في خدامته[1]، مهلكاً لكنوز الأموال ومعادن الجواهر في حفظ المروءة واصطناع المعروف، فهو ابن عبّاد زمنه الوضي، والحقيق بما رثاه به الشريف الرضي، حيث

---

(١) في «ن»: خدمته .

نظم[١] جواهر الكلم في سلك الانصاف، وأتىٰ بهامتناسقة متضمّنة لما لهذا الأخير من الأوصاف، ولعمري أنّهما شمساً أفاق هذه المفاخرة، ولصاحبنا أن يقول كم ترك الأوّل للآخر:

يا طالب المعروف خلق نجمه — حطّ الحمول وعطّل الأحمالا
وأقم علىٰ ياسٍ فقد ذهب الذي — كان الأنام علىٰ يديه عيالا
طلبوا التراث فلم يروا من بعده — إلاّ عُلاً وفضائلاً وجلالا
هيهات فاتهم تراث مخاطرٍ[٢] — حفظ الثناء وضيّع الأموالا
قد كان أعرف بالزمان وصرفه — من أن يجمّع أو يثمّر مالا
مفتاح كلّ ندىً وربّ معاشرٍ — كانوا علىٰ أموالهم أقفالا
كان الغريبة في الزمان فأصبحوا — من بعد غارب نجمه أمثالا
من فاعلٍ من بعده كفعاله — أو قائلٍ من بعده ما قالا
يا طالباً من ذا الزمان شبيهه — هيهات كلّفت الزمان محالا
إنّ الزمان أضرّ بعد وفاته — من أن يعيد لمثله أشكالا

فرحمه الله تعالىٰ ورحم أمثاله، وخلّد عاطر ثنائه وفعاله، وأعقب من الذكور أربعة: الشيخ حسن، والشيخ عبدالرحمٰن، والشيخ أباالفتح، والشيخ عبدالقادر، وفّقهم الله تعالىٰ لسلوك جادّته وطريقه، وإحياء رسوم رئاسته بهداية الله سبحانه وتوفيقه.

---

(١) في «ن»: تعلّم.
(٢) في «ن»: مخاطب.

الاختلاف في رؤية هلال شهر رمضان :

وفي هذه السنة: حصل اشتهار في رؤية هلال رمضان ليلة الجمعة، ولم يثبت في تلك، مع أنّ غالب الظنّ ثبوته، فلأجل ذلك استعدّ أهل الدواوين المعتاد جلوسهم في تلك الليلة لو ثبت الرؤية، كشريف مكّة المعظّمة وحاكمه وخطيب العيد، فلمّا لم يثبت لم يجلسوا في تلك الليلة، ولا عملوا ما يترتّب عليهم من إلباس الجماعة المعتاد لبسهم في تلك المحاضر، ومدّ الأسمطة النفيسة بعد الرجوع من الصلاة .

وكان خطيب العيد في السنة المذكورة، حضرة المقام الجليل، والمرام العالي الأصيل، معهد الكمالات الجليّة، ومعقد خناصر أرباب الهمم العليّة، سلالة أكابر[1] الكرام، والعلماء الأفاضل الأعلام، الجامع بين الطريف من المفاخر والتالد، مولانا الشيخ حسن بن الشيخ علي بن الشيخ خالد، وفّقه الله تعالىٰ وأولاه ألطافاً توالىٰ، وهو من سلسلة فاخرة، وفتية فضائلهم باهرة .

ولهم قدم راسخ في البلاد، حتّىٰ عدّ لهم بها أباً وأجداداً، لم يزالوا ينشرون بها الفضائل والعلوم، ويقلّدون أعناق الجهابذة بعقود المنطوق والمفهوم، ولهذا الشيخ إخوة أمجاد، لهم في تحصيل الفضائل كدّ واجتهاد، وفّقهم الله تعالىٰ لتحصيله، وسلوك جادّته وسبيله .

فلمّا كان صبح يوم الجمعة المبارك ثبت الهلال بالطريق الشرعي، والقانون المحرّر المرعي، فتأهّب الخطيب للصلاة، وانقطع بذلك ما للمعتادين من الصلاة، وانخرم نظامه ونظام أهل الدواوين المشهورة، المحرّرة المزبورة .

---

(١) في «ن»: الأكابر .

فحصلت المحاورة في مجلس حضرة مولانا الشريف بينه وبين بعض الأشخاص، من أهل المقام العالي المنيف، بتأسّف حضرة الخطيب على انخرام مجلسه المعتاد، وذهاب رونق العيد، وما يصير ليلة المشهد المبارك من البيع والشراء بين العباد، وما يصير فيها أيضاً من اللبس والقبض علىٰ بعض الأشخاص، من حضر تكم العليّة، ومن حضرة الخطيب، ومن أكابر الخواصّ.

فصدر أمره العالي بالقضاء لما فات، وأن يعمل في هذه الليلة مثل ما كان يعمل البارحة لو حصل الاثبات، من بسط الأسواق، وجلوس أهل الدواوين، وإلباس ذوي العادات، ومدّ الأسمطة المعتادة، في صبيحتها جرياً على العادة.

فصار في الليلة الثانية طبق ما أمر، ولم يكن شيء ممّا يعهد فعله من الجلوس وبسط الأسواق، وطلوع أهل الحارات على جباهم الأفعل واستقر، ولم يفقد في تلك الليلة إلاّ التكبير والخطبة والصلاة في صبيحتها للتوقيت المستفاد من الشرع المستنير.

وهذا الأمر لم يعهد وقوع مثله قطّ، ولم يتنبّه لمثل هذا الأمر شريف من ملوك مكّة المشرّفة إلاّ هذا الملك الموفّق فقط، فعجبت من هذا الفعل الحسن، الذي لم يصدر مثله من أحد من ملوك مكّة المشرّفة بني الحسن، مع أنّه صار مثل ذلك كثير، فذهب نظام ليلة المشهد وما يترتّب عليه من الخير الكبير، فجزاه الله تعالىٰ علىٰ تنبّهه هذا خير الجزاء، وجعل نصيبه من السعادة أوفر الإجزاء.

الفتنة العظيمة بمصر:

وفي شعبان من هذه السنة: حصلت فتنة عظيمة بمصر، أسفرت عن قتل أربعة سناجق في الديوان الشريف السلطاني، منهم: خليل بيك أمير الحاج الشريف، وهرب أيضاً أربعة معتبرين، منهم: إبراهيم بيك قطامش، ومعهم جماعة كثيرون

من أهل المناصب المعتبرة، وتوجّهوا إلىٰ صعيد مصر، واستمرّوا هنالك، والله أعلم بما يحدث بعد ذلك في تلك الأقطار والممالك.

قتل السلطان نادر شاه وكيفيته والحوادث بعد ذلك:

وفي شهر شوّال من هذه السنة: وصلت الأخبار المسرّة من جهة بغداد، التي أسرّت البلاد والعباد، بقتل ذلك الخارجي المشهور، الذي قد تقدّم ذكره في أثناء هذه السطور، وهو السلطان نادر شاه الملقّب بـ«طهماس» من أُستاذه الذي صرفه في مملكته بما أراده وشاء، ثمّ خانه وعزله، وإلى المشهد الرضوي نقله، وحبسه هناك، إلىٰ أن لاقىٰ ملك الأملاك.

وشرح مبدأ حاله، وتنقّله من مرتبة الجمّال إلى الوزارة إلى السلطنة إلى انتقاله، قد تقدّم في هذا التاريخ بيانه، وهذا ختامه الذي انطوىٰ به عصره وأوانه، وذلك بعد أن ملك مملكة ايران، ومملكة توران، ومملكة الهند، وأذلّ جميع الخلق بالقتل والنهب والأسر وأنواع العذاب، وأزال آثار الدول السالفة بالذهاب والخراب، وجمع من الأموال والجواهر الغالية الأثمان، ما لم يجمعه قارون ولا من قبله في سالف الأزمان.

توجّه إلىٰ قتال الدولة العثمانيّة، فسيّروا عليه عساكر محشدة وجنوداً مجيدة، وعليها أُمراء عظام، من وزرائهم الكرام، فأهلكهم وأبادهم المرّة بعد[1] المرّة، وهو يعاملهم بالكرّة بعد الكرّة، حتّىٰ أذهب عليهم من الأموال والرجال، عدد الجبال والرمال.

ثمّ مالوا إلى الصلح معه بواسطة أعظم وزرائهم المكرمين، وأفخر أُمرائهم

---

(١) في «د»: في.

المعظّمين، أحمد باشا صاحب بغداد، بعد صرف نهاية الجدّ والاجتهاد، وخراب أكثر البلدان، بسبب مرور الجيوش بها من العساكر والفرسان، فاستقرّ الأمر على الصلح، فتوجّهت من عنده هديّة سنيّة إلى الدولة العثمانيّة، ومنهم إليه ومعها الوزير أحمد باشا الكبرلي، ليكون الاعتماد في عقد الصلح عليه، ومعه من أهل الحلّ جهابذة نقّاد، وعقلاء في غاية الجودة والانتقاد، وقد مرّت الإشارة إلىٰ ذلك في حوادث سنة تسع وخمسين .

فلمّا قرب من موضعه الكبرلي[1] المذكور، وهو مستقرّ في سلطنته ومسرور، نزل به القضاء والقدر، والأمر المحتوم الذي ما عنه مفر، دخل عليه بعض حرّاسه من طائفة الغزلباش، وانتهبوا نفيس عمره وهو نائم على الفراش، ووقعن عليه بعض نسائه، فذهبن تحت السيف فوق ردائه، ثمّ حزّوا رأسه ويديه، ونهبوا جميع الخزائن التي كانت لديه، فأُتي من حيث يأمن، ولم يقدم عليه إلاّ أصدقاؤه الذين هم أهل مذهبه، ومعتمده في مقرّه ومهربه، فقد قيل :

إحـذر صـديقك أنّـه ... يـخفي عـليك ولا يـبين
إنّ العـدوّ مـبارزٌ ... لك والصديق هو الكمين

وذهبوا بالأموال إلى ابن أخيه علي قلي خان بن إبراهيم خان، يريدون نصبه في ملك ايران، والحال أنّ له أولاداً موجودين مغرقين في تلك البلدان، وأعظمهم نصرالله ميرزا المقيم بهمدان، فانظروا إلىٰ قضاء الله إذا حلّ، وكان به انقضاء الأجل، ينزل بكيفيّة لا تخطر بالبال، ولا يتخيّلها عقل عاقل من الرجال .

واعـلم بأنّ الدهـر يـحكم أمـره ... فيما يشاء لمـن يشـاء ولو أضـر

---

(١) في «ن»: الكركي .

عن أمر من يجريه لا عن أمره جرت المشيئة بالتصرّف في البشر
فليأخذ الملك اللبيب لنفسه في هذه الدنيا الدنيّة معتبر

فإنّ هذا الملك العظيم قد توسّع ملكه، وسارت في بحار جميع البلدان فلكه، وجمع من المال[1] ما لم يجمعه قارون، ولا حاز مثله الأوّلون ولا الآخرون، وحشد من العساكر فوق اللكوك، وأذلّ بهيبته جميع الملوك.

ومبدأ حاله قد تقدّم بيانه في سنة (١١٤٥) خمسة وأربعين، وجلوسه في تخت السلطنة كان في سنة (١١٤٩) تسع وأربعين. وأرّخه بعض خدّامه في تلك المواضع بقوله «الخير فيما وقع» فكتب هذا التاريخ في سكّته الجديدة، وأحكم سلطنته بآرائه السديدة، حتّى أراد الله تعالى بما أراد، فسلّط عليه حرّاسه من هؤلائك الأجناد.

ولقد أجاد من أرّخ هلكه هذا من أدباء الحجاز الذين هم الشعراء في الحقيقة لا المجاز، فقال وأجاد وترك حسّاده دامية الأكباد:

تأمّل بعين فتىً عارف إلىٰ نادرٍ بعد أن قد ملك
أباد الورىٰ ثمّ أخلى القرىٰ وقلّد تيمور فيما سلك
فلمّا دنا سيره للبلا ألمّت به دائرات الفلك
فسلّط حرّاسه ليلةً عليه فصادوه جوف الشرك
وجزّ أخو عزمهم رأسه بسيفٍ لجبهته قد بتك
فلله درّك من فاتكٍ ودرّك يا سيف ما أعدلك

---

(١) في «ن»: الأموال.

فخذ منتهى العزّ مستخرجاً   لتاريخه من خبيث هلك[١]

وكان مقتله ليلة الحادي عشر من جمادي الثانية من السنة المذكورة .

ولا بأس بنقل صورة كتاب أحمد باشا صاحب بغداد، الذي أرسله إلىٰ شريف مكّة المشرّفة، ليبشّره بهلاك هذا الملك الجبّار، ليعمّ سروره[٢] جميع الأقطار، فإنّ أهل الحرمين كانوا في غاية الاضطراب لو استولىٰ على الدولة العثمانيّة، لما هو مشهور به من القتل والانتهاب، لكن قمعه الله عن ذلك، وأورده حياض المهالك، وكان وصول هذا الرقيم في أوائل شهر شوّال، فحصل السرور بقدومه، واستقرّت القلوب والأحوال، وهذا أوّل الكتاب :

الحمد لله الذي أيّد سلطانه، وخذل شيطانه، وأعزّ أولياءه، وأذلّ أعداءه، والصلاة والسلام علىٰ سيّدنا محمّد الذي ما برحت شريعته باقية إلىٰ قيام الساعة، وما فتئت أُمّته الناجية تدعىٰ بأهل السنّة والجماعة، وعلىٰ آله وأصحابه، وجنده وأحزابه، وأزواجه وعترته، وأتباعه وذرّيته، ولاسيما فرع الدوحة الهاشميّة، وفنن الشجرة الفاطميّة، ساحب ذيل الفخر علىٰ مجرى المجرّة والسماك، باسط بساط المجد علىٰ أوجات أقطاب الأفلاك، بالحسب الذي تقاعس عنه كيوان، والنسب الذي تقاعد عنه النيران .

نسبٌ تحسب العُلا بحلاه   قلّدتها نجومها الجوزاء

كيف لا؟ وهو بضعة سيّد بني آدم، ولحمة من نسبة علّة إيجاد العالم، علىٰ أنّ الواصف لو أطنب، وأطال وأسهب، لملّ القلم، وأتعب السأم .

---

(١) وهو سنة (١١٦٠) .

(٢) في «ن»: السرور .

من كان فوق محلّ الشمس موضعه | فليس يرفعه شيء ولا يضعه

ألا وهو السيّد الشريف بل الأشرف، والكيّس اللطيف بل الألطف، كريم الجنس من آباء وجدود، أجلّ من خفقت عليه في الحجاز الأعلام والبنود، مولانا الشريف مسعود، لا زال السعد أليفه، والإقبال حليفه.

أمّا بعد: فإنّ تموّج تيار محبّ[1] الخاطر، بالسؤال عن حالنا الباطن والظاهر، فنحن والحمد لله بنعم لا تحصىٰ، وآلاء لا تستقصىٰ، وممّا تشنّف به المسامع الكريمة، من الأخبار السارّة العجيبة، والأحاديث العذبة الغريبة، أنّ نادرشاه صفرت مرطاه[2]، ودكّت أكامه وضرابه، حلّقت به عنقا مغرب، ونأىٰ عنه ما كان بيديه ويعرب، فأمسىٰ كأمس الدابر، وصار عبرة للأواخر.

لا يأمن الدهر ذو بغيٍ ولو ملكا | جنوده ضاق عنها السهل والجبل

وقصّة قتله علىٰ سبيل الاختصار، وطريق الايجاز والاقتصار: إنّ حرّاسه الذين أعدّهم لحفظ مهجته، واصطفاهم علىٰ خلّص بطانته، هجموا بغتة عليه، وقطعوا يديه ورجليه، وجزّوا[3] رأسه، وأخمدوا أنفاسه، وأبطلوا أحسامه، وأطفؤوا نبراسه، ونقضوا أساسه، وكان يراهم عُدّة للشدائد، وجُنّة واقية عن المكائد، فإذا غلب القضاء والقدر، أتى العبد ضرّه من حيث الحذر.

إذا لم يكن عونٌ من الله للفتىٰ | أتته الرزايا من وجوه الفوائد
كما جرت الخنساء قتل حذيفةٍ | وكان يراها عُدّة للشدائد

---

(١) في «ن»: بحر.

(٢) في «ن»: وطأته.

(٣) في «ن»: وحزّوا.

فكان كالباحث عن حتفه بظلفه، والجاذع بيده مارن أنفه، فتفرّقت جنوده أيادي سبا، وتبدّدت عساكره شذر مذر[١] على الوهاد والربا، وانحاز مع كلّ عظيم من عظمائه طائفة من العساكر، وليس لهم من قضاء الله واق ولا ناصر، ولاسيما أولاد الشاه فقد دبّ بينهم النزاع والشقاق، وحال الخلاف بين تعاضدهم وعدم الاتّفاق، فلم تنفع قرابة حميم، والملك كما قيل عقيم، نسأل الله تعالىٰ أن يحلّ بهم الخزي والخذلان، ويلبسهم أثواب الذلّ والهوان، ويخالف بين كلمتهم، وكسر قوي شوكتهم.

فبسبب ما حدث ذلك اليوم من الخطوب العظام، انحلّت عرىٰ ممالك ايران عن النظام، فيا له من يوم عظمت فيه المصائب، وتراكمت فيه الرزايا والنوائب.

يومٌ تفرّس فيه الفرس أنّهم ... قد أنذروا بحلول البؤس والنقم

فخربت بلدانهم العامرة، وغاضت تياه خيراتهم الهامرة، فهجر أكثرهم أوطانه، وعادىٰ أولياءه وخلّانه، فصارت نواحي ايران ينوح فيها البوم، وينعق في أرجائها الغراب المشوم.

أمست خلاءً وأمسىٰ أهلها ارتحلوا ... حتّىٰ عليها الذي أخفىٰ علىٰ لبد

جميع هذه الحوادث كاتبنا بها الوزير المفخّم، الوزير كبرلي أحمد باشا المبعوث الشيا[٢] إلىٰ بلاد العجم.

وذلك أنّه لمّا وصل همدان، وحلّ بذلك المكان، جاءه من شاهد قتل الشاه ببصره، وأخبره بجميع ما وقع هناك بعجره وبجره، وقصّ عليه أمر القصص، وأنّ

---

(١) في «ن»: شذر بذر.

(٢) في «ن»: الحيا.

الشاه تجرّع مرارة الغصص، وفصّل جميع ما وقع بكلّياته وجزئياته، وبيّن ما حلّ بأولاده من الشقاق علىٰ أصحّ كيفياته، وأنّ جمعهم تفرّق، وشملهم تمزّق.

فقرّر هذا التقرير، ذلك الوزير باللغة الفارسية، وضمّنه تفاصيل تلك القضيّة، وأنّ سبل ايران قد تقطّعت، وأهل الفساد في نواحيها تحزّبت وتجمّعت، بحيث عمّ أطرافها الشرّ والضير، فلا يستطيع سبيلاً في الجوّ جوارح الطير.

فلمّا علمنا أن التقت حلقتا البطان، وضاقت نجلاص الإلجي دائرة الإمكان؛ لأنّ الشظاظ قد بلغ الوركين، والحزام جاوز الأبطين[1]، جهّزنا لإنقاذ الوزير المشار إليه، جنوداً مجنّدة، وكماةً على الكفاح سعودة، من كلّ ليث مغوار، وصنديد كرّار، لا يهابون الموت، ولا يخشون الفوت، فجاؤوا به إلىٰ أطرافنا محفوفاً بالنصر والسلامة، محفوظاً عن عضّ خناصر الندامة.

فالحمد لله الذي نعمه لم تزل دائرة علينا، وهذه بضاعتنا ردّت إلينا، فترجمنا لكم ذلك التقرير، الذي حرّره ذلك الوزير، لتحقّقوا قتل الشاه، وتقفوا عليه بلا اشتباه، لما بيننا من المودّة التي رسخت رسوخ رضوىٰ وتهلان، فلا يغيّرها كرور الأحقاب، ولا تباعد الأبدان.

وبالجملة فنحمد الله تعالىٰ علىٰ أن أعزّ دينه، وأظهر حبوره، وقد كانوا يريدون أن يطفؤوا نور الله بأفواههم، ويأبى الله إلاّ أن يتمّ نوره.

هذا، وإنّ العراق أهله في مهاد الأمن يمرحون، وفي مراتع رياض الطمأنينة يسرحون، والحمد لله علىٰ هذه النعمة الجزيلة، والمنّة العظيمة الجليلة، نسأل الله تعالىٰ أن يوفّقنا وإيّاكم للعدل، والحكم بالحقّ الفصل.

---

(١) في «ن»: البطين.

وإن ثنيتم عنان الالتفات إلى الوقوف علىٰ حال الجيّ[١] العجم وما معه من نفائس الهديّات، فإنّه لمّا تحقّقت هذه الأخبار، وظهرت ظهور الشمس في رابعة النهار، أخّرناه عن السعي والمسير، وضبطنا ما معه من[٢] دفاتر الحفظ من جليل وحقير، فبقي عندنا في بغداد محجوراً، وآل أمره كأن لم يكن مذكوراً، فرسولنا الوزير رجع بهداياه مجبوراً، ورسولهم مصطفىٰ خان أحضر بما معه فظلّ يدعو ثبوراً، فاستولينا بحمد الله على الهديتين، ومنحنا بحمد الله أحي الحالتين. إنتهىٰ كتاب أحمد باشا.

قلت: أغار هذا الكاتب علىٰ مطلع خطبة العلاّمة الأديب الشيخ عبدالرحمٰن المرشدي المكّي، المترجم في سلافة العصر[٣]، لفاضل أهل زمانه، وفخر معاصريه وأقرانه، السيّد علي بن أحمد بن معصوم، وهذه الخطبة في غاية الشهرة، بل نقل إليه منها هذا المطلع في السلافة، وأنّه هو الذي كان سبباً لقتل الشيخ عبدالرحمٰن المذكور علىٰ أحد القولين، ونقلناه نحن في ترجمة الشريف أحمد بن عبدالمطّلب أحد شرفاء مكّة المشرّفة، المترجم في السفر الأوّل من هذا التاريخ فراجعه ثمّة.

وهو أنّ الشريف المذكور خطب من الخواجة أحمد شهاب أحد أعيان أهل مكّة المشرّفة ابنته سلطانة، فامتنع عن العطاء؛ لأنّه كان في مبدأ حاله ذا هيئة رثّة، وحبال عن الرئاسة منبتّة، ثمّ طلبها آخر من أبناء جنسه فأعطاه إيّاه.

---

(١) في «ن»: الحيّ.

(٢) في «ن»: في.

(٣) سلافة العصر ص ٦٥.

وطلب من الشيخ عبدالرحمٰن أن يعقد بها، فصنع هذه الخطبة، فقال في مطلعها على طريقة براعة استهلال مع التورية: الحمد لله الذي أعزّ سلطانه، ودحض شيطانه، فقال ذلك الشريف: ما قصد إلاّ أنا بقوله هذا، فقتله، والقضيّة مشهورة، وفي محلّها الذي أشرنا اليه مذكورة.

وإنّما هذا الكاتب غيّر فيها (أعزّ بأيّد ودحض بخذل)[١] مع أنّ هذا التغيير لا يخرجه أوّلاً عن باب الإغارة، وثانياً أنّ اللفظتين الأوّلتين كانت أنسب، وأليق[٢] بالغرض الذي غيّر لأجله هذه العبارة، ولكن أين الذوق السليم، والفهم القويم، وأكثر عبائره وتركيبه من هذا القبيل السقيم، فهو درّة مع آجرّة، وقحبة جاورت حرّة.

وأغرب من ذلك صدور مثل هذا الكتاب من بغداد التي كانت مقرّ فحول جهابذة الكتّاب، كالأُستاذ وغيره من الفصحاء والبلغاء، فتغيّرت باناس أدبهم أشبه بنسج ذوات البغاء.

وسيأتي في حوادث سنة احدىٰ وستّين تفصيل ما تصل[٣] به الركبان، من حال قطر ايران، ومن استولىٰ عليه بعد ذلك الفان[٤]، من أبنائه الموجودين، أو ابن أخيه الرائم لما كان لعمّه من القوّة والتمكين، والملك بيد الله يوهبه من يشاء، وهو القويّ المتين.

---

(١) ما بين الهلالتين أضفناها من نسخة «ن» وفي نسخة «د» بياض.

(٢) في «د»: والشيء.

(٣) في «ن»: فصّل.

(٤) في «ن»: الغارّة.

وفاة الوزير أحمد باشا بن حسن باشا :

وفي أواخر ذي‌القعدة من السنة المذكورة: توفّي الوزير المعظّم، والمشير المفخّم، أحمد باشا ابن الوزير الكبير حسن باشا، متولّي أيالة بغداد المتقدّم ذكره، وهو الذي وصل منه الكتاب السابق لشريف مكّة المعظّمة بالإخبار والإعلام بوفاة نادرشاه، ولم يكن بين المخبر والمخبر عنه إلاّ خمسة أشهر وقليل، فسبحان الحيّ القيّوم، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

وكان هذا الوزير ذو القدر العالي الخطير، ذا همّة عليّة، وإرادة سامية جليّة، نازل من الشدائد العظيمة، والأهوال الجسيمة، في مقاومة نادرشاه عن أن يضع يده علىٰ قطر العراق، ويتولاّه تارة بالقتال والمرافعة حين حاصره ببغداد، وتارة بالمسالمة والمحاسنة، وإرسال الهدايا إليه، وإظهار إطاعته في كلّ ما أراد، حتّىٰ نسبه مخدومه سلطان الدولة العثمانيّة إلى المخادعة وفساد النيّة، وأضمر له العداوة القلبيّة والانتقام، إن زال هذا الملك الخارجي، أو حصل له هبوط وانهضام، وفي ظاهر الحال هو المخاطب بالتعظيم في جميع الأُمور والأحوال .

وفي الحقيقة لولا هذا الوزير، الحسن السلوك السديد التدبير، لتصرّف نادر شاه في قطر العراق كيف شاء، ومع ذلك قد وصل إلىٰ جميع المشاهد الشريفة، وتشرّف بتلك الأماكن العالية المنيفة، بعد الحصار الأوّل لبغداد، وبعد قتله لعثمان باشا الطبّال، ورجوعه عن هؤلائك العساكر الرومية، حتّىٰ أذهب وأباد، وقد تقدّم تفصيل هذا الإجمال في سنة ...[1] .

---

(١) بياض في النسختين، وكان قتل عثمان باشا المذكور في سنة (١١٤٥) فراجع حوادث هذه السنة فيما تقدّم .

ولمّا كان هذا الوزير ذو رأي كبير، لم يتمكّن منه مخدومه المشار إليه بعد وفاة من كان معتمداً عليه، بل هيّأ له من بعض طائفة الأكراد، إحداث فساد في أطراف البلاد، فخرج عليهم بعساكره وأجناده، ممتطياً صهوات جياده.

فعرض له مرض في ذهابه إلى العراك، شكت منه الفخوذ والأوراك، فأقعده علىٰ فراشه، وانتهب نفيس عمره بعد لذيذ معاشه، ثمّ أُتي به إلىٰ بغداد، ودفن بها مع أبيه في خارج البلاد، ولم يتمّ للدولة العثمانيّة فيه مرام، بل مات وهو في نهاية الإعزاز والإكرام.

فأرسلوا لأيالة بغداد، أحمد باشا اليقن وهو في غاية السداد، وأخدموه كيخية الأوّل، وجعلوا عليه المدار والمعوّل، ليبصّر الثاني في جميع أُمور البلد وأحوالها، ويعرّفه بطرق صلاحها، ودفع وبالها، فاستمرّت الحال علىٰ ذلك، وصلحت تلك الأقطار والممالك.

فائدة عجيبة

قال الحكيم داود رحمه الله تعالىٰ في تذكرته[١]، في أثناء مبحث علم النجوم، وسوق الأدلّة علىٰ صحّته وإصابته: وهذه بنية بغداد تشهد بصحّته، فقد أحكمها الواضع والشمس في الأسد، وعطارد في السنبلة، والقمر في القوس، فقضى الله تعالىٰ أن لا يموت فيها ملك. إنتهىٰ.

---

(١) هو كتاب تذكرة أُولي الألباب والجامع للعجب العجاب، للشيخ داود بن عمر الأنطاكي الطبيب الضرير نزيل مصر، المتوفّىٰ بمكّة سنة (١٠٠٥) أو سنة (١٠٠٨) وهو تأليف عظيم، ذكر فيه أنّه أنفق عمره في تحصيل الطبّ، وألّف فيه كتباً منها هذه التذكرة، رتّبه علىٰ مقدّمة وأربعة أبواب وخاتمة. كشف الظنون ١: ٤٠٦ ـ ٤٠٧.

قلت: ولم تزل الحال كذلك إلىٰ عصرنا، وهو سنة (١١٦٠) فإنّ من كان قبل حسن باشا هكذا صار له، فلابدّ إذا قرب الأجل هيّأ الله تعالىٰ له سبباً يخرجه عن البلاد، فيموت في خروجه ذلك، وحسن باشا وولده أحمد باشا المذكور لمّا أراد الله تعالىٰ وفاتهما، هيّأ لهما سفراً لإصلاح أقطار البلاد، وماتا في الخارج كما هو معلوم ومشهور، فانظر إلىٰ هذا المنجّم الضابط، وإلىٰ هذا العلم الصحيح الضوابط.

فصل

في حوادث سنة ألف ومائة وإحدىٰ وستّين

وفاة السيّد راجح بن الشريف سعيد الحسني:

في شهر صفر من السنة المذكورة: توفّي إلىٰ رحمة الله تعالىٰ، السيّد الشريف، والسند العالي المنيف، مولانا السيّد راجح بن الشريف سعيد بن الشريف سعد بن الشريف زيد، أخي صاحب الترجمة، لا زالت دولته في سلك العدل والأمان منتظمة.

وكان هذا السيّد الشريف ذا همّة عالية، يزاحم بها الكواكب العلويّة، وكرم غامر[1]، يخجل الغيث الهامر، وبسالة علويّة، وأخلاق نبويّة، توفّي قبل بلوغ الخمسين، وأعقب ثناءً عاطراً وبنين، فرحمه الله تعالىٰ، وأغدق علىٰ قبره صيب غفران يتوالىٰ.

وفاة الشيخ إبراهيم بن الشيخ محمّد شمس:

وفي شهر ربيع الثاني من السنة المذكورة: توفّي شيخ الخطباء والأئمّة، وصالح أقرانه من هذه الأمّة، الشيخ إبراهيم ابن المرحوم الشيخ محمّد شمس المتقدّم ذكر

---

(١) في «ن»: عامر.

وفاته في سنة (١١٣٧) وتولّىٰ بعده هذا المنصب الشريف، أخوه المقام العالي المنيف، الشيخ أحمد بن محمّد شمس بخلعة من حضرة صاحب الترجمة، ومن متولّي مشيخة الحرم الشريف، وبندر جدّة المعمور عثمان باشا بن المحصّل، وذلك في شهر وفاة أخيه .

عزل الخواجة مصطفى بن زيادة :

وفي شهر محرّم من هذه السنة: عزل الجناب المكرّم الجناب المكرّم الخواجة مصطفى بن زيادة، المتقدّم ذكر توليته في سنة (١١٤٨) لكتابة الصرّ والجراية وجميع الدفاتر السلطانيّة بمكّة المشرّفة البهيّة، فصدر[١] بعض تقصير اقتضىٰ عزله، وتولية الجناب العالي السديد، الموفّق الرشيد، جمال الدين محمّد بن حسن القفاص، وأمر صاحب الترجمة بنقل جميع الدفاتر القديمة والجديدة، ولم يبق عند الخواجة مصطفىٰ من الدفاتر شيئاً، وهو خلاف القانون، فإنّه لابدّ أن يبقي عنده بعض دفاتر لنفسه[٢] أيّام توليته، لكنّه هكذا اقتضىٰ نظره العالي، فنقلها إليه برمّتها، واستقام بالخدامة في نهاية السلوك والاستقامة .

ثمّ بعد جلوسه بأيّام حدثت قضيّة من العلماء الأعلام، سكنة بلاد الله الحرام، ممّن له صرّ وجراية، وعلوفة وجداية[٣]، وبأيدهم تمسّكات[٤] من الملوك، بأن لا يؤخذ منهم خدمة إكراماً لهم في كلّ سلوك، فربما لاح لهم عند وصول العلوفة، أنّه

---

(١) في «ن»: قصّر .

(٢) في «ن»: نفسه .

(٣) في «د»: جداوية .

(٤) في «ن»: مستمسّكات .

يريد أن يأخذ[١] خدمته المألوفة، مع إشارة سابقة من صاحب الترجمة، وقاه الله تعالىٰ حوادث الدهر وبوايقه، بأنّه يأخذ خدمته المعتادة، حتّىٰ من جماعته المحترمين جرياً على العادة، وقصد بذلك نفعه في استقبال حاله لترقية أحواله.

فعند ذلك راجعوه أفراداً، ثمّ عملوا جمعيّة في بيت فاتح بيت الله الحرام الشيخ عبدالقادر الشيبي، وحرّروا عرضاً ربما فهم منه بعد عرضه عليه نسبة الظلم إليه، فتعب خاطره الشريف، ومنعهم الطلوع إلىٰ أيوانه العالي المنيف، وأظهر إرادة عزل شيخ الإسلام ببلد الله الحرام، الشيخ علي ابن المرحوم المفتي عبدالقادر الحنفي المتوفّىٰ سنة (١١٣٨) وقد تقدّم ذكر وفاته، وترجمة أحواله في أيّام حياته؛ لأنّه كان هو المتولّي لهذا الاجتماع، وكتابة عرض الحال في تلك الأوضاع، وإهانة آخرين.

ولم يزالوا في غاية التعب الشديد، وتوقّع البلاء المديد، فاتّفق أن حكم عيد المولد الشريف في أثناء هذه القضيّة، ولحضرة مولانا الشريف مجلس عظيم في تلك العشيّة، يصل إليه فيه جميع العلماء الأعلام بالمسجد الحرام، وذلك بعد صلاة المغرب بلا فاصلة، وهو من مجالس شريف مكّة المعظّمة المشهورة، المختصّة بالقضاة والعلماء.

فبسبب غضبه عليهم أخرم هذا المجلس العظيم، بالنزول إلى الطواف بعد التسليم، فزاد بهم الحال، واشتدّ بهم البلاء والوبال، وصاروا سكارىٰ وما هم بسكارىٰ، وداخلهم الخوف حتّىٰ صاروا حيارىٰ، والحال أنّه لا مفرّ منه إلاّ إليه، ولم يوجد من يمكن أن يعوّل في دفع ضرره عليه.

---

(١) في «ن»: يأخذ منه.

ففي أثناء المدّة توسّط بعض أعوانه في إصلاح حال بعض الأشخاص، وأخذ خاطره عليه لأمور اقتضت ذلك الاختصاص، ثمّ بقي الغضب مختصّاً برجلين: أحدهما المفتي علي المتقدّم ذكره. وثانيهما: أسعد بن عبدالله عتاقي مفتي الحنفيّة سابقاً، وما انحلّ أمرهما وحصل الرضا عليهما إلاّ بتسليم عشرة أكياس من المفتي علي، وخمسة من الرجل الآخر.

فانحلّ عنهما الوثاق، وزال عنهما ما كانا فيه من ضيق الخناق، ونعم المال ما صرف في حلّ مثل هذه الحال؛ لأنّ المال إنّما يجمع لأحد ثلاثة: للأمراض، أو الأغراض، أو الملك آخر اغتاض، هكذا تمكّن هذا الشريف من إعتاق العباد، حيث لم يكن له مضادد في البلاد، وأحكامه في غاية الضبط والسداد.

ومع كونهم سلّموا ذلك المبلغ المذكور، كتبوا تمسّكات لكاتب الصرّ المزبور، بأنّهم قدسمحوا له بالخدمة عن طيب نفس وانشراح، وما حصل عليهم من الغضب والخسارة زيادة تجلب الأفراح.

وفاة إمام اليمن الحسين المنصور بن القاسم المتوكّل:

وفي تاسع عشرين شهر ربيع الأوّل من السنة المذكورة: توفّي إلىٰ رحمة الله تعالىٰ إمام اليمن الحسين الملقّب بالمنصور بن القاسم الملقّب بـ«المتوكّل» المتوفّىٰ في سنة (١١٤٠) وجلس بعده ولده المسمّىٰ بالعبّاس الملقّب بـ«المهدي» بإقامة له من أبيه، وتأييد له من عمّه السيّد أحمد صاحب تعز، فاستقامت أحواله، وأبدر هلاله، وأبقىٰ ولاة أبيه، وهذا من جملة فكره النبيه، فنفذت أحكامه، واستحكم نظامه.

وبلغني أنّ أباه أعقب مائة ذكوراً واناثاً، وفوق العدد خيلاً وعبيداً وأثاثاً، وفي الحقيقة: إنّ إمامتهم صارت ملكاً عضوضاً، لا يستطيع ملك لمقاومتهم نهوضاً،

وتعدّوا حدود الإمامة في الملبوس والهيئة، واستعمال الذهب والفضّة، وتولية المفضول مع وجود الأفضل، وأصولهم تقتضي خلاف ذلك. نسأل الله تعالىٰ التوفيق في جميع المسالك.

وفاة منصور بن بدوي شيخ بني حرب:

وفي هذه السنة: توفّي شيخ بني حرب الساكنين بين الحرمين الشريفين، الشيخ منصور بن بدوي، الذي أقامه صاحب الترجمة الشريف مسعود شيخاً عليهم بعد موت شيخهم الأوّل الشيخ سعد بن بدوي، وصارت تلك الغارة[١] الواقعة بين منصور وبين عيد بن سعد بن بدوي، وهزاع بن مبارك، وأصرف مولانا الشريف فيها أموالاً عظيمة علىٰ نصرة منصور، وإضعاف عيد وهزاع بتجهيز العساكر والخيل، ولم يزل حتّى استقام أمر منصور، واستقلّت مشيخته، وضعف هزاع وعيد، وكلّ ذلك قد سبق شرحه مفصّلاً سنة (١١٥٦).

غير أنّه في أثناء هذه السنة[٢] لم يزل عيد وهزاع يسلكان مسالك الخضوع، ويظهران إمارات الرجوع، ويبذلان الهمّة العليّة في خدم شريف مكّة البهيّة.

فلمّا هلك منصور منّ بالمشيخة علىٰ عيد، وأسعفه بالملبوس الجديد، وأجراه علىٰ عوائده وقوانينه، وألزمه الخدم الواجبة عليه، فقام بها أحسن قيام، وانتظمت مشيخته أكمل انتظام[٣].

---

(١) في «ن»: الغارات.

(٢) في «ن»: المدّة.

(٣) في «ن»: نظام.

وصول ثلاثة من سناجق مصر إلىٰ مكّة المشرّفة :

وفي هذه السنة: وصل إلىٰ مكّة المشرّفة ثلاثة من سناجق مصر العمتبرين، منهم: عمر بيك بن علي بيك أمير الحاجّ الشريف المصري سابقاً، وصنجقان آخران، فقابلهم حضرة صاحب الترجمة، لا زالت عقود دولته الحسنيّة بفرائد المعرّة السنيّة منتظمة بالإعزاز والإكرام، وشملهم بالفضل والإنعام.

وأسّس[١] لهم مدرسة الداووديّة، بعد أن هيّأها لهم بأنواع الفرش المفتخرة، والآلات المعتبرة، ومدّ لهم بها أسمطة عظيمة، وخيرات جسيمة، وقيّد في خدمتهم أكابر دولته، وأعاظم بلدته.

ثمّ ألبسهم الأفرية السمامير، التي تفاض[٢] علىٰ كلّ أمير، وأركبهم من الخيل الجياد كلّ كميت مستجاد، وما اتّفق أن قد وفد مثلهم علىٰ مثله، حتّىٰ يشملهم بإحسانه وفضله، فهي منقبة له فاخرة، أحرز بها الذكر الجميل، والأجر الجزيل في دار الدنيا والآخرة.

وسبب وصولهم إلىٰ هذه البلاد، ونقلهم إلىٰ هذه المهاد: أنّه[٣] ثارت عليهم فتنة بمصر أخلت منهم الدور، وأسكنت جمعاً منهم القبور، وهي عادة أهل مصر فيما بينهم بين، وذلك لما أوقعه الله فيهم من العداوة والبين، فأصبحوا حلفا جوع وعرىٰ، بعد أن كانوا أرباب أسمطة وفرىٰ، وهذا حال الدنيا أو الاعتبار، وإنّما هي إقبال وإدبار.

---

(١) في «د»: وأثّث.

(٢) في «د»: تفاخر.

(٣) في «د»: أنّها.

دارٌ متىٰ ما[1] أضحكت في يومها أبكت غـداً تـبّاً لهـا مـن دار

وفاة محمّد شاه سلطان الهند :

وفي تاسع جمادي الأُولىٰ[2]: توفّي سلطان الهند محمّد شاه، الذي هجم عليه السلطان نادر شاه وعزله، ثمّ خرج عنه وأقرّه في سلطنته، وبقي فيها إلى اليوم المذكور، وتولّىٰ بعده السلطنة أحمد شاه، وتـوزّر له أبـو المنصور خـان، وولده قلعدار، والسيّد صلابت خان أمير الأُمراء، واستقرّت الهند له .

وصول الفرمان بقراءة حديث المعراج :

وفي هذه السنة: وصل فـرمان شـريف مـن حـضرة سـلطان الروم محمود، ومضمونه: الأمر بقراءة المعراج[3] الشريف في ليلة السابع والعشرين من رجب المعظّم في الحطيم الشريف، وفتح باب الكعبة الشريفة، والدعاء لحضرة السلطان بعد صلاة العشاء، وقراءة أحاديث المعراج الشريف النبوي، وقسمة الحلوىٰ .

ولبس الفرى السمامير لحضرة شريف مكّة المشرّفة، وللقاضي ولمفتي مكّة علىٰ مذهب الإمام الأعظم، ولفاتح بيت الله الحرام، أربعة أفرية من السمور، ومن القاقم فرو واحد لحضرة شيخ الحرم، وأصواف وقفّاطين للخدّام والمباشرين .

وتقرير بعض دراهم لأهل الخدم كالإمام، يعني إمام صلاة العشاء المختصّ بهذه الليلة لا إمام الراتب، ولصاحب البخور ولقارىء المعراج .

---

(١) في «ن»: دارٌ إذا ما .

(٢) في «ن»: الأوّل .

(٣) وهو حديث طويل رواه السيوطي مفصّلاً بأسانيد متكثّرة في كتابه الدرّ المنثور في التفسير المأثور ٤: ٢٥٨ ـ ٢٨٧ في ذيل تفسير أوّل سورة الإسراء، فراجع .

وجملة المتصرّف في هذه الليلة أربعة آلاف قرش إلاّ قليل تحت ثمن القرى والحلوىٰ والشموع والصرر وغير ذلك، وأخذت له أوقاف بتلك البلدان ليكون ذلك مؤبّداً مخلّداً على الدوام، تعظيماً لمعراجه عليه أفضل الصلاة والسلام، ومنصرفه وصنعه وخدمته، طبق ختم السلطان مصطفى الذي يصنع في ليلة السابع عشر من شهر رمضان، الذي كان ابتداء وضعه سنة (١١١٣) ألف ومائة وثلاثة عشر.

فقرّر الشريف ـ دام علاه ـ للإمامة إمامة الشيخ علي الجلخ، وبقراءة المعراج الشيخ أباالسعود بن الشيخ عزّالدين المنوفي، وللدعاء بالمحضر أحد بيت العبّاس[1]، وللبخور السيّد محمّد بن أحمد نائب الحرم الشريف، فباشروه في الليلة المذكورة من السنة المزبورة، وحصل لحضرة السلطان عظيم الثواب، بإشهار هذا الأمر العظيم الشأن، وبما يصدر منه هذه الليلة من الإحسان، فجزاه الله خير الجزاء، وجعل نصيبهم من سعادة الدارين أوفر الإجزاء.

وفاة السيّد أمين بن الحسن مير غني:

وفي شهر شعبان من هذه السنة المذكورة: توفّي السيّد الجليل، والسند الأصيل، العالم العلاّمة، والفاضل الفهّامة، السيّد أمين بن السيّد حسن مير غني رحمه الله تعالىٰ.

ولد بمكّة المشرّفة، ونشأ بها، وتعلّق بأذيال الكمالات، فعلىٰ علىٰ أقرانه بسببها، وتفقّه في مذهب الإمام الأعظم، فصار هو الأفضل الأعلم، كتب على الزيلعي حواشٍ مفيدة، وعلىٰ غيره أيضاً من كتب عديدة، وجاوز سنّه الثمانين،

---

(١) في «ن»: العبّاسي.

وهو عمدة مذهب الإمام الأعظم ببلد الله الأمين .

بعض أخبار ايران بعد وفاة نادرشاه :

وفي أواسط هذه السنة: وصلت الركبان، بأخبار قطر ايران، بأنّ المتولّي السلطنة تلك الأقطار، بعد الهالك الذاهب إلىٰ بئس القرار، ابن أخيه علي خان بن إبراهيم خان، ولقّب نفسه بـ«عادل شاه» لما صدر منه من الأُمور الحسنة في رعاياه.

وهو أنّه رفع الخراج والمقاسمة علىٰ أهل الغلاّت، وأمر بعمارة ما خرّبه ذلك الشقي في جميع تلك الجهات، وأمر أيضاً بإجراء الأوقاف والمدارس، التي في جميع أقطار فارس، وغير ذلك من الأُمور الحسنة، والقضايا المستحسنة.

فلمّا كان الزمان الفاسد غير قابل لمثله من الملوك، لكونه جبلّ على المعاندة لأرباب الكمال في كلّ سلوك، حصلت المنافرة بينه وبين أخيه إبراهيم خان، حتّىٰ قصده عادل شاه للمحاربة في اصفهان.

فلمّا بلغه توجّه أخيه إليه، زمّ[1] عساكره ورحل إلىٰ قزوين، وأطرافها إلىٰ طهران، فوقع القتال بينهما بين البلدين، وظفر إبراهيم بأخيه، وقبضه كصاحب دين، ثمّ جلس في تخت السلطنة كما أراد، فسبحان المبلغ لكلّ مطلب ومراد، واستولىٰ علىٰ جميع الخزائن المالية، والآلات الحربية، والمهمّات الملكية، فاستتبّت أحواله، وكثرت أمواله، ودارت في جميع ممالكه أحكامه وأقواله، وكان ذلك في ...[2] من السنة المذكورة.

---

(١) زمّ زمّاً: ربطه وشدّه، والجمال: خطمها.

(٢) بياض في النسختين.

جلوس الشاه رخ حفيد نادر شاه في السلطنة :

وفي سابع عشر[(١)] شوّال من السنة المذكورة جلس في تخت سلطنة ايران الشاه رخ بن رضا قلي خان بن نادر شاه، من إحدىٰ بنات الشاه حسين الصفوي .

وذلك أنّه بعد أن استقلّ السلطان إبراهيم خان في السلطنة بعد قبضه لأخيه عادل شاه لم تطعه الرعيّة في أغلب البلدان، وأمير عظيم كان في قطر تبريز وتفليس وايروان سمّي أمير أصلان خان .

فاتّفق رأيه ورأي الأمير المذكور وجميع أعيان البلدان وقضاتها ومشايخ الإسلام علىٰ إجلاس السلطان شاه رخ المذكور؛ لأنّه صفوي من جهة الأُمّهات، وأن يكون إبراهيم خان المذكور وزيراً له، والأمير المزبور صارمي عسكر، فطلب من خراسان وأُجلس في تخت السلطنة، فاستقرّت البلدان .

وفاة السيّد أحمد بن السيّد مساعد الحسني :

وفي ثاني عشر ذي الحجّة الحرام ختام السنة المذكورة: توفّي أحد رؤساء السادة الأشراف، وأوحد[(٢)] القادة من آل عبدمناف، مولانا السيّد أحمد بن السيّد مساعد بن الشريف سعد بن الشريف زيد المتقدّم ذكرهما .

وكان هذا الشريف، ذو القدر العالي المنيف، قطب دائرة السادة، وممّن ثنيت له بين ذويه الوسادة، فعظم مقداره، وعلت علىٰ رؤوس الأعلام ناره، فرحمه الله تعالىٰ، وأغدق علىٰ قبره صيب غفران توالىٰ .

---

(١) في «ن»: سابع عشرين .

(٢) في «ن»: وواحد .

وصول أميري الحاج الشامي والمصري :

وفي ختام هذه السنة: وصل الحاجّان الشريفان، ومعهما المحملان المنيفان، وأمير الحاجّ الشامي أسعد باشا، وأمير الحاجّ المصري عمر بيك .

فصل

في حوادث سنة ألف ومائة وثنتين وستّين هجرية

وفاة الشيخ عمر بن المفتي عبدالقادر :

ففي ثامن محرّم الحرام: توفّي المقام الأجلّ الأمجد، والمرام المؤيّد المسدّد الأنجد، عين الأعيان، وفخر الأقران، وغرّة وجه الزمان، الشيخ عمر ابن المرحوم المقدّس المفتي عبدالقادر، المتقدّم ذكرهما الشريف، في أثناء هذه التضاعيف .

وكان ذا أخلاق رضيّة، ومزايا مرضيّة، وهمم عالية، ومكارم متوالية، ظهر ظهور الشمس في رابعة النهار، واستقرّ هلاله في أعلىٰ مراتب الابدار، والحال أنّ أكفّ عمره الشريف لم تقبض الأربعين، وساعد همّته العليّة لم يرض بابن ماء السماء له معين .

برع في اقتناء المعالي حتّى استرقّها، وأجهد نفسه الشريفة في كسب الأثنية المخلّدة وإعطائها حقّها، ولذلك تقدّم عند ملك زمانه، وفاق بذلك بين معاصريه وأقرانه، وله إخوة كالنجوم الثواقب، وأكبرهم سنّاً كالبدر أفاضت به الكواكب، لكونه المستقلّ(١) بمشيخة الإسلام، ببلد الله الحرام .

نجوم سماءٍ كلّما انقضّ كوكبٌ   بدىٰ كوكبٌ تأوي إليه كواكبه

وهذا البيت أشهر بيت بمكّة المعظّمة، وأفخر من تقلّد فيها بعقود المناصب

---

(١) في «ن»: المتقلّد .

الشريف المنظّمة، حتّىٰ شهد له بذلك الخاصّ والعامّ، وقد تقدّم بيانه في هذا السفر، فلا نطيل بذلك الكلام.

وكان له بالفقير عظيم[1] الائتلاف، ومزيد التردّد والاختلاف، فنحلته من المحبّة الأكيدة خالصها، ومن القصائد الطنّانة مخالصها، ومن الخدم العالية أشرفها، ومن العبائر البليغة ألطفها، وكنت به في أعدل مزاج، للطافة ما أصفاني إيّاه من حسن الامتزاج، فحسدني عليه الدهر الخوّان، المفرّق بين الأحبّة والإخوان.

وكنّا كندماني جذيمة حقبةً ... من الدهر حتّىٰ قيل لن يتصرّما

ومن جملة ما صنعه جلباً لخاطر إخوانه، ورغبة في مخالطة أصحابه وخلاّنه، أنّ سبيل السلطان سليمان والسلطان مراد، كائنين في خارج البلاد، عمّرهما عمارة حسنة، وأودعهما من كلّ شيء أفخره وأحسنه، وصنع فيهما ضيافات للأعيان، ومدّ فيهما من الأسمطة الحاوية لأكثر الألوان، ثمّ اختصّ جماعة لجنابه الشريف، يفضي إليهم بأسراره وامتزاجه اللطيف.

ومن جملتهم: أسير وداده، وأخلص محبّيه وعوّاده، فكان لأحدنا كبيته المألوف، وهو يتحبّب إلينا ببذل الكمالات العظيمة وإسداء المعروف، فلازمنا ولازمناه، حتّى اختطفته يد المنية ففارقنا وفارقناه.

وكلّ أخٍ يفارقه أخوه ... لعمر أبيك حتّى الفرقدان

فرحمه الله تعالىٰ، وأنزل علىٰ قبره الشريف رحمات توالىٰ. وكان قد صنع في عمارته هذه أيواناً عظيماً، حوىٰ من اللطافة وحسن الوضع منزلاً جسيماً، قد حفّته الأشجار، وأحدقت به أنواع الأزهار، فالتمس من مخلصه تاريخاً لعام عمارته،

---

(١) في «د»: عزّ.

مع ذكر أوصافه ونزاهته، فقابلت أمره العالي بالطاعة، وجلبت إلىٰ سوق بلاغته هذه البضاعة، وهي :

غنّىٰ علىٰ فنن الغصون هزار ... فتمايلت طرباله الأشجار
والنور يضحك والغمام كعاشقٍ ... يبكي فيسكب دمعه المدرار
والورد يحكي خدّ شادٍ شادنٍ ... خجلٌ تمشّت في مطاه عقار
والروض يشكر للغرام صنايعاً ... شكراً به تترنّم الأطيار
والماء كالمرآة يزهو منظراً ... في بركةٍ قدرانها الفوّار[1]
فاغنم زمانك حيث دهرك باسم ... عن نعمةٍ ما شا بها أكدار[2]
في مجلسٍ ضحك السرور لصحبه ... عن ناجذيه وأشرقت أنوار
قد شاده عين الوجود أخو العُلا ... عمر بن عبدالقادر المعمار
فخر الأنام سراج كلّ ملمّةٍ ... دهما[3] فهو لها ذكاً ونهار
ذو الهمّة العليا بل ذو الفطـ ... ـنة الغرّاء بل هو صارم تبّار
إن قال فهو أبو المحاسن كلّها ... أو طال فهو أبو الندا المغمار
مفتي الأنام أبوه من قد زانه ... علمٌ وفخرٌ ناله[4] ووقار
محيي العلوم إمامها علاّمها ... مصباحها وشجاعها الكرّار
ولّىٰ وخلّف للمكارم فتيةً ... يتناسقون كأنّهم أقمار

---

(١) في «ن»: النوّار.

(٢) في «ن»: الأكدار.

(٣) في «ن»: وهماً.

(٤) في «ن»: تالد.

فاهنأ أبا حفصٍ بما شيّدته أثراً يدوم ونزهةً تختار
لا زلت تجمع فيه كلّ مهذّبٍ ذي همّةٍ عليا إليه يشار
فلقد تجمّعت المحاسن كلّها فيه وحفّت[١] حوله الأزهار
فبغاية[٢] اليمن المخلّد أرّخوا هو نزهة حفّت به الأشجار[٣]

وفاة السيّد يحيى بن الحسن بن غالب الحسني :

وفي عشرين محرّم الحرام المذكور من السنة المذكورة: مات السيّد الشريف، والسند العالي المنيف، السيّد يحيى بن المرحوم السيّد حسن بن غالب بن محمّد ابن مسعود بن حسن بن أبي‌نمي، ابن أخي الشريف أحمد بن غالب، المتقدّم ذكره العالي في السفر الأوّل من هذا التاريخ.

وتوفّي هذا السيّد في مبدأ شبابه، إلاّ أنّه لحق بهمّته العليا شاو آبائه، مفارقاً لأخدانه وأترابه، سافر إلى الديار الروميّة قاصداً سلطان آل عثمان، فأدرك عند وزيره المكرّم علي بن الحكم أرفع مكان، حتّىٰ همّ أن يسنمه ذروة غارب شرافة مكّة المعظّمة، ويقلّده عقود أيالتها المنظّمة، ويحيي بيحيىٰ رسوم شرافة أحمد بن غالب، لكن عاقه القضاء فكان أمره هو الغالب، فرجع إلىٰ مقرّه ووطنه مجهداً نفسه الشريفة في عمارة بيت الملك ومسكنه .

ثمّ رحل رحلة أُخرىٰ إلى الديار اليمنيّة، فحلّ عند إمامها المنصور في أجلّ المراتب السنيّة، فأقام عنده أحسن إقامة، ثمّ عاد إلىٰ مكّة المشرّفة وهو في أحسن

---

(١) في «ن»: وصفّت .

(٢) في «د»: فبتايد .

(٣) وهو سنة (١١٦٢) .

استقامة .

ثمّ بعد مدّة رجع إلى الديار اليمنيّة، وفي عوده منها ووصوله إلىٰ أهله اختطفته يد المنية، كلّ ذلك وما أُخاله بلغ الأربعين، ولا اجتاحت همّته العليّة إلىٰ معين، فرحمه الله رحمة الأبرار، وحشره في زمرة آبائه الأطهار، وأعقب ولدين: محمّداً، وزين العابدين، وفّقهما الله تعالىٰ لخيري الدنيا والدين .

وفاة السيّد أحمد بن يحيى الأزهري :

(وفي هذه السنة: توفّي إلىٰ رحمة الله تعالىٰ بالطائف، السيّد الجليل، والأيّد الأصيل، ذو الهمّة العليّة، والآراء السامية الجليّة، السيّد أحمد بن السيّد يحيى الأزهري، الذي جاور في الطائف أعواماً، وهو ينشر للمفاخر بين أبناء جنسه أعلاماً، مع أخلاق حسنة، وسيرة مستحسنة، فلمّا أراد الله خلوصه من أيدي الناس، توفّاه وجاور به حبر الأمّة عبدالله بن العبّاس، ولم يعقب من الذكور إلاّ ولداً اسمه يحيىٰ، نرجو أن يعيش به اسم والده ويحيىٰ)[١] .

إثارة العساكر اليمنيّة علىٰ وزير شريف مكّة بالقنفذة :

وفي هذه السنة: ثارت العساكر اليمنيّة خدّام شريف مكّة البهيّة علىٰ وزيره بالقنفذة، وهو الشهاب أحمد بن عبدالرحيم الكبايتي، طالبين علائفهم المنكرة[٢]، وربطوه وأهانوه، بل ربما حصل له منهم جرح في إحدىٰ[٣] أعضائه، وأخذوا منه جميع حقوقهم، وكان كبيرهم الشيخ حسين المعمّري، ونادىٰ في البلاد أنّ كلّ من

---

(١) ما بين الهلالتين من نسخة «ن» فقط .

(٢) في «ن»: المنكسرة .

(٣) في «ن»: أحد .

كان له على العسكر شيء فليصل ويأخذ حقّه، وأخذ علىٰ ذلك حجّة من قاضي القنفذة .

ثمّ ركب هو وجماعته، وتوجّه إلى اليمن، فلمّا بلغ حضرة مولانا الشريف المذكور ذلك، جهّز عساكر آخرين وسلحدارة وبعثهم[1] خلفهم، بعد أن أرسل كتباً وأشرافاً على البرّ إلىٰ أُمراء حضرة الإمام العبّاس بن الحسين بن القاسم المتولّي للإمامة في السنة المذكورة، بأنّهم يحفظوا لهم الطرق، ويقعدوا لهم في المراصد، فسبقوهم على اليمن، والعساكر الآخرون لحقوهم بعد دخولهم إلى اللحية، وقد صاروا في ممالك حضرة الإمام .

فامتنع حاكمها من التمكين منهم إلاّ بعد تعريف الإمام؛ لأنّهم الآن صاروا ضيوفه، فأرسلوا جميعاً يعرّفون حضرة الإمام بهذه القضيّة، وطلع العمري بنفسه وحجّته بيده، بأنّه لم يأخذ غير العلوفة فقط .

وطلع السلحدار بحجّة أُخرىٰ، مضمونها: إنّ الحجّة الأُولىٰ لا أصل لها، وإنّ العساكر أخذوها بالجبر من القاضي، وإنّ الذي أخذوه من حضرة الوزير أكثر من ذلك، وأفسدوا في البلاد .

فلمّا تأمّل حضرة الإمام الحجّتين، وميّز بين المحجّتين، برز أمره العالي حسبما ظهر له أن يأمر العساكر[2] بتسليم ما أخذوه من مال الشريف، وقدره ألفان ومائتا ريال، فكتب إلىٰ حضرة الشريف بأن لولا قيام القبائل من جميع أطراف اليمن،

---

(١) في «ن»: وتبعهم .

(٢) في «د»: العسكر .

وإلاّ كنّا[١] أرسلنا إليك بهم، لكن نخشىٰ قيام فتنة يحصل بها مزيد التعب، وإذا همدت القبائل أرسلناهم إليك .

عزل السيّد مبارك بن عبدالمعين الهجاري أمير ينبع :

وفي هذه السنة: عزل حضرة الشريف دام بقاه أمير بندر ينبع السيّد الشريف مبارك بن عبدالمعين الهجاري، الذي أقامه سابقاً بعد وفاة أبيه، فصدر منه بعض الأُمور التي أوجبت عزله، وأبعدت منزله، ووضع في المنصب بدله عمّه السيّد الشريف السيّد هزاع بن مبارك الهجاري .

فخرج السيّد مبارك ونزل ديار جهينة، واستألف قبائلها وحالفهم، ثمّ حارب العساكر الذي في بندر ينبع، وحاصرهم حصاراً شديداً، ثمّ ارتفع عنهم .

ثمّ لمّا أقبل الحاجّ المصري، خرج السيّد هزاع وعساكر الشريف وبعض أشراف من آل أبي‌نمي، وبعض مراجل بعثها الشريف إلى السيّد هزاع لإعانته، فحصل بين الفريقين قتال ومن الحاجّ الشريف، وهما في أثناء هذا المجال .

ثمّ قعد له في عوده مرّة أُخرىٰ، وقطع عليه الطريق المعتادة، فأخذ طريقاً ثانية جبراً وقهراً، ثمّ ارتفع إلىٰ ينبع النخل، وأخذ بعض السفائن الذاهبة إلى القصير، ووجد فيها أموالاً كثيرة، ولم يزل علىٰ هذه الحال، والله أعلم كيف يكون المآل .

إرسال هديّة جميلة من شريف مكّة إلىٰ إمام اليمن :

وفي هذه السنة: بعث حضرة الشريف هديّة جميلة، ومعها جارية فرجيّة قد وضعها في تخت، وجعل له ثوباً من ثوب مقام إبراهيم الخليل عليه السلام، إلىٰ حضرة إمام اليمن المتولّي في ذلك العام، وهو العبّاس بن الحسين بن القاسم الملقّب

---

(١) في «ن»: لكنّا .

بـ«المهدي» وأصحبها حضرة السيّد الشريف، والهمام الغطريف، مولانا السيّد باز ابن المرحوم السيّد شبير بن مبارك بن فضل، وفي الهديّة خيل جياد، وتحف لا تهدىٰ إلاّ إلىٰ مثله من الأمجاد.

وكان توجّههم من جدّة بحراً إلىٰ بندر اللحية، ثمّ توجّهوا إلىٰ صنعاء مقرّ حضرة الإمام برّاً، فمنحهم فضلاً وإحساناً وعزّةً وبرّاً.

ضيافة الشيخ علي بن عبدالقادر لشريف مكّة:

وفي جمادي الثانية من السنة المذكورة: كانت قبلة حضرة الشريف صاحب الترجمة، لا زالت دولته العليّة بالإقبال منتظمة، عند حضرة مفتي مكّة المشرّفة، والمتحلّي بعقد الرئاسة العلميّة المنظّمة، مولانا الشيخ علي ابن العالم العلاّمة المفتي عبدالقادر مفتي مكّة المشرّفة سابقاً ابن شيخ الحرم الشريف أبي بكر أفندي، أدام الله إقباله، وأبّد إجلاله، وذلك في داره الجديدة التي عمّرها بأعالي مكّة المشرّفة.

وذلك بعد أن تمّت عمارته، طلب حضرة الشريف من حضرة المفتي المذكور أن يصنع له طعاماً، ويهيّأ مواضع متعدّدة له ولخواصّه، ففعل واستعدّ استعداداً لا يصدر إلاّ عن مثل حضرته من أنواع الفرش والآلات والطعام النفيسة، وطلب حضرة الشريف دام علاه في هذا الموضع، مناجق مصر المقيمين بمكّة المشرّفة تحت نظر العالي الذي قد تقدّم ذكرهم، وكان يوماً مشهوداً.

وهذا لم يصر لأحد من شيوخ الإسلام بمكّة المشرّفة، ولم نسمع به، وربما حصل سابقاً التماس منهم لشريف مكّة ولم يصر، فكيف وهذا يطلب منه، فهو يدلّ علىٰ كمال المحبّة والإخلاص، وعلوّ مقامه ومرتبته، حتّىٰ عدّ عنده من أخصّ الخواصّ.

وقد أرّخ هذا التشريف من حضرة الشريف جماعة من شعراء الوقت، (ولخادم

محبّه مؤلّف هذا التاريخ، ما نصّه وقاله :

لك السعادة يا ذا الفخر والنسب | والجود والمجد والافضال والحسب
زفّت رئاسة هذا الوقت خاضعةً | إليك في العلم فاصعد أشرف الرتب
فأنت مأوى الورىٰ في كلّ معضلةٍ | وهماً تحطّ في أثوابها القشب
وأنت مغنى الملا في كلّ حادثةٍ | عنها وفي فكر ذي كدٍّ وذي طلب
خدن العلوم ومحييها وفارسها | وقطبها حيثما دارت رحى الكتب
تجمّعت فيك أوصافٌ عرفت بها | ورثتها عن أبٍ للفخر منتدب
مفتي مكّة قاضيها محدّثها | إمامها المرتضىٰ في الشرع والأدب
ربّ الفضائل عبدالقادر بن أبي | بكرٍ أخي الجود والاحسان والقرب
فطل وقل فيه وانشد قول مفتخرٍ | بمجد والده في سالف الحقب
هذا أبي حين يدعىٰ سيّدٌ لأبٍ | هيهات ما للورىٰ يا دهر مثل أب
فاشكر أباحسنٍ مولاك ملتمساً | منه دوام الذي أولاك من نحب
فاغنم زمان العلا والعزّ مقتطفاً | زهر الهنا من رياض الإنس واقتضب
واهناً بدار سرورٍ أنت واضعها | قد زخرفتها يد الأقدار بالذهب
حوت من الطرف أيواناً علا شرفاً | بالعلم والفضل والتفريج للكرب
وزاد فخراً بسلطانٍ سمىٰ نسباً | إذا زار صاحبه في موكبٍ نجب
شريف مكّة مسعود الذي نطقت | بمدحه ألسن الأقلام والخطب
وساد كلّ ملوك الأرض قاطبةً | بخدمة الحرم السامي ذرى الركب
ففاق أيواننا العالي بشائده | علىٰ مباني الورىٰ طرّاً بلا تعب
لذا غدا طائر الإقبال ينشدنا | تاريخه ضمن بيتٍ محكم الحسب

أيــوان عــزّزها حســناً مـصاحبه عين الوجود علي القدر والنسب)[١]

استقلال شاه رخ في سلطنة ايران :

وفي أثناء هذه السنة: جاءت الأخبار باضطراب أقطار بـلدان العـجم عـلىٰ سلطانها السلطان إبراهيم خان المتقدّم ذكره .

وقام أمير عظيم الشأن في قطر آذربيجان يسمّىٰ أمير أصلان خان، وقد كان في ذلك القطر من أيّام سلطنة نادرشاه المذبوح بيد عساكره ذبح الشاة، غـير أنّ الأمير المذكور لم يدّع سلطنة، ولا سكّ سكّة باسمه المشهور، إنّما كان يسكّ السكّة باسم الإمام علي الرضا عليه التحية والرضا، ولا أطاع إبراهيم خان، بـل أظـهر العصيان في تلك البلدان، قائلاً بأنّك أنت وأخوك الذي أسرته لستما أهلاً للسلطنة .

ودليل ذلك أنّك رجعت عليه بعد ما نصرته، فالأولىٰ أن تنزل عن السلطنة لمن بها أحقّ إذا حصحص الحقّ، وهو شاه رخ بن رضا قلي خان بن نادر شـاه مـن احدىٰ بنات الشاه حسين الصفوي، فهو صفوي من جهة الأُمّهات، وتجمّع عـليه الرعيّة من جميع الجهات، فأطاع السلطان إبراهيم شاه عـلىٰ مـا أشـار بـه ذلك الأمير، ورآه عين الرأي والتدبير .

فبعث وجمع جميع الأعيان من البلدان من قطر ايران مـن القـضاة ومشـايخ الإسلام والأُمراء والولاة والحكّام، وطلب شاه رخ من قطر خراسان، وجـعلوها خلافة بيعة وإجماع، فاستقرّت له السلطنة علىٰ أكـمل الأوضـاع[٢]، وأطـاعته الرعيّة في جميع البلدان، وكسرت عصا المخالفة والعصيان، وصار إبراهيم خان

---

(١) ما بين الهلالتين من نسخة «ن» فقط .

(٢) في «ن»: نظام .

وزيره الأعظم، ومشيره الأفخم.

وكان جلوسه في سابع عشرين شهر شوّال من سنة (١١٦١) كما تقدّم بيانه في حوادث السنة المذكورة.

ثمّ بعد أن استقرّت الأحوال، وتجمّعت لدىٰ شاه رخ ووزيره إبراهيم خان العساكر والرجال، طلب أمير أصلان خان حضرة الشاه، فامتنع عن الحضور خوفاً من القبض عليه، فسار عليه إبراهيم خان بالعساكر السلطانيّة، وقاتله في أطراف آذربيجان، وتغلّب عليه فقتله، واستقلّ استقلالاً تامّاً في خدمة ابن عمّه شاه رخ.

ثمّ رمى الله بينهما سهم العداوة والبغضاء ...[١] ورجع في دعوى السلطنة في تبريز، فجهّز عليه الشاه رخ أعظم أُمرائه الأعيان ...[٢] مع عساكر القزلباش، فتوجّهوا إليه، وقاتلوه في مملكته وكسروه ...[٣].

وكان أغلبهم الأفاغنة والأُزبك، وأخذوهم أخذاً شنيعاً، وقبضوه وأتوا به إلى الشاه رخ، فقلع عينيه ثمّ قتله.

واستقرّت تلك الأقطار[٤]، وارتخت الأسعار، وحسن حال الرعايا، وشموا منه روائح الدولة الصفويّة؛ لأنّه أمر يرد جميع ما كانوا عليه من الأوضاع الحسنة، والأُمور المستحسنة، وكان وصول الأخبار بهذا الاستقرار في أواخر هذه السنة المباركة التي هي سنة (١١٦٢) ثنتين وستّين ومائة وألف.

---

(١) بياض في النسختين.

(٢) بياض في النسختين.

(٣) بياض في النسختين.

(٤) في «ن»: واستقرّت مملكته.

وفاة الشيخ عبدالكريم الأنصاري المدني :

(وفي ذي الحجّة الحرام من السنة المذكورة: توفّي بمكّة المشرّفة المقام الأجلّ، والمرام المبجّل، العالم العامل، الفاضل الكامل، الشيخ عبدالكريم الأنصاري المدني، المجاور بمكّة المشرّفة. وأعقب من الذكور رجالاً نجباء، وفحولاً أُدباء، قد ظهرت شموس معارفهم بين الأعيان، وشوهدت هممهم العليّة بالعيان، وهم أربعة، قدرهم علي، وفضلهم جلي: الشيخ يوسف، والشيخ أبوالبركات، والشيخ عبدالرحمٰن، والشيخ علي)[١] .

وفاة السيّد أحمد بن يحيى الأزهري المدني :

و(في أواخر هذه السنة: توفّي إلىٰ رحمة الله تعالىٰ بالطائف السيّد الجليل، والأيّد الأصيل، ذو الهمّة العليّة، والأوّاه السامية الجليّة، السيّد أحمد بن السيّد يحيى الأزهري المدني، جاور في الطائف أعواماً، وهو ينشر للمفاخر بين أبناء جنسه أعلاماً، مع أخلاق حسنة، وسيرة مستحسنة، فلمّا أراد الله خلوصه من أيدي الناس، توفّاه وجاور حبر الأُمّة عبدالله بن العبّاس، ولم يعقب من الذكور إلاّ ولداً اسمه يحيىٰ، نرجو أن يعيش به اسم والده ويحييٰ .

إلىٰ هنا انتهى الكتاب .

وقال في آخر السفر الأوّل من نسخة «د»: تمّ وكمل بحمد الله وعونه، في يوم الخميس المبارك سابع عشرين ذيالقعدة الحرام سنة (١٢٠٠) ختمت بخير، بقلم محسن الظنّ بعالم الغيب، عبده مسعود بن عبدالمحسن بن علي ما خريب، غفر الله له ولوالده، وصلّى الله علىٰ سيّدنا محمّد وعلىٰ آله وصحبه وسلّم دائماً، آمين .

---

(١) ما بين الهلالتين من نسخة «ن» فقط .

وقال في آخر السفر الثاني من نسخة «د»: إلىٰ هنا انتهىٰ ما وجد من التاريخ المذكور، فإنّ صاحبه رحمه الله في أوائل سنة (١١٦٣) صار من أصحاب القبور، ونسأل الله حسن الختام، والموت على الإسلام، آمين .

وقال في آخر نسخة «ن»: فإلىٰ هنا وقف المؤرّخ رحمه الله تعالىٰ .

ثمّ لمّا اطّلع علىٰ ما في هذا التاريخ من الألفاظ العجيبة، والوقائع الغريبة، وما حوىٰ من أخبار ملوك مكّة المعظّمة، المتحلّين بشرافتها المنظّمة، من أجداده الأشراف الكرام، الحامين لحمى البيت الحرام، بادر إلىٰ تجديده ونقله، إذ كلّ فرع يرجع إلىٰ أصله، وذلك لكمال أدبه، وعلوّ قدره ورتبه، مولانا الشريف عبدالله باشا، بلّغه الله من الخير ما شاء، نجل مولانا وسيّدنا فخر الأشراف الكرام، حامي حمى البيت الحرام، ملك مكّة المشرّفة، والمتحلّي بشرافتها المفوّقة، الراجي من ربّه التوفيق والعون، مولانا الشريف محمّد بن عبدالمعين بن عون، لا زال نازلاً برحابهم، والبشائر واقفة علىٰ بابهم، والملك فيهم مؤبّد، والعزّ لهم مسرمد، نائلين غاية الآمال، موفّقين لصالح الأعمال، آمين .

وكان التمام من تحريره في (٢٥) رمضان المبارك سنة (١٢٦٤) .

وتمّ استنساخ هذا الكتاب القيّم تصحيحاً وتحقيقاً وتعليقاً عليه في اليوم الثاني من شهر ذي‌الحجّة الحرام سنة (١٤٣٠) هـ‌ق، علىٰ يد العبد الفقير السيّد مهدي الرجائي عفي عنه، في بلدة قم المقدّسة حرم أهل البيت وعشّ آل محمّد عليهم السلام وعاصمة الثقافة الإسلاميّة .

الشهب المكّية
علىٰ من تعرّض للسادة الحسينية

للعالم الفاضل

السيّد محضار بن عبدالله بن محمّد السقّاف

تحقيق

السيد مهدي الرجائي


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

ترجمة المؤلّف

بسم الله الرحمٰن الرحيم

لم أعثر في هذه العجالة علىٰ ترجمة مبسوطة عن حياة المؤلّف، إلاّ ما ذكره صاحب شمس الظهيرة.

قال السيّد الشريف عبدالرحمٰن بن محمّد بن حسين المشهور في كتابه القيّم شمس الظهيرة في نسب أهل البيت من بني علوي: ومنهم آل السقّاف بمكّة والقنفذة والدائل آل عيدروس بن أحمد.

ومنهم: السيّد محبّ العلماء محمّد بن محمّد السقّاف المتوفىٰ بمكّة سنة (١٢٨٣) هـ.

ومنهم: ابن أخيه محضار بن عبدالله بن محمّد، وهو شيخ السادة الآن سنة (١٣٠٧) هـ بمكّة.

وجاء في الصفحة الأُولىٰ من النسخة المخطوطة: الشهب المكّيّة علىٰ من تعرّض للسادة الحسينيّة، تأليف العالم الفاضل، والسيّد الهمام الكامل الخ.

أقول: ويستفاد من مجموع ذلك أنّ المؤلّف كان من أفاضل وأعيان عصره، وألّف هذه الرسالة دفاعاً عن ولاية الأمير عبدالله باشا في بلدة ظفار.

وهما من السادة الحسينيين آل باعلوي التي تنتهي نسبهم الشريف إلىٰ علي العريضي ابن الإمام جعفر الصادق عليه السلام.

وقد كتبت ترجمة مختصرة عن حياة الأمير عبدالله باشا في الهامش عند تعرّض المؤلّف لاسمه السامي الشريف، كما سيأتي.

وقابلت هذه الرسالة على نسخة فريدة، أصلها محفوظة في خزانة مكتبة جامعة الرياض في المملكة العربية السعودية، برقم: ١٧٥٧.

والحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على محمّد وآله الطاهرين.

محرّم الحرام ـ سنة ١٤٣١ هـ

السيّد مهدي الرجائي



بسم الله الرحمٰن الرحيم

وصلّى الله علىٰ سيّدنا محمّد وآله وصحبه وسلّم.

نحمدك اللّهمّ يا من جعل البضعة النبويّة، شموس الأُمّة المحمّديّة، وخصّ الشرف والسيادة بفروع الزهراء البتول الطاهرة النقيّة.

ونشكرك علىٰ أن أطلعتهم بدوراً في أفلاك السعادة الأبديّة، وأبرزتهم كواكب الوجود، فكان بهم الإهتدىٰ في الكلّيّة والجزئيّة.

ونصلّي ونسلّم علىٰ سيّدنا محمّد المكّي التهامي المختار، القائل في حديثه: «واختارني من بني هاشم، فأنا خيار من خيار»[1] وعلىٰ آله المختصّين بالكساء[2] والمباهلة[3]، وذرّيته وأهل بيته أُولي الفضائل والمفاضلة، وأصحابه

---

(١) راجع: الإشراف في فضل الأشراف للسمهودي ص ٧٠ ـ ٧١.

(٢) وهي حديث الكساء، حيث جمع الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله أهل بيته علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام تحت الكساء في بيت أُمّ سلمة، ثمّ تلا آية التطهير، رواه جمع غفير من الفريقين في معاجمهم الحديثية.

(٣) وهي آية المباهلة قوله تعالىٰ ﴿فمن حاجّك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثمّ نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين﴾ وذلك حيث أراد الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله أن يباهل أهل نجران، ⇩

الذين أقاموا الحجّة، وأظهروا لمزيد الحقّ المحجّة .

أمّا بعد: فيقول فقير ربّه ذي الإسعاف **محضار بن عبدالله بن السيّد محمّد السقّاف:** لمّا اطّلعت علىٰ نسخة من العصر الجديد، نمره تاريخ (١٥ ـ ذيالحجّة ـ عام ١٢٩٧) ورأيت عبارة تحت عنوان «الحجاز غريبة» ونادرة عجيبة، حيث إنّها تلوّنت بلونين، وجمعت بين ضدّين، وهما الضعف والقوّة، فهي ضعيفة من حيث الاسناد والاثبات، وقويّة من جهة عظم ما احتوت عليه من القبائح والسيئات، قد مزج فيها مبتدعها حديث الإفك الصريح، وحسىٰ كأس اسنادها المعنعن بالمعضل والجريح .

حملني ذلك علىٰ إظهار فجر صدق المقال، وإشراق نور الحقّ المثلال، في مقالة مختصرة، وسمّيتها **الشهب المكّية علىٰ من تعرّض للسادة الحسينيّة**، وأسأل الله التوفيق، إلىٰ أقوم طريق، وهاك سرد عبارة العصر الجديد، لتعلم جوابها بالتحديد، ونصّها :

ورد في مطالعة أنّ حضرة الشيخ فضل أو السيّد فضل باشا نزيل الآستانة، الذي نال رتبة الوزارة من إحسان، الجناب السلطان، من مدّة وجيزة، بعث بكتاب يرجو فيه شيخ سادة الحضارم بمكّة المكرّمة، أن يرفعوا عرض محضر للحضرة السلطانيّة، متضمّناً شكرهم لعظمتها، ولهمم رجالها الكرام، علىٰ توجيه رتبة الوزارة إليه .

ويقال: إنّ القصد في ذلك إنّما هو إيهام أهل دار الخلافة بأنّ له حزباً كبيراً،

فخرج إلى المباهلة ومعه علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، وروىٰ ذلك جمع كثير من الفريقين في معاجمهم التفسيرية والحديثية .

وعشائر وأنصاراً، كالأشراف بمكّة، ليتوصّل إلىٰ طلب إمارة الحجاز بناءً علىٰ ما تقدّم، وعلىٰ أنّه صار حسينيّاً، ومن رجال الدولة الكرام.

ولكن ليس بخافي أنّ السادة الحضارم هم أغراب مجاورون بأرض مكّة، وعددهم جميعاً لا يبلغ «٢٠٠» نفس، ولا تعترف لهم أهل الحجاز بالنسب؛ إذ لا يعترفون بذلك إلاّ للأشراف الذين بين أظهرهم من عهد النبيﷺ، ولم يخرجوا من أرض مكّة وسناجقها.

ولا شكّ في أنّه إذا تولّىٰ فضل باشا الامارة، فلا تستمرّ جزيرة العرب على السكينة، وتكثر المشاكل على الحكومة، فإنّ العربان لا يهابون الأمير إلاّ إذا كان من الأشراف المعروفين بكثرة العشيرة. إنتهىٰ ملخّصاً بالحرف.

فأقول: إنّ حضرة مولانا الهمام، والعلم الإمام، السيّد فضل علوي باشا[1]، بلغه الله

---

(١) هو السيّد فضل باشا بن علوي بن محمّد بن سهل بن محمّد بن أحمد بن سليمان بن عمر بن محمّد بن سهل بن عبدالرحمٰن الباعلوي أمير ظفار.

قال في الشمس الظهيرة (١: ٣٠٨): ومنهم الآن سنة (١٣٠٧) السيّد فضل بن علوي بن سهل، شريفاً فاضلاً، وكان والده من كبار الصالحين الخ.

وقال في الهامش: والسيّد فضل باشا ولد في ملابر بالهند، وقيل: في حضرموت، نشأ تحت رعاية والده، وتلقّىٰ عن علماء، تولّىٰ امارة ظفار في شعبان سنة (١٢٩٢) بدعوة من أهلها، وتأييد الدولة العثمانية في استانبول، ثمّ انفصل عنها بدسائس خفية سنة (١٢٩٦) هـ وأقام في استانبول، وكان له مقام عظيم في عهد السلطان عبدالحميد، وتوفّي عام (١٣١٨) هـ الخ.

أقول: وذكرت تفصيل نسبه الشريف في المجلّد الثاني من كتابي المعقبون من آل أبي طالب، فراجع.

من الخيرات ما شاء وما يشاء من أشراف السادة الحسينيين، العلويين نسباً، وأكرمهم حسباً، وله مدّة مديدة، وأشهر عديدة، نزيل عند الحضرة السلطانيّة، والذات الشاهانيّة، أدامها ربّ البريّة، لا قصد له إلاّ استعطاف مكارم الدولة العليّة، لإصلاح بلاد ظفار(١) مأوى سلفه، ونشر ألوية الدولة العثمانيّة بها له ولخلفه، حيث إنّها مستعدّة للعمارة، ومشتملة علىٰ منابع الثروة والتجارة.

فلمّا رأت الحضرة السلطانيّة أنّ تفويض إدارة ذلك المحلّ يستلزم تقليده رتبة الوزارة السنيّة، تطبيقاً للقوانين الدولية المرعيّة، أنعمت عليه بهذه الرتبة العليّة، بعد تحقّقها واطّلاعها علىٰ ما رأته فيه من كمال الاستحقاق، ومزيد الفضل الشايع في الآفاق.

فتلقّاها المشار إليه بالقبول، لإشعارها بين الدول بالالتفات الموصل للمأمول، ولا شكّ في إصابتها بما فعلت، ونجحها لما قصدت.

وما أحسن الأشياء يوماً إذا أتت إلىٰ أهلها من أهلها في محلّها

وهو أوّل حسيني علوي نال هذا المقام، ووصل إليه بمزيد العزّ والاحترام، في أيسر زمان، بكرم المولى المنّان.

فقول المبتدع «في مدّة وجيزة» الخ. حسد وبهتان، وهو لا يؤثر قبحاً في وجوه الحسان، كما قيل:

---

(١) هي مدينة باليمن في موضعين: إحداهما قرب صنعاء، وهي التي ينسب إليها الجزع الظفاري، وبها مسكن ملوك حمير، وقد قال بعضهم: إنّ ظفار هي صنعاء نفسها، ولعلّ هذا كان قديماً، فأمّا ظفار المشهورة اليوم، فليست إلاّ مدينة علىٰ ساحل بحر الهند، بينها وبين مرباط خمسة فراسخ. معجم البلدان.

حسدوا الفتىٰ إذ لم ينالوا فضله　　　فـالكلّ أعـداءٌ له وخـصوم
كضرائر الحسنا قـلن لوجـهها　　　حسـداً وبـغضاً أنّـه لذمـيم

وقول المبتدع «إنّ السادة الحضارم أغراب مجاورون بمكّة» هذا قول جهول حاسد، ومبغض معاند، يستحقّ عليه الطرد والحرمان، والوبال والخسران، وغضب الملك المنّان؛ لأنّه بما ادّعاه كاذب مغرور، وليس له اطّلاع علىٰ ما هـو حـوته التواريخ والسطور، فإنّ خروج الحسينيين كغيرهم من مكّة إنّما كان لتسلّط يزيد والحجّاج والقرمطي وبني أُمية، فخافوا علىٰ دينهم القوي، وتحصّنوا بالحصون القويّة، ولكن مرد الفصل لأصله، والرمح لا يزهو إلاّ بنصله، كما قيل :

فإنّ المـاء مـاء أبـي وجـدّي　　　وبئري ذو حفرت وذو طويت

وقال الشاعر :

نعرف البطحاء وتـعرفنا　　　والصـفا والبـيت يألفـنا
ولنا المعلّىٰ وخيف منىٰ　　　فاعلمن هذا وكن وكـن
ولنـا خـير الأنـام أبٌ　　　وعلي المرتضىٰ حسب
وإلى السـبطين نـنتسب　　　نسباً ما فيه مـن وهـن

وقال الشاعر :

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا　　　أنـيسٌ ولم يسـمر بـمكّة سـامر
بـلىٰ نـحن كـنّا أهـلها فأبـادنا　　　صروف الليالي والدهـور العـواثر

وفي خروجه ﷺ من مكّة إلى المدينة المشرّفة أعظم سرّ وأُسوة لمن عـرفه، وهو صاحب الرسالة والوسيلة، وصاحب ذيل الكمال والجلال والفضيلة، كما قيل:

وكم بدت الأوطان يوماً بأهـلها　　　فأورثـهم عـزّ الحـياة التـغرّب
وهـذا رسـول الله فـارق مكّـة　　　علىٰ جفوةٍ لم ترضها فيه يثرب

فالحسنيون والحسينيون إذا خرجوا عن الأوطان، وحفظوا أنسابهم بكمال الاتقان، بالشواهد والأدلّة والبرهان، لا يكون سبباً في حرمان ميراث الأماكن والبلدان، ولو تقادم الزمان، والدعوة والنسبة للأب، كما نصّ عليه في كلام الملك الربّ[(١)].

وقول المبتدع «وعددهم جميعاً لا يبلغ» الخ، ممّا يفيد القلّة، فهو باطل حسّاً ومعنىً.

أمّا بطلانه حسّاً، فلأنّهم بحمد الله تعالىٰ العدد المتكاثر، والخير العظيم الوافر، فمجتمعهم يبلغ مائتي ألف أو يزيدون[(٢)]، وفيهم الذاهب والآيب لحجّ بيت الله الحرام، مستوطنون ومترحّلون[(٣)].

وقد دعا جدّهم الأعظم، والرسول الكريم المعظّم، صلّى الله عليه وعلىٰ آله وأهل بيته وذرّيته وعترته وسلّم، لسيّدنا علي عليه السلام والزهراء عليها السلام في بعض مقاله بقوله: بارك عليكما، وأخرج منكما كثيراً طيبا. حتّىٰ قال سيّدنا أنس: فوالله لقد أخرج منهما الكثير الطيّب[(٤)].

---

(١) في قوله تعالىٰ ﴿أُدعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله﴾ الأحزاب: ٥.

(٢) وقد ألّف جمع من النسّابين أنسابهم المطهّرة في كتاب مستقلّ، كالعلاّمة السيّد عبدالرحمٰن السقّاف في كتابه شمس الظهيرة في أنساب خير البريّة، وغيره، وجمعت أنا نبذة يسيرة من أنسابهم في عدّة صفحات في كتابي المعقبون من آل أبي طالب، فراجع.

(٣) وقد ذكر العلاّمة السيّد رضي‌الدين العاملي جمع منهم ممّن سكن في مكّة المكرّمة والمدينة المنوّرة في كتابه تنضيد العقود السنيّة، فراجع.

(٤) رواه السمهودي في كتاب الإشراف علىٰ فضل الأشراف ص ١٧٨، ومحبّ

وأمّا معنىً، فلقول الحماسي :

تـعيّرنا أنّـا قـليلٌ عـديدنا   فقلت لها إنّ الكـرام قـليل
وما ضرّنا أنّا قليلٌ وجارنا   عزيزٌ وجار الأكثرين ذليل

وقول المبتدع «لا تعترف لهم أهل الحجاز بالنسب» الخ. هذا قول من لم يميّز بين الكفر والاسلام، ولم يعرف الفرق بين الإنعام والأنعام، فهو ممّن يكذّبه الظاهر؛ إذ يشهد بالاعتراف لهم البادي والحاضر، فإنّ اتّصال نسب السادة العلويّة الحسينيّة بصاحب الرسالة صلى الله عليه وآله[1] أمر ثبت بالتواتر والاجماع، وقد تحرّر في الرقاع، وملأ الأسماع والبقاع، بغاية الحفظ والتوقّي، والدقّة والتلقّي، خلفاً عن سلف، بالنقل والبرهان، ممّا لا يختلف فيه اثنان، ولا ينتطح فيه كبشان، ومن رأىٰ بعض المؤلّفات في أنسابهم حصل له كمال الاقناع بلا بهتان، فلا يقدح فيهم الغلط الواضح، والخطأ الفاضح، كما قيل :

ومن يقل للمسك أين الشذا   كذّبه في الحال من شمّه

وقال الآخر :

وهبني قلت إنّ الصبح ليل   أيعمى العالمون عن الضياء

وقال الآخر :

إذا لم يكن للمرء عينٌ صحيحةٌ   فلا شكّ أن يرتاب والصبح مسفر

فإن أثبت شخص نسبه شرعاً بشاهدين، فقد أثبت الحسينيّة العلويّة عند قدومهم لحضرموت نسبهم بمئين، كما صرّح بذلك بعض المؤرّخين، قال تعالىٰ:

ـه الطبري في ذخائر العقبىٰ ص ٣٣، وراجع: إحقاق الحقّ ١٠: ٤٠٥ ـ ٤١٥.

(١) ينتهي نسبهم الشريف إلىٰ علي العريضي ابن الإمام جعفر الصادق عليه السلام .

﴿هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾[١] وقال الشاعر:

وإذا لم تر الهلال فسلّم   لاناسٍ رأوه بالأبصار

كيف وقد اعتنىٰ بالسادة العلويّة أُمراء مكّة الفخام، والسلاطين العظام، حتّىٰ ميّزوا القاطنين منهم بمكّة والمدينة بأوامر وفرمانات مخصوصة، حثّت فيها وزراؤها وقضاتها بعبارات منصوصة[٢]، علىٰ إعطاء حرمتهم، والقيام بمحبّتهم، مع التحرّي في أنسابهم، وحفظ شرفهم وأحسابهم، بغاية العزّ والاحترام، والفضل والاكرام.

ورأينا العلماء والفضلاء من أهل الحجاز، يتوسّلون بهم في المهمّات، ويهرعون إليهم في السنين الممحلات، وعند حدوث المصائب المدلهمّات، ويحثّون العامّة علىٰ حبّ البضعة النبويّة في مؤلّفاتهم وخطبهم العظيمات، فصار لهم فيه التمييز التامّ، والتقدّم الذي يشهد به الخاصّ والعامّ، كما قال الشاعر:

ولا عيب فينا غير أنّ أُصولنا   لها سببٌ بالمرسلين وثيق
وانّ ظلام الجهل يمحىٰ بذكرنا   وانّا بكلّ المكرمات حقيق

وقد تكلّم جمع من المؤلّفين علىٰ صحّة نسبتهم وتحقيقها، كاليافعي، والخزرجي، والعواجي، والشرجي، وابن حجر، وغيرهم، في مؤلّفاتهم وتواريخهم، حتّى أنّ الحبيب أبابكر بن عبدالله العيدروس[٣] له قصيدة طويلة في

---

(١) سورة الزمر: ٩.

(٢) عندي صورة بعض فرامينهم في مجموعة من الوثائق التي يرتبط بالمدينة المنوّرة.

(٣) راجع: النور السافر عن أخبار القرن العاشر ص ١٢٤.

ذلك، حقّق فيها المقال، وعدّد فيها أهل الفضل والكمال.

ويكفي في المعرفة ما ذكره المؤرّخون من أنّ جدّ الحسينيين سيّدنا زين العابدين عليه السلام لمّا قصد المطاف وهو بغاية الازدحام، وأراد استلام الحجر الأسود، تنحّىٰ له الناس هيبة وحرمة ورعاية ومعرفة حتّى استلمه، وهشام بن عبدالملك قد نصبوا له منبراً ينتظر خفّة الزحام وهو ابن الخليفة، فسأله عنه أهل الشام، فقال: لا أعرفه، مخافة أن يرغبوا فيه، وكان الفرزدق حاضراً، فقال: أنا أعرفه، فقال له الشامي: من هو؟ فأنشد ارتجالاً قصيدة غرّاء طويلة منها قوله:

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته ... والبيت يعرفه والحلّ والحرم

هذا ابن خير عباد الله كلّهم ... هذا التقي النقي الطاهر العلم

هذا ابن فاطمة إن كنت تجهله[1] ... بجدّه أنبياء الله قد ختموا

فليس قولك من هذا بضائره ... العرب تعرف من أنكرت والعجم[2]

ومن كان جدّهم بهذه المزيّة، أفلا يكون أبناؤه معروفين بين البريّة.

نعم إن أراد المبتدع بأهل الحجاز بواديه وأعرابه من القبائل، فشهرة الحسنيين لديهم ظاهرة، وأمّا قبائل حضرموت واليمن والعراق، فشهرة الحسينيين عليهم وافرة.

وقول المبتدع «لا شكّ في أنّه إذا تولّىٰ فضل باشا» الخ. فهو شخص مخادع، مضرّ غير نافع، ويسعىٰ بإلقاء الفساد، وإيقاظ الفتن بين العباد، يستحقّ عليه النكال، والجزاء والوبال، كيف هذا؟ مع أنّ من أيّدته الدولة، رأيت ازدحام الناس

---

(١) في الديوان: جاهله.

(٢) ديوان الفرزدق ٢: ٢٨٩ ـ ٢٩٠.

حوله؛ إذ يعلو ويجلّ جناب السيّد المشار إليه أنّه إذا وجّه إليه حضرة مولانا السلطان بلاد ظفار وأعمالها، بالعدد والمدد أن يحصل فيها أيّ مشكل بلا سبب بين الرعايا وعمّالها. وأمّا المشكلات بالأسباب، فهي بين الدولة مفتوحة الباب، لكن كما قيل:

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذىٰ   حتّىٰ يراق علىٰ جوانبها الدم

وأفضل الناس من كثر حاسدوه، وإنّما يعرف الفضل من الناس ذووه، ونؤمّل إن شاء الله تعالىٰ حصول مطلوبه، وإجراء لازم مرغوبه.

وأمّا ما ذكره صاحب المقالة من خصوص السادة الأشراف، سلالة آل عبدمناف، فهو أمر مسلّم على الإطلاق بلا خلاف، فإنّ امارة مكّة والعرب قد خصّت بالحسنيين، وهذا الأمر لا يحتاج إلىٰ برهان ولا تبيين، من جهات عديدة يطول فيها المقال، وليس للبحث فيها مجال، وهم الحريون بقول الشاعر:

إنّ أسيافنا الطوال الدوامي   صيّرت ملكنا طويل الدوام
نحن قومٌ لنا سداد أمورٍ   واصطلام الأعداء من وسط لام
واقتسام الأموال من وقت سام   واقتحام الأهوال من وقت حام

وكما قيل:

أبى الله والخطية السمر والظبا   وكلّ كمي لا يرى الذلّ مذهبا
بأن يتولّى أمر مكّة حاكماً   سوىٰ من له سيفٌ طويلٌ له شبا

ومع هذا فالحسنيون والحسينيون قرابتهم لبعضهم معروفة، وائتلافهم علىٰ غيرهم في الحاجة مألوفة، فليس للعدوّ بينهم مجال، ولا للحاسد فيهم مقال.

ويؤيّد ذلك ما ذكره أهل التواريخ وغيرهم أنّ الناصر العبّاسي لمّا طلب الشريف قتادة سنة (٦٠٩) وسار إليه متوجّهاً إلىٰ أن وصل النجف، بلغ الخليفة

وصوله، فأخرج للقائه العلماء والأعيان وكبراء الدولة، وكان ممّا أخرجوه معهم أسداً في سلسلة، فلمّا رآه الشريف قتادة تطيّر، وقال: ما لي ولأرض تذلّ فيها الأُسود، والله لا دخلتها، ورجع من النجف ولم يدخل العراق.

فلمّا بلغ الناصر ذلك كتب إليه يعاتبه، فكتب إليه الشريف قتادة الجواب، ومن جملة قوله رحمه الله تعالىٰ:

بلادي وإن جارت عليّ عزيزة ... ولو أنّني أعرىٰ بها وأجوع

ولي كفّ ضرغامٍ إذا ما بسطتها ... بها أشتري يوم الوغا وأبيع

معوّدة لثم الملوك لظهرها ... وفي بطنها للمجدبين ربيع

أأتركها تحت الرهان وأبتغي ... بها عوضاً إنّي إذاً لرقيع

وما أنا إلاّ المسك في غير أرضكم ... أضوع وأمّا عندكم فأضيع

فلمّا وصل للناصر هذا الجواب، كتب إليه: أمّا بعد، فإذا نزع الشتاء جلبابه، ولبس الربيع أثوابه، قابلناكم بجنود لا قبل لكم بها، ولنخرجنّكم منها أذلّة وأنتم صاغرون، فلمّا أحسّ الشريف قتادة بالشرّ، كتب إلىٰ بني عمّه الحسينيين بالمدينة يستنجدهم بهم، ومن جملة كلامه قوله:

بني عمّنا من آل موسىٰ وجعفرٍ ... وآل حسينٍ كيف صبركم عنّا

بني عمّنا أنّا كأفنان دوحةٍ ... فلا تتركونا يتّخذنا الفنا فنا

إذا ما أخٌ خلّىٰ أخاه لآكلٍ ... بدىٰ بأخيه الأكل ثمّ به ثنّا

فلمّا أقبلت الجنود الناصريّة، أتته بنو حسين فكسروها وبدّدوا شملها، فلمّا رأى الخليفة شدّة بأسه، مدحه علىٰ سيرته، وأولاه صفا سريرته، وأقطعه قرىً

متعدّدة[١]. انتهىٰ باختصار.

هذا، وقد ظهر بما شرحناه ووضحناه، وسردناه وبيّناه، أنّ المبتدع في هذه المقالة مغرور، وانّ افتراه وهذيانه فحش وفجور، نشأ منه من قريحة خامدة، وطبيعة جامدة، حمله عليها انعكاس الزمان بتجرّي الجهّال، وسكوت أهل الكمال، حتّىٰ صار الجواد دون الحمار المصري، وأبوجهل يقدح في الحسن البصري.

ثمّ إنّه لا بأس بذكر شيء ممّا ورد من الآيات والأحاديث في البضعة النبويّة، والسلالة الهاشميّة، حسنيّة كانت أو حسينيّة، الدالّ علىٰ حبّهم وفضلهم، وإكرامهم، وذمّ بغضهم.

الآيات الواردة في فضل أهل البيت عليهم السلام

فمن ذلك: قوله سبحانه وتعالىٰ ﴿إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيرا﴾[٢].

وقوله تعالىٰ ﴿ليغفر لك الله ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر﴾[٣] وأيّ وسخ وقذر أقذر من الذنوب، فدخل أولاد فاطمة عليها السلام كلّهم؟.

وقوله تعالىٰ ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلاّ المودّة في القربىٰ﴾[٤].

---

(١) إتحاف فضلاء الزمن للطبري ١: ١١٥ ـ ١١٦.

(٢) سورة الأحزاب: ٣٣. راجع: إحقاق الحقّ ٢: ٥٠١ ـ ٥٦٢ وج٣: ٥١٣ ـ ٥٣١ وج٩: ١ ـ ٦٩ وج١٤: ٤٠ ـ ١٠٥ وج١٨: ٣٥٩ ـ ٣٨٣.

(٣) سورة الفتح: ٢.

(٤) سورة الشورىٰ: ٢٣. وراجع: إحقاق الحقّ ٣: ٢ ـ ٢٣ وج٩: ٩٢ ـ ١٠١ وغيرها.

وقوله تعالىٰ ﴿إنّ الله وملائكته يصلّون على النبي يا أيّها الذين آمنوا صلّوا عليه وسلّموا تسليما﴾ [١] لمّا سئلت الصحابة عن كيفيّة الصلاة؟ فأجابهم عليه الصلاة والسلام بقوله: قولوا اللّهمّ صلّ علىٰ محمّد وعلىٰ آل محمّد [٢].

وقوله تعالىٰ ﴿وقفوهم انّهم مسؤولون﴾ [٣] قال الواحدي: أي عن ولاية أهل البيت عليهم السلام [٤].

وقوله تعالىٰ ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً﴾ [٥] قال سيّدنا جعفر الصادق عليه السلام: نحن حبل الله [٦].

وقوله تعالىٰ ﴿سلام علىٰ إل ياسين﴾ [٧] قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: المراد بهم آل محمّد عليهم السلام [٨].

وقوله تعالىٰ ﴿أم يحسدون الناس علىٰ ما آتاهم الله من فضله﴾ [٩] إنّهم عليهم السلام هم الناس [١٠]. وغير ذلك.

---

(١) سورة الأحزاب: ٥٦.

(٢) راجع: إحقاق الحقّ ٣: ٢٥٢ ـ ٢٧٤ وج ٩: ٥٢٤ ـ ٦٠٥.

(٣) سورة الصافّات: ٢٤.

(٤) راجع: إحقاق الحقّ ٣: ١٠٤ وج ١٤: ١٨٢ ـ ١٨٥.

(٥) سورة آل عمران: ١٠٣

(٦) راجع: إحقاق الحقّ ٣: ٥٣٩ و ١٤: ٣٨٤ ـ ٣٨٦ و ٥٢١ ـ ٥٣٢.

(٧) سورة الصافّات: ١٣٠.

(٨) راجع: إحقاق الحقّ ٣: ٤٤٩ وج ٩: ١٢٧ ـ ١٢٩ و ١٤: ٣٦٠ ـ ٣٦٢.

(٩) سورة النساء: ٥٤.

(١٠) راجع: إحقاق الحقّ ٣: ٤٢٤ وج ١٤: ٣٤٨ و ٣٥٠.

الأحاديث الواردة في فضل أهل البيت عليهم السلام

وأمّا الأحاديث، فكثيرة، فمن ذلك: قوله صلى الله عليه وآله: إنّ كلّ سبب ونسب منقطع يوم القيامة إلاّ من كان من سببي ونسبي[١].

وقوله صلى الله عليه وآله: ما بال أقوام يزعمون أنّ قرابتي لا تنفع، إنّ كلّ سبب ونسب منقطع يوم القيامة إلاّ سببي ونسبي، وإنّ رحمي موصولة في الدنيا والآخرة[٢].

ولهذا الحديث تزوّج عمر بن الخطّاب أُمّ كلثوم، كما هو مشهور ومعلوم[٣].

وقال صلى الله عليه وآله: ما بال أقوام يؤذونني في نسبي وذوي رحمي، ألا ومن آذىٰ نسبي وذا رحمي فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، قال الله تعالىٰ: ﴿إنّ الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة﴾[٤] الآية[٥].

وقال صلى الله عليه وآله: ما بال أقوام يزعمون أنّ رحمي لا تنفع، بل تنفع حتّىٰ تبلغ حاوحكم، إنّي لأشفع فأُشفَّع، حتّىٰ انّ ابليس ليتطاول طمعاً في الشفاعة، وحاوحكم هما حيّان من اليمن[٦].

وقال صلى الله عليه وآله: ما بال أقوام يؤذونني في قرابتي، من آذىٰ قرابتي فقد آذاني، ومن

---

(١) الإشراف في فضل الأشراف للسمهودي ص ١٤٥.

(٢) الإشراف في فضل الأشراف للسمهودي ص ١٤٥، وذخائر العقبىٰ ص ٦.

(٣) الإشراف في فضل الأشراف للسمهودي ص ١٤٢ ـ ١٤٣.

(٤) سورة الأحزاب: ٥٧.

(٥) راجع: إحقاق الحقّ ٣: ٥٦٧.

(٦) الإشراف في فضل الأشراف للسمهودي ص ١٤٢.

آذاني فقد آذى الله[١].

وقال صلى الله عليه وآله: حبّ آل محمّد خير من عبادة سنة، ومن مات عليه دخل الجنّة[٢].

وقال صلى الله عليه وآله: لا يبغضنا أهل البيت أحد إلاّ أدخله الله النار[٣].

وقال صلى الله عليه وآله: أيّها الناس إنّما أنا بشر مثلكم، يوشك أن يأتيني رسول ربّي فأُجيبه، وإنّي تارك فيكم الثقلين: أوّلهما كتاب الله عزّوجلّ فيه الهدىٰ والنور، فتمسّكوا بكتاب الله وخذوا به، فحثّ فيه ورغّب، ثمّ قال: وأهل بيتي، أُذكّركم الله عزّوجلّ في أهل بيتي، ثلاث مرّات[٤].

وقوله صلى الله عليه وآله: أيّها الناس إنّ الفضل والشرف والمنزلة والولاية لرسول الله صلى الله عليه وآله وذرّيته، فلا تذهبنّ بكم الأباطيل[٥].

وغير ذلك ممّا ورد في توقيرهم وصلتهم[٦]، لاسيّما إذا كانوا مقتفين سنن جدّهم بالاتّباع، ومقتدين بشريعته الطاهرة في كلّ البقاع، فإنّهم أهل بيت أسّس الله قواعده على التقوىٰ، وجعل أهله بدور السعادة في السرّ والنجوىٰ، كما قيل:

ذرّيةٌ مثل ماء المزن قد طهروا وطهّروا فصفت أوصاف ذاتهم

---

(١) راجع: إحقاق الحقّ ١٨: ٥٠١ و ٥٤٣.

(٢) راجع: إحقاق الحقّ ٩: ٤٩٧ ـ ٤٩٨ و ١٨: ٤٨٣ و ٤٨٦.

(٣) راجع: إحقاق الحقّ ١٨: ٥٤٥.

(٤) راجع: إحقاق الحقّ ٤: ٤٣٦ ـ ٤٤٣ و ج ٩: ٣٠٩ ـ ٣٧٥.

(٥) راجع: إحقاق الحقّ ١١: ٢٨٢ ـ ٢٨٣.

(٦) راجع فضائلهم ومناقبهم المرويّة عن طريق العامّة إلىٰ كتاب إحقاق الحقّ وملحقاتها للقاضي الشهيد التستري والسيّد المرعشي النجفي، وكتاب الإشراف علىٰ فضل الأشراف للسمهودي.

قد حقّقت سورة الأحزاب ما جحدت أعــداؤهـم وأبـانت وجـه فـضلهم
كـفاهم مـا بـعمٍّ والضحىٰ شرفاً والنـور والنـجم من آي أتت بـهم
سل الحواميم هل في غـيرهم نـزلت وهـل أتـىٰ هـل أتـىٰ إلّا بـمدحهم
كأنّ مـن نـفس الرحمٰن أنـفسهم مـخلوقةٌ فـهو مـطوي بـنشرهم
تـنسّكوا وهـم أسـدٌ مـظفّرة فاعجب لنسكٍ وفـتك فـي طـباعهم

وقال الآخر:

أُلئك الناس إن عدّوا وإن ذكروا ومن سواهم فـلغوٌ غـير مـعدود
لو خـلّد الدهـر ذي عـزٍّ لعـزّته كـانوا أحـقّ بـتعميرٍ وتـخليد

وقال الشافعي:

يا أهـل بيت رسـول الله حـبّكم فرضٌ من الله فـي القـرآن أنـزله
كفاكـم مـن عـظيم القـدر أنّكـم من لم يصلّ عليكم لا صلاة له(١)

وقال آخر:

آل بيت النبي طـبتم وطـاب المدح لي فيكم وحقّ الثـناء
سدتم الناس بالتقىٰ وسواكم سـوّدته البـيضاء والصـفراء

وقال آخر:

يا بني الزهراء والنور الذي ظنّ موسىٰ أنّـه نـارٌ قـبس
لا يوالي الدهر من عاداكم انّه أخطر سطرٍ فـي عـبس

وقوله:

ألا يا محبّ المصطفىٰ زِدْ صبابة وضمخ لسان الذكر مـنك بـطيبه

---

(١) ديوان الشافعي ص ٥٣.

ولا تـعبأن بـالمبطلين فـإنّما   عـلامة حبّ الله حبّ حـبيبه

هذا، ولو أراد أحد أن يحصر فضائلهم ومزاياهم في مسطور، بما يبهر العقول ويملأ السطور، لملأ من ذلك أسفاراً، ومـا يـدرك مـنها مـعشاراً، وقـد سـارت بكراماتهم الركبان، وعمّ نفع دعواتهم الصالحة جميع البلدان، فهم شموس أفلاك الوقت والأوان، وبدور منازل الأزمان، الحريّون بقول القائل:

هم الصائمون هم القائمون   هـم العـالمون بآدابـها
هم الزاهدون هم العـابدون   هم السـاجدون لمـحرابـها
هم قطب مـلّة ديـن الإلـه   ودور الرحـاة بأقـطابها

هذا.

فائدة

يحتاج إليها الأديب، ولا يستغني عنها الحاذق اللبيب، في الشريف والسيّد.

إعلم أنّ اسم الشريف كان يطلق في الصدر الأوّل علىٰ كلّ من كان من أهـل البيت، سواء كان حسنيّاً، أو حسينيّاً، أو علوياً، أو جعفرياً، أو عقيلياً، أو عبّاسياً، ولهذا تجد تاريخ الحافظ الذهبي مشحوناً في التراجـم بـذلك، بـقوله: الشـريف العبّاسي، الشريف العقيلي، الشريف الجعفري، الشريف الزينبي.

فلمّا ولي الخلفاء الفاطميون بمصر، قصّروا اسم الشريف علىٰ ذرّيـة الحسـن والحسين عليهما السـلام فـقط، فـاستمرّ ذلك بـمصر إلى الآن. إلىٰ آخـر كـلام السيوطي[1].

وقال الحافظ ابن حجر في كتاب الألقاب: الشريف ببغداد لقب كلّ عـبّاسي،

---

(١) العجاجة الزرنبية في السلالة الزينبية المطبوع في الحاوي للفتاوي ٢: ٣١ ـ ٣٢.

وبمصر لقب لكلّ علوي الخ (١).

وقال الشيخ ابن حجر في التحفة في باب الوصايا: والشريف المنتسب من جهة الأب إلى الحسن والحسين؛ لأنّ الشرف وإن عمّ كلّ شريف إلا أنّه اختصّ بأولاد فاطمة عليها السلام عرفاً مطّرداً عند الاطلاق. ومثله السيّد هو في الأصل من يفوق أقرانه وخصّه العرف بأولاد الحسين عليه السلام في جميع الجهات الاسلاميّة من غير نكير (٢).

والحمد لله على التمام في المبدىء والختام، وصلّى الله علىٰ سيّدنا محمّد وعلىٰ آله وصحبه وذرّيته وأهل بيته وعترته وسلّم. تمّ في ٤ رجب سنة (١٢٩٨).

وتمّ استنساخ هذه الرسالة تصحيحاً وتحقيقاً وتعليقاً عليها في يوم العشرين من محرّم الحرام سنة (١٤٣١) علىٰ يد العبد الفقير السيّد مهدي الرجائي في بلدة قم المقدّسة حرم أهل البيت وعشّ آل محمّد عليهم السلام.

---

(١) العجاجة الزرنبية عنه ٢: ٣١ ـ ٣٢.

(٢) راجع: إسعاف الراغبين ص ٤٧، والشرف المؤبّد ص ٤٠.

فهرس مواضيع الجزء الثاني

فهرس الأعلام المترجمة

